المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية



الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين

"دراسة تاريخية حضارية"

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية

إعداد الطالب

مشعل نايف عايض الدهاس

الرقم الجامعي/ ٤٢٦٨٨١٢٤

إشراف الأستاذ الدكتور

فواز بن علي بن جنيدب الدهاس

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الحمد رب العالمين والصلاة والسلام على من لا نبي بعده ، أما بعد:

تتجلى أهمية هذا الموضوع أنه يتناول الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين ، حيث تهفو أفئدة المسلمين إلى هذا الإقليم ،حيث الكعبة المشرفة في مكة ومثوى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة ، فيجب على الباحثين دراسة هذاالإقليم دراسة وافية خاصة أن هذه الفترة وماصاحبها من صراع وتنافس بين الخلافتين العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية حول إقليم الحجاز كانت فترة جديرة بالدراسة .

فقد تناولت هذا البحث والذي كان عنوانه " الحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين " دراسة تاريخية وحضارية .

وقد قسمت بحثي إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة بالإضافة إلى قائمة المصادر والمراجع والفهرس،فكانت المقدمة عن أهمية الحجاز لدى الرحالة المشارقة أما التمهيد عبارة عن مبحثين ، الأول عن أهمية الرحلات الجغرافية كمصدر من مصادر التاريخ الإسلامي ، والمبحث الثاني عن أهمية الحجاز بالنسبة لشبه الجزيرة العربية . والفصل الأول عبارة عن التعريف بالرحالة المشارقة ومنهجهم في الرصد التاريخي ، والفصل الثاني كان عن الأحوال السياسية من خلال ما كتبه الرحالة المشارقة من أوضاع داخلية وخارجية وعن دور مكة القيادي ، أما الفصل الثالث فكان عن أهم المظاهر الحضارية في هذا الإقليم حيث قسم إلى ثلاثة مباحث ، الأول عن الجانب العملي والثاني عن الجانب الاقتصادي والثالث عن الجانب الاجتماعي . أما الفصل الرابع فكان عن أهم النواحي العمرانية في الحجاز من خلال ما ذكره الرحالة ،وهو مقسم إلى أربعة مباحث ، الأول عن العمارة الدينية ، والمبحث الثاني عن العمارة العسكرية والمبحث الثالث عن العمارة المدنية والمبحث الرابع عن الطرق والمسالك في الحجاز .

ثم خاتمة حيث توصل البحث فيها إلى نتائج كان من أهمها ؛ أن كتب الرحالة المشارقة يسرت الوصول إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي أتاحت تغطية مساحات من تاريخ الحجاز الذي غفل عنه المؤرخون خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ،أيظاً سجل الرحالة المشارقة معلومات دقيقة عن إقليم الحجاز من حيث : الموقع والجبال المحيطة به وكذالك صفات السكان وعاداتهم والإحتفالات التي تقام في هذا الإقليم.

الطالب	المشرف	عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مشعل نايف الدهاس	أ. د.فواز بن علي الدهاس	د. سعود بن إبراهيم الشريم

إهداء

- **إلى والدي ووالدتي... أقول لهما بكل خضوع هذا ثمار ما زرعتما وأمد الله في عمريهما على طاعته.**
- **إلى أخوتي وأخواتي...**
- **إلى من شاطرني الوقت وهيأ لي سبل راحتي من أجل العلم وكان لي خير عون بعد الله ... زوجتي الغالية.**
- **إلى أبنائي نايف والعنود وحور أهدي هذا الجهد المتواضع.**

الباحث...



المقـــدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين أما بعد ...

شكل الحجاز أهمية خاصة لدىٰ الرحالة المشارقة "الجغرافيين" حيث حظي بنصيب وافر من دراستهم لهذا الإقليم لاسيما وأنه يضم الحرمين الشريفين فأسهبوا في ذكر الطرق والمسالك والمحطات التي تنتشر علىٰ طول الطرق المؤدية إليه من الشام والعراق واليمن وشمال إفريقيا واحتل وصف المدينتين المقدستين جزءاً لا بأس به من حديثهم عن الحجاز بصفة عامة وكذلك الإشارة إلىٰ الموانئ البحرية المؤدية إليه وكل ما يتعلق بالحياة الحضارية من علمية واقتصادية واجتماعية نالت نصيباً وافراً من كتابة هؤلاء الجغرافيين، ومما يعطي هذه المعلومات الجغرافية أهمية خاصة في كتب الجغرافيا الإسلامية أنها اقترنت المادة العلمية بالمشاهدة الشخصية والوصفية ولا ينكر ذا بصيرة الارتباط الوثيق بين الجغرافيا والتاريخ منذ بدء اهتمام المسلمين بتدوين تاريخهم فاهتموا بعلم تقويم البلدان (الجغرافيا) فألفوا فيها المصنفات المختلفة، ولعل من أهم الأسباب التي دفعت المسلمين للعناية بعلم تقويم البلدان هو حرصهم الشديد علىٰ معرفة البلاد التي تم فتحها زمن الخلفاء الراشدين والأمويين وذلك بغية تنظيم الشؤون المالية في أصقاع الدولة الإسلامية وكل ما يتعلق بالجزية والخراج، كما أن حاجتهم إلىٰ معرفة الطرق والمسالك التي تفضي إلىٰ أرض الحجاز حيث الحرمين الشريفين وذلك للقيام بفريضة الحج وزيارة المسجد النبوي إلىٰ جانب عناية المسلمين بالتجارة.

إن هذه الرحلات الجغرافية والتي نقصدها في هذا البحث تختلف عن الرحلات ذات الطابع الأدبي المحض والتي دعت إليها بواعث مختلفة: علمية وسياسية وسياحية صرفة، بز فيها الرحالة المغاربة والأندلسيون غيرهم ممن طرقوا هذا الجانب من الرحلات؛ ذلك أن الرحلات الجغرافية قام بها جغرافيون خلص بهدف معاينة وتطبيق ما نقلوه أو جمعوه من مادة جغرافية من مؤلفات سابقة أو لعلها تبدت لهم خلال تنقلاتهم، أما الرحلات المحضة أو البحتة فهي كما هي في الرحلات المغربية والأندلسية أمثال ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما التي يقدم فيها الرحالة في وصفه لرحلته معلومات جغرافية عرضاً وليس قصداً وهي بهذا المفهوم تشكل فرعاً من فروع الأدب لا فرعاً من فروع الجغرافيا رغم المادة الجغرافية التي وردت في أخبار رحلته.

أي أننا يمكن أن نقول بأن الرحالة قد يكون جغرافياً ومع ذلك يقدم مادة جغرافية تضع نتاجه في مادة الجغرافية الوصفية أو الأدبية، وعلىٰ ذلك نستطيع أن نقرر بأنه ليس كل جغرافي رحالة بالضرورة غير أن الجغرافي إذا قام برحلته الجغرافية فإنه معني بالطبع باستنفار حاسته الجغرافية فيما يسمعه وفيما يراه، وفيما ينقله انطلاقاً من واجبه بوصفه جغرافياً هذا من جانب وتطبيقاً لما قطعه علىٰ نفسه من تحديد لمعالم رحلته أو رحلاته الجغرافية في مقدمة مؤلفه وثناياه من جانب آخر.

فكانت دراستي لهذا الجانب الذي أجزم أنها تشكل أهمية في القيمة المعرفية للمصادر التاريخية التي يجب الالتفات إليها والاستفادة منها، فكان اختيار الرحالة المشارقة (الجغرافيين) في القرنين الثالث والرابع الهجريين نموذج لأهمية المصادر الجغرافية باعتبارها رافداً مهماً من روافد التاريخ الإسلامي.

وكذلك أهمية هذا الإقليم الذي يُعد من الأقاليم المهمة التي حرص خلفاء الإسلام الأوائل في السيطرة عليه ليكون تابعاً لهم نظراً لقداسته فيعتبر مركزاً للدعوة الإسلامية منه انطلقت الجيوش الإسلامية إلىٰ البلدان في العهد الراشد، وجاء العصر الأموي ليصبح ولاية من ولايات الدولة الإسلامية، وكذلك العصر العباسي، إلا أن الشيء الذي لا يمكن تجاهله أن المكانة الدينية لهذا الإقليم بقيت ومازالت وستبقىٰ بإذن الله في نفوس المسلمين من مختلف الأقطار الإسلامية في شد الرحال إليه.

وقد قسمت بحثي إلىٰ تمهيد وأربعة فصول وخاتمة علىٰ النحو الآتي:

التمهيد: وتضمن دراسة لأهمية الرحلات الجغرافية كمصدر من مصادر التاريخ الإسلامي.

وكذلك موقع الحجاز وأهميته بالنسبة لشبه الجزيرة العربية والذي كان غير واضح في التكوين الجغرافي حيث لم يكن خالياً من التعقيد لاسيما في مجال الإطار العام للإقليم الذي بقي مضطرباً ومتداخلاً مع غيره.

الفصل الأول: خصص للتعريف بالرحالة المشارقة في القرنين الثالث والرابع الهجريين في ذكر حياتهم ومصنفاتهم ومنهجهم في الرصد التاريخي.

والفصل الثاني: فقد تناول الأحوال السياسية في الحجاز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين من خلال ما كتبه الرحالة المشارقة عن الحجاز من أوضاع داخلية أو علاقات خارجية المتمثلة في أثر الصراع السياسي حول الحجاز وتنافس الدول في السيطرة عليه، وكذلك الدور القيادي للحجاز المتمثل في أمراء الحج.

والفصل الثالث: الذي تناول الجوانب الحضارية في الحجاز، وينقسم إلىٰ ثلاثة مباحث، كان **المبحث الأول** عن الجانب العلمي المتمثل في مراكز العلم وأبرز كبار العلماء ودورهم في النشاط العلمي للحجاز، وكذلك أشهر العلوم وأهم الكتب التي ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.

أما **المبحث الثاني** فكان عن الجانب الاقتصادي للحجاز المتمثل في الزراعة والمحصولات الزراعية والوسائل المستخدمة في الري، وكذلك التجارة التي كانت علىٰ نطاق واسع في إقليم الحجاز والمتمثلة في الموانئ الممتدة علىٰ طول الساحل التي يجلب إليها البضائع، كذلك الصناعات المنتشرة في الحجاز وأهم الحرف الموجودة في هذا الإقليم، وكذلك المعاملات المالية وأهم العملات التي كانت متداولة في إقليم الحجاز.

أما **المبحث الثالث** والذي تناول الجانب الاجتماعي المتمثل في عناصر السكان وأهم طبقات المجتمع الحجازي، كذلك أهم مظاهر الحياة العامة في الحجاز من أعياد واحتفالات وملبس ومأكل ومشرب، وتطرقت بعد ذلك إلىٰ الكوارث والأوبـة التي أحلت ببلاد الحجاز في هذه الفترة.

والفصل الرابـع: الذي كان عن النواحي العمرانية للحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة، حيث احتوىٰ علىٰ أربعة مباحث، فقد احتوىٰ **المبحث الأول** علىٰ العمارة الدينية والتي حفلت كتب الرحالة علىٰ معلومات وافرة عن أهم مسجدين المسجد الحرام والمسجد النبوي، وكذلك عن أهم المساجد في بلاد الحجاز حيث جاءت أغلب هذه المعلومات مركزة علىٰ جوانب عمرانية وإنشائية.

أما **المبحث الثاني** فقد احتوىٰ علىٰ العمارة العسكرية والتي تميز بها إقليم الحجاز حيث ضمت مجموعة من المنشآت الدفاعية، مثل القلاع والأبراج والحصون.

واحتوىٰ **المبحث الثالث** علىٰ العمارة المدنية حيث ذكر الرحالة معلومات عن المساكن والأبنية التي يمتلكها الخلفاء والأمراء أو عامة الناس.

واحتوىٰ **المبحث الرابع** علىٰ الطرق والمسالك، فقد ذكر الرحالة المشارقة في مؤلفاتهم أهم الطرق بين الحجاز والمدن الإسلامية وخاصة الطرق التي تؤدي إلىٰ المشاعر المقدسة.

ثم أنهيت هذا البحث بخاتمة شملت ما توصلت إليه من نتائج من خلال دراستي لهذا الموضوع ثم تلا ذلك تثبيت المصادر والمراجع والفهرس.

وقد استعنت بالله في إعداد هذا البحث ثم بالعديد من المصادر والمراجع المتعلقة بالموضوع واستفدت كثيراً حتىٰ خرجت بحصيلة علمية تاريخية ضخمة .

دراسة لأهم المصـــادر:

١- كتاب (أخبار مكة شرفها الله تعالىٰ، وما جاء فيها من الآثار) لمحمد بن عبدالله محمد بن أحمد الأزرقي الغساني، أبو الوليد، مؤرخ، جغرافي، ولد في مكة المكرمة ولا يعرف عن حياته إلا القليل، جاءت شهرته من كتابه، وهو من أوثق المصادر التاريخية عن مكة وأقدمها، وهو مقسم إلىٰ فصول وأبواب، غير أن خلوه من ذكر ولاة مكة المكرمة وما وقع فيها من الحوادث السياسية والاجتماعية لا ينقص من أهميته، توفىٰ الأزرقي نحو ٢٥٠هـ.

٢- كتاب (أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه) للإمام أبي عبدالله محمد بن إسحاق الفاكهي، ولد ما بين سنة ٢١٥ – ٢٢٠هـ، حيث استفدت من هذا الكتاب في الفصل الرابع من هذا البحث في العمارة الدينية، وخاصة عمارة المسجد الحرام والزيادات التي أدخلت عليه حتىٰ حياة الفاكهي التي كانت وفاته ما بين ٢٧٢ – ٢٧٩هـ.

٣- كتاب (المناسك وأماكن طرق الحج) لأبي إسحاق الحربي ت٢٨٠هـ، الذي يعتبر أهم مصدر للطرق والمسالك في الحجاز، كذلك سعة معلوماته في التعريف بطريق الحاج العراقي والشامي والمصري.

٤- كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموي المتوفىٰ سنة ٦٢٦هـ، حيث يعتبر هذا المصدر من أهم المصادر التي تحدثت عن الأماكن وتعريفها، وهو مرتب علىٰ حروف المعجم، وقد أفادني في التعريف بمعظم المواقع في إقليم الحجاز.

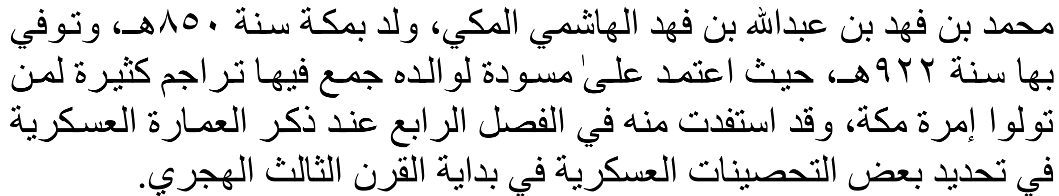
٥- كتاب (سير أعلام النبلاء) للإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفىٰ سنة ٧٤٨هـ، وهو من أسرة تركمانية الأصل، حيث ولد في دمشق سنة ٦٧٣هـ، وقد استفدت من هذا الكتاب في تراجم بعض الشخصيات من الأمراء والعلماء وغيرهم.

٦- كتاب (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) للشيخ تقي الدين الفاسي المتوفىٰ سنة ٨٣٢هـ حيث يعتبر من أهم المصادر التاريخية لمكة المكرمة في الجانب السياسي والاقتصادي، حيث تناول أحياء مكة المكرمة مثل (شعب علي الذي حدث فيها الحصار) منذ عهد الرسول ﷺ حتىٰ عصره ثم أعقب ذلك بتراجم لأهم الشخصيات من الأمراء والعلماء والقضاة.

٧- كتاب (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) أيضاً هو للشيخ تقي الدين الفاسي، حيث ذكر فيه أمراء مكة المكرمة منذ زمن الرسول صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ النصف الأول من القرن التاسع الهجري، وقد استفدت منه في الفصل الثاني عند ذكر الأحداث التي جرت خلال موسم الحج في القرنين الثالث والرابع الهجريين.

٨- كتاب (إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ) لنجم الدين عمر بن محمد بن فهد، المتوفىٰ سنة ٨٨٥هـ، وهو مصدر مهم لتاريخ مكة، حيث قام المؤلف بترتيبه ترتيباً زمنياً بحسب السنوات منذ مولد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وحتىٰ عصره.

٩- كتاب (غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام) لعز الدين عبدالعزيز بن عمر بن



محمد بن فهد بن عبدالله بن فهد الهاشمي المكي، ولد بمكة سنة ٨٥٠هـ، وتوفي بها سنة ٩٢٢هـ، حيث اعتمد علىٰ مسودة لوالده جمع فيها تراجم كثيرة لمن تولوا إمرة مكة، وقد استفدت منه في الفصل الرابع عند ذكر العمارة العسكرية في تحديد بعض التحصينات العسكرية في بداية القرن الثالث الهجري.

١٠- كتاب (التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة) لشمس الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالرحمن السخاوي، ولد بالقاهرة سنة ٨٣١هـ، وكان يتحدث عن تراجم أهل المدينة النبوية ومن قطنها من الغرباء من السنة الأولى من من القرن الأول إلىٰ عصره، وقد استفدت منه في الفصل الثاني في الدور الاقتصادي للحجاز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، توفي سنة ٩٠٢هـ في المدينة المنورة.

١١- كتاب (وفاء الوفا بأخبار المصطفىٰ) للإمام نور الدين علي بن أحمد السمهودي المتوفىٰ سنة ٩١١هـ ويعتبر كتابه من أهم المصادر المدنية حيث احتوىٰ علىٰ الكثير من المعلومات التي تتعلق بالمدينة في الفصل الرابع خاصة في العمارة الدينية.

١٢- كتاب (الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة) لعبدالقادر بن محمد الجزيري المتوفىٰ بعد ٩٧٦هـ، حيث انفرد هذا الكتاب بذكر إمارة الحج منذ عهد النبي صلىٰ الله عليه وسلم وحتىٰ العصر العثماني، وقد أفادني في الدور القيادي للحجاز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.

شكر وتقدير

أحمد الله الذي أعانني علىٰ إتمام هذا العمل المتواضع الذي منه نستمد العون والتوفيق، وبعد ...

فانطلاقاً من مبادئ ديننا الكريم وامتثالاً لقوله تعالىٰ: (ﭬ ﭭ ﭮ) [سورة إبراهيم: ٧].

أتقدم بالشكر والتقدير والعرفان إلىٰ أستاذي الدكتور فواز بن علي بن جنيدب الدهاسي، الذي اعترف له بكل الفضل في الإشراف علىٰ إعداد هذه الرسالة.

لقد أعطاني كما أعطىٰ أجيالاً من الباحثين والدارسين نموذجاً رائداً يجمع بين شموخ المعرفة وتواضع العالم، ويرتفع بتلك الصلة العلمية المقدسة بين الأستاذ والطالب إلىٰ أسمىٰ درجاتها من التقدير والاحترام.

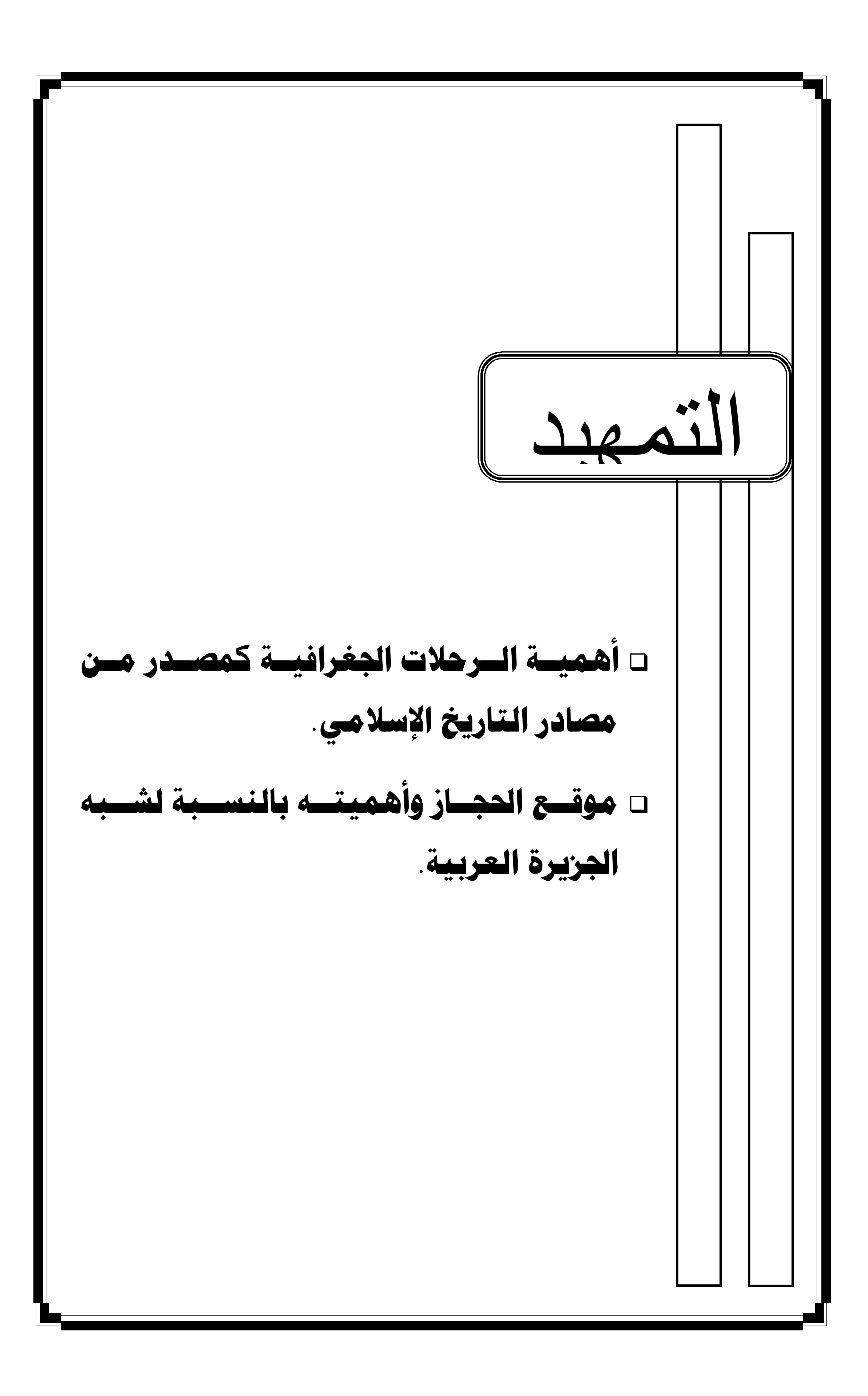
ولعل غاية ما آمل فيه حين أتقدم بهذه الدراسة أن يكون بحثي ومضة من فكره، وأن يرتفع جهدي إلىٰ مستوىٰ فضله.

كما لا يفوتني أن أقدم شكري إلىٰ جامعة أم القرىٰ التي هيأت لي أسباب النجاح لمواصلة دراستي العليا.

كما أتقدم بخالص الشكر إلىٰ عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،كذلك أتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان للأستاذ الدكتور عبدالله بن سعيد الغامدي، والشكر موصول لرئيس قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية الدكتور عبدالله بن حسين الشنبري، ولأساتذتي الفضلاء بقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ولزملائي.

وأخيراً فإنه لا يسعني إلا أن أشكر كل من مد لي يد العون والمساعدة لإنجاز هذا البحث. والله ولي التوفيق،،،

الباحث ...



التمهيد

- أهمية الرحلات الجغرافية كمصدر من مصادر التاريخ الإسلامي.
- موقع الحجاز وأهميته بالنسبة لشبه الجزيرة العربية.

أهمية الرحلات الجغرافية كمصدر من مصادر التاريخ الإسلامي:

التاريخ والجغرافية عند العرب فرعان متقاربان من فروع شجرة المعارف العامة المعروفة بـ (الأدب). ولذا فإن عدداً من الرواد كانوا مؤرخين وجغرافيين في الوقت نفسه[1]، مثل "هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتوفىٰ سنة ٢٠٤هـ" واليعقوبي المتوفىٰ سنة ٢٨٤هـ.

وقد شهد القرن الرابع الهجري وهو قرن ازدهار الحضارة الإسلامية اهتماماً واسع النطاق بالمصنفات الجغرافية التي عرفت بكتب (البلدان) [2].

حيث كان المسلمون يرحلون إلىٰ الأنحاء المختلفة في العالم الإسلامي يطلبون العلم ويجمعون الحديث أو يدونون الأدب ومفردات اللغة من عرب البوادي أو يقومون بالوظائف الدينية والإدارية المختلفة من قبل الخليفة أو الأمير. كذلك اعتنى المسلمون بعلم تقويم البلدان عناية خاصة لحاجتهم إلىٰ معرفة الطرق المؤدية إلىٰ مكة المكرمة والمدينة المنورة للقيام بفريضة الحج والعمرة وزيارة المسجد النبوي. وهذا بالإضافة إلىٰ عناية العرب بالتجارة ونحن نعرف أن العرب كانت لهم منذ العصور القديمة تجارة واسعة بين الشرق والغرب وقد اشتهرت اليمن بوجه خاص في ميدان التجارة. كما كان أهل الحجاز من أشهر تجار العرب، وكذلك حاجة المزارعين إلى معرفة أوقات الزراعة والنجوم والكواكب والطقس[3].

وكان كتاب بطليموس الجغرافي هو الأساس الذي نسج علىٰ منواله العرب حين بدءوا في نقل الجغرافية اليونانية إلىٰ لغتهم. ولم يكتف العرب بالنقل وإنما توسعوا في هذا العلم وأخذوا يتجولون في أنحاء البلاد المختلفة واستطاعوا بذلك أن يصححوا كثيراً من أخطاء اليونانيين[4].

وأن المصنفات التي دونها الجغرافيون المسلمون عن رحلاتهم لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا في العصر العباسي الثاني وعلىٰ وجه التحديد في أوائل القرن الثالث الهجري. علىٰ أن تلك المصنفات عنيت في المرتبة الأولىٰ بوصف أجزاء وأقاليم الدولة الإسلامية وما يجاورها والتي تحدثوا عنها في مؤلفاتهم التي عرفت باسم تقويم البلدان[5].

---

(١) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الطبعة الثانية، ص١.

(٢) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب، مجلة المؤرخ العربي، العدد (٧) المجلد الأول، مارس ١٩٩٩م، ص٢٠٣.

(٣) سيده إسماعيل كاشف: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٤١.

(٤) نفس المرجع السابق: ص ٤١-٤٢.

(٥) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ص٥٣.

ومن ثم فإننا نستطيع القول بأن مؤلفات غالبية الجغرافيين المسلمين الأوائل إنما هي نتاج الرحلات التي قاموا بها والتي اصطلح علىٰ تسميتها باسم (تقويم البلدان) فلا نكاد نجد مصنفاً يحمل اسم الرحلة اللهم إلا إذا كان صاحبها قد قام برحلته تلك في مهمة رسمية أو أحد التجار الرحالة الذين لا يلمون إلماماً كافياً بالعلوم الجغرافية[1].

وأتيح للمسلمين في العصور الوسطىٰ أن يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية. وأفادت أوربا مما كان عند المسلمين من علم بأجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطىٰ. والحق أن ازدهار الحضارة الإسلامية وسيادة المسلمين في البر والبحر وطبيعة الدين الإسلامي كل ذلك كان من شأنه أن يشجع علىٰ الأسفار والرحلات. فالجزء الأكبر من العالم المعروف في بحر الإسلام كانت تزدهر فيه مدينة الإسلام وتدير دفته حكومة إسلامية. ثم فقدت الإمبراطورية الإسلامية وحدتها السياسية منذ منتصف القرن الثاني الهجري ولكن روابط الدين واللغة والثقافة ظلت تجمع بين سكان الدول الإسلامية فكانوا يشعرون بأنهم أبناء إمبراطورية إسلامية بعيدة الأطراف[2].

وهكذا نرىٰ أن المسلمين في العصور الوسطىٰ أتيح لهم القيام بكثير من الرحلات والأسفار والحق أن ما كتبه المؤلفون المسلمون فيما بين القرنين الثالث والتاسع بعد الهجرة عن الرحلات كثيرٌ جداً ولكن المعروف أن الرحالة لم يكتبوا أخبار رحلاتهم في مؤلفات قائمة بذاتها إلا نادراً. أما معظمهم فقد أدمجوا حديث تلك الرحلات فيما ألفوه من كتب التاريخ أو تقويم البلدان[3].

ولقد ارتبطت الرحلة بكثير من أعمال التراث الغربي في جوانبه المتعددة ففي مجال الكشف الجغرافي ووصف الأقاليم مثلاً لعبت الرحلة دوراً كبيراً فيما تضمنته تلك الأعمال من معرفة وبيان أضحيا الآن تراثاً تفخر به الأمة العربية والإسلامية ويشيد بقيمته الدارسون والباحثون. وتأكيداً لدور الرحلة في التراث الجغرافي للعرب والمسلمين فإن (عبد الله بن أحمد المقدسي المتوفى سنة ٣٨٠هـ) صاحب كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم هو أحد أقطاب التراث الجغرافي العربي في القرن الرابع الهجري الذي يؤكد لنا أهمية رحلاته في أنحاء العالم الإسلامي من أجل المعاينة وجمع المادة العلمية التي سجلها في كتابه [4].

وإذا انتقلنا إلىٰ ذلك الصنف من التراث الذي يتصل بالتاريخ العربي الإسلامي نجد أيضاً أن دور الرحالة لا يقل أهمية عن إسهامهم الكبير في إثراء المعرفة الجغرافية وتأصيلها. إن أسماء الأعلام وعناوين الأعمال الكبيرة لسنا هنا بصدد

---

(١) نفس المرجع السابق: ص٥٣.

(٢) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، دار المعارف بمصر، ١٩٤٥م، ص٦.

(٣) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص٦.

(٤) حسين محمد فهيم: أدب الرحلات (دراسة تحليلية من منظور انثوجرافي)، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت (١٣٨) شوال ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٩٥.

حصرها ومع ذلك يمكننا أن نشير علىٰ سبيل المثال إلىٰ صاحب مؤلف "مروج الذهب ومعادن الجوهر" أبي الحسن علي المسعودي ٣٤٦هـ. فرحلات المسعودي هي رحلات علمية ابتغاها الرحالة ليدعم بها دراساته في التاريخ والجغرافيا(١).

لقد كانت الرحلة إذاً عوناً كبيراً للمؤرخ الجغرافي علىٰ حد سواء وتأتي أهميتها في صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع. هذا علاوة علىٰ ما وسعته الرحلة من أفق ومدارك كل من الجغرافي والمؤرخ بسبب اتساع دائرة اتصالها بالبلدان والأقوام وحوارها مع العلماء وأصحاب المعرفة بأحوال البشر وتقلبات الأحوال في الزمان والمكان. إلا أن أمر الرحلة وأهميتها لم يقتصر علىٰ الجانبين الجغرافي والتاريخي من أعمال التراث العربي، فقد كان للرحلة أيضاً شأن في مجال الأدب والفلسفة(٢).

واحتاج الناس قديماً إلىٰ معرفة الطرق والبلاد إما للتجارة وإما للفتوحات فكان عليهم أن يلجأوا إلىٰ التجار والفاتحين لجمع ما لديهم من معلومات، فلما تم لهم شيء من ذلك الأزمان أخذوا يتداولونه. إما تاريخية أو جغرافية.

علىٰ أن لفظة جغرافية بحد ذاتها كافية للدلالة علىٰ أن نبعة هذا الفن ليست عربية فكل ما ذكر للعرب قبل نقل الجغرافية إلىٰ العربية وصف المدن والطرق والبلاد(٣).

أما أول واضعي أساس هذا العلم فهم الفينيقيون أقدم تجار العالم وأكثرهم أسفاراً. فقد اطلعوا في أثناء أسفارهم علىٰ أحوال كثير من البلدان أو عرفوا المسافات بينها واطلعوا علىٰ تواريخ شعوبها وأخبارهم(٤).

<u>وهناك أسباب خاصة يمتازون بها:</u>

١) الحج وهو فريضة علىٰ كل مسلم أينما كان.
٢) الرحلة في طلب العلم وذلك يستلزم معرفة الأماكن والمناطق.
٣) اختلاف العرب في طرق الفتح باختلاف البلاد للحكم في أخذ الجزية و تحصيل الخراج وما إلىٰ ذلك مما يستدعي معرفة التاريخ والجغرافية(٥).

وعندما نقلت الجغرافية إلىٰ العربية احتذىٰ العرب علىٰ مثالها وزادوا عليها ما عرفوه من قبل، وتحققوا الأشياء بأنفسهم فأصلحوا كثيراً من مغالط بطليموس. علىٰ أن

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد: "ابن خلدون مؤرخاً تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر" مقال بمجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الرابع عشر العدد الثاني ١٩٨٣م، ص٣١١؛ حسين محمد فهيم: أدب الرحلات، ص ٩٦.
(٢) حسين فهيم: أدب الرحلات، ص٩٧.
(٣) جورج غريب: أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، الطبعة الأولىٰ ١٩٧٩م، دار الثقافة، بيروت، سلسلة الموسوعة في الأدب العربي، العدد (٧) ص ٢٥.
(٤) نفس المرجع السابق: ص٢٥.
(٥) نفس المرجع السابق: ص٢٦-٢٧.

هذا العلم لم يتضح إلا في القرن الرابع الهجري أي زمن نضج التاريخ[1].

وهكذا نجد أثر الرحلات في كتب الكثير من نوابغ القرن الرابع الهجري أمثال ابن الفقيه الهمداني والمقدسي والمسعودي[2].

ومن أهم العوامل التي ساعدت علىٰ الرحلة[3]: واهتمام العرب بالجغرافيا والرحلات:

1) وصف الأقاليم والعناية بها التي اعتبرت جزءاً من أخبار الفتوحات والمغازي. كما كانت أنحاء الدولة الإسلامية المتسعة الأرجاء تتطلب الدراسة والوصف تمهيداً لتطبيق أحكام الشريعة وتسهيلاً لمهمة الولاة ومن ثم فقد كان أول ما دُوِّن في التاريخ الإسلامي كان تاريخ المدن والأقاليم. وهي التي ارتبطت بالفتوحات والجغرافيا وترجع إلىٰ صدر الإسلام.
2) كذلك من العوامل التي ساعدت علىٰ الرحلة وصف المدن والبقاع خاصة من الناحية الاقتصادية فقد ساعدت الدولة الإسلامية في تحديد ثروة تلك البلاد ومعرفة قدرتها علىٰ دفع الجزية والخراج.
3) كذلك هناك عامل ديني ساعد علىٰ الرحلة وهو جمع الحديث من أفواه الرواة.
4) كذلك لما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية في العصر العباسي حرص الخلفاء علىٰ معرفة أجناس دولتهم وطرق التحكم فيها مما جعلهم يهتمون اهتماماً خاصاً بصورة الأرض وما احتوت من بحار وأنهار وجبال وغير ذلك من معلوما يتحتم معرفتها.
5) ومن بواعث الرحلة وأعظمها شأناً عند المسلمين تأدية فريضة الحج إلىٰ بيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي وقد سجل لنا هؤلاء الحجاج مشاهداتهم وارتساماتهم وأحاسيسهم وكذلك الطرق والدروب التي مروا بها وسلكوها والأحداث التي صادفوها في مصنفات عرفت بكتب الرحلة.
6) التجارة التي اتسع نطاقها عند المسلمين في العصور الوسطىٰ حيث قاموا بالارتحال في البحر وفوق أديم الصحراء بل لم يثنهم هول البحر من ركوبه والارتحال علىٰ شواطئه وموانيه بل ظهر منهم المعلمون المهرة والتجار الحاذقون من أهل سيراف والبحرين وعمان أمثال أبي الحسن محمد بن أحمد بن علي السيرافي وأبي الزهر البرخي (الناخذة) وغيرهم مما أدىٰ إلىٰ الثراء الذي امتازت به البلاد العربية في العصور الوسطىٰ[4]. ومما يؤيد وصول الرحالة المسلمون إلىٰ تلك البقاع البيان الذي سجله المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم: عن السلع التي كان التجار يرجعون بها إلىٰ ديار الإسلام بعد رحلتهم إلىٰ جنوبي

---

(1) غريب جورج: أدب الرحلات، ص٢٨.
(2) نفس المرجع السابق: ص ٢٨.
(3) أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، جدة، ص١٠-١١-١٢-١٣.
(4) عليه عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، مجلة المنهل، العدد (٥٠٠) مج (٥٤)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٦٦.

روسيا ودول أوربا الشمالية[1].

٧) الميل الغريزي عند العرب للبحث والاطلاع انطلاقاً من الأوامر الربانية قال تعالى: ﴿ ﴾[2].

مفهــوم الرحلــة:

وردت الرحلة في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. حيث لم يدع الإسلام وسيلة من الوسائل التي تفيد الإنسان إلا وحثه علىٰ فعلها ومنها الرحلة سواء أكانت للعلم أو للهجرة من أرض الشرك إلىٰ أرض الإسلام أو الحج أو التجارة[3].

وكانت أولىٰ الرحلات الثابتة لدينا والمستقاة من أوثق وأصدق مصادرنا الإسلامية وهو القرآن الكريم فقد حفل القرآن الكريم بالأمثلة العديدة لكل نوع منها علىٰ الرغم من عدم ورود لفظ رحلة فيه إلا مرة واحدة في سورة قريش قال تعالىٰ: ﴿ ﴾[4].

وقد وضحت هذه السورة بكاملها للحديث عن الرحلة وهي رحلة قريش التجارية فكما هو معلوم أن أهل مكة المكرمة اتجهت أنظارهم إلىٰ التجارة بحكم موقع مكة. فهذا الموقع جعلها منطلق التجارة وأظهرت سورة قريش بوضوح رحلتيها إلىٰ الشام واليمن والتي جنت منها أرباحاً طائلة انعكست آثارها علىٰ أوضاعها الاقتصادية[5].

أما في السُنَّةِ النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم فقد روىٰ عنه ﷺ قوله: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه"[6] هذا دليلاً علىٰ الرحلة فراراً بالدين من أرض الشرك إلىٰ أرض الإسلام وأشهرها هجرة المسلمين الأولىٰ والثانية إلىٰ الحبشة فراراً من اضطهاد وظلم قريش ثم هجرة الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلىٰ المدينة المنورة فراراً بالدين وخوفاً من الفتنة ورغبة بما وعد الله من التوسعة في الرزق وثبوت الأجر في حالة الوفاة قبل

---

(١) عليه عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، مجلة المنهل، العدد (٥٠٠) مج (٥٤)، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١٦٧.

(٢) سورة الأنعام: آية ١١.

(٣) عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٩.

(٤) سورة قريش: آية ١-٤.

(٥) عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٣٠.

(٦) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري بحاشية السنيدي، بيروت، دار المعرفة، ٦/١.

بلوغ البلاد المنتقل إليها[١].

أما الرحلة في اللغة الترحيل والارتحال، يقال رحل الرجل إذا سار[٢] فالرحلة هنا بمعنىٰ السير والضرب في الأرض وجاءت الرحلة بمعنىٰ الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر. "والترحل والارتحال الانتقال وهو الرحلة، والرحلة اسم الارتحال".

ومما سبق في معنىٰ الرحلة نجد أنها جاءت بمعنىٰ السير والانتقال والوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه وبمعنىٰ دنو المكان المراد الوصول إليه أو اقتراب وقت الرحيل ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق علىٰ من انتقل من مكان لآخر ومنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر[٣].

فالشخص الذي قام بالرحلة قد ترك موطنه وانتقل إلىٰ مكان آخر وسافر من موطنه وقصد جهة أخرىٰ غير موطنه وسار إليها؛ لذا كان لفظ رحلة أعم وأشمل ما يطلق علىٰ المسافر من مكان إلىٰ آخر، فالرحال صفة مشتقة من الفعل الذي قام به وهو الرحلة[٤].

وكتب الرحلات هي أهم ما تركه العرب من تراث جغرافي وقد جاء ذلك لجهود ضخمة بذلها الرحالة المسلمون في البر والبحر ودفعهم إليها الميل للمعرفة الذي يواكب فترات نهضة الحضارة لدىٰ شعوب العالم المختلفة.

واعتمد الرحالة في هذه الكتب أسلوباً واحداً يقوم علىٰ الوصف ولذا اتسمت هذه الرحلات بغزارة مادتها التي تتحدث عن البلدان أو البحار وما فيها عن العجائب وشملت فوق ذلك كتب تحمل اسم رحلات معروفة ومحدودة مثل رحلة ابن جبير أو رحلة ابن بطوطة[٥].

وأصبح للجغرافية الوصيفة ضرورة عملية بعد اتساع رقعة الدولة الإسلامية مما يتطلب معرفة الطرق التي تربط بين أصقاع هذه الدولة الفسيحة وكان لابد من معرفة السكك والمسافات بين الأماكن فأدىٰ إلىٰ ظهور كتب المسالك مثل كتاب ابن خرداذبة الذي يبحث في طرق المواصلات بين المدن الإسلامية المعروفة في عصره

---

(١) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، [د.ت]، ٣٤٧/٥-٣٥١؛ سيد قطب: في ظلال القرآن، ط٩ ، دار الشروق ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ٧٤٥/٢- ٧٤٦؛ عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٣٣.

(٢) ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري، ت. ٧١١ هـ: لسان العرب، بيروت، دار صادر [د.ت]، ٢٧٦/١١.؛ الفيروز أبادي، محي الدين محمد بن يعقوب. ت.٨١٧هـ: القاموس المحيط، دار الجيل، [د.ت]، ٣٩٤/٣؛ أحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير في غريب شرح الكبير، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٣٩٨هـ، ٢٦٤/١.

(٣) عواطف محمد يوسف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٤٠.

(٤) نفس المرجع السابق: ص٤١.

(٥) عيسىٰ علي إبراهيم: الفكر الجغرافي الكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية بمصر، ٢٠٠٣م، ص٧٤.

وفيه ذكر للإنتاج الزراعي والضرائب والخراج وهو وليد الحاجة الإدارية[١]. حيث شرح مضمون كتابه فيقول أنه يتناول "مسالك الأرض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها وغامرها" [٢].

وتطلبت السياسة الإدارية والتجارة وما إليها وصفاً دقيقاً للأمكنة والبقاع فاتسع وبصورة تدريجية وصف المدن والأقطار، حيث ظهر كتاب البلدان لليعقوبي ٢٨٤هـ الذي وضعه سنة ٢٧٨هـ ويعود إليه الفضل في تسمية علم الجغرافية (بعلم أخبار البلدان) وفي ظهور "جغرافية المدن" إذ أن من بين ما يتميز به اليعقوبي ولعه بالإحصائيات ووصف المدن لاسيما بغداد وسامراء[٣].

وإن ميول العرب للرحلة في طلب العلم وتقصي الأخبار ومغامراتهم البحرية بقصد التجارة أو غيرها كانت تحتل حيزاً مهما من التراث الثقافي الغربي وكثيراً ما كانت هذه الرحلات تلاقي تشجيعاً رسمياً ودعماً مالياً في سبيل تحقيق أغراضها في الإطلاع علىٰ شؤون البلاد النائية وتوثيق الصلات التجارية معها[٤].

إن القرن الرابع الهجري من أحفل القرون بأخبار الرحالة العرب إذ يمكن الاستنتاج أنهم توغلوا في بلاد الروس وتنقلوا في العالم الإسلامي من شرقه إلىٰ غربه وتحدثوا عما صادفوه من التجارب والمشاهدات خلال رحلاتهم في مؤلفاتهم. ولم يزل بعضها يعتبر حتىٰ اليوم دليل المؤرخ والجغرافي والباحث ومرجعاً مهما عن البلدان التي زاروها[٥].

وكذلك ابن حوقل ٣٦٧هـ فقد ذكر كل ما شاهده من ظواهر في كتابه صورة الأرض الذي يعد موسوعة جغرافية لأن ابن حوقل لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا وقد تطرق إليها فهو يقول: "وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضع ذلك الإقليم وأعانني عليه تواصل السفر وانزعاجي عن الوطن"[٦].

وذكر ابن حوقل الأقاليم والبلدان علىٰ مر الدهور والأزمان وطبائع أهلها وخواص البلاد في نفسها وذكر جباياتها وخراجها ومستغلاتها وذكر الأنهار الكبار

---

(١) عباس فاضل السعدي: دراسات في تراث العرب الفكري، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٠١م، الطبعة الأولىٰ، ص٣٢.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ص٣.
(٣) اليعقوبي: كتاب البلدان، الطبعة الثالثة، منشورات المطبعة الحيدية، النجف ١٩٥٧م، ص٣-٣٣؛ عباس السعدي: دراسات في تراث العربي الفكري، ص٣٣.
(٤) عباس السعدي: دراسات في تراث العرب الفكري، ص٤٠.
(٥) أحمد أبو سعد: أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، الطبعة الأولىٰ، منشورات دار الشرق الجديد، سلسلة الفنون الأدبية عند العرب رقم (١٠)، بيروت ١٩٦١م، ص٤٨؛ عباس السعدي: دراسات في تراث العرب الفكري، ص٤١.
(٦) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، مطبة بريل، ليدن، ١٩٣٨م، ص٢-٣ ؛ عباس السعدي: دراسات في التراث العرب الفكري، ص٤٣.

واتصالها بشواطئ البحار وما علىٰ سواحل البحار من المدن والأمصار ومسافة ما بين البلدان مع ما يضاف إلىٰ ذلك من الحكايات والأخبار والنوادر والآثار[١].

وكان التأليف الجغرافي قد أخذ العديد من الاتجاهات العلمية والتي كان يمكن إجمالها بما يلي[٢]:

أ) الاهتمام بأقطار العالم الإسلامي من حيث وصفها إقليمياً كما عند كل من البلخي والأصطخري وكتابه (المسالك والممالك) وابن حوقل وكتابه (صورة الأرض) والمقدسي وكتابه (أحسن التقاسيم) والمسعودي وله عدة كتب من أهمها (مروج الذهب والتنبه والأشراف، وأخبار الزمان) والإدريسي وكتابه (نزهة المشتاق في مختلف الآفاق) الذين عملوا علىٰ تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وأمينة عن أقطار العالم الإسلامي وخاصة أقطار الوطن العربي تستند علىٰ المشاهدة الشخصية.

ب) التخصص في قطر واحد كما هو عند الهمداني في وصفه جزيرة العرب والبيروني في وصفه الهند الذي يعتبر كتابه قمة في الدقة.

ج) الاهتمام بالمعاجم الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس الهجري مثل كتاب (معجم ما استعجم) للبكري[٣].

د) الاهتمام بالموسوعات الجغرافية التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري مثل كتاب "مسالك الأمصار" لابن فضل الله العمري الذي كان يتمتع بثقافة عريضة وذوق أدبي مرهف[٤].

وقد ثار جدل حول تصنيف الرحلات في أي جانب من العلوم هي؟ أهي جغرافية؟ أم أدبية؟ أم تاريخية؟ أم اقتصادية؟ أم سياسية؟ أم اجتماعية؟ أو هي مزيج من تلك العلوم مجتمعة؟

ونشير هنا إلىٰ أن الرحلة ذات علاقة مباشرة بالأدب، لأن الأسلوب الذي استخدم في صياغتها ارتفع إلىٰ عالم الأدب إذ أن أبرز ما يميز الرحلات أسلوب الكتابة القصصي المعتمد علىٰ السرد المشوق والمؤثر للتعبيرات السهلة المؤدية للغرض ولذلك فتصنيفها خاص بكتب الرحلات[٥].

---

(١) صبري فارس الهيتي: الفكر الجغرافي نشأته ومناهجه،دار صفاء، عمان، ٢٠٠٥م/ ١٤٢٥هـ، الطبعة (١)، ص٥٢.

(٢) صبري فارس الهيتي: الفكر الجغرافي نشأته ومناهجه،دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠٥م / ١٤٢٥هـ ، ص٥١-٥٢-٥٣.

(٣) البكري الأندلسي أبو عبد الله: معجم ما استعجم، القاهرة، ١٩٤٥م، (المقدمة).؛ صبري الهيتي: الفكر الجغرافي، ص٥٣.

(٤) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٦٣م، ج١/ ١٧٧؛ صبري الهيتي: الفكر الجغرافي، ص٥٣.

(٥) عواطف محمد يوسف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصىٰ مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، رسالة دكتوراة ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، مج١/ ١٢.

لذا كانت الرحلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لم يكن همه فقط إيراد الحقائق بل والتأثير علىٰ قارئها فظهرت شخصيات الرحالة وطبيعة أمزجتهم ونفسياتهم من خلال ما سجلوه وهذا من مميزات الرحلات العديدة(1).

ولا ريب أن الرحلات كانت بمثابة مصادر شاملة سجلت فيها جوانب متعددة فيما يخص الجوانب الحضارية علىٰ امتداد فترات متتالية فالرحلة تتطلب اتساع المعارف وتنوعها لأنها تستخدم الجغرافيا ويتبعها السياسية بنسب متفاوتة وعرض ذلك بزي الأدب وطابعه. فكل باحث يجد ضرباً من المعرفة يستخرجه ويقدمه وهو مطمئن لنتائج بحثه بشرط دراستها بشكل وافق وببصيرة نافذة ومقارنة جيدة فهي وثائق تقدم لنا صورة حية عن المجتمع الإسلامي وتطوره أو تأخره وأسباب ذلك(2).

فنجد الرحلات مزيجاً من تلك العلوم مجتمعه وبالتالي لا يمكن تصنيفها في جانب علىٰ حساب الجانب الآخر. فكل ناحية تنتظر الإخراج للاستفادة منها وكثيراً ما أظهرت الرحلات أسماء علماء لم تكن لتظهر لولاها(3).

ونلحظ أن كل من كتب عن الرحلات قد مهد الطريق وأسهم في الكشف عن جوانب مجهولة فيها. ونستطيع القول أن ثمار الرحلة يتعذر حصرها لاسيما إذا كان الرحالة متمتعاً بقوة الملاحظة والتطلع ويقظة الحواس والرغبة في التحصيل والحرص علىٰ التدوين والتسجيل(4).

وتأتي قيمة الرحلات التاريخية لأنها أساساً قامت علىٰ التجربة والملاحظة المباشرة فهذا الأمر كان واضحاً جلياً في جميع الرحلات. فالرحالة قد اعتنوا بالمسالك وقياس ومسافات الطرق وهم بذلك جغرافيون من حيث لم يعلموا فقد أودعوا في مدونات رحلاتهم الشيء الكثير عن أخبار رحلاتهم فلم يفوت عليهم وصف الطرق التي سلكوها وتسجيل المسافات التي قطعوها والمعالم التي شاهدوها بالإضافة إلىٰ الصعوبات التي واجهوها والمحطات التي نزلوها كما بادروا بالتحذير في مناطق الأخطار ونصحوا بسلوك طريق الأمان فيتجلىٰ من كل ذلك خلاصة التجربة التي مروا بها ومن ثم قاموا بتعديمها(5).

كان اعتقاد الرحالة أن من حق خَلَفِهم عليهم أن يبينوا لهم خير الطرق وأفضلها

---

(1) زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، بيروت، دار الرائد العربي ١٤٠١هـ، ص١٧٩؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٦٨؛ عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، الرياض، مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٧١-٩١.

(2) زكي حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص١٧٩؛ عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب الأقصىٰ، ص١٤.

(3) عباس فاضل السعدي: دراسات في تراث العرب الفكري، مؤسسة الوراق، الطبعة الأولىٰ ٢٠٠١م، ص١٥.

(4) عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب، ص١٦.

(5) عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب، ص١٦.

للوصول إلىٰ الأماكن المقدسة ويشرحوا لهم المخاطر ليستعدوا لها وما يمكن أن يلقوه من مصاعب ليتغلبوا عليها. لذا دونوا مشاهداتهم وذكروا المواقف المتباينة، والمعاناة التي لاقوها وهم يجولون في البلاد ويتنقلون بين الأقطار[1].

ولا يغيب عن بالنا أن اعتقاد الرحالة هذا نابع من إحساسهم بأهمية العلم وعدم كتمانه وهذا المبدأ العلمي ابتغوا من ورائه الحرص علىٰ تطبيق أوامر الرسول ﷺ المتمثلة في قوله ﷺ: ما من رجل يحفظ علماً فيكتمه إلا أتىٰ به يوم القيامة ملجماً بلجام من النار)[2].

وكما اهتموا بوصف الطرق ومعالمها والمسالك ومخاطرها تصدوا لتسجيل أحوال الناس الذين صادفوهم وأنماط حياتهم فأثنوا علىٰ الحسن من عاداتهم واستقبحوا الشاذ منها ودعوا إلىٰ البعد عنه[3]. فكانوا في هذا الجانب علماء اجتماع من حيث لا يدرون[4].

ولا شك أن الرحلات إلىٰ الحجاز لأداء فريضة الحج شهدت فترتين متباينتين عرفت في الأولىٰ الازدهار فتكاثرت وتطورت في أشكالها ومضامينها وخاصة الرحلات الحجازية، وفي الثانية اعتراها الفتور الذي كان مرده الظروف الأمنية[5].

ومما يؤسف له أن لم يكشف إلىٰ الآن إلا عن القليل من هذه الرحلات في حين حفظت لنا كتب التراجم والتاريخ بل والرحلات أسماء رحالة لا نعرف عن رحلاتهم شيئاً إما لفقدانها أو لأنهم لم يقوموا بتدوينها وربما يظهر لنا في القريب ما يشفي الغليل منها. وحتىٰ ما وجد الآن من مخطوطات لا يزال أكثرها رهين رفوف المكتبات، ويفتقر إلىٰ التحقيق والنشر[6].

ومما لا ريب فيه أن أسلوب كتابة الرحلات في زمنٍ ما، إنما يعبر عن أدبيات ذلك الوقت، فدراسة رحلات معينة في فترة ما إنما تمد المعنيين بالأدب عن أسلوب وطريقة التأليف والكتابة والفكر الأدبي عموماً لتلك الفترة بمعين طيب لأن أغلب الرحالة الذين تصدروا لتدوين رحلاتهم كانوا علىٰ قدر لا بأس به من العلم والأدب يكفي للحكم علىٰ أهل تلك الفترة في إجادتهم أو قلتها، ومن لم يكن منهم أديباً حاكىٰ

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة ص٢٧-٦٧.

(٢) الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه: السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، [د.ت]، ٩٦/١.

(٣) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، المطبعة الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢م، بيروت، ط٣ ، ص١٦.

(٤) عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب، ص١٦.

(٥) الحسن الشاهدي: أدب الرحلة بالمغرب، ٦٥٧/٢؛ عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب، ص١٧.

(٦) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٩-٦٨ ؛ عواطف نواب: كتب الرحلات في المغرب، ص١٧.

غيره في صياغتها[1].

وتعتبر كتابات الرحالة عن الجوانب الاقتصادية في الأماكن التي مروا بها رافداً فياضاً لدارسي الاقتصاد في المجتمعات البشرية. فالرحالة تحدثوا عن الصناعات وطرق التجارة وأنماط التعاملات والنقود وجودتها أو زيفها بقدر جيد وهو نفس الوقت كان كافياً لِلَمْس التطور الحادث في الأمور الاقتصادية[2].

وكتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب العلمي فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم وسجلوا النشاط العلمي للعلماء الذين أخذوا عنهم والمراكز الثقافية والمدارس التي تلقوا فيها علمهم[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أن ملاحظة الرحالة عن الأحوال السياسية في البلاد الإسلامية التي مروا بها كشف لنا الكثير من الأمور فمن ذلك مثلاً علاقة الممالك الإسلامية ببعضها أو بالممالك النصرانية التي كان لها نشاط واضح في القرصنة بالبحر الأبيض المتوسط[4].

وهكذا تأتي القيمة العلمية التاريخية للرحلات فهي مصادر دونت بواسطة شهود عيان عاصروا الحدث وقاموا بتسجيله في حينه فدراسة الناحية التاريخية للرحلات مفيدة في التعرف علىٰ الجوانب العلمية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية بل وحتىٰ السياسية [5].

ونستطيع القول أن المتمعن في كتب الرحلات يجد أن هؤلاء الرحالة يتفاوتون في درجة ملاحظاتهم واهتماماتهم ببعض النواحي دون البعض. لذا كان لزاماً علينا دراسة الرحلات كوحدة واحدة متسلسلة حتىٰ نستطيع الخروج بالنتيجة الصحيحة المرجوة.

موقع الحجاز وأهميته بالنسبة لشبه الجزيرة العربية:

ولهذا الإقليم مكانة في قلب العالم الإسلامي في القديم والحديث. ولبيئته الجغرافية أثر كبير علىٰ الإنسان في وسائل عيشه ونظمه وتاريخه وقد صورها لنا الأدباء والمؤرخون تصويراً كاملاً [6].

ومن هنا يتضح في هذا المدخل أهمية هذا الإقليم من الناحية الجغرافية والمكانة الدينية بالنسبة للجزيرة العربية خاصة والعالم الإسلامي عامة.

---

(١) عواطف: المرجع السابق، ص١٧.
(٢) المرجع السابق ، ص١٧.
(٣) المرجع السابق، ص٢٠.
(٤) نفس المرجع السابق: ص٢٠.
(٥) نفس المرجع السابق: ص٢٠.
(٦) إبراهيم فوازان الفوزان: إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣١.

أما بالنسبة للموقع الجغرافي وتسمية هذا الموقع بهذا الاسم (الحجاز):

فمعنىٰ الحجاز: هو الحاجز والمانع وفي اللغة حجزه "يحجزه" إذا منعه وصده عن قصده[1]. وقال الخليل بن أحمد: وسمي الحجاز حجازاً لأنه فصل بين الغور وبين الشام وبين تهامة ونجد والحجاز جبل ممتد حال بين الغور: غور تهامة ونجد فكأنه منع كل واحد منهما أن يختلط بالآخر فهو حاجزاً بينهما[2].

ويرىٰ الأزهري: أن الحجاز سمي حجازاً لأن الحرار حالت بينه وبين عالية نجد[3] ولعل سبب التسمية ما ذكره بعض أهل السير: أنه لما تبلبلت الألسن وتغرقت العرب إلىٰ مواطنها سار طسم بن آدم مع والده ليقفوا آثار إخوته وقد احتووا علىٰ بلدانهم، فترك دونهم بالحجاز فسموها حجازاً لأنها حجزتهم عن السير لطيبها في ذلك الزمان وكثرة خيراتها[4].

وكذلك سمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد[5] وهو إقليم الجبال الممتدة من خليج العقبة (مدينة إيلة) حتىٰ منطقة عسير جنوباً ويحده من الغرب منطقة تهامة ومن الشرق جبال السراة وطوله من الشمال إلىٰ الجنوب سبعمائة ميل وعرضه من الشرق إلىٰ الغرب ثلثمائة وخمسون ميلاً [6]. وأهم مدنه مكة والمدينة والطائف وخيبر ووادي القرىٰ وقد عد بعض الجغرافيين تبوك وفلسطين من أرض الحجاز[7] وتعتبر مكة قاعدة الأقاليم التجارية. كانت تقام للعرب حولها أسواق كل سنة[8] وبها أشجار المقل وهي شجرة النارجيل وشجرة المساويك[9].

ومن جبال الحجاز المشهورة جبل رضوىٰ بين المدينة وينبع وقد قال ياقوت الحموي إنه جبل منيف ذو شعاب وأودية وأنه كثير المياه والأشجار[10].

---

(١) أبي عبيد البكري الأندلسي: معجم ما استعجم، ص١٢؛ إبراهيم الفوزان: إقليم الحجاز، ص١٤.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان (مادة الحجاز).

(٣) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون وآخرون، القاهرة، ١٩٦٤م، ١٢٢/٤؛ الفوزان: إقليم الحجاز، ص١٥.

(٤) الفوزان: إقليم الحجاز، ص١٥.

(٥) الأصفهاني: بلاد العرب، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٨هـ، ص١٤.

(٦) الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد النجدي، ١٩٥٣م، ص٤٨.

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢١٩/٢.

(٨) القزويني: آثار البلاد، ص٨٤.مثل سوق عكاظ والذي يقع فيما بين نخله والطائف، وكذلك ذو المجاز وهو سوق لهذيل عن يمين الموقف بعرفة قريب من كبكب على فرسخ من عرفة؛ انظر الأرزقي: أخبار مكة ١٩٢/١.

(٩) عبد الجبار منسي العبيدي: الطائف ودور ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتىٰ قيام الدولة الأمونية، معدن ومعالم رقم (١)، ص١٥.

(١٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥١/٩؛ الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٥.

كذلك من الجبال المشهورة في الحجاز (كرا) الذي يبلغ ارتفاعه مائتي متر وهو بين مكة والطائف. وتبلغ جبال الطائف ستمائة متر(١).

وإذا كان التكوين التاريخي للحجاز غير واضح المعالم تماماً في العصور القديمة فإن التكوين الجغرافي لم يكن خالياً من التعقيد لاسيما في مجال الإطار العام للإقليم الذي بقي مضطرباً ومتداخلاً مع غيره وذلك حتىٰ في العصور الإسلامية الأولىٰ.

فهو برأي الجغرافيين العرب يمثل أحد ثلاثة أقاليم متمايزة في شبه الجزيرة العربية:

الأول: ساحلي منخفض (تهامة).

الثاني: جبلي متفاوت الارتفاع (الحجاز أو السراة).

الثالث: هضبي داخلي (نجد).

وقد يضاف إليها بعضهم اليمن في الجنوب و العروض في الشرق(٢) وهي أسماء لها دلالات لغوية علىٰ عادة العرب الذين لهم شغف بهذا النوع من التسميات(٣).

بيد أن هذا التوزيع التضاريسي لشبه الجزيرة العربية عامة وللحجاز خاصة لا ينسجم مع خلفيته اللغوية بصورة دقيقة. فغالباً ما تذبذبت الحدود وتأرجحت معها المدن من إقليم إلىٰ آخر كأن يمتد الحجاز مثلاً إلىٰ تبوك في الشمال أو يتراجع جنوباً وراء يثرب(٤). وقد تدخل هذه الأخير في نجد القريبة منها(٥) وتصبح اليمامة جزءاً يضاف إليها في الحجاز مع مكة والطائف إلىٰ آخر هذه الحلقة المتماوجة التي لا نجد لها تجديداً مستقراً في كتابات الجغرافيين والرحالة(٦).

ومن أهم مدن الحجاز:

مكة المكرمة:

أقدم المدن التاريخية. مهد الديانات ومقر القيادات فيها عاش الأنبياء وارتبطت قيادة الأرض بالسماء المتوجه برسالة المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام.

لذا فمكة هي القاعدة الروحية لكل مسلم آمن بأن الدنيا بداية والآخرة نهاية وقد كانت محط أنظار العالم العربي الإسلامي في الجاهلية والإسلام حيث كانوا في الجاهلية يقيمون في الكعبة الأصنام للعبادة ويعلقون عليها الوثائق والمعاهدات ثم ولد

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٨م، ص٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٦٨؛ ياقوت الحموي،معجم البلدان ٢١٩/٢؛ إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص٢٩.

(٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٤٧-٤٩.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٥.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص١٢٨.

(٦) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، ص٣٨؛ إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، ص٣٠.

فيها نور الإسلام وأشرقت شمسه علىٰ المعمورة[1].

وتقع هذه المدينة المقدسة (مكة المكرمة) في منتصف الطريق بين اليمن والشام وتقوم في وادٍ منبسط من أودية جبال السراة تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب[2]. وهي في الجهة الشمالية للمنطقة المدارية[3]. وهي تمثل نقطة التقاء تهامة بالجبال التي تحيط بها من جميع الجهات[4] مما جعلها تتشكل من مجموعة من الأودية وهي منافذها في اتجاه البحر من الجهة الغربية[5].

ومن أشهر جبال مكة جبل ثور الذي اختفىٰ به الرسول ﷺ عندما أرادت قريش قتله، ويبلغ ارتفاعه (٥٠٠) متر وجبل حراء الذي في قمته الغار الذي نزل به القرآن علىٰ الرسول ﷺ [6].

ولهذه المدينة المقدسة حرمتها فقد حرمها (سبحانه وتعالىٰ) بنص الكتاب والسنة، فقد جاء تحريم مكة المكرمة في القرآن الكريم علىٰ النحو التالي:

- قال تعالىٰ: ﴿ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ﴾[7].
- وقال تعالىٰ: ﴿ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ﴾[8].
- وقوله تعالىٰ: ﴿ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ﴾[9].

أما من السنة النبوية الشريفة فقد ورد بشأن هذه المدينة المقدسة:

ما رواه البخاري في صحيحه بسنده عن مجاهد أن الرسول ﷺ قام يوم الفتح فقال: أن الله حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض فهي حرام بحرام الله إلىٰ يوم القيامة لم تحل لأحد قبلي ولا تحل لأحد بعدي ولم تحلل لي إلا ساعة من الدهر لا ينفر صيدها ولا يعضد شوكها ولا يختلىٰ خلالها ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، فقال العباس بن

(١) الفوزان: إقليم الحجاز، ص٢٩.
(٢) ياقوت الحموي: ١٨٧/٨.
(٣) بدر الدين يوسف محمد أحمد: مناخ مكة المكرمة، إصدار معهد البحوث العلمية، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٢هـ، ص١٦.
(٤) مكة المكرمة – العاصمة المقدسة – دليل إعلامي سياحي – الغرفة التجارية وأمانة العاصمة المقدسة، تنفيذ المهرجان، ١٤١٥هـ، ص٤٢.
(٥) عبد العزيز صقر ورفقاه، إصدار أمانة العاصمة المقدسة عام ١٤٠٥هـ، ص٢٦.
(٦) الفوزان: إقليم الحجاز، ص٣٠.
(٧) سورة النمل: آية ٩١.
(٨) سورة القصص : آية ٥٧.
(٩) سورة العنكبوت: آية ٦٧.

عبد المطلب: إلا الإذخر يا رسول الله فإنه لابد منه للقين والبيوت، فسكت ثم قال إلا الإذخر فإنه حلال[1].

وروىٰ مسلم في صحيحه بسنده عن ابن الزبير عن جابر قال: سمعت النبي عليه الصلاة والسلام يقول: لا يحل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح[2].

هذا وقد أطلق القرآن الكريم علىٰ مكة عدة أسماء منها "بكة" لقول الله تعالىٰ:﴿ڳ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں﴾[3].

وهنا يحاول الإخباريون أن يفرقوا بين مكة وبكة فالأولىٰ هي القرية كلها والثانية موضع الكعبة البيت الحرام، أو أن "بكة" هي موضع البيت الحرام ومكة ما سوىٰ ذلك[4].

كذلك أطلق القرآن الكريم علىٰ مكة "أم القرى" في قوله تعالىٰ: ﴿ژ ژ ڑ ڑ ک ک﴾[5]. ولعل هذه التسمية القرآنية إنما تدل علىٰ أن مكة إنما هي أعظم مدن الحجاز ولأنها شرفت ببيت الله أول بيت وضع للناس في الأرض فيه الهدىٰ وفيه البركة وفيه الخير الكثير جعله الله مثابة للناس وأمنا وهو كذلك للأحياء جميعاً ومنه خرجت الدعوة العامة لأهل الأرض جميعاً. ولم تكن هناك دعوة عامة من قبل وإليه يحج المؤمنون بهذه الدعوة من كل البقاع ومن كل الأجناس[6] وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ﴾[7].

وذكر أيضاً في القرآن الكريم اسم "البلد" لقوله تعالىٰ: ﴿ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ﴾[8]. وهناك "البلد الأمين" لقوله تعالىٰ: (ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ پ پ)[9].

وقال ابن الكلبي: سميت مكة [10] لأنها بين جبلين بمنزلة المكوك وبكة اسم البيت. هذه بعضاً من أسماء مكة المدينة الحجازية المقدسة بل الشيء القليل نظراً لعدم

---

(١) صحيح البخاري: ١٩٤/٥.
(٢) صحيح مسلم: ١٣٠/٩.
(٣) سورة آل عمران: آية ٩٦.
(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ١٨٨/١.
(٥) سورة الأنعام: آية ٩٢.
(٦) مهران: تاريخ العرب القديم، ص٨١.
(٧) سورة الحج: آية ٢٧.
(٨) سورة البلد: آية ١-٢.
(٩) سورة التين: آية ١-٣.
(١٠) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي [مادة مكة]، ٢١٢/٥- ٢١٣ – ٢١٤؛ إقليم الحجاز، ص٣٠.

الإطال في هذا المبحث ذكرت هذه الأسماء التي ذكرت في القرآن الكريم.

المدينة المنورة (يثرب):

تقع علىٰ بعد ٤٨٠ كيلاً شمال مكة المكرمة وتقوم في واحة خصيبة غزيرة المياه بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين:

الأولىٰ: (حرة واقم): وهي الحرة الشرقية وتسمىٰ أيضاً حرة بني قريظة[(١)] لأنهم كانوا بطرفها القبلي وحرة زهرة لمجاورتها لها وتنقسم حرة واقم باعتبار المنازل الواقعة فيها قديماً إلىٰ خمس مناطق متجاورة منطقتان كانتا لليهود وثلاث كانت للأوس من الأنصار[(٢)].

والثانية: (حرة الوبرة): وكانت تقع بضاحية المدينة القريبة وعلىٰ مبعدة ٤ كيلاً من المدينة وكانت أقرب إلىٰ المدينة من حرة واقم وتمتاز بكثرة الهضاب والمستنقعات والمنخفضات والمرتفعات وفي هذه الحرة المدرج الذي يقال إنه (ثنية الوداع) وفي طرفها الشمالي الشرقي منازل بني سلمة ومن تحت طرفها الغربي بئر عروة وقصره ومزارعه وبطرفها الشمالي مسجد القبلتين وبطرفها الغربي أطم الصيحات وقلعة قباء. هذا ومن المعروف أن حرة الوبرة هذه وحرة واقم أنهما اللابتان اللتان تحدان حرم المدينة وأنهما تلتقيان في ناحيتهما الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية بالنسبة للمدينة[(٣)].

هذا ويحد المدينة المنورة من الشمال "جبل أحد" كما يقع "جبل عير" علىٰ حدها الجنوبي وتكشف عن الوديان الحرتين من الشرق والغرب منحدرة من الجنوب والشرق محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتىٰ تجتمع في شمالها الغربي وتسير في انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زرع زاهية بالخضرة وبساتين تنبت أشجار النخيل والفاكهة[(٤)].

أما عن أسماء المدينة المنورة[(٥)] لم تكن تعرف بهذا الاسم – أي المدينة – قبل

---

(١) حرة بني قريضة: حي من اليهود قالوا: عندما نزلت اليهود يثرب تفرقت في أنحائها فنزلت قريظة بالعالية على وادي مذينب ووادي مهزوز، ويوجد جبل ليس بالعالي شرق العوالي بالمدينة يسمى (قريظة) فيه آثار، هذا كان منازلهم. انظر:عاتق بن غيث البلادي: معجم قبائل الحجاز ط٢، ١٤٠٣هـ، دار مكة، مكة المكرمة، ص٤٢٢.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ١١٨٨/٤؛ عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة (مطبعة السلفية، المدينة المنورة ١٣٩٣هـ) ، ص٣١٠؛ محمد بيومي مهران: تاريخ العرب القديم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، الطبعة الحادية عشرة، ١٩٣/٢.

(٣) السمهودي: وفاء الوفاء، ١١٨٨/٤- ١١٩٠؛ عبد القدوس الأنصاري: آثار المدينة، ص٢١٢؛ مهران: تاريخ العرب القديم، ١٩٤/٢.

(٤) مهران: تاريخ العرب القديم، ص١٩٥.

(٥) نفس المرجع السابق: ص١٩٩.

نصرتها للإسلام وهجرة محمد رسول الله ﷺ إليها في الثاني عشر من ربيع الأول في السنة الثالثة عشرة من البعثة النبوية وإنما كانت تسمىٰ "يثرب" ولهذا يشير القرآن الكريم في قوله تعالىٰ: (ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ)[(١)].

وأياً ما كان الأمر فلقد كثرت أسماء المدينة المنورة في العصر الإسلامي وكان من أهمها: المدينة ويثرب وطيبة وطابة والعاصمة والقاصمة والجدية والمحبوبة والمؤمنة والمباركة والمحفوظة والمختارة والجابرة و العذراء والغراء والبارة والمقدسة والناجية وذات الحرار ومدخل صدق وقرية الأنصار وسيدة البلدان والخيرة وأرض الهجرة ودار الهجرة ودار الأخيار ودار الإيمان ودار الأبرار ودار السنة وبيت الرسول ومدينة الهول وضجع الرسول وحرم الرسول ﷺ [(٢)].

الطائف:

قد ذهب بعض المفسرون[(٣)] إلىٰ أن كلمة القريتين التي جاءت في سورة الزخرف في قوله تعالىٰ: (ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ)[(٤)]. يقصد بها مكة والطائف.

فمدينة الطائف تاريخ غامض لا نعرف من أمره شيئاً إذ لم تمس تربتها أيدي علماء الآثار كما أن السياح لم يجدوا في الطائف كتابات قديمة بعد.

ولكن مكاناً مثل الطائف لابد أن يكون له تاريخ قديم ولا يعقل أن يكون من الأمكنة التي ظهرت ونشأت قبيل الإسلام[(٥)]. وليس لنا من أمل في الحصول علىٰ شيء من تاريخ الطائف إلا بقيام العلماء بمناجاة تربتها واستدراجها ليتيح لهم بما تكنه من كتابات مسجلة في الألواح يتحدث عن تاريخ هذا المكان المهم[(٦)].

والطائف مدينة صغيرة قديمة البنيان تقع قريباً من مكة وهي إحدىٰ مدن الحجاز الرئيسية الثلاث تقع علىٰ بعد خمسة وسبعين ميلاً إلىٰ الجنوب الشرقي من مكة[(٧)] علىٰ ظهر جبل غزوان[(٨)]. وهو جبل عرفة العالي الذي طلعت بعض الجبال منه وهي

---

(١) سورة الأحزاب: آية ١٣.

(٢) السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ١/٧-١٩؛ المقدسي: أحسن التقاسيم ومعرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م، ص٣٠؛ مهران: تاريخ العرب القديم، ص٢٠٥.

(٣) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط، ط٢، دار الفيحاء، دمشق، ١٤١٨هـ، ٤/١٦١- ١٦٢.

(٤) سورة الزخرف: آية ٣١.

(٥) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة الأولىٰ، دار العلم، بيروت، ١٩٧٠م، ١٤٢/٤.

(٦) نفس المرجع: ١٤٣/٤.

(٧) شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م، ٩/٤.

(٨) أبو الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد عبد الله النجدي، ط السعادة، ١٩٥٣م، ص٤٩.

مرتفعة أكثر من خمسة آلاف قدم عن مستوىٰ البحر في سهل رملي محاط بالتلال المنخفضة[1] وهو من جبال السراة وبغزوان قبائل هذيل[2]. والطائف محلتان محلة إلىٰ جانب من وادي وج تسكنه ثقيف والأخرىٰ علىٰ الجانب المقابل ويقال لها الوهط[3].

وقد ظل اسم وج يطلق علىٰ موضع من الطائف يقع علىٰ وادي وج يقال له برد في العصر العباسي إذ أقامت فيه زبيدة زوجة هارون الرشيد حائطين يقال لهما وج[4] ووادي الطائف الذي يعرف بوادي وج تجري فيه مياه المدابغ التي يدبغ بها الأديم[5].

ويحيط بالطائف نطاق من المزارع والبساتين تمتد إلىٰ حوالي ثلاثة أو أربعة كيلومترات من المركز العمراني بالمدينة ويطوق جبل غزوان حالياً من هذه المزارع بينما ينفتح سهل الطائف مكة وبالقرب من الطائف تقع قرية العرج المعروفة بعرج الطائف وهي قرية جامعة في واد من نواحي الطائف وإليها ينسب العرجي الشاعر وهو عبد الله بن عمر بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنهم وهي أول تهامة[6].

وذكر أن العرجي كان له حائط يقال له العرج وكان وادياً يبعد عن الطائف بنحو ساعة من الزمان[7] وإلىٰ الجنوب الغربي من الطائف تقع قرية سلامة و كان لأم المقتدر الخليفة العباسي فيها حائط[8].

ومن نواحي الطائف المشهورة الوهط وهي قرية علىٰ ثلاثة أميال من وج كانت لعمرو بن العاص وقد سميت كذلك لكثرة ما كان فيها من كروم فقد غرس فيها عمرو بن العاص ألف ألف عود كرم علىٰ ألف ألف خشبة[9].

مدينة ينبع:

ينبع سمي كذلك لكثرة ينابيعه الجارية ويطلق هذا الاسم علىٰ ناحية متسعة في الحجاز، غرب المدينة المنورة، بميل نحو الشمال وتبعد عن المدينة نحو ١٥٠كلم.

---

(١) عمر رضا كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، مطبعة الترقي، دمشق، ١٩٤٥م، ص١٩٠.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.
(٣) ياقوت: معجم البلدان، ٤/٩-١٠.
(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٢٠.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.
(٦) أبو الفتح عثمان بن جني. ت٣٩٢هـ: ديوان العرجي، تحقيق: خضر الطائي ورشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر المحدودة، بغداد، ص٧؛ عبد العزيز سالم: دراسات في تاريخ العرب القديم قبل الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، [د.ت]، ص٣٢٢؛
(٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٤/٩٩.
(٨) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص١٢١.
(٩) نفس المصدر السابق: ص١٢١.

واسم ينبع في مؤلفات المتأخرين في صور متعددة لاسيما في مؤلفات المؤرخين إلا أن اسم ينبع الذي يقصد به ينبع النخل لأن ينبع البحر الميناء عرف فيما بعد(١).

ولينبع النخل شهرة كبيرة وواسعة في التاريخ في حوادث صدر الإسلام لوقوعه علىٰ طريق القوافل التجارية بين الحجاز والشام فكان وما بجواره ميداناً لأحداث عديدة بين قريش وبين رسول الله ﷺ وبعض القبائل التي تغطي تلك المنطقة(٢) ودارت في تلك المنطقة غزوات عدة بين قريش منها: سرية العيص وغزوة بواط والعشيرة(٣).

وبواط والعشيرة معروفة اليوم بينبع النخل ولم يبق إلىٰ اليوم منطقة العشيرة سوىٰ قرية البركة، وقد سلك رسول الله ﷺ في غزوة العشيرة بواط الجلسي وبواط الغوري، وغزوة العشيرة كانت في جمادىٰ الثانية في مائة وخمسين من المهاجرين في العام الثاني من الهجرة يعترضون عيراً لقريش ذاهبة إلىٰ الشام فبلغوا ذا العشيرة من ناحية ينبع وغزوة بواط كانت في ربيع الأول من السنة الثانية من الهجرة إذ خرج الرسول ﷺ يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف ومائة رجل من المشركين فبلغ بواطاً من جبال جهينة (٤).

ويطلق اسم ينبع في العهد الحاضر وقبله بزمن علىٰ ينبع الميناء وإذا أريد بينبع النخيل قيل ينبع النخل. إلا أن اسم ينبع عند اختلاف كتب المتقدمين يقصد به الأخير لأن ينبع الميناء أو ينبع البحر كما يسمىٰ أيضاً كان أقل شهرة بل قل إن يوجد له ذكر في كتب الجغرافية القديمة(٥).

أما أهم موانئ الحجاز :

ميناء الجار:

تباينت الآراء حول موقع الجار بين القدماء والمحدثين فمن القدماء من يرىٰ أنه يقع علىٰ بحر الجار(٦) وهذه التسمية قد تكون مقبولة إذا ما علمنا أن العرب قد أطلقوا أسماء المدن المطلة علىٰ سواحل البحار علىٰ تلك البحار مثل بحر الجار، وبحر القلزم، و بحر عيذاب، وبحر النعام، وبحر الحجاز، وبحر اليمن وبحر فرعون(٧). وهذا يعني

---

(١) عبد الكريم محمود الخطيب: بلاد ينبع، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الرياض، ص١١.
(٢) نفس المرجع السابق: ص١١.
(٣) حمد الجاسر: بلاد ينبع لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة، ص١٠.
(٤) الخطيب: نفس المرجع، ص١١.
(٥) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص١٢.
(٦) أبو بكر أحمد بن إبراهيم الهمداني "ابن الفقيه": مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، ١٣٠٢هـ/ ص٧٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ٩٢/٢-٩٣.
(٧) أحمد مختار العبادي و السيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٥٣.

أن كل جزء من البحر يسمىٰ باسم الميناء الذي يقع عليه.

ومنهم من يرىٰ أنه يقع علىٰ ساحل بحر القلزم[١] وهو مرسىٰ قريب من جدة[٢] وهو مدينة علىٰ ساحل اليمن[٣]. من المحدثين من يعتبر موقع الجار هو المكان المعروف الآن باسم "الراسي"[٤] بينما يشير آخرون إلىٰ أن الجار يقع الآن في مكان البريكة[٥].

وعلىٰ هذا تستطيع أن نقول أن المصادر والمراجع تجمع علىٰ أن الجار كان ميناء المدينة المنورة منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام[٦].

وأن الجار ميناء ومدينة يقع مكان البريكة، والبريكة اسم مصغر للبركة و هي البحيرة التي يقبض إليها ماء وادي يليل بالجار ليروىٰ سكان المدينة وعمال الميناء معاً بالماء العذب السلسبيل والغناء[٧].

والجار بتخفيف الراء، مدينة علىٰ ساحل البحر وذكر ابن منظور أن الجار هو ما قرب من المنازل من الساحل[٨] فعندما استقر الإسلام واتخذ المدينة المنورة عاصمة له كان لابد له من الارتباط الخارجي سواء بالعالم الإسلامي أو الأجنبي عن طريق البحر ونظراً للعلاقات المتميزة بين الدولة الإسلامية إبان نشأتها وبين بلاد الحبشة فقد تم اختيار الجار كميناء للدولة الإسلامية وهو أول ميناء إسلامي لأول عاصمة إسلامية فالجار نصفها علىٰ الساحل والنصف الثاني في جزيرة في البحر.

وقد وصف الجغرافيون الجار بأنه فرضة المدينة به قرية كثيرة السكان والمساكن[٩] وهذا يعني أنها آهلة عامرة وينتمي سكانها إلىٰ بعض القبائل العربية التي كانت تنشر الأمن والاستقرار وتمارس النشاط التجاري، من مختلف الأجناس العربية

---

(١) أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: علماء الشرق والغرب، مكتبة الثقافة الدينية بمصر، ١٣٢/١.

(٢) جمال الدين يوسف بن يعقوب ابن المجاور: تاريخ المستبصر، طبعة ليدن، ١٩٥١م، ص٥٠.

(٣) نور الدين علي بن أحمد السمهودي: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣/ ١٩٧٢م. ١٧٧٣/٤.

(٤) إلا أنه في كتابه شمال غرب الجزيرة يذكر بأن موقع الجار هو البريكة، انظر: حمد الجاسر: بلاد ينبع، منشورات دار اليمامة، الرياض، ص٤٩.

(٥) عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، نادي الطائف الأدبي، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٠م، ٣٤١/١.

(٦) ضيف الله بن يحيىٰ الزهراني: ميناء الجار، الحضارة الإسلامية وعالم البحار، بحوث ودراسات، منشورات ندوة إتحاد جمعية المؤرخين العرب بالقاهرة، جمادىٰ الأولىٰ، ١٤١٤هـ/ نوفمبر ١٩٩٣م، ص٢٤٢.

(٧) نفس المرجع السابق: ص٢٤٢.

(٨) جمال الدين يوسف بن مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار الفكر، ودار صادر، بيروت، ١٥٤/٤.

(٩) أبو القاسم محمد بن علي النصيبي ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة دار الحياة، بيروت، ص ٣٩؛ الأصطخري: المسالك والممالك، ص١٩.

وبعض القبائل داخل الحجاز. بل أن ابن حوقل في القرن الرابع الهجري يصفها بأنها أصغر من جدة "وكانت عامرة كثيرة التجارات والأموال"[١].

وقد وصف لنا عرام بن الأصبغ السلمي الجار بقوله "والجار علىٰ شاطئ البحر. وبها منبر – أي جامع تصلىٰ فيه الجمع ويخطب علىٰ منبره – وهي قرية كبيرة آهلة وشرب أهلها من البحيرة بالجار قصور كثيرة ونصف الجار في جزيرة من البحر ونصفها علىٰ الساحل[٢] ويشير المقدسي بأن الجار محصنة بثلاث حيطان والرابع البحر[٣].

وللجار اسم آخر يعرف عند أهل تلك المنطقة وهو اسم "الكزابير" وهي تعني عندهم التلال أي الكثبان الرملية[٤].

وبعد هذا العرض التاريخي لموقع ووصف الجار يجدر بنا أن نحدد موقعه حالياً: فهي تقع بين ينبع شمالاً ورابغ جنوباً، شمال غرب قرية الرايس بنحو تسعة كيلومترات، وتبعد عن المدينة المنورة بنحو ١٨٠كلم فهي تقع عند دائرة عرض ٧٠ و ٣٨ درجة وطول ٦٠ و ٢٣ درجة[٥].

أما مدينـة جدة فهي من أكبر مدن الحجاز من حيث عدد السكان بعد مكة المكرمة وتقع غرب مكة وترتبط بها بخط مزدوج باتساع ٢٤ متراً وهي علىٰ بعد ٧٣كلم منها وتقع علىٰ الساحل الشرقي من البحر الأحمر وترتفع ٣٦ قدماً[٦] عن سطح البحر وتقوم علىٰ أرض مسطحة. وهي علىٰ خط طوله ٣٩ درجة و ٢١ درجة عرض شمالاً.

ومن ناحية تسمية جدة أفاضت كتب التاريخ فيها علىٰ أن أصل نشأتها تم علىٰ يد مجموعة من الحواتين "وهم عرب أقاموا بها عرائشهم للسكن والراحة من عناء الصيد"[٧] وأنها سميت جدة علىٰ اسم أم البشر "حيث دفنت أم البشر فيها"[٨].

ومما يدلنا علىٰ قدمها ما ذكره أحمد بن داود الدينوري أن الاسكندر المقدوني جاء مكة في حياة النضر بن كنانة ثم قطع البحر من جدة يؤم بلاد المغرب[٩] والاسكندر عاش في القرن الرابع قبل الميلاد ولكن الذي يجمع عليه كتب التاريخ أن

---

(١) صورة الأرض، ص٣٩.
(٢) عرام بن الأصبغ السلمي: أسماء جبال تهامة وسكانها، ٩/ ١٠.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط ليدن، ١٩٠٦م، ص٨٣.
(٤) عبد القدوس الأنصاري: "رحلة إلىٰ الجار" مجلة المنهل، جدة، السنة ٣٧، المجلد ٣٢، السنة ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص٤٦٧.
(٥) ضيف الله الزهراني: ميناء الجار، ص٢٤٣.
(٦) محمود أبو العلا: شبه الجزيرة، مطبعة البيان، القاهرة، الطبعة الأولىٰ، ص٧٠.
(٧) عبد القدوس الأنصاري: مدينة جدة، ص٢٥.
(٨) نفس المرجع السابق: ص٣٨.
(٩) أحمد الدينوري: الأخبار الطوال، القاهرة سنة ١٩٦٠م، ص٢٤.

الخليفة عثمان بن عفان هو الذي أمر بنقل ميناء مكة من الشعيبة التي تبعد اثنىٰ عشر ميلاً جنوب جدة وذلك عام ٢٥هـ ومن ذلك التاريخ وجدة ميناء أم القرىٰ ومن أكبر مدن الحجاز وتطورها في زيادة مستمرة[١]. أي أنها نشأت في خدمة الحج وقد أعطاها ذلك اسمها فإن معنىٰ جدة هو الطريق الممتد والجدة من البحر أو النهر ما ولي البحر والجدة "بضم الجيم" في الأصل الطريفة[٢].

والفضل في نشأتها ووجودها كمدينة وميناء بحري رئيسي وبوابة لمكة المكرمة يعود إلىٰ فجوة وحيدة مجاورة في سلسلة الجبال الواقعة إلىٰ الشرق من المدينة وبالتحديد الممر الذي أحدثته عمليات التعرية والمتمثلة في وادي غليل الذي أصبح الطريق الرئيسي الذي يصلها بمكة. بالإضافة إلىٰ الشق الطبيعي في سلسلة الشعاب المرجانية التي تحف بشاطئ البحر الأحمر[٣].

لذا فقد كان دورها الأساسي والتاريخي كونها ميناء ومدخلاً إلىٰ الأراضي المقدسة ونقطة مرور للحركة التجارية الأمر الذي جعلها تصبح أهم مراكز للاستيراد والتوزيع، فهي تسيطر علىٰ معظم النشاط الاقتصادي لوجود الميناء بها[٤].

وقد ذكر المقدسي : (أن جدة مدينة علىٰ البحر) [٥] وجاء في معجم ما استعجم أن جدة ساحل مكة معروفة سميت بذلك لأنها حاضرة البحر، والجدة من البحر والنهر ما ولي البحر[٦] وأنها تحد جزيرة العرب غرباً[٧].

وإن بجدة رسوم قديمة تدل علىٰ قدم اختطاطها وأن سلمان الفارسي رضي الله عنه وأهله سكنوها وهم الذين بنو سورها الأول وهم قوماً تجار، وقيل الذي بناها "يزدجرد" والمشهور أنه من بنيان الفرس إجمالاً وجعلوا لها أربعة أبواب: باب الدومة من جهة الشام، وباب المدبغة من جهة اليمن وباب مكة من جهة القبلة وباب الفرضة مما يلي البحر[٨].

---

(١) الفوزان: إقليم الحجاز، ص٤٠.
(٢) الحموي: معجم البلدان، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٠٦، ٦٧/٣.
(٣) محمد أحمد الرويثي: سكان المملكة العربية السعودية "دراسة جغرافية ديموغرافية" الطبعة الأولىٰ، القاهرة، ١٩٧٨م، ص١٣١- ١٣٢؛ فاطمة عبد العزيز سليمان الحمدان: مدينة جدة الموقع البيئة العمران السكان، دار المجتمع، جدة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٠هـ، ص٢٦.
(٤) فاطمة الحمدان: مدينة جدة، ص٢٦.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، هولندا، ١٩٠٩م، ص٧٩.
(٦) عبد الله بن عبد العزيز البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بمصر، ٣٧١/٢.
(٧) نفس المصدر السابق: ٦/١ ؛ عبد القدوس الأنصاري: تاريخ مدينة جدة، دار الأصفهاني، بجدة، ١٣٨٣هـ، ص٩.
(٨) محمد يوسف محمد حسن الطرابلسي: جدة، حكاية مدينة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، ص٥١-٥٢.

وبعد هذا العرض الموجز عن الحجاز ومدنه الرئيسية يجدر بنا أن نبين أهمية هذا الموقع بالنسبة لشبه الجزيرة العربية:

أن الحجاز يعد أهم جزء في شبه الجزيرة العربية بما احتواه من مقدسات ومشاعر دينية ولاحتضانه المدينتان مكة المكرمة والمدينة المنورة اللتان رفع الله من شأنها منذ عصور قديمة فبيت الله الحرام قد رفعت قواعده في مكة منذ عهد سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام وجاء من بعده رسولنا الكريم محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فأحيا ملة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم عليه السلام. أما المدينة فهي ذات التاريخ العريق التي زادت عراقتها وازدهرت حضارتها بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام إليها واتخاذها حاضرة الدولة الإسلامية ثم احتوائها علىٰ مسجده ومثواه الشريف وكل هذا جعلها تتبوأ مكانتها لتكون مدينة دينية إسلامية شهيرة تهوىٰ إليها أفئدة المسلمين من كل مكان[1].

ظل الحجاز كمصطلح جغرافي منطوياً علىٰ شيء من التماوج. منتشراً حيناً منحسراً أحياناً وربما متداخلاً مع إقليم أو أكثر في شبه الجزيرة مما حال دون استقرار حدوده لدىٰ الجغرافيين العرب واختلاف معالمها بين حين وآخر فالدور المتميز الذي شغل هذا الإقليم كأحد المحاور المهمة في حركة التجارة العالمية قبل الإسلام كان انعكاساً لهذا التذبذب الذي فرضته البيئة بشتىٰ مظاهرها المنسجمة والمتناقضة في الوقت نفسه حيث كان تدخلها واضحاً في النمط الحياتي للمنطقة بكاملها سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية[2].

فمن الناحية الاقتصادية وخاصة في مجال التجارة كان أهمية موقع الحجاز وخاصة في أهم مدنه مكة المكرمة أن الشخصية التاريخية لمكة ملتصقة بالكعبة التي تطورت إلىٰ حلقة مركزية لعبادات العرب قبل الإسلام فثمة صورة أخرىٰ لا تنفصل عن هذه المدينة وهي صورة التاجر المتفوق الذي سخر كافة الإمكانات والمرافق بما فيها الكعبة في سبيل مصالحه الاقتصادية. فقد اندرجت هذه المدينة من تجمع صغير في بقعة مجدبة إلىٰ أشهر مراكز الاستقطاب لقبائل البدو، قبل أن تطل علىٰ تجارة الشرق وتصبح الوسيط المحوري فيها[3].

إن أصالة وعراقة شبه الجزيرة وبخاصة الحجاز جعلت المسلمين بجميع فئاتهم ومراتبهم يتشوقون إلىٰ سماع أخبارها فكانت في عصر الرسالة وصدر الإسلام تعد المركز الرئيسي للعالم الإسلامي ولكن بعد عصر الخلفاء الراشدين صارت ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية ومع ذلك فقدسيتها بقيت ولا زالت عند جميع المسلمين حتىٰ

---

(١) غيثان بن علي بن جريس: دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، ص١٢-١٣.

(٢) إبراهيم بيضون: الحجاز والدولة الإسلامية، دار النهضة العربية، ١٩٩٥م، ص٢٥.

(٣) نفس المرجع السابق: ص٦٧.

وإن فقدت مركز الصدارة السياسي والزعامة التي كانت تتمتع بها في صدر الإسلام ولعل انتقال مركز الثقل السياسي منها إلىٰ حواضر إسلامية أخرىٰ كدمشق أو بغداد أو القاهرة قد ساهم بشكل أساسي في جعل تاريخ شبه الجزيرة – بعامة ، والحجاز منها علىٰ وجه الخصوص – يعتريه بعض القصور والغموض وأحياناً الإهمال في بعض الفترات الزمنية من قبل المؤرخين ومدوني التراث عبر العصور الإسلامية[1].

وليس معنىٰ هذا النقص أنه لا يوجد رصيد حضاري مدون بل هناك بعض الشذرات المتناثرة في كتب التراث عن شبه الجزيرة العربية عامة ونلاحظ أن الحجاز يعد رغم ذلك أوفر حظاً من غيره من أجزاء شبه الجزيرة العربية والسبب في ذلك يعود إلىٰ المنزلة الدينية التي يتمتع بها ورغم ذلك فما دُوِّن من تاريخه السياسي والحضاري لا يفي تماماً بالغرض المنشود[2].

كذلك منطقة الحجاز ذات أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية، لكونها جسراً يصل بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط، واليمن والمحيط الهندي وما يقع علىٰ سواحله كلها غنية بمحصولاتها الثمينة ولذلك صارت أرضها منذ القدم طريقاً للتجارة والتجارات وصارت مرافئها منازل للبحارة وملاجئ لسفنهم المحملة بالأموال[3].

وقد ارتفع شأن الحجاز ارتفاعاً كبيراً بعد ظهور الإسلام إذ قامت به الدولة الإسلامية في يثرب في عهد النبي عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم فاستطاعت أن توحد الجزيرة العربية تحت سلطانها ثم اندفع العرب منها إلىٰ المجال الخارجي فتكونت دولة عظيمة غيرت مجرىٰ التاريخ العام، ووجهت الأحداث وجهة أخرىٰ[4].

---

(١) غيثان بن جريس: دراسات في تاريخ الحجاز، ص١٣-١٤.
(٢) نفس المرجع السابق: ص ١٥.
(٣) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٦٨م، ص٣.
(٤) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة، ص٥.

الفصل

التعريف بالرحالة المشارقة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ومنهجهم في الرصد التاريخي

- ❁ المبحث الأول : اليعقوبي. حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث الثاني : ابن الفقيه . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث الثالث : ابن خرداذبة . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث الرابع : ابن رسته . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث الخامس : الاصطخري. حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث السادس : المسعودي . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث السابع : الهمداني . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث الثامن : ابن حوقل . حياته ، مصنفاته ، منهجه .
- ❁ المبحث التاسع : المقدسي . حياته ، مصنفاته ، منهجه .

المبحث الأول
اليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ)

- حياتـــــــــه.
- مصـــــــنفاته.
- منهجـــــــه.
- وفاتــــــــه.

اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ)

حياتــه:

أبو العباس أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي[(١)] ولقب بالأصبهاني والكاتب المصري [(٢)] وهو أحد أحفاد واضح مولىٰ المنصور وكان الجد قد شغل وظيفة الحاكم علىٰ أرمينيا ومصر[(٣)].

ومن المحتمل أن يكون الابن قد حذا والده في حب الأسفار وربما ارتبط بعمل عامل البريد ولا دليل غير كثرة أسفاره وارتباط أغلب رجال أسرته بالوظائف الحكومية[(٤)].

كما أشارت بعض المصادر إلىٰ أن اسمه أحمد العباسي[(٥)]. ومن الملاحظ أن الألقاب التي عرف بها رحالتنا جاءت إما نسبة إلىٰ المدينة التي ينتمي لها أو البيت العباسي الحاكم الذي ورثه عن جده واضح الذي كان أحد موالي المنصور ومن المقربين إليه، والمعتمد عليه في المهمات[(٦)].

وتشير المصادر إلىٰ أن ولادته كانت في بغداد التي نشأ وترعرع فيها غير أنه غادرها مبكراً إلىٰ أرمينيا حيث أمضىٰ فترة شبابه هناك في خدمة الطاهريين[(٧)].

---

(١) ياسين إبراهيم الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٨٠م، ص١١ ؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، ١/ ٩٠-٩١؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين، ١-١٦١.

(٢) ياقوت الحموي،شهاب الدين أبو عبد الله: معجم الأدباء إرشاد الأريب إلىٰ معرفة، دار المأمون، ١٥٣/٥-١٥٤.
البغدادي: هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف استانبول، ١٩٥٥، مكتبة المثنىٰ، بغداد، ٥٢/١ ؛ محسن الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة، ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨، ٩٠/١-٩١.

(٣) اغناطيوس يُوليا نوقنش كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تحقيق: صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، ١٥٨/١.

(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ط٢ ، ٢٠٠٢م، الدار العربية للكتاب ، ص ١١٧. ويروىٰ أن والد اليعقوبي كان من كبار أعمال البريد.

(٥) شهاب الدين ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ط٣ ، ١٤٠٠هـ ، دار الفكر، ١٥٣/٥-١٥٤. إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين ٥٢/١.

(٦) أبي سعيد عبد الكريم محمد بن منصور التميمي السمعاني: الأنساب، مطبعة دائرة المعارف العثمانية – حيدر آباد، ١٣٨٢هـ، ص ٤٦٩-٤٧٠. أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرىٰ بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (القاهرة، ١٩٣٠م) ٤٠/٢، ٤١.

(٧) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٥٨/١، الدولة الطاهرية: تأسست علىٰ يد طاهر بن الحسين في خراسان في زمن الخليفة العباسي المأمون، مكافأة له علىٰ المعاونة الحربية التي بذلها في سبيل نصرة المأمون علىٰ أخيه الأمين، حيث اتخذ طاهر مدينة نيسابور في خراسان قاعدة له.

وينحدر اليعقوبي من أسرة تعتنق المذهب الشيعي فجده واضح كان من المتعصبين إلىٰ هذا المذهب وينتسب إليه إدريس... [(١)] الذي قام بتهريبه إلىٰ المغرب إذ بان عمله في بريد مصر، ودفع حياته ثمناً لذلك [(٢)].

تعليمه :

لقد أبدىٰ المؤرخ والرحالة اليعقوبي ولعاً بعلم البلدان منذ عنفوان شبابه والتي عبر عنها بقوله: "إني عانيت في عنفوان شبابي وعند احتيال سني وحدة ذهني بعلم وأخبار البلدان ومسافة ما بين كل بلد وبلد لأني سافرت حديث السن واتصلت أسفاري ودام تغريبي" [(٣)].

غير أنه من الملاحظ أن المعلومات التي تتطرق إلىٰ مراحل حياته شحيحة جداً ولم يعتن بها كثيراً ممن أرخ له، فقد أهملت المصادر القديمة الحديث عن حياته ومؤلفاته وربما يعود ذلك إلىٰ اليعقوبي نفسه إذ كان مثالاً للعالم المتجرد الذي يعمل في صمت بعيداً عن الأضواء فمن ملاحظة مقدمات كتبه نراه لم يذكر شيئاً عن نفسه ولم يدع الكمال في كتابة بحوثه كما فعل غيره.

وعلىٰ كل حال فقد أصبح من أبرز علماء الجغرافيا في أواخر القرن الثالث الهجري وهو أول جغرافي من المسلمين وصف الممالك معتمداً علىٰ ملاحظاته الخاصة وقد سافر كثيراً وطاف أنحاء المملكة الإسلامية فنزل أرمينية وورد خراسان. وأقام بمصر والمغرب بل رحل إلىٰ الهند[(٤)].

وكانت تأسيسها عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٠م وسقطت سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م وكان آخر من تولىٰ الحكم من الأسرة الطاهرية هو محمد بن طاهر. انظر:أحمد مختار العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٧٢م، ص ١٤٩.

(١) إدريس بن عبد الله، حضر وقعة فخ وهرب إلىٰ مصر وكان واضح علىٰ بريد مصر فحمله علىٰ البريد وهربه إلىٰ بلاد المغرب؛ انظر: الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي خوية ١٨٨٣م، ٥٩١/١٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ٤٠/٢ -٤١.

(٢) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ الجغرافي، ص٢٩، وحول مقتل "واضح" أيضاً فأورد الطبراني روايتين الأول إن الذي قتله الهادي عندما أفلت من وقعة فخ في خلافة الهادي وذهب إلىٰ مصر وأخذ بريد مصر ومن ثم ذهب إلىٰ أرض طنجة بمدينة يقال لها (وليلة) وبها ضرب عنقه وصلبه الهادي، الرواية الثانية، أن مقتله في عهد الرشيد حيث دس إلىٰ إدريس [الشماخ اليماني] مولىٰ المهدي الذي كتب إلىٰ إبراهيم الأغلب عامله إفريقية، فخرج إلىٰ وليلة وذكر أنه طبيب أتىٰ من واليه واطمأن إليه إدريس وشكا له إدريس عمله في أسنانه، فأعطاه سنوناً مسموماً وأمره أن يستن به عند طلوع الفجر وفعل ذلك حتىٰ قتل بسبب هذا السم، انظر: الطبري، الرسل والملوك، دار ومكتبة الهلال، مراجعة نواف الجراح، ط١، ١٦٩١/٥-١٦٩٢.

(٣) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر: البلدان، طبعة ليدن، دي خوية ١٨٩٢م وطبعة النجف، ص٢.

(٤) علية عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، مجلة المنهل العدد (٥٠٠) المجلد ٥٤، جمادىٰ الأولىٰ وجمادىٰ الآخرة، ١٤١٣هـ/ نوفمبر وديسمبر ١٩٩٢م، ص ١٦٧.

مشائخه وتلاميذه (من استفاد من مؤلفاته) :

غير أن المصادر لا تسعفنا في تتبع مشائخه الذين تتلمذ علىٰ أيديهم أو تلاميذه الذين استفادوا منه ولعل ذلك نتيجة تجواله في العالم الإسلامي وعدم استقراره.

وحسب ما عرفناه عن حياة اليعقوبي أنه لم يخدم في بغداد لأنه غادرها مبكراً ويفترض أنه خدم في الدولة الطاهرية لأنه بقىٰ فيها مدة طويلة. أما عن دقة معلوماته فجاءت نتيجة لمركزه عند أمراء الأقاليم كالطاهريين والطولونيين [١] ومركز عائلته مكنته من أن يحصل علىٰ أدق المعلومات من مصادرها الأصلية[٢].

أما الذين استفاد من مؤلفات اليعقوبي:

الجيهاني (الجبحاني):

عبد الله بن أحمد بن محمد الملقب بالجبحاني من جغرافي القرن الرابع الهجري وكان يعيش في خراسان وألف كتاباً أسماه (كتاب المسالك في معرفة الممالك) [٣]. وهو أحد المتأثرين باليعقوبي إذ أن كتابه المذكور كان معتمداً علىٰ كتاب البلدان الذي ألفه اليعقوبي وفي ذلك يقول الباحث المستشرق كراتشكوفسكي: (فإنه يمكن استشفاف بعض صلة الرحم بين هذا المصنف وكتاب ابن خرداذبة بل وكتب بعض المؤلفين كاليعقوبي وخاصة الجاحظ وابن الفقيه) [٤].

المسعودي[٥]:

يرىٰ الباحث آدم متز أن المسعودي لم يفعل من ذلك أكثر مما فعله اليعقوبي مع أن حبه للاستطلاع حمله إلىٰ بلاد نائية في إفريقيا وفي الصين وتكلم في كتبه التاريخية عن كثير مما لقيه من التجارب والمشاهدات في أسفاره. هذا ما تجنبه اليعقوبي وتحاشاه تحاشياً تاماً[٦]. ويعلق أحد المؤرخين المحدثين إلىٰ هذا النص أن المسعودي حذا حذو اليعقوبي في سياحته ورحلته ولم يأت بشيء زيادة عما قام به اليعقوبي[٧].

---

(١) الدولة الطولونية: نسبة إلىٰ أحمد بن طولون، فاستمرت هذه الدولة من (٢٥٤-٢٩٢هـ، ٨٦٨-٩٠٥م) انظر، العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، ص ٢٧.

(٣) ابن سعيد المغربي: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، طبعة المكتب التجاري بيروت ١٩٧٠م، ص٣٤-٣٥.

(٤) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ٢٢٠/٢.

(٥) سوف تكون هناك ترجمة خاصة للمسعودي في المبحث السادس في هذا الفصل.

(٦) آدم متز: الحضارة الإسلامية، ١٠/٢؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ٢٢٢.

(٧) الجعفري: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

المقدسي[١]:

يشير المقدسي في مقدمته التي افتتح بها كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) حين قال: (أعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صنفوا في هذا الباب وإن كانت مختلة غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم ونحن فلم يبق إقليم[٢] إلا وقد دخلناه وأقل سبب إلا وقد عرفناه وما تركنا مع ذلك البحث والسؤال والنظر في الغيب فانتظم كتابنا هذا بثلاثة أقسام أحدهما ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وفي غيره..) [٣].

فإذا قارنا هذه المقدمة مع مقدمة اليعقوبي بذكر مصادره التي هي المعاينة أي زيارة المناطق وسؤال الموثوق بهم حيث يقول: (ثم اثبت كل ما يخبرني به من أثق بصدقه)[٤].

فإننا نلاحظ مدىٰ التشابه بين المقدمتين، وإن كانت مقدمة المقدسي تبدو أكثر حيوية في العرض وربما كان ذلك الفارق الزمني بينهما[٥].

ياقوت الحموي:

أيضاً من الذين استفادوا من مؤلفات اليعقوبي ياقوت الحموي العالم الجغرافي الذي ولد من أبوين يونانيين في آسيا الصغرىٰ سنة ٥٧٥هـ. وتوفي في حلب سنة ٦٢٥هـ. ولقب بالرومي لأنه اختطف في إحدىٰ الغزوات وهو صبي واشتراه تاجر يدعىٰ عسكر بن إبراهيم الحموي. حيث قام بتعليمه ثم اعتقه، وله مصنفات عديدة أهمها: معجم البلدان[٦].

فقد كان تأثير اليعقوبي في إنتاج الحموي واضحاً، حيث كان ياقوت الحموي صادقاً مع نفسه حين اعترف بمصادره التي استقىٰ منها معلوماته حيث يقول[٧]: (صنف المتقدمون في أسماء الأماكن كتباً وبهم اقتدينا وهي صنفان: منها ما قصد بتصنيفه ذكر المدن المطمورة والبلدان المكونة ومنها ما قصد به ذكر البوادي والقفار

---

(١) سوف تأتي ترجمته في المبحث التاسع من هذا الفصل.

(٢) يقصد بالإقليم البلد وفي ذلك يقول المقدسي: ولابد لكل إقليم من كورشم لكل كورة من قصبة ثم لكل قصبة من مدن إلا الجزيرة والمشرق والمغرب؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن ١٩٠٩م، ص ٣٧.

(٣) نفس المصدر السابق: ص١

(٤) اليعقوبي: البلدان، ط٣ ، النجف ١٩٥٧م، ص٢.

(٥) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ٢١٣/٢.

(٦) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، ص ٢٢٦.

(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة ١ ، القاهرة ١٣٢٥هـ. ص (المقدمة).

واقتصر علىٰ منازل العرب الواردة في أخبارهم والإشعار. فأما من قصد ذكر العمران فجماعة وافرة من القدماء أفلاطون [1] بطليموس [2] وسموا كتبهم صورة الأرض وطبقة أخرىٰ إسلاميون سلكوا قريباً من طريقة أولئك من ذكر البلاد والممالك وعينوا مسافة الطرق والمسالك وهم ابن خرداذبة وابن واضح والجيهاني والفقيه).

فيكفي اليعقوبي فخراً أن يكون ياقوت الحموي أحد عظماء عصره في عداد المستفيدين من كتب ومؤلفات اليعقوبي [3].

القزويني:

وأيضاً من الذين استفادوا من مؤلفات اليعقوبي القزويني، وهو زكريا بن محمد القزويني. ولد في مدينة قزوين التي ينتسب إليها في سنة ٦٠٠هـ تولىٰ القزويني القضاء في عهد المعتصم في عدد من مدن العراق ولاسيما في واسط وقد توفىٰ في سنة ٦٨٢هـ[4].

وقد اعتمد علىٰ مصنفات اليعقوبي خاصة في كتابه: أثار البلاد وأخبار العباد إذ تواجهنا جملة نقولات عن اليعقوبي[5].

فهؤلاء بعضاً من الذين استفادوا من اليعقوبي (ابن واضح) من مؤرخين وجغرافيون فاعتبرتهم من تلاميذ اليعقوبي أو من استفاد من مؤلفات وكتب اليعقوبي الرحالة والجغرافي الذي نعتبره واضع "أول تاريخ عالمي، وواضع أول كتاب للبلدان" [6]

هذا ما تسعفنا به المصادر التاريخية القديمة والحديثة من إشارات عامة إلىٰ هؤلاء الجغرافيون الذين استفادوا من اليعقوبي والذي وصفه أحد المحدثين بأنه

---

(١) أفلاطون: ابن أرسطن، ومعناه الفسيح وذكر ثاون أن أباه يقال له أرسطو وهو معلم وفيلسوف يوناني، أسس مدرسة للفلسفة والعلوم من أهم المفكرين في تاريخ الثقافة اليونانية ، عاش أحد وثمانين سنة، انظر: ابن النديم، أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب: الفهرست، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٦هـ، ص ٤٠١.

(٢) بطليموس: صاحب كتاب المجسطي في أيام أدريانوس وأنطينوس وفي زمانهما رصد الكواكب وهو أول من عمل الأسطرلاب الكري، والآلات النجومية، والمقاييس، ويلقب بالقلوذي وهو يوناني الأصل نبع في أواسط القرن الثاني الميلادي، ولد وتوفي في مصر، انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع، دار اليمامة الرياض، ١٣٩٧هـ، ص ١١

(٣) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي ، ص ٢٢٧.

(٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٧.

(٥) زكريا محمد بن محمود القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ط١، دار صادر بيروت. ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، ص ١٨٧ ؛ انظر ياسين الجعفري: ص ١٢٨.

(٦) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م، ص٨.

المؤسس الحقيقي للجغرافية الإقليمية الوصفية هذا من الوجهة العامة أما من الخاصة فقد وجدناه قد عكس تأثيراته المباشرة علىٰ العديد من الجغرافيين اللاحقين [1].

مصنفات اليعقوبي:

ومما لا يحتاج إلىٰ إثبات أن اليعقوبي أحد أهم الجغرافيين والرحالة والمؤرخين خلال القرن الثالث الهجري ويحظىٰ بقدر كبير من الاحترام لدىٰ الباحثين لأمانته العلمية حيث كان علىٰ مستوىٰ علمي وعقلي رفيع وإطلاع متنوع وثقافة علمية واسعة مكنته من أن يخرج لنا بإنتاج علمي، فياقوت الحموي ذكر لنا تصانيف اليعقوبي المتنوعة والتي تشمل[2]:

١- كتاب التاريخ.
٢- كتاب أسماء البلدان أو البلدان.
٣- كتاب في أسماء الأمم السالفة.
٤- كتاب مشاكلة الناس لزمانهم.

١- مصنف التاريخ (تاريخ اليعقوبي) [3]:

المعروف بتاريخ اليعقوبي طبع في ليدن علىٰ يد (هورتسما) Hortzmahs سنة ١٨٨٣م في جزئين الأول في التاريخ العام القديم والثاني في تاريخ الإسلام مرتب حسب الخلفاء إلىٰ عصر المعتمد علىٰ الله سنة ٢٥٩هـ. وهناك نسخة أخرىٰ من تاريخ اليعقوبي مطبوعة في مطبعة النجف بالعراق. وكذلك نسخة مطبوعة في بيروت في لبنان في دار بيروت سنة ١٩٧٠م. في جزئين وكذلك سنة ١٣٧٩هـ نشرته دار صادر في بيروت.

والجزء الأول من كتاب تاريخ اليعقوبي بدأه من قصة آدم عليه السلام مع أن مقدمة هذا الجزء غير موجودة من كتاب تاريخ اليعقوبي قد ضاعت مقدمته حيث بدأ في منتصف قصة آدم عليه السلام. أما الجزء الثاني فهو ضعف الجزء الأول تقريباً حيث خصص لتاريخ الإسلام[4].

ففي هذا الكتاب حشد اليعقوبي معلومات شاملة عن أخبار العالم قبل الإسلام كما قام بدراسة شاملة عن خصائص الحضارة العربية والإسلامية وبعض الملاحظات علىٰ

---

(١) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ٢٣٩-٢٤٠.
(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار المأمون، ١٥٣/٥-١٥٤؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي، ص ٤٠.
(٣) أحمد رمضان: الرحلة والرحالة، دار البيان العربي، جدة، ص٧١؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي،ص ٤١؛ علي عبدا لله الدفاع: رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية، ط١ ، النادي الأدبي بجازان ١٤٠٩هـ، ص٧٩.
(٤) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م، ق٢، ج٤/ ٦٤٣.

نتاج بعض المؤرخين السابقين له. وفيه أخضع التاريخ للفلسفة لذا يعتبر اليعقوبي من كبار المفكرين في مجال الجغرافية والتاريخ حيث امتاز بقدرته علىٰ إدراك الجزيئات إدراكاً بارعاً حتىٰ صار مؤلفه (تاريخ اليعقوبي) عبارة عن إناء شامل للحياة العقلية والعقائدية والأخلاقية والأدبية(١).

٢- كتاب أسماء البلدان:

وقد عرف فيما بعد بكتاب البلدان: ويوجد منه مخطوطة فريدة كان قد جلبها المستشرق مخلينسكي Mukhlinski (١٨٠٨-١٨٧٧م) الأستاذ في جامعة سطرسيرنح من المشرق وهي الآن في ميونخ(٢).

ويرجع تاريخ تأليف هذا الكتاب إلىٰ حوالي ٢٧٨هـ/٨٩١هـ(٣). وقام بطبعه في ليدن المستشرق الهولندي دي خويه عام ١٨٩٢م. ضمن مكتبة الجغرافيين العرب(٤).

ووجد في المكتبة المركزية (مكتبة الملك عبدا لله) بجامعة أم القرىٰ كتاب البلدان مع كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته في نسخة واحدة، طبعة ليدن ١٨٩١م. في القسم الثاني من الكتاب.

وقد أجمع الكتاب كذلك علىٰ أن كتاب البلدان يشبه التقاويم الجغرافية الحديثة وقد تناثرت فيه محاولات لتقرير حقائق جغرافية طبيعية وجغرافية بشرية لجهات كثيرة لم يكن معاصراً لها فحسب. بل أنه شاهدها بعينه ووقف عليها بنفسه ولذلك جاء كتابه كتاباً قيماً له مكانته العلمية عند العرب وعند الغربيين بلا منازع فوصفوه فيما وصفوه بالأمانة العلمية(٥).

وقد جعل اليعقوبي مؤلفه كتاب البلدان مختصراً لأخبار البلدان فذكر أسماء الأقطار والأجناد والكون وما في كل مصر من المدن والأقاليم ومن يترأس فيه من قبائل العرب وأجناس العجم ومسافة ما بين البلد والبلد والمصر والمصر، ومن فتحه من قادة جيوش الإسلام وتاريخ ذلك في سنته وأوقاته ومبلغ خراجه وسهله وجبله وبره وبحره وهواءه في شدة حره وبرده ومياهه وشربه(٦).

ويعتمد كتاب البلدان علىٰ مصادر أدبية ومعلومات ذكرها الرحالة ويعنىٰ إلىٰ

---

(١) عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص٨٠.
(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٥٨-١٥٩؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي، ص٤٢.
(٣) ياسين الجعفري: اليعقوبي، ص٤٢.
(٤) الجعفري: نفس المرجع والصفحة.
(٥) نفيس أحمد: جهود المسلمين بالجغرافية، القاهرة (د.ت) دار القلم بالقاهرة، ص٤٦؛ علي محسن عيسىٰ مال‌الله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق نشأته وتطوره حتىٰ نهاية القرن الثامن الهجري، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٨م، ص ٦٥.
(٦) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، دمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مطبعة التعاونية، ص٢٤٩.

جانب وصف المدن الكبيرة الخاصة بالجغرافية الاقتصادية وإحصاءات الجباية[١].

وقد انتهىٰ اليعقوبي في مصنفه البلدان والذي أنجزه في مصر إلىٰ خلافة المعتمد العباسي المتوفىٰ سنة ٢٧٧هـ وهو بذلك يعتبر أقدم كتاب وصل إلينا[٢].

وكتابه البلدان يمتاز عن غيره بالغزارة وبدقة التفاصيل التاريخية التي عرضها اليعقوبي عن المقاطعات والمدن التي تناولها بالوصف كذلك عالج جغرافية المغرب العربي معالجة علمية نادرة معتمداً علىٰ الوثائق التاريخية والجغرافية النافعة [٣].

كما يتميز كتاب البلدان باحتوائه علىٰ الثروة العلمية التي لا تقدر بثمن ويعتبر بحق الملتقىٰ الذي تتقابل فيه الجغرافية القديمة بالجغرافية الحديثة[٤].

ومن خلال استقراء كتب الرحالة المشارقة نجد أنه قد احتوىٰ علىٰ تفاصيل غزيرة عن المدن الرئيسية في بغداد وسامراء والكوفة والبصرة كما شمل علىٰ تفصيلات مسهبة عن طريق المواصلات في بلاد فارس ومعلومات تاريخية واسعة عن المدن والمقاطعات والبلدان التي وصفها. إذ أن الطابع التاريخي يغلب علىٰ معلوماته ولم يكن الحس الجغرافي قد توضح لديه بعد [٥].

ولذلك فإنه يعتبر من أهم الكتب البلدانية التي اعتمد عليها الرحالة والمؤرخين والجغرافيون في خبراتهم ومشاهداتهم الشخصية في تسجيل المعلومات عن البلدان وقد خطىٰ كتاب البلدان بشهرة واسعة في العالم الغربي حتىٰ أن البعض وصف كاتبه بأنه (أبو الجغرافية العربية) [٦].

٣- كتاب في أسماء الأمم السالفة:

وهو كتاب صغير جداً ولم تشر المصادر التي تحدثت عن مؤلفات اليعقوبي عندما احتواه هذا المؤلف غير أنها نعتته بأخبار الأمم السالفة[٧].

---

(١) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص٢، ج ٤ / ٦٤٣.

(٢) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ١٣٨٩هـ، دار الفكر، دمشق، ص ١٧٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧٣؛ علىٰ الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٧٨.

(٤) الدفاع: المرجع السابق، ص ٨٠.

(٥) شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، مطبعة دار السلام – بغداد ١٩٧٩م، ص ٩

(٦) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٧) الزركلي: الأعلام، ط٧ ، دار العلم ١٩٨٦م، ٩٥/١؛ البغدادي، إسماعيل باشا: هدية العارفين – أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار العلوم، بيروت ١٩٨١م، ٥٢/٥.

٤- كتاب مشاكلة الناس لزمانهم:

هو كتاب صغير علىٰ شكل رسالة تمثل نظرة حول عهود الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين حتىٰ المعتضد، ولم يستخدم اليعقوبي في هذه الرسالة حين يتناول تقاليد الخلفاء حيث قال: "فأما الخلفاء وملوك الإسلام فإن المسلمين في كل عصر تبع للخليفة يسلكون سبيله ويذهبون مذاهبه ويعملون علىٰ قدر ما يرون منه ولا يخرجون عن أخلاقه وأفعاله وأقواله"(١). وقد أشار الزركلي إلىٰ طباعتها(٢).

٥- كتاب فتح افريقية:

يستدل من كلام اليعقوبي أن له كتاباً تاريخياً آخر ذكر فيه فتح أفريقيا وفي ذلك يقول: (وقد ذكرنا فتح افريقية وأخبارها في كتاب أفردناه) (٣).

منهجـــه:

تعتبر رحلة اليعقوبي ذات منهج علمي معين وهي بذلك تختلف اختلافاً كبيراً عن الرحلات السابقة حيث استطاع أن يطبق هذا المنهج والسمة الغالبة علىٰ رحلته وهي الوصف الجغرافي بمعناه الشامل فقد وصف المدن وصفاً حضارياً مفصلاً حيث ابتدأ بوصف مدينة بغداد وسر من رأى(٤).

وبين اليعقوبي في مصادره التي اعتمدت علىٰ المعاينة أي زيارة المناطق وسؤال الموثوق بهم حيث قال: (ثم أثبت كل ما يخبرني به، من أثق بصدقه) (٥). ثم وجدنا اليعقوبي يعتمد علىٰ الكتب المدونة والمصادر المسجلة لإكمال المعلومات المتجمعة لديه لينجز كتابه بالسعي وراء الحقائق لأنه ألف كتابه معتمداً علىٰ زياراته ومشاهداته فجاء بهذا النموذج الفريد والذي يُعد مفخرة تزان به المكتبات العربية والإسلامية، إذ يعتبر مصدراً في تخطيط المدن كما يعد من أهم المراجع لمدينتي بغداد وسامراء، ومن المصادر المهمة للخراج حيث يعطىٰ إحصائيات دقيقة في نوعها وهو من المراجع المعول عليها في التاريخ حيث يتحدث عن الولاة في فترات التاريخ الطويلة ويعطي نماذج جيدة عن هؤلاء الأمراء الذين كان لهم شأن عظيم في سياسة

---

(١) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم، دار الكتاب الجديد بيروت ١٩٦٢م، تحقيق وليم ماورد، ص ٩؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ٤٥.
(٢) الزركلي: الأعلام، ٥/٥٢.
(٣) اليعقوبي: البلدان، طبعة النجف الطبعة الثالثة ١٩٥٧م، ص ١٠٣؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ٤٦.
(٤) علي محسن عيسىٰ ماله: أدب الرحلات عند العرب في المشرق: ص ٧٠.
(٥) اليعقوبي: البلدان، طبعة النجف ١٩٥٧م، ص ٣.

وإدارة شؤونها[1].

كما أنه مصدر مهم في ضبط المسافات بين مدينة ومدينة يعطىٰ هذا الحساب الدقيق بالفراسخ والأميال، ثم هو مرشد ودليل بطرق المواصلات المتنوعة برية وبحرية يقود إلىٰ أحسن الطرق المسلوكة[2].

لقد قدم اليعقوبي تصوراً رائعاً وواضحاً عن البلدان التي كتب عنها لذا من يقرأ في كتاب (البلدان) لليعقوبي يحس بأنه كتاباً مثالياً ومتقدماً، ويمتاز بالدقة وحسن الحبكة فقد وصف علىٰ سبيل المثال بغداد وصفاً دقيقاً يدل علىٰ طول باعه في كل من التاريخ والجغرافية وعلم الاجتماع[3]. لذا صار كتابه من المصادر الضرورية للباحثين في الجغرافية الطبيعية والبشرية علىٰ السواء [4].

ونستطيع علىٰ ضوء ما مضىٰ أن نقول بأن اليعقوبي اتبع منهجاً علمياً وطبقه علىٰ ما رآه وفي هذا يختلف اليعقوبي تماماً عمن سبقه من الرحالة القدامىٰ لأنه خط رحلته بيده واستفاد من خبراته الشخصية وملاحظاته العلمية الدقيقة ولذلك جاءت رحلته خالية خلواً يكاد يكون تاماً مما يدخل في باب الأساطير والأعاجيب[5].

فمن هنا أخذ يفكر بإيجاد أساس ثابت للتأليف الجغرافي يكون خاصاً بعلم الجغرافية فهداه تفكيره إلىٰ وضع افتتاحية لكتابه البلدان شرح فيها خطة عمله وطريقته في جمع مادة كتابه، وهي طريقة جديدة في التنظيم وتكاد أن تكون مشابهة للتأليف الحديث تقوم علىٰ أساس التقسيم الإقليمي[6]؛ إذ قسم الموضوعات الجغرافية علىٰ أساس الولايات، حيث نراه يقسم العالم الذي تناوله في كتابه إلىٰ أربعة أقسام حسب جهات الأرض وفي ذلك يقول[7]: "قد ذكرنا بغداد وسر من رأىٰ وبدأنا بهما لأنهما مدينتا الملك ودار الخلافة ووصفنا ابتداء أمر كل واحد منهما فلنذكر الآن سائر البلدان والمسافات فيما بين كل بلد وبلده ومدينة علىٰ قسمة أربعة حسب ما تقسم عليه الأرض بين المشرق والمغرب ومهب الجنوب وهو القبلة وهو مطلع سهيل الذي يسميه الحساب التيمن ومهب الشمال وهو كرسي نبات تعش الذي يسميه الحساب الجدي ونصف كل بلد إلىٰ الربع الذي هو منه والذي يتصل به وبالله التوفيق".

وإذا أمعنا النظر في هذا التقسيم تطالعنا من خلاله الأصالة والإبداع فهو تقسيم

---

(١) علي ماالله: أدب الرحلات: ص ٦٦؛ علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٠.
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٣) علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٠.
(٤) نفس المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٥) علي ماالله: أدب الرحلات، ص ٧٤.
(٦) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١٦٠/١، ياسين الجعفري: اليعقوبي ١٩٦-١٩٧.
(٧) اليعقوبي: البلدان، طبعة النجف، ط٣ ، ص ٣٣.

فريد لم يسبقه إليه أحد وليس صحيحاً ما قيل أن هذا التقسيم [١] مأخوذ عن بطليموس أنه قسم المعمورة من الأرض إلىٰ سبعة أقاليم وليس أربعة ولذلك يكون تقسيم اليعقوبي للعالم اتجاه جديد بعيد كل البعد عن اتجاه الجغرافية اليونانية والهندية التي قبلها[٢].

والقارئ مقدمة اليعقوبي في كتابه البلدان حيث ابتدأ هذه المقدمة بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض كما قال في مقدمته[٣]. فاليعقوبي بقوله هذا أنما يصرح بحقيقة جغرافية، فالعلم الحديث أثبتها إذ أن العراق يتوسط العالم القديم علىٰ وجه التقريب [٤].

ويقول أيضاً: (وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمىٰ التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها.. وهي مع هذا مدينة بني هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم) [٥]. وفي قوله هذا يؤكد تلك الحقيقة الجغرافية إذ أن بغداد تتوسط العراق فهي أيضاً تتوسط العالم إضافة إلىٰ ذلك فإن بغداد وفي عصره كانت حاضرة الإسلام ومقر دار الخلافة وكانت أعظم مدينة في عصره، فليس من المعقول أن يذكر غيرها مقياساً للتقسيم؛ إلا إذا أراد أن يتخذ الناحية الدينية أساساً لهذا التوزيع فيتخذ مكة والحجاز لأن فيها الكعبة المشرفة وهذا ما قام به المقدسي حين أنجز كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم[٦].

أما التطور الذي اتبعه اليعقوبي في كتابة تاريخه في ضمان صحة الخبر الذي كان يتمثل بالإسناد: حيث أوجد منهجاً جديداً في كتابة الموضوعات التاريخية وضمان صحتها باستخدام منهج الكتابة المرسلة وتميز هذا المنهج بخلوه من الإسناد[٧].

أما فيما يتعلق بالجانب التاريخي لمنهج اليعقوبي فإننا نلاحظ أن المؤرخين السابقين لليعقوبي يتبعون منهج الحولي أو حسب السنين، وكان هناك منهجاً آخر في كتابة التاريخ قوامه: الدول أو عهود الخلفاء أو الحكام.

فمنهجه هنا كان يقوم أولاً علىٰ الاختصار، وثانياً لا علىٰ التطويل[٨]، كما قال

---

(١) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٦٢م، ص١٩؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ١٩٧.

(٢) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص١٧٩.

(٣) اليعقوبي: البلدان، ط٣ ، النجف، ص ٣.

(٤) جاسم محمد الخلف: محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، مطبوعات معهد الدراسات العربية لجامعة الدول العربية، ص ١٠-١٥؛ ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص١٩٨. والثابت علمياً أن وسط الدنيا وسرة الأرض هي مكة المكرمة وليست العراق.

(٥) اليعقوبي: البلدان، ط٣ ، النجف، ص ٣-٤.

(٦) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص١٩٨.

(٧) محمد عبد الغني حسن: علم التاريخ عند العرب، ١٩٦١م، القاهرة، ص ١٦٢.

(٨) الجعفري: اليعقوبي، ص ٧٥.

في تاريخه: "وجعلناه كتاباً مختصراً حذفنا منه الإشعار وتطويل الأخبار"(١).

لذلك نراه قد ابتعد عن ذكر الخرافات والأساطير، حيث حذف منه كل مستبشع قبيح لا تقره العقول السليمة في تاريخ ما قبل الإسلام، وأيضاً ابتعد عن الأخذ بالتاريخ الفارسي واعتبره كله خرافات، وفي ذلك يقول: "ولهم أخبار قد أثبتت رأينا أكثر الناس ينكروها ويستبشعونها لأن مذهبنا حذف كل مستبشع"(٢).

والقارئ لمقدمة تاريخ اليعقوبي يجد أنه وضع في تلك المقدمة المنهج الذي سار عليه في اختيار روايات تاريخ الإسلام حيث قال: (قد ذهبنا إلىٰ جمع المقالات والروايات لأننا قد وجدناهم قد اختلفوا في أحاديثهم وأخبارهم وفي السنين والأعمال. وزاد بعضهم ونقص بعض فأردنا أن نجمع ما انتهىٰ إلينا مما جاء به كل امرئ منهم لأن الواحد لا يحيط بكل العلم)(٣).

ونفهم من هذه المقدمة أن اليعقوبي نهج منهجاً قام علىٰ الجمع للمقالات ودراستها ومقارنتها واختيار ما أجمع عليه الرواة. فمنهجه إذن قائم علىٰ الاختيار والتأليف لا علىٰ النقل والسرد(٤).

فكان اليعقوبي دقيقاً في معلوماته صادقاً في رواياته مما أعطىٰ لمؤلفاته القيمة العلمية ولرواياته التقدير من قبل الباحثين والمؤلفين وما ذلك إلا لاتباعه منهج الانتقاء من الروايات بعد تدقيقها(٥).

فمن الملاحظ أن المنهجية التي اتبعها اليعقوبي في كتابيه، البلدان والتاريخ أنها متقاربة في جمع المعلومات عن طريق المشاهدة والروايات الموثوق بها عن طريق السماع من الثقات، ونظم المعلومات في تاريخه وكيفية سردها.

وفاتــه:

اختلفت الآراء في تحديد تاريخ وفاته، فمن المعلوم أنه ألف كتابه عن تاريخ العالم الذي وصل فيه إلىٰ سنة ٢٥٩هـ بعد سقوط الدولة الطاهرية، ثم ذهب إلىٰ مصر وفيها كتب كتابه في الجغرافيا سنة ٢٧٧هـ(٦). أو سنة ٢٧٨هـ إلىٰ خلافة المعتمد العباسي أي سنة وفاة الخلفية(٧). ويحتمل أنه بعد ذلك في حدود سنة ٢٨٤هـ(٨). ومن

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ، ٦/٢.
(٢) نفس المصدر السابق، ١٥٩/١.
(٣) نفس المصدر السابق، ٥/٢.
(٤) نفس المصدر السابق، ٥/٢.
(٥) نفس المصدر السابق: ٥/٢؛ انظر، الجعفري: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، ص ٧٨ ، ٧٩ .
(٦) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص ٢٠ ، ج٤ / ٦٤٣.
(٧) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ١٧٣.
(٨) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ط١، ١٤٠٧هـ، مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر، جدة، ص٧٠ ؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٧٧، شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص٩.

ذلك يتبين أنه توفي في حدود سنة ٢٨٤هـ وهو التاريخ الذي اعتمده أغلب المؤرخين القدامىٰ والمحدثين.

وقيل أيضاً أنه كان معاصراً لابن خرداذبه[١]. وقد اعتمدت معظم كتب التراجم[٢] إضافة إلىٰ المراجع الحديثة هذا التاريخ وبالرجوع إلىٰ كتابه مشاكلة الناس لزمانهم نرىٰ أنه قد ختمه بالخليفة المعتضد أحمد بن أبي أحمد بن المتوكل سنة ٢٩٢هـ مما يعطينا دليلاً علىٰ أن وفاة اليعقوبي كان في حدود سنة ٢٩٢هـ[٣]. وقد تأكد ذلك حين أرفق بالطبعة الأخيرة لكتاب (البلدان) ملحقاً ذكر فيه أشعاراً نظمها بعد سقوط الدولة الطولونية[٤]. وكما هو معلوم أن سقوط الدولة الطولونية قد تم سنة ٢٩٢هـ[٥]. فأمام هذه الأدلة الأخيرة تجعلنا نعتقد بأن وفاته كانت في حدود سنة ٢٩٢هـ[٦].

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص١١٧.
(٢) البغدادي: هدية العارفين، ٢/١، عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين في تراجم مصنفي الكتب العربية، دمشق، ١٣٧٦هـ، ١٦١/١.
(٣) اليعقوبي: مشاكلة الناس لزمانهم، ص ٣٥.
(٤) اليعقوبي: البلدان، طبعة ليدن، ص ٣٧٢.
(٥) السيوطي؛ عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، دار الوطن، ١٢٩٩هـ، ص١٣/٢.
(٦) ياسين الجعفري: اليعقوبي المؤرخ، ص ٢٦.

المبحث الثـــاني

ابن الفقيه الهمذاني (ت٢٩٠ هـ)

- حياتــــــه.
- مصــنفاته.
- منهجـــــه.
- وفاتــــــه.

ابن الفقيه الهمذاني (ت٢٩٠ هـ)

حياتــه :

أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمذاني[١].. وقيل هو أبو بكر أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن الفقيه الهمذاني ويكنىٰ بأبي عبد الله[٢].

ولد في مدينة همذان في فارس وعاش في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، ومن علماء ذلك القرن[٣].

تعليمه :

كان خبيراً بالرواية والأدب وله كتاب عن الشعراء[٤]. حيث كان من أسرة فارسية اشتهر أفرادها من أهل الحديث والأدب، كما أنه اشتهر بعلم الحديث والأدب[٥]. حيث ترعرع أبو بكر الهمذاني في ذلك البيت بين الأسرة العلمية كما حاز ابن الفقيه مكانة علمية عالية بين علماء الحديث والأدب ولكنه تميز وتألق نجمه في علم الجغرافيا[٦].

وابن الفقيه اسم ذائع صيته في عالم الجغرافيا والرحلات، ولم نعثر علىٰ ما يفيد قيامه برحلة إلىٰ جهة من الجهات ولا نكاد نعرف عنه ما يكفي من الأخبار[٧].

مشائخه :

كان ابن الفقيه حريصاً في كتابه علىٰ توثيق ما ينقله من معلومات جغرافية أو

---

(١) ابن الفقيه الهمذاني، أبو بكر أحمد بن إسحاق: كتاب البلدان، ط١، ١٤١٦هـ ، علم الكتب، بيروت، تحقيق يوسف الهادي، ص١٢؛ عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، ص ٢٥٣؛ كارول بروكلمان: تاريخ الأدب العربي ق٢، ج٤، ٦٤٥؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص٢٨؛ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، ص ١٣١.

(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة الإسلامية، ص ٨٣.

(٣) شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٢٨؛ علي الدفاع: رواد علم الجغرافية ٨٣. ، فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٤٠.

(٤) فؤاد قنديل: المرجع السابق: ص ١٤٠، ابن النديم: الفهرست، ص ٢٤٧.

(٥) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٣١.

(٦) علي الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٨٣.

(٧) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٤٠.

نحوها حيث يسند ذلك إلىٰ من تلقىٰ عنه ذلك الخبر وهو يستخدم هنا عبارة حدثني – أي أنه أخذ عنه مباشرة – أو ضمن مجموعة من الدارسين وهو يستخدم أحياناً عبارة حدث فلان أو قال فلان وربما أنه نقل بعض معلوماته عن كتب هؤلاء لم تصل إلينا بل أن أغلب هؤلاء المشائخ لم نتمكن من العثور علىٰ تراجم وافية لهم فيما تيسر لنا من مصادر ومن هؤلاء:

١- أبو يوسف يعقوب بن إسحاق: حيث قال ابن الفقيه "وحدثني أبو يوسف يعقوب بن إسحاق فيما بين خراسان وأرض الهند) [١].

وعند بحثنا عمن يكون ابن إسحاق هذا الذي يروىٰ عنه ابن الفقيه فوجدناهم بالعشرات في كتب الرجال والحديث وعليه فلن نقطع بشيء إلىٰ حين ظهور مرَّجح[٢].

٢- أبو إسحاق إبراهيم بن محمد البيهقي[٣]: وقد روىٰ عنه ابن الفقيه بقوله: (وحدثني أبو إسحاق إبراهيم بن محمد البيهقي قال أنشدني حماد بن إسحاق الموصلي لأبيه في الواثق ويصف صيده والنجف) [٤]. فقد كانت هذه رواية واحدة عن البيهقي.

٣- أبو علي محمد بن هارون بن زياد: قال ابن الفقيه: (وقال لي أبو علي محمد بن هارون بن زياد – وكان حكيماً فيلسوفاً - وقد تجارينا ذكر شبديز فوصلنا إلىٰ هذا الفصل) [٥]. وقد روي عنه الهمداني رواية واحدة.

٤- أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي[٦]: قال ابن الفقيه: (وحدثني أبو حامد أحمد بن جعفر المستملي قال: حديثي.. في القول في طبرستان) [٧]. فكانت الرواية الثانية عن مرو.

---

(١) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص ٣٦٢.
(٢) نفس المصدر السابق: ص ٢٤.
(٣) إن لقبه هو المغيشي نسبة إلىٰ المغيشة وهي قرية من قرىٰ بيهق وأن من شيوخه المبرد وثعلب، وأنه هجا البحتري. نبع في خلافة المقتدر (٢٩٥هـ - ٣٢٠هـ) عمر رضوا كحالة: معجم المؤلفين. مكتبة المثنىٰ، بيروت ٨٩/١؛ علي بن زيد البيهقي:تاريخ بيهق، تحقيق أحمد بهمينار، ظهران، [د.ط،ت]، ص ١٥١-١٥٤؛ الهمذاني: البلدان، ص٢٤.
(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٣٦٩.
(٥) ابن الفقيه: البلدان، ص ٤٢٤. لم تذكر كتب التراجم التي بين أيدينا شيئاً عن أبو علي محمد بن هارون بن زياد. وأما شبديز هو فرس الملك الفارسي كسرىٰ أبرويز وهو منحوت في جبل قرب الطريق الواصل بين سننداج وكرمانشاه بإيران، وفيه نحت كسرىٰ أبرويز وهو يمتطي جواده المسمىٰ شبديز إضافة إلىٰ منحوتات أخرىٰ تشكل أهمية كبيرة في معرفة تاريخ الساسانيين.
(٦) ذكره الخطيب البغدادي، أبو بكر بن علي: أنه حدث عن محمد بن الأزدي، وروىٰ عنه عبد الصمد الطستي، انظر، تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، تحقيق مصطفىٰ عبد القادر، ٢٨٣/٤. ؛ ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص ٢٥.
(٧) نفس المصدر السابق: ص ٥٦٤ – ٦١٤ .

٥- تميم بن بحر المطوعي[(١)]: قال ابن الفقيه: (وذكر تميم بن بحر المطوعي... القول في الترك) وأن خبر تميم قد نقله ياقوت باختصار دون أن يعزوه لأحد فقد افتتح كلامه من مادة تركستان وأورد خبر تميم فيها بصورة مختصرة عما هو عليه في أصل كتاب البلدان[(٢)].

٦- أبو عبد الله الحسين بن أستاذويه[(٣)]: قال ابن الفقيه: (وحدثني أبو عبد الله الحسين بن أستاذويه... القول في خراسان) وكذلك ذكر عنه ابن الفقيه... عن ابن عباس قال: لم يتزوج إبراهيم عليه السلام من سارة حتىٰ ماتت فتزوج بعدها امرأة من العرب العاربة يقال لها قنطورا بنت مقطير[(٤)].

٧- أبو العباس عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ المروزي[(٥)]: روي عنه ابن الفقيه بقوله: (وحدث أبو العباس عيسىٰ) [(٦)] وليس واضحاً ما إذا كان قد التقاه رغم أن المروزي كان معاصراً لابن الفقيه، وقد روىٰ عنه أسطورة حجر المطر الذي لدىٰ الترك والذي يستجلبون به المطر إذا خافوا من الأعداء[(٧)].

٨- محمد بن أبي مريم[(٨)]: ذكره ابن الفقيه حيث يتحدث عن مقدار خراج قم: أخبرني محمد بن أبي مريم قال: مبلغ وظيفة الخراج بكورة قم [(٩)].

(١) أنه كان مطوعاً وهي طائفة من المتطوعين الذين كانوا يرابطون في ثغور البلاد الإسلامية حيث التقىٰ به ابن الفقيه وسأله عن تفضيلات رحلته التي قام بها إلىٰ آسيا علىٰ بريد أنفذه إليه خاقان التغزغزي؛ انظر ابن الفقيه الهمداني: البلدان. ص٢٦-٢٧؛ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي: تاريخ الإسلام، ت. عمر عبد السلام تدمري، بيروت عام ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م، ٣٤/١٨.

(٢) ابن الفقيه المصدر السابق: ص ٦٣٧

(٣) اختلفت كتب التراجم فيه إلا أن يكون أبا عبد الله الحسين بن شاذويه الصفار وكان صحافاً فيقال الصحاف؛ وقيل إنه قمي زعم القميون أنه كان غالياً انظر؛ أحمد بن علي النجاشي الأسد الكوفي، تحقيق السيد موسىٰ الشبيري: رجال النجاشي، [د.ط-ت]، ص ٦٥ ؛ موسىٰ الزنجاني، الجامع في الرجال، ١٣٩٤هـ ص ٦٠٤؛ ابن الفقيه الهمداني: البلدان ص ٢٧.

(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٦٠١.

(٥) هو أبو العباس عيسىٰ بن محمد بن عيسىٰ بن عبد الرحمن بن سليمان المروزي الكاتب المعروف بالطهماني، أظن أنه من ولد إبراهيم بن طهمان، وهو إمام في اللغة والعلم وأحد أشراف خراسان بنفسه وآبائه وأسلافه؛ انظر: السمعاني، أبو سعد عبد الكريم: الأنساب، تحقيق عبد الله عمر البارودي بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ٨٨/٤؛ ابن الفقيه: البلدان، ص٢٨.

(٦) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٦٤٠.

(٧) نفس المصدر السابق: ص ٢٨.

(٨) وهو محمد بن إبراهيم عامل مدينة قم الذي نستخلص من خلال وصول لجنة برئاسة بشر بن فرج إلىٰ قم في رجب عام ٢٨٤هـ من قبل المعتضد للنظر في شكاوىٰ أهلها من ثقل الضرائب، أن محمد بن أبي مريم وأخاه أحمد قد تولىٰ كل منهما عامل قم في الفترة الواقعة بين ٢٨٢ و ٢٨٤ هـ؛ انظر: حسن بن محمد بن حسن القمي: تاريخ قم، تحقيق جلال الدين تهراني، طهران، ١٩٧١م، ص ١٠٤-١٠٥-١٣٠؛ ابن الفقيه: البلدان، ص٣٢.

(٩) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٥٣٢.

٩- عمر بن الأزرق الكرماني[١]: أورده ابن الفقيه بقوله: (قال عمر بن الأزرق الكرماني كانت البرامكة أهل شرف علىٰ وجه الدهر يبلغ قبل ملوك الطوائف[٢].

١٠- سعيد بن الحسن السمرقندي[٣]: ذكره ابن الفقيه بقوله: (قال سعيد بن الحسن السمرقندي. في ذكر بعض مدن الأتراك وعجائبها[٤].

أهم الكتب التي ذكرت في كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني:

وقد تنوعت مصادر ابن الفقيه في كتابه هذا بين الجغرافيا والأدب والتاريخ من ذلك:

١- أخبار الصين والهند: لسليمان التاجر [٥] والذي استفاد منه ابن الفقيه فيما يتعلق بأخبار الصين والهند حيث يشير إلىٰ اعتماده عليه في مواضع عدة من كتابه ومن المعلوم أن الرحالة سليمان التاجر قد طاف بالهند والصين أكثر من مرة بغرض التجارة [٦].

وقد نقل ابن الفقيه عنه أخبار تتعلق بالصين والهند. والكتاب مطبوع متداول بين أيدي القراء[٧].

٢- وهناك إشارات عدة في كتاب البلدان إلىٰ اعتماده علىٰ **كتاب المسالك والممالك**

---

(١) لا توجد له ترجمة في كتب الرحال والتاريخ. وهناك بصيص ضعيف من الأمل في أن يكون هو الذي روىٰ عن المدعو ابن سيار معلومة طبية من بلاد الروم، روىٰ ابن الأزرق عن ابن سيار أنه قال: رأيت في بلاد الروم أنه عند ظهور داء الخنازير لدىٰ شخص ما، يؤتىٰ به ويطرح أما الخنازير كي تأخذ الغدد وتلعقها، فتذهب الغدد، وهذا من النوادر. انظر: أبو منصور موفق بن علي الهروي: الأبنية عن حقائق الأدوية أو روضة الأنس ومنفعة النفس، تحقيق أحمد بهمنيار، طهران، ١٩٩٢م، ص ١١٧. ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٣-٣٤.

(٢) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٦١٧.

(٣) لم يتبين في المصادر علىٰ شخص يدعىٰ سعيد بن الحسن السمرقندي، سوىٰ أن شيخ الربوة قد وضع أحد عناوين فصول كتابه علىٰ الشكل التالي: في جزائر البحر الأخضر التي بالقرب من سواحله ومنهن الجزائر الخالدات وذكر الأعجوبة للسمرقندي ثم فصل ذلك داخل الكتاب بقوله: ابن الاسكندر أراد أن يعلم ساحل المحيط الأقصىٰ فجهز عدة مراكب، انظر: ابن شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٣٤٤؛ ابن الفقيه: البلدان، ص ٣٧.

(٤) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ٦٤٣.

(٥) سليمان التاجر، أو سليمان السيرافي وسجله الصادر رحلته ولكن لم يذكر أحداً عن ترجمة حياته، انظر: أحمد رمضان أحمد: الرحلة والرحالة المسلمون، دار لبنان العربي، جدة، ص ٤٣.

(٦) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص١٠.

(٧) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٤.

والذي يرجح أنه لابن خرداذبه الذي انتهىٰ من تأليفه سنة ٢٦٢هـ. [١] غير أن هناك كتاب آخر باسم المسالك والممالك لابن الجيهاني لكنه متأخراً بعض الشيء[٢].

٣- الحيوان للجاحظ[٣]: حيث صرح ابن الفقيه باسم الجاحظ في الحديث عن دمشق بقوله: (وقال عمر بن بحر: رب بلد يستحيل فيه العطر، وتذهب رائحته كقصبة الأهواز)[٤].

٤- فتوح البلدان: ونجد أن ابن الفقيه قد نقل من البلاذري نصوصاً عدة يصرح بها أحياناً ويغفل أحياناً الإشارة إليها [٥]. وذلك في الحديث عن كور طبرستان وغيرها. غير أنه بالرجوع إلىٰ كتاب فتوح البلدان لم نجد بعض هذه النصوص والتي أشار إليها ابن الفقيه، فربما أنه اعتمد علىٰ نسخة غير التي بين أيدينا. [٦].

٥- فضائل بغداد وصفتها: لمؤلفه يزدجرد بن مهبندان الكسروي. والذي عاش في أيام المعتضد وله من الكتب: كتاب فضائل بغداد وصفتها. وكتاب الدلائل علىٰ التوحيد من كلام الفلاسفة وغيرهم[٧].

وعن كتابه هذا نقل ابن الفقيه نصوصاً طويلة جداً في إحصائيات تتعلق بعدد الحمامات والمساجد والسكك والشوارع وما بداخلها من الأقوات يومياً وما يباع فيها[٨].

٦- عيون الأخبار: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ٢١٣هـ - ٢٧٦هـ. نقل ابن الفقيه فيما يتعلق بمدح أهل خراسان حيث ذكر ذلك بقوله: (وقال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: أهل خراسان أهل الدعوة وأنصار الدولة ولم يزالوا في أكثر ملك العجم لقاحاً). [١]دون الإشارة إلىٰ كتابه وبمراجعة مؤلفات الدينوري تبين أن من كتابه عيون الأخبار

---

(١) سوف أقوم بإفراد ترجمة خاصة عن ابن خرداذبة وكتابة المسالك والممالك في المبحث الثالث من هذا الفصل.

(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٢٢١/١.

(٣) الجاحظ: هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب، مولىٰ لأبي القلمس عمرو بن الكناني، ثم الفقيمي، توفىٰ سنة ٢٥٥هـ وله العديد من الكتب أشهر كتابه (الحيوان) انظر: ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بيروت، ١٩٩١م، ٤٧٢/٤-٤٩٨. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت ١٩٧٧م، ٤٧٠/٣-٤٧٥. ابن النديم، الفهرست، دار الكتب العلمية بيروت، يوسف الطويل تحقق، ص ٢٩١؛ ابن الفقيه: البلدان: ص١٥.

(٤) ابن الفقيه: البلدان، ص١٦٥.

(٥) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص ١٥.

(٦) نفس المصدر السابق: ص ٥٦٥.

(٧) ابن النديم: الفهرست، ص١٤٢.

(٨) ابن الفقيه: البلدان، ص١٧.

(١) نفس المصدر السابق: ص١٨.

.[١]

٧- الأهوية والبلدان والمياه: لمؤلفه الطيب والحكيم اليوناني بقراط[٢] وأن هناك خلافات بين المؤرخين حول نسبة هذا الكتاب إلىٰ بقراط غير أن ابن الفقيه نقل عنه في باب (أبنية البلدان وخواصها وعجائبها)[٣]، حيث اسماه ابن الفقيه عندما نقل عنه في كتابه (الأهوية والأيدان)[٤].

٨- الفلاحة: من تأليف قسطوس حيث نقل ابن الفقيه نصاً حيث قال قسطوس[٥] والصحيح أنه قسطوس في كتاب الفلاحة: (أصلح مواضع البنيان أن يكون علىٰ تل وثيق ليكون مطلاً..) والذي اعتمد عليه في مواضع مختلفة من كتابه[٦].

٩- فردوس الحكمة: لمؤلفه علي بن زبن الطبري، والذي اعتمد عليه ابن الفقيه في عدة مواضع من كتابه دون الإشارة إلىٰ اسم كتابه لكنه اكتفىٰ بقوله وقال: علي بن زبن واجهنا جماعة من أهل طبرستان[٧] ولم يذكر كتاب فردوس الحكمة وهو كتاب معروف مؤلفه علي بن زبن الطبري[٨].

الذين استفادوا من ابن الفقيه الهمذاني:

أول من نقل عن ابن الفقيه الهمذاني:

١- **حسن بن محمد القمي**[٩] صاحب كتاب تاريخ قم والذي نقل عنه العديد من النصوص[١٠].

٢- **المقدسي البشاري**[١] (٣٣٥-٣٩٠هـ)، حيث نقل عن ابن الفقيه في موضع واحد في كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم والذي اعتمد علىٰ كتاب ابن الفقيه في

---

(١) قول محقق كتاب البلدان يوسف الهادي: انظر البلدان لابن الفقيه في الصفحة (١٨). (١/٢٤٠-٢٠٥)
(٢) ابن الفقيه: البلدان، ص١٨.
(٣) نفس المصدر السابق: ص ٤٣٠.
(٤) نفس المصدر السابق: ص ٤٣٦.
(٥) نفس المصدر السابق: ص١٩.
(٦) نفس المصدر السابق: ص٤٣٦.
(٧) نفس المصدر السابق: ص ٥٥٥.
(٨) نفس المصدر السابق: ص٢٠، ترجمة: الطبري هو أبو الحسن علي بن سهل الطبري له من الكتب تحفة الملوك، وكتاب كناش الحضرة، كتاب منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير. انظر أيضاً: ابن النديم: الفهرست، ص ٤٦٦.
(٩) حسن بن محمد القمي، الذي ألف كتاب (تاريخ قم) عام ٣٧٨هـ، انظر: الهمذاني البلدان، ص ٤١.
(١٠) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص ٤١.
(١) المقدسي، سوف أفرد لهذا الرحالة بجزء في مبحثاً خاصاً له في هذا الفصل.

بعض مواضع كتابه[1].

٣- **محمد بن محمود بن أحمد الطوسي**[2]، وكتابه عجائب المخلوقات حيث تبين أنه أغفل الإشارة إلىٰ اعتماده علىٰ كتاب ابن الفقيه بالرغم من أنه اعتمد عليه في جل مادة كتابه ولم يبذل جهداً غير ترجمته إلىٰ الفارسية. ومن خلال مطالعتنا لعجائب الطوسي رأينا العجب العجاب. فالرجل قد نقل أكثر من ثلثي الكتاب[3].

٤- **ياقوت الحموي**[4] صاحب كتاب معجم البلدان والذي نقل نصوصاً عدة من كتاب البلدان لابن الفقيه مشيراً بذلك إلىٰ اسمه. حيث قال ياقوت نقلاً عن ابن الفقيه (أهل الأهوار ألأم الناس وأبخلهم وهم أجدر خلق الله علىٰ الغربة والتنقل في البلدان).

٥- **زكريا القزويني**[5] والذي يتضح من قراءة كتابه أنه اعتمد علىٰ جميع ما ورد عن ياقوت من معلومات حيث لم يشر إلىٰ كتاب البلدان وإنما نقل نصوصاً عدة نسبها إلىٰ ياقوت وتبين من مقارنتها أنها جميعاً أخذت من كتاب ابن الفقيه الذي كتب كتابه آثار البلاد عام ٦٧٤هـ. ونرجح أنه قد أخذ عن ياقوت نقوله عن ابن الفقيه وأودعها كتابه. فحين يقول ياقوت (مادة: رومية[6] فجميع ما ذكرته هاهنا من صفة هذه المدينة فهو في كتاب محمد بن أحمد الهمذاني المعروف بابن الفقيه)،ونجد القزويني (مادة: رومية،يكرر نفس الخطأ فيقول: وهذه كلها منقولة من كتاب ابن الفقيه وهو محمد أحمد الهمذاني) [7].

مصنفات ابن الفقيه:

من مصنفات ابن الفقيه الهمذاني والذي اشتهر بها، ويعتبر اليوم مفقود وهو

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم: بيروت، لبنان، تحقيق محمد مخزوم، ص ٢٧.

(٢) محمد بن محمود بن أحمد الطوسي، حيث قال عنه محقق كتابه (علىٰ الرغم من كون اسمه: الطوسي إلا أنه إما أن يكون من أهل همدان أو عاش روحاً من الزمن فيها، كما يستفاد من الكتاب. وهو لم يشر إلىٰ مصادره إلا فيما ندر، ولم يشر إلىٰ ابن الفقيه ولا مرة واحدة) انظر: كتابه عجائب المخلوقات، تحقيق منوجهر ستودة، طهران، ١٩٦٦م، ص١٨-٢١؛ ابن الفقيه: البلدان، ص ٤١.

(٣) ابن الفقيه: البلدان، ص٤٢.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق فردیناند وستنفلد، لايبزك، ١٨٦٦م، ٢٨٦/١.

(٥) زكريا القزويني، هو زكريا بن محمد بن محمود القزويني يرجع نسبه إلىٰ أنس بن مالك إمام المدينة، ولد في قزوين ورحل إلىٰ دمشق، تولىٰ قضاء واسط والحلة في زمن المستعصم العباسي، عالماً في التاريخ والجغرافيا. من كتبه، عجائب المخلوقات وآثار البلاد وأخبار العباد، انظر كتابه: آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، (ص٣).

(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٨٧٢/٢.

(٧) القزويني، زكريا محمد: آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت [د.ت]، ٥٩٤/٢.

عبارة عن مختارات من الشعراء والمعاصرين له[١] ولكن عماد شهرته كتابه الجغرافي الذي أفاد منه الكثير وهو (البلدان) وكان في ألفي صفحة موزعة علىٰ خمسة أجزاء اختصر بعد حوالي مائة عام علىٰ يد علي بن جعفر الشيرازي عام ٤١٣هـ. [٢]

حيث ذكر فيه القول في خلق الأرض والقول في البحار وأحاطتها بالأرض وفي البحار وعجائب ما فيها والفرق بين بلاد الصين وبلاد الهند.. وتطرق هذا الكتاب إلىٰ جميع المملكة الإسلامية.

ثم أورد المصنف فصلاً خاصاً في مدح البناء وبين خصائص كل مدينة من حيث كونها واقعة في المغرب أو المشرق ثم في ذم البناء، ثم ذكر العراق وفارس وكرمان وأرمينيا[٣].

وقد بدأ ابن الفقيه كتابه بمدخل عن دراسة الكوزموغرافيا[٤]. حيث عكف ابن الفقيه علىٰ تأليفه. فقد نشر أحمد زكي الوليدي التركي ملخصاً له ويوجد في الجزء الخاص من المكتبة الجغرافية العربية التي جمعها دي خويه في ليدن بهولندا سنة ١٣٠٣هـ[٥].

ويجمع المؤرخون في العلوم أن كتاب (البلدان) لابن الفقيه الهمذاني يحتوي علىٰ معلومات ضرورية ونادرة لكل من الجغرافية والأدب فهو من المصادر الهامة للباحثين في مجال الجغرافية والأدب ولكن سمعة ابن الفقيه في ميدان علم الجغرافية طغت علىٰ شهرته في الأدب لأنه عرف بين مؤرخي العلوم أنه من علماء الجغرافية المتميزين[٦].

تحدث ابن الفقيه عن خط الاستواء وذكر أنه الخط الوحيد الذي يقسم الأرض إلىٰ قسمين متساويين وهو أكبر خط في كرة الأرض كما تطرق لكروية الأرض وأثبتها بطريقة علمية تدل علىٰ طول باعه في الجغرافية الرياضية[٧].

وله كتاب آخر ذكر في آخر كتابه البلدان وهو كتاب العجائب الذي أشار إليه في أخبار خالد بن سنان – يقال أنه نبي – كما ذكره ابن الفقيه في كتابه والنص هو (وكان أهل تلك الأرض منها في بلاء عظيم حتىٰ بعث الله خالد بن سنان فساقها بعصاه..) وقد

---

(١) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ١٣١.
(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٤٠؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص٨٣.
(٣) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية، ص ٢٥٣؛ كارول بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ص٦٤٥.
(٤) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٣٦. (علم الحركات الفلكية للأرض والكون).
(٥) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٨٤.
(٦) نفس المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٧) نفس المرجع السابق والصفحة نفسها.

ذكرنا أخباره في كتاب العجائب [1].

منهجه:

من خلال ما كتب عن منهج ابن الفقيه لابد من معرفة أن ابن الفقيه هنا أخذ معلوماته بقسميها الكتابي والروائي الذي سمعه والذي يبدؤه عادة بقوله: (حدثني) أو (حدَّث) أو (ذكر) أو (سألناه)، عن طريق الكتب المدونة أو من الذين عاصروه أمثال ابن خرداذبة.

وإن مصادر ابن الفقيه متنوعة بشكل كبير جميع المؤلفين الذين مرَّ ذكرهم وجدوا مكاناً في مصنفه وأحياناً في مقتطفات كبيرة كالجاحظ وابن خرداذبة وسليمان التاجر والبلاذري وربما الجيهاني أيضاً [2]. وقد لوحظ أن بعض النصوص الواردة في البلدان تتسم بطابع ذاتي يدل علىٰ تجربة وممارسة شخصية ورؤية مباشرة ومن ذلك حديثه عن الأهواز الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان نقلاً عن ابن الفقيه[3].

ومن أهم النواحي الجغرافية في كتابه هي وصفه للأرض والبحار والأنهار في الصين والهند وبلاد العرب ومصر وبلاد المغرب والبر بر والشام وفلسطين وما بين النهرين وبلاد الروم، وأفاض في وصف البصرة والكوفة. وقد نقل جملة من موضوعات كتابه عن أسفار فارسية قديمة [4].

من خلال ما شاهده ابن الفقيه من هذه الأقاليم يتضح أنه اعتمد علىٰ الوصف والمشاهدة من خلال رحلاته لتلك المناطق فهذا دليل علىٰ أنه اعتمد علىٰ هذه المنهجية في كتابته لكتابة (البلدان) الذي بين أيدينا.

وأن ابن الفقيه تناول في كتابه البلدان العلوم بأسلوب أدبي سلس كما احتوىٰ علىٰ بعض المقطوعات الشعرية لذا اعتمد عليه كل من المسعودي والمقدسي وياقوت الحموي وغيرهم من علماء العرب المسلمين المتخصصين في العلوم الجغرافية في مؤلفاتهم في هذا الميدان الحيوي[5].

ولقد حشد ابن الفقيه في كتابه البلدان معلومات كثيرة عن الجغرافية والتاريخ قاصداً بذلك تثقيف الجماهير لذا كتب كتابه هذا في خمسة مجلدات شملت أفكاراً ونظريات جغرافية وتاريخية عن البحار والأنهار، وكذلك ضمنه معلومات مفيدة جداً

---

(١) ابن الفقيه الهمداني: البلدان، ص ٥٠٩، وهو أمر غريب وقد ذكره ابن الفقيه ضمن العجائب، وهو من ضمن الأساطير والخرافات.
(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١٩٣/١؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٤١.
(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٤٢-١٤٣؛ ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢٨٦/١.
(٤) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٣١.
(٥) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٨٣.

عن بعض البلاد الإسلامية مثل الحجاز[١].

وفاتــه:

لقد نال ابن الفقيه سمعة جيدة بين معاصريه بذكائه الخارق للعادة وسرعة بديهته ولكن للأسف فإن نتاجه العلمي في كل من الجغرافية والأدب كان مجهولاً لأبناء جلدته[٢].

والمعلومات شحيحة جداً عن مراحل حياته غير أن الخبر المتواتر عن تاريخ وفاته ترجح وفاته بعد سنة ٢٩٠هـ[٣].

وهناك تساؤلات أخرىٰ حول وفاته: كان منها علىٰ سبيل المثال: إذا كان قد بقي حياً إلىٰ ما بعد العام ٢٩٠هـ. وهو مؤكد طبعاً بدليل أنه لماذا لا نجد في كتابه البلدان ما يشير إلىٰ زمن أبعد من عام ٢٨٩هـ وهو آخر عام من خلافة المعتضد العباسي حيث ذكره ولم يجزم عليه ما يدل علىٰ أن المعتضد كان حياً آنذاك؟[٤].

المعروف أن المعتضد قد توفىٰ لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة ٢٨٩هـ وبل الخمس خلون من جمادىٰ الآخرة سنة ٢٨٩هـ[٥]. وعليه فإن الانتهاء من تأليف البلدان كان في أواخر ذلك العام وأوائل ٢٩٠هـ[٦]. ونرجح أنه بعد أن انتهىٰ من تأليف كتابه هذا انهمك في عمله العلمي بوصفه محدثاً وفي تأليف أعمال أخرىٰ التي منها كتابه. ذكر الشعراء المحدثين والبلغاء منهم والمفحمين[٧].

(١) نفس المرجع: ص ٨٣-٨٤.
(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٨٤.
(٣) نفس المرجع السابق: ص ٨٣، عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ١٣١.
(٤) ابن الفقيه الهمداني: البلدان، ص ١١-١٢.
(٥) محمد بن حبان البستي: الثقات، حيدر آباد، ١٣٩٥هـ، ٣٣٣/٢.
(٦) ابن الفقيه: البلدان، ص ١٢.
(٧) ابن النديم: الفهرست، ص ١٧١.

المبحث الثـــالث

ابن خرداذبة (ت ٣٠٠ هـ)

- ♦ حياتـــــه.
- ♦ مصــنفاته.
- ♦ منهجــــه.
- ♦ وفاتــــــه.

ابن خرداذبة (ت٣٠٠ هـ)

حياتــه:

أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرداذبة. كان مجوسياً أسلم علىٰ يد البرامكة وتولىٰ إدارة البريد بنواحي الجبل في عهد الخليفة المعتمد العباسي واشتهر بابن خرداذبة(١).

تعليمه:

اختلف في سنة ولادته إذ قيل أنه ولد عام ٢٠٥هـ (٢) وأرخه بعضهم بسنة ٢٠٧هـ(٣). وقيل أنه ولد سنة ٢١١هـ(٤) وهو ينتمي لأسرة فارسية كان والده والياً علىٰ طبرستان جنوبي بحر قزوين في أوائل القرن الثالث الهجري وذاع صيته بسبب نجاحه في إخضاع بعض مناطق الديلم وضمها إلىٰ حظيرة الإسلام(٥).

وقد نشأ في إحدىٰ بلاد فارس وهو من أسرة مثقفة حيث أرسله أبوه إلىٰ بغداد ليدرس الأدب والموسيقىٰ (٦) شهد ثورة الزنج وغيرها من الأحداث مثل انفصال بعض الأقاليم وتكوين الدويلات المستقلة في مشرق الدولة العباسية مثل دول الطاهريين والصفارية(٧) والسامانية(٨). ويعتبر من أقدم الرحالة الجغرافيين في العصر العباسي(٩).

عرف ابن خرداذبة بالخراساني لأنه من منطقة خراسان ولكنه تعلم وترعرع في بغداد فهو من كبار علماء الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية وله نتاج جيد

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ ، تحقيق يوسف علي الطويل ص٢٣٩؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث الجغرافي، ص ١٢٥؛ أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ٥٥-٥٦؛ عبدالرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ١٠٦؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٧٥، شاكر خصباك: كتاب مضيئة في التراث الجغرافي، ص٢١.
(٢) أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٥٥.
(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ١٢٥.
(٤) نفس المرجع السابق: ص ١٢٥.
(٥) نفس المرجع السابق: ص ١٢٥.
(٦) أحمد رمضان: الرحلة والرحالة: ص ٥٦؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٢١.
(٧) الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/ ٨٧٦-٩٠٣م) ومؤسسها هو يعقوب بن الليث الصفار. وقد لقب بالصفار لأنه بدأ حياته صانعاً للصفر أي النحاس بأجر قدره ١٥ درهماً في الشهر، ولهذا عرف بهذا اللقب، انظر: العبادي: التاريخ العباسي والأندلسي، ص ١٥٠.
(٨) السامانية (٢٦١-٣٨٩هـ / ٨٧٤-٩٩٩م): هي أسرة فارسية وتدين بالديانة المجوسية، ثم أسلم جدهم سامان خدات أحد أشراف مدينة بلخ وسمي ابنه أسداً تيمناً باسم والي الأمويين علىٰ خراسان أسد بن عبد الله القسري الذي أسلم علىٰ يديه، انظر: العبادي: المرجع السابق، ص ١٥٢.
(٩) أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، ص ١٢٥.

في معظم فروع العلوم الاجتماعية[١].

حيث أن اهتمام الخليفة العباسي المعتمد بابن خرداذبة نابع من مكانته العلمية والثقافية الواسعة وحكمته اللامعة فلا عجب فهو من أسرة عريقة ومثقفة وكان من أقرب الناس إلىٰ الخليفة المعتمد بل كان من ندمائه الخاصين[٢].

مشائخه :

من خلال المصادر تبين أن والده أرسله إلىٰ بغداد ليدرس الأدب والموسيقىٰ؛ فكان ذلك علىٰ يد إسحاق بن إبراهيم الموصلي الأديب والمغني[٣].

وقد درس عبيد الله بن خرداذبة الموسيقىٰ والأدب علىٰ يد الموصلي فنبغ فيهما فصار من كبار أدباء الدولة العباسية، فعرف بمنهجه وأسلوبه القوي المعبر ولكن مكانته العلمية في حقل الجغرافية طغت علىٰ مآثره في الموضوعات الأخرىٰ[٤].

أما الكتب التي أطلع عليها أو التي تأثر بآرائها؛ فقد اطلع ابن خرداذبة علىٰ ما ألفه الجاحظ، وبهذا يشبه المقدسي[٥]، فقد ذكر لنا بعض عجائب الأهواز، حيث قال ابن خرداذبة (.. وقد جمعت قصبة الأهواز الأفاعي في جبلها الطاغي في منازلها المطل عليها وفي بيوتها العقارب الجرَّارات القتَّالة) [٦].

تلاميذه أو الذين استفادوا منه :

١- **المقدسي البشاري:** تتشابه معلومات المقدسي وابن خرداذبة في ذكر الطرق والمسالك في كثير من الأحيان إذ يصف الطرق بما تحتويه من الزراعة والسكان ومصادر المياه إلا أن وصفهما هذا لا يسير وفق خطة ثابتة [٧].

٢- **ابن حوقل:** حيث كان يؤكد أنه كان حريصاً كل الحرص ألا يفارقه كتاب ابن خرداذبة (المسالك والممالك) وقد ذكر ابن حوقل في مقدمته أنه كان يعتمد علىٰ

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية والإسلامية، ص ٧٥.
(٢) نفس المرجع السابق والصفحة نفسها.
(٣) هو إسحاق بن إبراهيم بن ماهان بن نسك، أصله من فارس خرج هارباً منها من جوربني أمية في خراج كان عليه فأتىٰ الكوفة وكان راوية للشعر والمآثر وقد صنف من الكتب الكثير منها علىٰ سبيل المثال كتاب أخبار المغنين المكيين- كتاب مواريث الحكماء وكتاب جواهر الكلام ولد سنة ١٥٠هـ وتوفىٰ سنة ٢٣٥هـ؛ ابن النديم: الفهرست، ص ٢٧٧ ، ط١، ١٤١٦هـ.
(٤) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٧٥-٧٦.
(٥) عدي يوسف مخلص: المقدسي البشاري حياته ومنهجه (دراسة كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم من الناحية التاريخية)، ط١، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، ١٣٩٣هـ، ص ١١٨-١١٩.
(٦) ابن خرداذبة: المسالك والممالك: ص ١٧٠.
(٧) عدي مخلص: المقدسي، ص ١٢٠-١٢١.

مصادر جغرافية عدة من ضمنها كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة بل أنه أشار إلىٰ حرصه الشديد في اقتناءه وعدم مفارقته له[١].

مصنفات ابن خرداذبة:

لقد ألف ابن خرداذبة العديد من المصنفات في مختلف العلوم والفنون منها:

١- كتاب المسالك والممالك: والذي يرجح أنه لابن خرداذبه حيث نشره المستشرق الهولندي دي خويه في ليدن عام ١٨٨٩م وألحق نبذاً من كتاب الخراج وصنعة الكتابة لقدامة بن جعفر ولم تهتد علىٰ السرّ في إضافة صفحات من الخراج إلىٰ المسالك والممالك، ربما كان السبب هو خوف دي خويه من ضياع صفحات ابن قدامة فعمل علىٰ نشره وقد كان المشهور أن المخطوطات العربية والضياع صنوان يبحث كل منهما عن الآخر[٢]. الذي وضع مؤلفه كان سنة ٢٦٢هـ[٣]. وهو كتاب رسمي عن الطرق مع معلومات دقيقة عن المحطات ومراحل البريد وجباية كل إقليم[٤]، واعتمد في بيان حدود الأرض ومسالكها علىٰ ما كتبه بطليموس السكندري ويلاحظ علىٰ كتابه أنه لم يهتم بالجانب الفلكي والرياضي في حين توسع في وصف البلدان تحديداً دقيقاً[٥]. وأنه أول من استعمل مصطلح (المسالك والممالك) الذي استخدمه بعده معظم علماء العرب المسلمين الذين عملوا في علم الجغرافية[٦].

٢- كتاب اللهو والملاهي[٧]: وهو كتاب يتحدث عن خلفيته في دراسة الموسيقىٰ. [٨]

٣- حديث عن أهل الموسيقىٰ وفن الغناء ألقاه في مجلس الخليفة المعتمد. [١]

٤- طبقات المغنيين [٢]: وهناك عدة مؤلفات لابن خرداذبة ولكن الذي يهمنا في هذا المجال كتابه المسالك والممالك، أما الكتب الأخرىٰ عديدة، وهي تدور في فلك الأدب

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ١٨٧٣م ليدن، ص ٢٣٦. ؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ١٢٦.

(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة في التراث العربي، ص ١٢٦-١٢٧؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٠٧.

(٣) نفس المرجع السابق: ص ١٢٦.

(٤) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٦٤٠/٢؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص ٢١.

(٥) علية عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، مجلة المنهل، ص ١٦٨.

(٦) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٧٦.

(٧) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٣٩.

(٨) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ق٢، ج٤ / ٦٤٠-٦٤١.

(١) نفس المرجع والصفحة نفسها.

(٢) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٣٩؛ كاربروكلمان: تاريخ الأدب، ٦٤٠/٢-٦٤١.

الخفيف والحياة المرحة ويلاحظ القارئ في بعض هذه المصنفات أنها قد تأثرت ببعض الاتجاهات الشعوبية لديه كما في كتابه (جمهرة أنساب الفهرس والنوافل)، وبعضها يرمي إلىٰ إمتاع القوم مثل (كتاب الشراب) و (كتاب الطبيخ). (1)

وقد كشف النقاب مؤخراً عن مخطوطة لكتابه (الملاهي والأسماء) وفضلاً عن ذلك مصنفه في (التاريخ) (2) يعالج تاريخ العرب قبل الإسلام، وأيضاً له (كتاب الأنواء). وكتاب الذماء والجلساء(3).

منهجه:

وقد خرج ابن خرداذبة من تجربته العلمية بصياغة من كتابه (المسالك والممالك) هذا المصنف العلمي الذي حمل نفس واسم المصنف الذي سبقه المروزي (ت. ٢٧٣هـ)(4) وهو الكتاب الثاني الذي يحمل هذا الاسم بعد كتاب (المسالك والممالك)(5). حيث بدأ ابن خرداذبة كتابه وفقاً للتقليد المعروف بالمعلومات المعهودة من محيط الجغرافيا الرياضية خاصة وصف شكل الأرض كما هو عند بطليموس، ويلاحظ علىٰ كتابه أنه لم يهتم بالجانب الفلكي الرياضي، في حين توسع في وصف البلدان مع العناية بذكر أبعاد الطرق وتحديد المسافات بين البلدان تحديداً دقيقاً(6).

ولقد أصبح عنوان كتابه شائعاً جداً من بعده، حين قسمه إلىٰ سبعة أقسام متفاوتة جداً في طولها. فالقسم الأول علىٰ نظريات كوزموغرافية ونعني بها علم الحركات الفلكية للأرض والكون مستمد علىٰ الأرجح كما ذكرنا من بطليموس(1)، فيما يضم القسم الثاني عرفية جغرافية لإقليم بغداد باعتباره مركز العالم حينذاك(2)، حيث وصف الطرق وذلك بدرجات متفاوتة في التفصيل فيبدأ بالطرق التي تخرج من بغداد شمالاً إلىٰ آسيا الوسطىٰ جنوباً إلىٰ الهند حيث تطرق إلىٰ القسم الإداري والخراج وامتاز

---

(١) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٣٩ ط١، ١٤١٦هـ ؛ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ١٠٦.

(٢) عبد الرحمن حميدة: المرجع السابق، ص ١٠٦.

(٣) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٣٩.

(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) جعفر بن أحمد المروزي، ويكنىٰ أبا العباس. أحد المؤلفين للكتب في سائر العلوم وهو أول من ألف في المسالك والممالك، ولم يتمه، وتوفىٰ بالأهوار وحملت كتبه إلىٰ بغداد وبيعت كتبه في طاق الحرّاني سنة ٢٧٤هـ. من كتبه: المسالك والممالك، وكتاب: الآداب الكبير، وكتاب: الآداب الصغير وغيرها، انظر، ابن النديم: الفهرست، ط١، ١٤١٦هـ، ص ٢٤٢.

(٦) علية عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، المنهل، ص ١٦٧-١٦٨.

(١) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٠٦-١٠٧؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٢٧.

(٢) عبد الرحمن حميده: المرجع السابق، ص ١٠٧.

بحيوية أكثر في صفة الطريق البحري إلىٰ الهند والصين[(١)].

أما القسم الثالث والرابع والخامس والسادس، فيعطينا المؤلف معلومات إضافية عن مسالك الشرق، فارس والهند والصين والغرب وبلاد الشام ومصر والمغرب وشمال ما بين النهرين وبيزنطة وشمال أرمينيا ومنطقة بحر الخرز وجزيرة العرب[(٢)].

ويُعيب بعض الباحثين علىٰ ابن خرداذبة عدم صهر المادة التي جمعها وتقديمها في نسق متجانس لكنه يؤكد دوره الإيجابي في تقديم وصف مبكر للطرق فسهل مهمة من جاء بعده حتىٰ أفاد من عمله الكثيرون حيث قال بعض الباحثين لا تحس من جانب المؤلف أية محاولة لصهر هذه المادة وصبها في قالب متجانس فضلاً عن أن الكتاب يفتقر إلىٰ الكثير من ناحية التويب، وقد كان بمقدور المؤلف بلا شك الإطلاع علىٰ الوثائق الرسمية أي الأرشيف الحكومي ويشير إلىٰ هذا المقدسي بل والمؤلف نفسه عند الكلام علىٰ مصادره وقد كان لاهتمام المؤلف بالرحلات أن حفظت لنا مادة مفيدة خاصة فيما يتعلق بوصف الطرق في عهود مبكرة ولا شك أن عدم التناسق في مادة هذا الكتاب هو المسئول عن التناقض في حكم الجغرافيين العرب المتأخرين عليه[(٣)].

ونجد أخيراً في الجزء السابع معلومات عامة عن أقسام العالم وغرائبه، ويتراءىٰ لنا أن شطر من هذا الجزء علىٰ الأقل ليس من إنتاج جهده الشخصي. وقد ضمن ابن خرداذبة كتابه إحصاء جباية الدولة العباسية وطول المسافات بين البلاد وقبلة أهل كل بلد، وفوائد تاريخية كثيرة[(٤)] ويختتم هذا القسم بتعداد الملوك القدماء معتمداً علىٰ المصادر الفارسية[(٥)].

وفي موضع آخر من كتابه تعرض ابن خرداذبة لقضية كروية الأرض فقال: أن صورة الأرض مدورة كتدوير الكرة موضوعة في جوف الفلك كالمحة في جوف البيضة والنسيم حول الأرض وهو جاذب لها من جميع جوانبها إلىٰ الفلك[(١)].

ويمكننا أن نشير إلىٰ عدة نقاط في هذا المنهج الجغرافي الذي ميزة عن غيره ممن ألف في هذا الباب ومن ذلك:

- أنه لا يهتم بشؤون الدين ولا يُعير لها أي أهمية. غير أنه يورد لنا بعض الأمور الطريفة المتنوعة التي لا فائدة منها من الناحية العلمية. كما نجده يهتم بذكر العجائب من عجائب بناء الأهرامات بمصر وما كتب عليها.
- ونجده يستشهد بالشعر. إلا أننا نجد معلوماته للطرق والمسالك أغزر من غيره من الرحالة الجغرافيين أمثال المقدسي، كما أنه يهتم اهتماماً كبيراً بالناحية

---

(١) فؤاد قنديل: المرجع السابق، ص ١٢٨.
(٢) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٠٧.
(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٨.
(٤) عبد الرحمن حميده: المرجع السابق، ص ١٠٧.
(٥) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٢٧.
(١) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة بورسعيد، ص ٤.

الإدارية وخاصة في منطقة السواد فقد أولىٰ الناحية الإدارية في هذه المنطقة أكثر اهتماماً.

- أما من ناحية التبويب فإنه يفتقر إليها قطعاً إذا ما قارناه بتنظيم وخطة بعض الرحالة الجغرافيين أمثال المسعودي والمقدسي [١]. لذلك أن لأسلوب ابن خرداذبة جافاً جداً عندما يتكلم عن العرفية مثلما يظهر عديم اللون في المقاطع الوصفية. ونميل للظن بأن المؤلف لم يهتم بتحسين أسلوبه لأنه لم ينظر للكتابة كمصنف أدبي بل كوجيز معد لجمهور معين[٢].

وبالرغم أنه كان كتاباً جامعاً شاملاً مما يدعونا إلىٰ اعتباره علامة علىٰ الطريق وشاهداً علىٰ زمانه ولقد عرف الغرب كتابه: (المسالك والممالك) ولفت نظر المستشرقين فنشروه [٣].

وخلاصة القول أن ابن خرداذبة قد جمع بين علم الجغرافيا والتاريخ والأدب فهو بجميع المعايير من كبار علماء الحضارة العربية والإسلامية ولكنه من علماء العرب والمسلمين البارزين في علم الجغرافية حيث توصل إلىٰ نتائج وأفكار رائعة في ميدان علم الجغرافيا لم يسبقه إليها أحد لذا حاز علىٰ رضاء وتبجيل ليس فقط معاصريه ولكن جميع علماء الجغرافية في المعمورة لأن كتابه (المسالك والممالك) بقي المرجع الوحيد لطلاب العلم ردحاً من الزمن[٤].

لذا فقد بذل جهداً كبيراً في الكشف عن الحقائق العلمية التي تعلمها من علماء بابل والإغريق والرومان لقد كان لنتاج ابن خرداذبة أكثر الأثر في تقديم وارتقاء الحضارة العربية والإسلامية بوجه عام [٥].

وفاتــه:

وأخيراً فقد توفىٰ عبيد الله المعروف بابن خرداذبة سنة ٣٠٠هـ حيث كان من أعظم علماء الجغرافيا المسلمين الذين تركوا لنا تراثاً ضخماً في الجغرافيا الإقليمية[١].

---

(١) عدي يوسف مخلص: المقدسي البشاري، ص ١١٩-١٢٠-١٢١.
(٢) عبد الرحمن حميده: إعلام الجغرافيين، ص ١٠٧.
(٣) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ١٤٠٧هـ، ص ٦١.
(٤) عبد الله علي الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٧٧.
(٥) نفس المرجع السابق، ص ٧٧.
(١) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٦١؛ أحمد رمضان: الرحلة والرحالة المسلمون، ص٥٥-٦٥؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٢٦.



المبحث الـــرابـــع

ابن رســـته (ت٣٠٠ هـ)

- حياتـــــه.
- مصــنفاته.
- منهجـــه.
- وفاتـــــه.

ابن رســــته (ت . ٣٠٠ هـ)

حياتــه:

أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، أحد الجغرافيين الذين ظهروا أوائل القرن الرابع الهجري [١]. ولا نعرف الكثير عن سيرته وكل ما نعرفه عنه أنه فارسي الأصل قضىٰ الشطر الأكبر من حياته في أصفهان وأنه قام بأداء فريضة الحج إلىٰ مكة المكرمة في سنة ٢٩٠هـ[٢] ويرجح أن يكون مولده نحو عام ٢٦٠هـ [٣].

تعليمه:

لقد ارتحل ابن رسته إلىٰ مكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة ٢٩٠هـ حيث قضىٰ مدة قصيرة في مكة المكرمة وزار المدينة المنورة، ولكن ابن رسته استفاد من إقامته القصيرة هناك وذلك لتتلمذه علىٰ كبار علماء العلوم الشرعية في الحرمين الشريفين ولم تحدد المصادر التاريخية أن ابن رسته تلقىٰ العلم علىٰ يد عالم مشهور من علماء المسجد الحرام.

كما وضع ابن رسته المنهج العلمي لدراسة الجغرافية الإقليمية حيث وصف الطريق من بغداد إلىٰ مكة. [٤]

فعاش ابن رسته في أصبهان، حيث كانت مكانتها متواضعة علىٰ المستوىٰ الإداري المحض، لكنها كانت مركز الحياة الفكرية فتجمعت فيها كل المدارس فيما يبدو، ونشطت الحركة العلمية إلىٰ درجة أن أصبح هناك تنافس بين أصحاب المذاهب المختلفة وأخذت طابع العنف أحياناً لاسيما بين الحنيفية والشافعية، والخرمية، والقرامطة، والصوفية، والشيعة، المعتزل والحنابلة [٥].

وقضىٰ بن رسته معظم حياته في البحث والاستقصاء لذا أنتج موسوعته المشهورة (الأعلاق النفيسة) [٦]. واهتم أيضاً في علم الفلك لعلاقته القوية بعلم الجغرافيا

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٣٣؛ عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية، ص ٥٠.؛ كارول بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ق٢ ، ج٤ / ٦٤٦.

(٢) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١١٦، علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ٨٥.؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٣٢.

(٣) علي بن عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٥.

(٤) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص١١٦.

(٥) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية حتىٰ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٣م، ترجمة/ إبراهيم خوري، ٨/١.

(٦) علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٥.

لذا قدم دراسة تتعلق بمركز الأرض، والفضاء الخارجي [١].

مشائخه الذين استفاد منهم أو حدَّث عنهم:

١- ذكر ابن رسته في كتابه بقوله: (قال محمد بن موسىٰ المنجم[٢]، تقول الروم ما من بناء بالحجارة أبهىٰ من كنيسة الرها وما من بناء بالخشب أبهىٰ من كنيسة منبج) [٣].

٢- وذكر ابن رسته في كتابه (ذكر أبو عبد الله محمد بن إسحاق) ، صفة بلاد الهند، فلم يذكر لقب محمد بن إسحاق، فوجدت العديد في كتب التراجم وخاصته عند ابن النديم محمد بن إسحاق ولكنه باللقب غير الذين حدث عنه ابن رسته في حديثه عن صفة بلاد الهند[٤].

٣- ذكر ابن رسته في كتابه (قال ابن السكيت[٥]) في حديث عن المشبَّهون برسول الله ﷺ سيد بني العباس بن عبد المطلب (قثم بن العباس) [٦].

٤- الجيهاني ويعتبر كتابه المصدر الرئيسي لابن رسته الذي ألفه في وقت حياة ابن رسته[٧].

مصنفاته:

(١) نفس المرجع والصفحة نفسها.

(٢) محمد بن موسىٰ المنجم، أبو عبدالله، عالم بالهندسة والحكمة والموسيقى والنجوم، توفي سنة ٢٥٩هـ، وكان من المقربين للخليفة المأمون. انظر: الزركلي: الأعلام، ١١٦/٧ – ١١٧.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٨٣.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٥) ابن السكيت: هو يعقوب ابن السكيت متصرفاً في أنوالي العلم وكان أبوه صالحاً وكان من أصحاب الكسائي وكان يقول أنا أعلم من أبي في النحو، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة، ويكنىٰ بأبي يوسف من علماء بغداد ممن أخذ عن الكوفيين، وكان مؤدباً لولد المتوكل توفىٰ سنة ٢٤٦هـ. انظر: ابن النديم: الفهرست، ١١٤.

(٦) ابن رسته: الأعلاق النفيسة،ص ٢٠٠؛أما قثم بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي:ابن عم رسول الله ﷺ وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث بن حزن الهلالية وهي أول امرأة أسلمت بمكة بعد خديجة رضي الله عنها. انظر: ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي بكر الشيباني: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط١، تحقيق خالد طرطوس، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٧هـ، ٤٥/٤.

(٧) كراتشكوفسكي:تاريخ الأدب الجغرافي،ت: صلاح الدين عثمان هاشم،إدارة الثقافة بجامعة الدول العربية ق١٦٤/١

ولم تشر لنا المصادر من مؤلفات ابن رسته غير كتابه الأعلاق النفيسة[١]. الذي وصف فيه الأفلاك وهيئة السماء والكواكب والبروج والشمس والقمر والليل والنهار.

نشر كتابه المستشرق الهولندي الشهيري دي خويه في ليدن عام ١٨٩٢م، حيث خصص ابن رسته صفحات مقدمة الكتاب لمناقشة تفصيلية عن شكل الأرض وحجمها وموقعها من الأجرام السماوية. ثم ذكر مكة المكرمة وأحوالها وبناء الكعبة وصفة البيت الحرام والمشاهد الأخرىٰ. وتلىٰ ذلك دراسة عن جغرافية بلاد فارس والأرض المجاورة وأعطىٰ وصفاً دقيقاً لطرق خراسان وبغداد والكوفة والبصرة، ويولي ابن رسته اهتماماً كبيراً بذكر المسافات بين المحطات بالإضافة إلىٰ ذلك أعطىٰ ملاحظات عن طبيعة الدول[٢].

وقد حاز كتاب الأعلاق النفيسة في عدة مجلدات ربما زادت عن سبعة غير أنه لم يصلنا منها غير مجلد واحد وهو السابع[٣].

كذلك من ضمن ما تحدث عنه ابن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة عجائب المخلوقات من حيوان ونبات وآثار ومبان وبحار وأنهار كما قدم دراسة واقعية عن المناخ وأثره علىٰ المخلوقات وكذلك عن التضاريس المختلفة لجميع البلدان[٤].

لقد بذل ابن رسته جهداً عظيماً في تحديد حجم الأرض والمسافات المسكونة فيها كما حدد أماكن الأنهار والبحار والبحيرات والجبال والمدن علىٰ الخرائط التي رسمها والتي بقيت من أهم المصادر الجغرافية التي يعتمد عليها الباحثون قدامىٰ ومحدثين[٥].

وقد حاول ابن رسته أن يقدم في كتابه معلومات علمية تُعنىٰ بالمسافات والطرق بين البلدان، ويحدد الجبال والوديان والأنهار والبحار وأن يذكر مداخل المدن ومخارجها ومواضع الاتصال بينها وبين ما جاورها مع ذكر أهم الثغور وأنشطتها ونوع ا لعلاقات التي تربط بين الشعوب آنذاك لكنه كان يفتقد ملكة النقد[٦].

منهجه:

ومن الملاحظ تنوع موارد ابن رسته في كتابه الأعلاق النفيسة فنجده كثيراً ما

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٣٣.
(٢) س.م. ضياء الدين علوي: الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (الثالث والرابع الهجريين)، الجمعية الجغرافية الكويتية، ١٤٠١هـ، الكويت، تحقيق وتعريب، عبد الله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، ص٦٩.
(٣) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١١٦.
(٤) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٥.
(٥) انظر المرجع السابق: ص ٨٦.
(٦) فؤاد قنديل: أدب الرحلة ، ٣٣-٣٤.

يعتمد علىٰ كتب بعينها ومن ذلك ما يقول علىٰ أنه اعتمد علىٰ كتاب أركان الفلسفة. وأحياناً يشير إلىٰ ذلك بقوله بعض المكيين وفي هذا أسلوب لتضعيف الخبر.

وذكر ابن رسته في كتاب الإعلاق النفيسة بقوله[1]: (وجدنا في كتاب أركان الفلسفة وتثبت علم أحكام النجوم، لأحمد ابن الطيب) ذكر ذلك في مقدمة كتابه فلعل هذا الكتاب يُعتبر من موارد ابن رسته.

وذكر أيضاً ابن رسته في كتابه يقول: (يقول أبو مشعر[2] وجدنا كلّما يطلب الناس من علم النجوم أربعة أشياء أولها حركاتها ومسيرها في الطول والعرض والثاني معاريضها التي تعرض لها باختلاف حركاتها في البروج) [3].

وقد ذكر ابن رسته في كتابه بعض الذين نقل فيهم الوصف ولم يذكر أسمائهم حيث ذكر (قال بعض المكيين أن الوليد بن عبد الملك عمل الرخام الأبيض والأحمر والأخضر) [4].

لقد تفنن ابن رسته في تناوله فروع الجغرافية الرياضية فاتبع أسلوباً ومنهجاً في هذا المجال لم يسبقه أحد حيث جمع آراء ونظريات علماء العرب والمسلمين في هذا الميدان الحيوي وعلق عليها واستنتج طريقة عملية حديثة لدراسة الجغرافية الرياضية [5].

كما أنه وضع المنهج العلمي لدراسة الجغرافية الإقليمية حيث وصف الطرق المؤدية إلىٰ الأماكن المقدسة. واهتم أيضاً بعلم الفلك لعلاقته القوية بعلم الجغرافيا لذا قدم دراسة تتعلق بمركز الأرض وحجمها وعلاقتها بالفضاء الخارجي كما شرح بالتفصيل خطوط الزوال وحركة الأجرام السماوية وهذا يوحي بأنه من العلماء المتمكنين في علم الفلك[6].

ونجد أن من يتطرق إلىٰ كتاب ابن رسته الأعلاق النفيسة يلاحظ اعتماد ابن رسته علىٰ المشاهدة بالإضافة إلىٰ النقل عن الناس الذين ارتحلوا وأبحروا والأخذ من الكتب التي وصفها من سبقوه[7] أمثال قدامة[1] وابن خرداذبة، ولكنه يفتقد ملكة النقد

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، سنة ١٨٩١م، ص ٦.

(٢) هو جعفر بن محمد البلخي "أبو مشعر" فهو من أصحاب الحديث وتعلم علم النحو بعد ٤٧ سنة من عمره توفىٰ سنة ٢٧٢هـ وله من الكتب، كتاب المدخل الكبير ثمانية فصول، وكتاب المدخل الصغير، وغيرها من الكتب وهو من أهل خراسان بباب خراسان الغربي، انظر: ابن النديم: الفهرست، ص ٤٤١.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ص ١٧.

(٤) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ليدن، ص ٣٦.

(٥) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ٨٦.

(٦) نفس المرجع السابق: ٨٥.

(٧) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٣٣.

فهو ينقل دون تدقيق ما أخذه شفاهة دون تمحيص وكان مولعاً بالعجائب ولا تثريب علىٰ من أغرم بها فقد كانت إحدىٰ سمات التصنيف قروناً عديدة وإن كان المتعين الإشارة إلىٰ ذلك بالوقوف عندها أو تحييدها[٢]، ونجده يأخذ الحذر في كتابته وربما كان ذلك خشية أن يتهم بالزندقة إذ يعتمد علىٰ شواهد من القرآن الكريم لتبرير آرائه في التنجيم وعرضه للجغرافيا الفلكية والرياضية[٣].

ذكر ابن رسته في مؤلفه الأرض وهيئتها ومقدار جرمها وكيفيتها ونعت بنيانها ومدنها المشهورة علىٰ حسب ما بلغه علم المؤلف ووصف المسالك والممالك فيها ثم فصل في اختلاف أهل الملك في هيئة الأرض ثم ذكر الكعبة والمدينة. [٤] مع توخي تحديد الأبعاد بدقة متناهية ولكن وصفه يفتقر للحيوية ثم يقدم معلومات عامة عن البحار والأنهار والمناخات والمدن الكبرىٰ[٥].

وفي وصفه للأقطار يمنح أهمية فريدة لبلاد فارس ولكنه لا يهمل التحدث عن بلاد العرب الجنوبية كذلك وصف لنا القسطنطينية والكنيسة آيا صوفيا الموجودة بها كما تناول عجائب السموات ومركز الأرض[٦].

واتبع ابن رسته كتابه بأشياء أخرىٰ فذكر الأوائل الذين أحدثوا الأشياء واقتدىٰ بهم سواهم.ثم ذكر أديان العرب في الجاهلية وأصحاب المذاهب في الإسلام[٧].

وتتباين قيمة كل قسم من كتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته عن الآخر ويظفر بأهمية خاصة كلامه عن صنعاء والإمبراطورية البيزنطية والهند الشرقية والصقالبة وضواحي مدينته المفضلة أصفهان مثلما لا يوجز عند الكلام عن طبرستان ومكة المكرمة والمدينة[٨].

وعلىٰ كل يقترب مصنف ابن رسته في كثير من النقاط من العرفية ولكن علينا مع ذلك أن تعترف لهذا لمؤلف الذي تحول شدة وقته دون أن يكون كاتباً ممتازاً بقدرته علىٰ اهتمام القارئ عندما يسرد الأقاصيص العجيبة والتي يثق بها شخصياً. وربما كان ذلك هو الذي أدىٰ لتقديره بين معاصريه [٩].

---

(١) هو قدامة بن جعفر بن قدامة، كان جده نصرانياً أسلم علىٰ يد المكتفي بالله، وكان أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة وله من الكتب، الخراج، ونقد الشعر، والرد علىٰ ابن المعتز، انظر: ابن النديم: الفهرست، ١٤١٦هـ، ص ٢٠٩.

(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة: ص ١٣٤.

(٣) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١١٦.

(٤) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص ٢٥٠.

(٥) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافية، ص ١١٦- ١١٧.

(٦) نفس المرجع السابق: ص ١١٧.

(٧) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية، ص ٢٥٢.

(٨) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١١٧.

(٩) نفس المصدر السابق ص ١٧.

ولعلنا نلاحظ أن جغرافية الأعلاق النفيسة قد اعتمدت علىٰ أربعة اتجاهات وهي[1]. صورة الأرض التي برع فيها ابن رسته عندما تكلم عن كروية الأرض[2]، أما الاتجاه فهو المنهج الأدبي الذي برز لديه عند حديث عن وصف القسطنطينية وما فيها ونعت مُلك مَلِك الروم[3]. وأما المنهج الثالث له فوُصِف بالمعارف العربية والتي يقصد منها تركيزه علىٰ جغرافية جزيرة العرب [4] وأخيراً الجانب الوصفي في كتابه لذا أسهم ابن رسته في هذا الجانب لاسيما عندما تكلم عن أصبهان ووصفها وصفاً دقيقاً[5].

وفاتــه:

وبعد هذه الحياة التي عاشها ابن رسته في البحث وتقصي الأخبار والوصف عن طريق المشاهدة، فقد أظهر لنا كتابه المعروف باسم الأعلاق النفسية والذي كان حياً سنة ٢٩٠هـ. ولم تذكر المصادر التاريخية من تراجم وغيرها سنة وفاته، ولكن الراجح أنه توفىٰ في أوائل القرن الرابع الهجري. أو بين عامي ٣١٠هـ- ٣٣٧هـ. ومن المحتمل أن يكون وسطاً بين هذين التاريخين[6].

---

(١) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام ج١ ، ق٢، ص ٩.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م، ص ٢٢.
(٣) نفس المصدر السابق: ص ١١٩.
(٤) نفس المصدر السابق: ص٢٥.
(٥) نفس المصدر السابق: ص ١٦٠.
(٦) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ص ١٦٥.
فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٣٣.

المبحث الخامس

الأصطخري (ت ٣٤٦ هـ)

- حياته.
- مصنفاته.
- منهجه.
- وفاته.

الأصـطـخري (ت ٣٤٦ هـ)

حياتـه:

إبراهيم بن محمد الفارسي الأصل أبو إسحاق ويكنىٰ أيضاً بأبي القاسم الأصطخري نسبة إلىٰ مدينة اصطخر التي ولد وعاش بها وتعرف بمدينة [برسيبوليس] Persepolis. القديمة في فارس واشتهرت في أوربا تحت هذا الاسم(١). ويقال له الكرخي(٢).

عاش الاصطخري في النصف الأول من القرن الرابع الهجري. ومن الرحالة الجغرافيين الكبار، جاب الآفاق وارتحل في الأمصار لأكثر من ربع قرن وخلف لنا كتاباً يعتد به ولا يغفل عنه الدارسون، تلقىٰ العلم وتفقه فيه لكنه عشق السفر وأسرف فيه لأنه كان السبيل الأول لنهل المعارف وتحصيل العلوم وهي السياحة والرياضة وتجديد العقل والوجدان. لا نعرف تاريخ مولده وإن كنا نرجح أنه ولد أوائل الربع الأخير من القرن الثالث الهجري لأنه بدأ رحلاته أوائل القرن الرابع الهجري ويمكن أن يكون عمره عندما بدأ تجواله بين العشرين والخامسة والعشرين، غير أنه من المعتقد أنه قد ساح في العالم الإسلامي علىٰ نطاق واسع فزار أكثر بلدان آسيا حتىٰ بلغ سواحل المحيط الهندي، وكذلك زار بلاد ما وراء النهر وجزيرة العرب والشام ومصر (٣).

وممن استفادوا من كتاب المسالك والممالك للاصطخري:

ابن حوقل يعتبر من الذين استفادوا من الأصطخري رغم أنه أصلح كتاب المسالك والممالك للأصطخري فمع أنه لا يطعن في نسبة الكتاب إلا أنه يشير إلىٰ توهين ما فيه من بيانات والحق أن ابن حوقل ينقل عن الاصطخري بالنص واللفظ وهو يلجأ إلىٰ هذه الدعوىٰ لتبرير هذا النقل وأبسط عرض لكتاب ابن حوقل علىٰ كتاب

---

(١) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين: ص ١٩٩.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط٣، ٥٨/١؛ عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية، ص ٢٥٣؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٩٩؛ عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١٠٢؛ عبد العال عبد المنعم الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية، ١٤٠٤هـ المؤتمر الجغرافي الأول، إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود، مج٣، ص ٢٩١.؛ يسري عبد الرزاق الجوهري: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ١٩٩٤م، منشأة المعارف بالإسكندرية، ص ١٠٠.

(٣) زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص ٣٦؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٧٨. شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٣٩؛ محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، ١٤٠٤هـ، إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود، المؤتمر الجغرافي الأول، مج٣. ١٣٩-١٤٠.

الأصطخري يدل دلالة واضحة علىٰ هذه الحقيقة [(١)].

فإذا نظرنا للنص التالي عند الأصطخري بنفس الصيغة والمعنىٰ لوجدناه عند ابن حوقل بالصيغة والمعنىٰ، وبقرب ينبع جبل رضوىٰ وهو الجبل الذي زعم طائفة يعرفون بالكيسانية أن محمد بن الحنيفية بن علي بن أبي طالب حي مقيم به ومن رضوىٰ يحمل المسن إلىٰ سائر الآفاق". وهذا يشير بلا جدال إلىٰ أن ابن حوقل اعتمد علىٰ كتابه كثيراً لاسيما فيما يتعلق بأقاليم الجزيرة العربية[(٢)].

وممن استفاد من مؤلف الاصطخري الجغرافي العالم ياقوت الحموي فهو يذكر اطلاعه علىٰ كتاب الاصطخري وغيره من الجغرافيين الذين سبقوه واعتمد عليهم في وضع مؤلفه لاسيما فيما يتعلق بذكر المسالك ومسافات الطرق[(٣)].

مصنفاته:

لقد سلك المؤرخين في دراستهم لكتاب الأصطخري مسالك عدة، فمنهم من يؤكد اعتماده علىٰ كتاب أبو زيد البلخي وأنه سلخ جزءاً كبيراً منه وضمه إلىٰ كتابه بل أن بعضهم ذهب إلىٰ القول بأن الاصطخري قد أخذ نفس العنوان الذي وصفه البلخي للكتاب وهي صورة الأرض بمزيد من الدراسة والبحث لم تقم هذه الرؤىٰ علىٰ دليل قاطع ولم تؤيد ببراهين موثقة وفي المقابل يمكن للباحث أن يثبت بالدليل القاطع نسبة المسالك والممالك إلىٰ الاصطخري وذلك من خلال رسالة ألفها الاصطخري نفسه عن فارس فهو يقول: "وقد ذكرت في الرسالة ما يعلم من قرأها موضع كل كورة برساتيقها ومواضع المدن بها إن شاء الله تعالى" [(٤)]. كما يؤيد ذلك المعاصرين له إذ نجد أن ابن حوقل يشير إلىٰ مقابلته له في بغداد وأنه أخذ نسخة من كتابه هذا لمراجعتها[(٥)]. وقال: [ولقيت أبا إسحاق الفارسي وقد صوّر هذه الصورة لأرض الهند فخلطها صوّر فارس فجوّدها وقد كنت صورت أذربيجان التي في هذه الصفحة فأستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التي لمصر فاسدة وللمغرب أكثرها خطأ وقال قد نظرت في مولدك وأثرك وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللت فأصلحت منه غير مشكل وعزوته إليه] [(٦)].

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ص ٢٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ص ٤٠-٤١.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ١١/١ ، ٢١١/١.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ط١٣٨١هـ، ص ٦٧؛ عمر كحالة: التاريخ والجغرافية، ص٢٥٣؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٣٩.

(٥) الأصطخري: المصدر السابق: ص٨.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ط٢، ليدن ١٩٣٨، ص ٢٨٤.

أما إضافة النساخ (صورة الأقاليم) إلىٰ عنوان الكتاب فهي مسألة تجارية يبتغون من وراء شهرة أبي زيد رواج منسوخاتهم لكتاب الأصطخري هذا فضلاً عن أن هذا اصطلاح عام لا يميز كتاباً عن كتاب مثله مثل اصطلاح [المسالك والممالك] الذي أطلق علىٰ أكثر من كتاب جغرافي[1].

وكتاب الأصطخري [المسالك والممالك] أول ما نشر في عصرنا الحديث مختصراً في نسخة بالزنكوغراف، عن نسخة مخطوطة سنة ٦٩٠هـ نقلها الدكتور مولر. في سنة ١٨٣٩م ووضع لها مقدمة باللاتينية ثم نشره دي خويه المستشرق الهولندي المشهور من خمس مخطوطات وذلك سنة ١٨٧٠م وظل الكتاب رغم مرور هذا الزمن الطويل ورغم ما فيه من زلات لا يفكر أحد في إعادة طبعه، ظل الأمر كذلك حتىٰ نشطت لهذا الأمر إدارة الثقافة العامة في مصر[2].

وقد أصدر أبو إسحاق الفارسي الأصطخري كتابه المسالك والممالك حوالي ٣١٨هـ أو سنة ٣٢١هـ. حيث اقتصر الأصطخري مثل غيره من الجغرافيين المسلمين علىٰ وصف بلاد الإسلام مقسماً إياها إلىٰ عشرين إقليماً جغرافياً وليس إلىٰ نطاقات عرضية وكل قسم عنونه بالمملكة ويورد الأصطخري في كل قطر معلومات عن الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويورد تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الشعوب والأجناس. ويعطي عناية خاصة للأقطار التي زارها[3].

منهجه:

يورد الأصطخري عن كل قطر معلومات تتعلق بالحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات ويذكر تفاصيل متفرقة عن المحاصيل والتجارة والصناعة وعن أجناس السكان، ولكن معظم التفاصيل تتعلق بالأقطار التي زارها[4].

كان أول الباحثين الذين اتبعوا طريقة أبو زيد البلخي في التبويب والتصنيف حيث قسم كتابه إلى عدة فصول[5] هو الأصطخري المتوفىٰ سنة ٣٤٠هـ ويتوفر كتابه في طبعتين ومقارنة خرائط الأصطخري بخرائط البلخي تؤكد دون أدنىٰ شك أن

---

(١) نفس المصدر السابق: ص ٩.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ١١؛ علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١٠٣.

(٣) محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، ص ١٣٩-١٤٠.

(٤) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ١٩٩.

(٥) اسمه أحمد بن سهل كان فاضلاً في سائر العلوم القديمة والحديثة، يسلك في تصنيفاته، وتأليفاته طريقة الفلاسفة غلا أنه بأهل الأدب أشبه وإليهم أقرب. انظر: ابن النديم: الفهرست، ١٤١٦هـ، يوسف الطويل، ص ٢٢٢-٢٢٣.

الأصطخري قد تأثر كثيراً بأفكار البلخي الجغرافية[١].

ولد أبو زيد البلخي أحمد بن سهل بشامستيان، قرية ببلخ ومات بها اشتغل بالتعليم كأبيه ثم طلب العلم ببغداد ثماني سنين وطوف بالبلاد المجاورة وتتلمذ علىٰ يد الكندي الفيلسوف [٢] وأعجب به،وعمل فترة كاتباً لأمير بلخ أحمد بن سهل المروزي فيما بين ٣٠٥-٣١٠هـ وكان أبو زيد شيعياً إمامياً، ثم عدل واتهم بالإلحاد، لكن الكثيرين برءوه، وضع كتباً في الفلسفة والفلك والرياضة والطب والجغرافيا والسياسة والتاريخ وغيرها من أصول الدين وعلم اللغة، لم يصلنا منها شيء"[٣].

فمكانة أبو زيد البلخي هي التي جعلت النساخ يضعون علىٰ كتاب الأصطخري في هذا العصر المبكر الاصطلاح الذي جاء به أبو زيد البلخي وهو صور الأقاليم إلىٰ جانب عنوان الكتاب الأصلي الأمر الذي أشكل علىٰ دائرة المعارف الإسلامية فنسبت كتاب الأصطخري لأبي زيد البلخي أو جعلته معولاً عليه وهذه شبهة ليس لها سند أو دليل [٤].

أما تعويل الأصطخري علىٰ أبي زيد البلخي فليس هذا بعيب في الكتاب، لأن هذا العلم كان في بدئه ويعتمد الخلف دائماً علىٰ السلف كما اعتمد ابن حوقل علىٰ الأصطخري[٥].

<u>من خلال استقراء كتاب الأصطخري يلاحظ وضوح أن منهجه في التأليف يقوم علىٰ أسس ثلاثة</u>[٦]:

<u>أولاً</u>: المشاهدة والوصف وفق الرؤية، ونجد ذلك واضحاً في حديثه عن إقليم ما وراء النهر.

<u>ثانياً</u>: تحرىٰ الدقة مخالفاً غيره تارة ومتفقاً تارة أخرىٰ.

<u>ثالثاً</u>: سماع الأخبار والاقتصاد في رواياتها، ولقد بين ذلك في مقدمة كتابه قائلاً: (فقد يوجد في الأخبار ولا يتعذر علىٰ من أراد تقصي شيء من ذلك من أهل كل بلد ولذلك تجوزنا في ذكر المسافات والمدن) [٧].

وليس معنىٰ هذا أنه استغنىٰ عن النقل وإنما معناه أنه تحرىٰ الاقتصاد في

---

(١) س.م. ضياء الدين علوي: <u>الجغرافية العربية في القرن التاسع والعاشر الميلادي</u>، ص ٨٢.

(٢) هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن الصباح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، فاضل وهره، وواحد عصره في معرفة العلوم، ويسمىٰ فيلسوف العرب وكتبه في علوم مختلفة، مثل المنطق والفلسفة والهندسة والحساب والموسيقىٰ والنجوم. انظر: ابن النديم: <u>الفهرست</u> ط١، ١٤١٦هـ، ص ٤١٤.

(٣) فؤاد قنديل: <u>أدب الرحلة</u>: ص ١٥٧.

(٤) الأصطخري: <u>المسالك والممالك</u>، ط١٣٨١هـ تحقيق: محمد عبد العال، دار القلم القاهرة، ص ٨.

(٥) نفس المصدر السابق: ص ٩.

(٦) الأصطخري: <u>المسالك والممالك</u>، تحقيق محمد جابر عبد العال الحسين، ص١٠.

(٧) فؤاد قنديل: <u>أدب الرحلة</u>، ص ١٨٤؛ الأصطخري: المصدر السابق: ص ١٥.

الرواية وأثبت ما هو ضروري ومكمل لكتابه مما رآه متفقاً ومنهجه في الصحة والمنطق والتصور[(١)].

ويرىٰ الأصطخري في نفسه أول من نهج منهجية علمية في شرح الحقائق الجغرافية بواسطة رسم الخرائط، والجدير بالذكر أن جميع خرائط الأصطخري ما زالت سليمة ولم تفقد لأنه كان يضع الخريطة في صور بحثه عن كل إقليم[(٢)].

كذلك يحتفل بهذه الخريطة الجغرافية، فهي عنده أساس الدراسة الجغرافية وهذا ما تقول به جغرافية القرن العشرين وهو في هذه الناحية منطقي إلىٰ أبعد الحدود. إذ ينحدر للعالم المعروف علىٰ عهده خريطة يفتتح بها الكتاب ليعرف من يطلع عليها موقع الإقليم الذي يصفه من العالم هذا هو المنهج الجغرافي السليم ثم يتبع هذه الخريطة للعالم بالخرائط الإقليمية فيفرد لكل إقليم صورة علىٰ حدة[(٣)].

كذلك اعتمد علىٰ الإقليم بمدلوله الجغرافي والإداري والسياسي معاً، فكل إقليم عنده قائم بذاته كوحدة جغرافية إدارية، أي يتمشىٰ مع التنظيمات الإدارية التي عرفت منذ الفتح الإسلامي[(٤)].

وتقسيمه العالم الإسلامي إلىٰ عشرين إقليماً وقد سار ابن حوقل علىٰ نفس التقسيم وإن خالفها بعد ذلك المقدسي الذي قسم العالم الإسلامي إلىٰ أربعة عشر إقليماً علىٰ أن التطابق في عدد الأقاليم بين الأصطخري وابن حوقل ليس وليد الصدفة فهما متعاصران وقد تقابلا وعرض الأصطخري بعض خرائطه علىٰ ابن حوقل، وقد ذكر ابن حوقل هذا اللقاء[(٥)].

ومن هذا المنطلق نجد أن الأصطخري قد أدخل مفاهيم جديدة لعلم الخرائط عند المسلمين بجعله الخريطة أساساً للبحث الجغرافي وهو اتجاه سوف يزداد تعمقاً وأهمية عند كل من ابن حوقل والمقدسي بحيث يصبح اتجاهاً مميزاً للمدرسة الجغرافية الإسلامية الخاصة في رسم الخرائط يحق لها أن تنفرد وتفخر أيضاً[(٦)].

هذا وقد اتصفت خرائط الأصطخري بالمميزات التالية[(٧)]:

١- رغم خلو هذه الخرائط من مقاييس الرسم فإنها حافظت علىٰ النسب والأبعاد بين

---

(١) المصدر السابق: ص ١٠، فؤاد قنديل: المرجع السابق، ص ١٨٤.
(٢) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٥٧-٥٩.
(٣) محمد محمود الصياد: المسالك والممالك للأصطخري، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الأول، ص ٧٢٤؛ عبدالعال عبدالمنعم الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، ص ٢٩٢.
(٤) عبد العال عبد المنعم الشامي: نفس المرجع السابق، ص ٢٩٢.
(٥) انظر نص المقابل بين ابن حوقل والأصطخري، في كتاب صورة الأرض لابن حوقل. طبعة ليدن، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م، ص ٢٨٤.
(٦) أحمد سوسة: العراق في الخوارط القديمة، المكتبة الجغرافية، مقال بمجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الأول، ١٩٦٢م، ص ١٥٩. ؛ عبد العال الشامي: المرجع السابق: ص ٢٩٣.
(٧) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٥٩-٦١.

المدن كما حافظت علىٰ الاتجاهات الصحيحة ووضحت العوارض شكل البلاد العام.

٢- حافظت علىٰ التقليد العربي في جعل الشمال إلىٰ الأسفل والجنوب إلىٰ الأعلىٰ والشرق إلىٰ اليسار والغرب إلىٰ اليمين.

٣- رسمت الأنهار بشكل مستقيم خالية من التعاريج ورسم بعضها بانحناءات كبيرة مثال ذلك نهر الفرات.

٤- استعمل الألوان في خرائطه فرسمت الأنهار والبحار والبحيرات والمدن والجبال وطرق المواصلات والحدود الخارجية للأقاليم والصحاري بألوان مغايرة عن كل معَّلم.

٥- رسمت المدن بأشكال مختلفة منها مستطيل تعلوها قبة صغيرة أو دوائر ملونة.

٦- أن خطوط الرسم المستعملة في الخرائط هي الخط الكوفي للعناوين والعوارض المشهورة والبحار، وخط النسخ لبقية الأسماء كما يغلب علىٰ الكلمات عدم التنقيط، أما الحبر المستعمل فهو الأحمر بدلاً من الأسود.

ولقد نهج الأصطخري منهجاً علمياً يدل علىٰ قدرته الفائقة النظر في تصور شكل الأرض. كما ركز أيضاً علىٰ المدلول الجغرافي والسياسي والإداري وتجنب النظريات التقليدية التي تنص علىٰ تقسيم الأرض إلىٰ سبعة أقاليم وأخذ كل إقليم بذاته كوحدة جغرافية مستقلة[١].

كما أولىٰ عناية خاصة لموضوع المد والجزر فله نظريات جريئة في هذا المضمار مما يدل علىٰ طول باعه في علم الأنواء، والمعروف بين العلماء في الماضي أن علم الأنواء جزء لا يتجزأ من علم الجغرافية[٢].

لقد عرف الأصطخري بكل دقة منهج علماء المسلمين في مجال علم الجغرافية الوصفية تماماً في مؤلفاته لذا اتسمت مؤلفاته بالدقة والاستنباط الذكي، فاستخدم منهج علماء العرب والمسلمين في ميدان علم الجغرافية، وبهذا عرف الأصطخري أصول المنهج العلمي التجريبي القائم علىٰ القياس والاستقراء والمستند علىٰ المشاهدة والتجربة والتمثيل[٣].

وفاته:

عند الحديث عن مقابلة الأصطخري وابن حوقل كان ذلك عام ٣٤٠هـ إذاً فلن تكون وفاته إلا بعد هذا التاريخ وأنه توفىٰ في منتصف القرن الرابع الهجري [٤]. وهناك

---

(١) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١٠٤.
(٢) نفس المرجع السابق: ص ١٠٤.
(٣) نفس المرجع السابق: ص ١٠٤.
(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ١٧٨.

من قال أنه توفي سنة ٣٤٦هـ ولم يقطع المؤرخين بتاريخ محدد لوفاة الاصطخري غير أنه من الراجح أنه توفي بعد عام ٣٤٠هـ لاسيما وأن ابن حوقل يشير إلىٰ مقابلته في هذا التاريخ[١]. كما ذهب بعض المؤرخين إلىٰ تاريخ وفاته عام ٣٤٦هـ[٢].

---

(١) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص ٢٥٣.
(٢) علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص١٠٢.

المبحث الســادس

المســعودي (ت ٣٤٦ هـ)

- حياتـــــه.
- مصــنفاته.
- منهجـــــه.
- وفاتـــــه.

المسعودي (ت٣٤٦هـ)

حياته:

علي بن الحسين بن علي بن عبد الله المسعودي[١] الهذلي، أبو الحسن، وقد حمل لقب المسعودي والهذلي بسبب انتمائه إلىٰ جده الأعلىٰ عبد الله بن مسعود الهذلي رضي الله عنه[٢].

ولد المسعودي في مدينة بغداد حوالي سنة ٢٨٧هـ من ذرية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود[٣].

ذكر أن المسعودي من أهل المغرب ويعرف بأبي الحسن [٤] ولكنه ولد في بغداد في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري[٥].

ولقد جاءت أسرة المسعودي من المغرب واستقرت ببغداد. ولكن لم يتضح بعد فيما إذا كان هو نفسه ولد في بغداد أم جاءها طفلاً وعلىٰ كل فمترجموه متفقون علىٰ أنه نشأ في بغداد وهي في ذلك الوقت مركز من مراكز العلم الكبرىٰ علىٰ أن الرجل لم يرد أن يقتصر تعلمه وتوصله إلىٰ المعرفة علىٰ ما عند البغداديين. لذا نراه يجوب الآفاق[٦].

ويحوط مذهب المسعودي الذي ينتمي إليه شيء من الغموض بادئ ذي بدء فقد

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة بربيه دي مينار، عنىٰ بتحقيقها شارل بلا (بيروت: منشور الجامعة اللبنانية ١٩٦٦/ ١٩٧٩م) ٢٥٤/١، ٣٣/٣؛ كتاب التنبيه والإشراف. طبعة ليدن [تصوير مكتبة خياط، بيروت] ١٩٦٥م. ص٧؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة: ص ٢١٣؛ علي عبد الله الدباغ: رواد علم الجغرافيا، ص١١٤.؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص ٤٨.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد ا لرحمن أحد كبار الصحابة، خدم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم وتولي قضاء الكوفة وبيت مالها في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصدراً من خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه واستقر في العراق، ثم قدم إلىٰ المدينة في خلافة عثمان بن عفان وتوفي في المدينة المنورة سنة ٣٢هـ. انظر، محمد بن سعد: الطبقات الكبرىٰ، بيروت دار صادر [د.ت] ١٥٠/٣؛ الحافظ بن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٣٢٨هـ، ٣٦٨/٢.

(٣) الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١١٥.

(٤) ابن النديم: الفهرست، تحقيق يوسف الطويل، ط١، ١٤١٦هـ ، ص ٢٤٨.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ٣٥٠/٤؛ سليمان عبد الله السويكت: منهج المسعودي في كتابه التاريخ، ط١، رسالة دكتوراه جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ، ص ٢٧.

(٦) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٣؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٣٠٩.

اختلف حوله الآراء منذ القدم[1].

أما ابن حجر العسقلاقي[2] فقد أنكر علىٰ ابن وحيه في كتاب صفين قوله: (أنه مجهول لا يُعرف ونكرة لا يتعرف) وقال إنه لم يصب وأورد رأيه فيه فقال: (إن كتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً حتىٰ قال في حق ابن عمر أنه امتنع عن بيعة علي بن أبي طالب ثم بايع بعد ذلك يزيد بن معاوية والحجاج لعبد الملك بن مروان وله من ذلك أشياء كثيرة) [3].

وأورد ابن تغري بردي رأي الذهبي[4] فيه، حيث قال: (إنه كان معتزليا فإنه ذكر تميز واحد من المعتزلة) ثم قال: (وكان من أهل العدل) [5].

تعليمه:

عاش المسعودي في عصر بلغت الثقافة في ذلك أوج مجدها وعزها وتميزت بمظاهر كان لها دور كبير في دفع الحركة الفكرية إلىٰ الأمام، ومن أبرز تلك المظاهر اتساع نظرة الناس وتشبعهم بروح الأمة الإسلامية وتحقيق العلماء خاصة من أنانية التعصب للعرق والأصل والعشيرة وأصبح هناك دار للإسلام ودار للحرب، وصار أكثر العلماء ينتمون إلىٰ بلادهم أو مدنهم التي ظهروا منها وقد أدىٰ هذا الأمر إلىٰ سفر العلماء من قطر إلىٰ آخر يشجعهم علىٰ ذلك ما يجدونه من تسهيلات وخدمات[6].

وهناك ميزة أخرىٰ برزت في ذلك العصر وهي تلك الموسوعية التي اتصف بها العلماء وعدم قصر اهتمامهم علىٰ علم دون آخر فنجد شخصاً عالماً بالتفسير والفقه والحديث واللغة إلىٰ جانب بروزه في التاريخ والجغرافيا وعلوم الفلك وقد أدىٰ هذا

---

(١) السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين: طبقات الشافعية الكبرىٰ، ط٢، دار المعرفة، بيروت [د.ت]، ٣٠٧/٢.

(٢) أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين بن حجر، من أئمة العلم والتاريخ توفي سنة ٨٥٢هـ ومن أشهر مصنفاته: الدرر الكافية في أعيان المئة الثامنة، لسان الميزان، وتهذيب التهذيب، الإصابة في تمييز الصحابة، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري: انظر عنه، لسان الميزان ط١، مطبعة دائرة المعارف النظامية في الهند، حيدر آباد الركن ١٣٣٠هـ، ج٧، خاتمة المؤلف لمصحح الطبعة.

(٣) العسقلاني: لسان الميزان: ٢٢٥/٤.

(٤) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايجاز الذهبي أبو عبد الله شمس الدين، حافظ مؤرخ محقق، كان مولده في دمشق وتوفىٰ فيها سنة ٧٤٨هـ له مصنفات كثيرة منها: دول الإسلام، تاريخ الإسلام الكبير، سير أعلام النبلاء وتذكرة الحفاظ وميزان الاعتدال في نقد الرجال وتجريد أسماء الصحابة. انظر عنه السبكي: طبقات الشافعية ٢١٦/٥-٢٢٦.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٥٦٩/١٥.

(٦) علي الخربوطلي: المسعودي، سلسلة نوابغ الفكر العربي، ط٢، القاهرة ١٩٨٠م، دار المعارف، ص ١٧-١٨؛ سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٣١.

الأمر إلىٰ اتساع أفق العلماء ونظرتهم الشاملة للأشياء وتحسسهم للروابط الدقيقة التي تجمع بين العلوم[١].

ويعتبر المسعودي علماً من أعلام الفكر العربي الإسلامي في عصر نضجه أي في القرن الرابع الهجري فهو واحد من أولئك الذين أحاطوا بالمعرفة إحاطة وافية وتمثلها تمثلاً صحيحاً ثم دون نتيجة تلك الإحاطة وهذا التمثيل تدويناً شيقاً أنيقاً رتيباً بأسلوب سهل ممتع. وليست هذه الأمور كلها تتاح لغير عبقري. والمسعودي واحد من عباقرة الفكر في ذلك الوقت[٢].

فقد تطلع المسعودي في رحلته العلمية إلىٰ تجاوز البلدان الإسلامية والتجوال فيما وراءها بحثاً عن أخبارها وجمعاً لمعارفها. وبعد أن طاف ببلاد فارس وكرمان وأقام في اصطخر سنة ٣٠٣هـ رحل إلىٰ الهند حتىٰ وصل إلىٰ سرنديب في جزيرة سيلان، ومن ثم أبحر مع رفقة من التجار إلىٰ الصين ثم رجع أدراجه إلىٰ زنجيار وعمان[٣].

وبما أن المسعودي نشأ في بغداد التي كانت في ذلك العصر مركزاً من مراكز العلم الكبرىٰ في العالم وأتيح له أن يحيط إحاطة تامة بكل التراث الأدبي لعصره وبمختلف نواحي العلوم، بيد أن ميله اتجه فيما بعد اتجاهاً صريحاً نحو السياحة والرحلات بغية طلب العلم وجمع الحقائق الجغرافية والتاريخية والاتصال المباشرة بمختلف الطبقات الاجتماعية ويبدو أنه قام وهو في ريعان الشباب في حدود العشرين برحلات طويلة واسعة[٤].

ويعتبر المسعودي من كبار علماء الجغرافيا، حيث أنه عاصر من الخلفاء العباسيين كلاً من المكتفي بالله (٢٨٩-٢٩٥هـ) والمقتدر بالله (٢٩٥-٣٢٠هـ) والمرتضىٰ بالله (٣٢٠-٣٢٢هـ) وكتب عن المعتضد بالله كتابة رائعة بل جعله من أعظم خلفاء بني العباس[٥].

يقول المسعودي في كتابه (ولما اقتضت الخلافة إلىٰ المعتضد بالله سكنت الفتن وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ورخصت الأسعار وهدأ الهيج) [٦].

أخذت رحلات المسعودي العلمية قرابة ربع قرن جاب فيها المدن والأمصار فلم يتقلد المسعودي منصباً إدارياً في حياته بل تفرغ للبحث والتحقيق فكان فاضل زمانه

---

(١) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٣١.

(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٢.

(٣) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ت. محمود حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م، ٥٨/٢، ٥٩.

(٤) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٣٠٩.

(٥) علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١١٥.

(٦) المسعودي: مروج الذهب، دار الفكر ١٤٠٨هـ تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، ٢٣٢/٤.

وعالم وقته وتخرج علىٰ يده وكتبه عدد من طلاب العلم. ولكن مع شديد الأسف فإن معظم علماء الغرب شوهوا إنتاجه فكم من حقائق لم تذكر وكم من حوادث نقلت علىٰ غير حقيقتها؟ وكم من كتبه ليس لها وجود في الوقت الحاضر[١].

ولهذا اختلف الباحثين الغربيون في تقديره. فمنهم من اعتبره أكثر الجغرافيين أصالة في القرن الرابع الهجري ومنهم من اعتبره يمثل بمعلوماته وأسلوبه نموذجاً للمراسلين الصحفيين المعاصرين. [٢]

مشائخ المسعودي:

الشيوخ والعلماء الذين التقىٰ بهم المسعودي في مطلع حياته العلمية في بغداد والبصرة عندما كان يتلقىٰ العلم قبل رحلاته العلمية وفي أثناء قيامه بالرحلة في طلب العلم:

١- انتقل المسعودي إلىٰ البصرة وكانت يومئذ زاهرة بالعلماء وكثر الصالحين بها ومن علمائها الأفاضل التقىٰ المسعودي [٣] بأبي مسلم إبراهيم بن عبد الله الكشي أو الكجي (ت سنة ٢٩٢هـ) من حفاظ الحديث كان سرياً نبيلاً، مات ببغداد وحمل إلىٰ البصرة سنة ٢٩٢هـ له من التصانيف: السنن [٤]. وكان محدثاً مشهوراً فأخذ عنه.

٢- ومن أعظم شيوخ المسعودي في البصرة وأجلهم الفضل بن الحباب بن محمد بن شعيب بن صخر الجمحي، أبو خليفة، (ت سنة ٣٠٥هـ)، عالم بصري أعمىٰ روي الأشعار والأخبار والأنساب، وهو ابن أخت محمد بن سلام الجمحي وقد روىٰ عنه مؤلفاته له من المؤلفات: طبقات شعراء الجاهلين وكتاب الفرسان، وكانت وفاته سنة ٣٠٥هـ [٥] كان يلقىٰ دروسه في مسجد البصرة ويأتي إليه طلاب العلم من كل مكان والتقىٰ المسعودي به وأخذ عنه وأعجب بفصاحته وقوة علمه وصحته وإحاطته بعلم الأخبار والأنساب[٦].

٣- في بغداد تتلمذ المسعودي علىٰ يد أبو العباس، وهو أحمد بن عمر بن سريج القاضي، يقال له: (الباز الأشهب)، نشر المذهب الشافعي في أكثر الآفاق، وكان عالماً جدلياً حاضر الجواب له مناظرات كثيرة، توفىٰ ببغداد سنة ٣٠٦هـ، له نحو

---

(١) علي الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١١٦.
(٢) شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، ص ٤٨-٤٩.
(٣) المرجع السابق: ص ٥١.
(٤) البغدادي: تاريخ بغداد ١٢٠/٦.
(٥) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٤/١٦-٢١٤.
(٦) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٥٢.

٤٠٠ مصنف[١]، حيث حضر المسعودي دروساً في الفقه، وكان رائداً من رواد المذهب الشافعي وكان المسعودي حريصاً علىٰ حضور حلقاته[٢].

٤- محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي، الملقب بـ وكيع (ت سنة ٣٠٦هـ) ، أبو بكر، قاض باحث عالم بالتاريخ والبلدان، توفىٰ ببغداد سنة ٣٠٦هـ، له مصنفات منها: أخبار القضاة وتواريخهم، وكتاب النواحي [٣]، وكان إلىٰ جانب اهتمامه بالحديث والفقه شغوفاً بالأخبار والتاريخ[٤].

٥- أبو الحسن أحمد بن سعيد بن عبدالله الدمشقي الأموي (ت سنة ٣٠٧هـ)، محدث دمشق، سكن بغداد وروي الحديث وروي عنه الكثير من الأخبار، وهو مؤدب ولد المعتز، توفىٰ سنة ٣٠٧هـ [٥] في جملة العلماء الذين أخذ عنهم المسعودي في مدينة بغداد وكان راوياً للحديث[٦].

٦- سمع المسعودي عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري (ت سنة ٣١٠هـ)، علامة وقته وإمام عصره وفقيه زمانه. ولد بآمل سنة ٢٢٤هـ، وتوفىٰ سنة ٣١٠هـ وله (٨٧) سنة، أخذ الحديث عن الشيوخ الفضلاء مثل محمد بن حميد الرازي وله كتاب في التفسير والتاريخ[٧] حين نقل عنه مرة واحدة (حدثنا أبو جعفر) حيث أثنىٰ عليه في المقدمة وبين منزلة مصنفه التاريخي بين المصنفات[٨].

٧- ومن أشهر العلماء الذين كان اهتمامهم منصباً علىٰ دراسة فقه اللغة نحوها وصرفها وكانت دروسهم تلقىٰ في هذه الموضوعات وكان المسعودي يتنقل بين حلقاتهم[٩]:

- الزجاج (ت سنة ٣١١هـ) هو إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ببغداد وتوفىٰ بها كان مؤدباً للقاسم بن عبد الله بن سليمان وزير المعتضد، وكانت له مناقشات ومجالسات من كتبه: معاني القرآن الكريم،

---

(١) أبو العباس شمس الدين أحمد محمد بن أبي بكر ابن خلكان: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، طبعة دار صادر، بيروت ١٩٦٨م. ٦٦/١.

(٢) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٦-٤٧.

(٣) ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، ط٢، المعارف، بيروت ١٩٧٤م، ١٣٠/١١هـ.

(٤) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٧.

(٥) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤٦/٣-٤٩.

(٦) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٧.

(٧) ابن النديم: الفهرست، ١٤١٦هـ، تحقيق: يوسف طويل، ص ٣٨٥-٣٨٦.

(٨) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٧-٤٨.

(٩) نفس المصدر السابق، ص ٤٨.

الآمالي، الاستقامة وغيرها [١].

- ابن دريد (ت سنة ٣٢١هـ) هو محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، أبو بكر، أحد أئمة اللغة والأدب ولد بالبصرة وانتقل إلىٰ عمان ثم عاد إلىٰ البصرة ورحل إلىٰ فارس ورجع إلىٰ بغداد وكان المسعودي أحد تلاميذه وأشهر كتبه، الجمهرة في اللغة والاستقامة[٢].

- نفطوية (ت سنة ٣٢٣هـ) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان العتكي الأزدي الواسطي النحوي أبو عبد الله نفطوية سكن بغداد وأخذ عن ثعلب والمبرد توفىٰ سنة ٣٢٣هـ. له مصنفات عديدة، منها التاريخ وغريب القرآن[٣].

٨- أبو القاسم، جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، الشافعي (ت سنة ٣٢٣هـ)، أديب وشاعر وفقيه له عدة مصنفات في الفقه كان من أهل الموصل فانتقل إلىٰ بغداد واتصل بعدد من العلماء والوزراء، من مصنفاته: الباهرة في أشعار المحدثين، والشعر والشعراء وغيرهما [٤] ، التقىٰ به المسعودي وروىٰ عنه، وكان معجباً به لإلمامه بعلوم كثيرة، وكان بصيراً بالنجوم، عالماً مطلعاً علىٰ علوم الأوائل، عالي الطبقة فيها [٥].

٩- كان المسعودي من الرواد والمهتمين بالتردد علىٰ حلقات ابن الأنباري (ت سنة ٣٢٨هـ) محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري، من أعلم أهل زمانه باللغة والأدب وحفظ الأشعار والأخبار، كان مؤدباً لأولاد الخليفة الراضي، من كتبه: الزاهر، إيضاح الوقف والابتداء من كتاب الله عز وجل، عجائب علوم القرآن [٦] من طبقة علماء النحو واللغة الذين ظهروا في بغداد [٧].

١٠- يعتبر الصولي (ت سنة ٣٣٥هـ) محمد بن يحي بن عبد الله، أبو بكر الصولي، من أكابر علماء الأدب والتاريخ، عاصر عدداً من خلفاء بني العباس وصنف أخبارهم وسيرهم وأشعارهم ودون أخبار من تقدم وتأخر من الشعراء والوزراء توفىٰ بالبصرة. [٨] أحد أساتذة المسعودي الأجلاء الذين تلقىٰ عنهم واستفاد منهم، حيث استطاع المسعودي أن يحصل عن طريق أستاذه هذا علىٰ صورة واضحة

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، إحياء التراث العربي، بيروت، ١/١٣٠-١٥١.
(٢) نفس المصدر السابق، ١٨/١٢٧.
(٣) ابن النديم: الفهرست، ١٤١٦هـ، ت. يوسف طويل، ١٣٠-١٣١.
(٤) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ٧/١٩٠-٢٠٥.
(٥) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٨-٤٩.
(٦) البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي الملقب بالخطيب: تاريخ بغداد أو مدينة السلام، طبعة دار الكتاب العربي، بيروت [د.ت]، ٣/١٨١-١٨٦.
(٧) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٩.
(٨) البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، ٣/٤٢٧-٤٣٢.

عن بعض ما كان يدور في مجالس الخلفاء وفي قصر الخلافة في بغداد [١].

الذين استفادوا من مؤلفات المسعودي وانتقدوها :

١- الذهبي عندما اكتفىٰ بالإشارة إلىٰ أنه كان إخبارياً صاحب ملح وغرائب وعجائب وفنون، وأنه كان معتزلياً[٢].

٢- جاء ابن خلدون في أواخر القرن الثامن بداية القرن التاسع الهجريين وهو علامة مشهور فنظر إلىٰ المسعودي ومصنفاته نظرة اختلف فيها عن العلماء الذين سبقوه والذين كانوا يركزون علىٰ مذهبه وتأثير ذلك المذهب علىٰ كتاباته في التاريخ الإسلامي بشكل عام وتتبع ما دونه من أحداث وأخبار غريبة حيث ذكر ابن خلدون ما نقله المسعودي[٣] من حديث عن مدينة النحاس وأنها مدينة كل بنائها نحاس بصحراء سجلماسة ظفر بها موسىٰ بن نصير في غزواته إلىٰ المغرب وأنها مغلقة الأبواب وأن الصاعد إليها من أسوارها إذا أشرف علىٰ الحائط صفق ورمىٰ بنفسه فلا يرجع آخر الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصص [٤].

٣- أما ابن العماد الحنبلي وهو عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العسكري الحنبلي، أبو الفلاح، مؤرخ وفقيه، ولد بدمشق وأقام في القاهرة ومات بمكة حاجاً سنة ١٠٨٩هـ له شذرات الذهب في أخبار من ذهب وشرح متن المنتهىٰ[٥] فقد ذكر رحلته وتطوافه في البلاد، وأشار إلىٰ أنه "حقق من التاريخ ما لم يحققه غيره وصنف في أصول الدين وغيرها من الفنون" [٦].

ومن خلال ذلك أن بعض تلامذة المسعودي أو الذين استفادوا منه أو انتقدوه في مؤلفاته من معلومات عن التاريخ الإسلامي الأول لم يكن محل رضا من العلماء والمسلمين المحققين بسبب عدم التزامه فيه بالمنهج الإسلامي القويم الذي يحفظ لصحابة رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم مكانتهم في النفوس لأنهم خير هذه الأمة بعد نبييها، بينما نلحظ أن العلماء الآخرين الذين أثنوا عليه ورفعوا من شأنه نظروا من

---

(١) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٥٠.

(٢) الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء أشرف علىٰ تحقيقه، شعيب الأرنؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠١هـ، ٥٦٩/١٥.

(٣) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٤١.

(٤) ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد: المقدمة، تحقيق لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرىٰ. القاهرة [د.ت] ص ٣٧.

(٥) المحبي، محمد أمين فضل الله: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادرن بيروت، [د.ت]، ٣٤٠/٢-٣٤١.

(٦) ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد العسكري الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت [د.ت]، ٣٧١/٢.

زاوية أخرىٰ وهي قدرته الفائقة علىٰ تقصي أحوال الممالك والأمم والشعوب وغير ذلك، لذا تميز تاريخه بمزايا عديدة من أهمها المعالجة الحية لكثير من الأحداث والقضايا التي تناولها(١).

مصنفات المسعودي:

حفظت لنا كتب التراجم العديد من أسماء الكتب التي تركها لنا المسعودي منها ما هو مفقود ولقيت الأخرىٰ عناية المؤرخين في تحقيقها وطباعتها ومن ذلك:

١- أخبار الزمان ومن أباده الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة:

بعد غياب عن بغداد حوالي عشر سنوات جمع خلالها مادة معرفية غزيرة أضافها إلىٰ حصيلته من الإطلاع علىٰ كتب التاريخ والسير والفقه والأدب فعكف علىٰ وضع أول مؤلفاته وهو هذا الكتاب(٢). وقد عثر علىٰ نسخة في دار الكتب المصرية فكانت معنونة بأخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران. ومن المؤكد أنه وضع هذا الكتاب سنة ٣٢٠هـ. أي بعد مجموعة رحلاته الثانية التي بدأها عام ٣١٤هـ، وكانت النسخة الأولىٰ قد اشتراها المستشرق [كرامر Cramer] من مكتبة في حلب وحفظها في مكتبة فيينا(٣).

ويمثل هذا الكتاب في نظر المسعودي الكتاب الأعظم بالنسبة لمؤلفاته الأخرىٰ إذ أنه اعتبره قمة إنتاجه بما أودع فيه من العلوم والفنون التي استطاع أن يلم بها أثناء مرحلة تحصيله العلمي وخلال أسفاره ورحلاته(٤).

وأن كتاب المسعودي الذي نسبه إليه (أخبار الزمان ومن أبادة الحدثان من الأمم الماضية والأجيال الخالية والممالك الداثرة) والذي لا يوجد منه إلا جزء واحد هو الجزء الأول موجود في مكتبة فيينا: والظاهر من حجم الكتاب ومن إشارات المسعودي الكثيرة إليه في مروج الذهب والتنبيه والأشراف أنه كان تاريخاً مفصلاً (٥).

وأن المسعودي بدأ تصنيفه سنة ٣٣٢هـ وانتهى منه سنة ٣٣٦هـ، ويوجد أول هذا الكتاب في برلين برقم [٩٤٣٦]، ويوجد الجزء الأول منه في فينا [١٨٦٢] ويوجد مصور عن مخطوط بباريس في القاهرة(١).

وذكر البعض بأن كتاب المسعودي (أخبار الزمان) في ثلاثين مجلداً لم يصل

---

(١) السويكت: منهج المسعودي، ص ٤٤٤.
(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢١٣.
(٣) نفس المرجع السابق والصفحة.
(٤) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ١٢١.
(٥) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٣.
(١) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي: ٩٥/٢.

منها سوىٰ الجزء الأول[1]. وأن المسعودي نفسه قد أشار إلىٰ هذا الكتاب في كل كتبه وللأسف فقد هذا الكتاب [2].

٢ـ الكتاب الأوسط:

يوجد هذا الكتاب في مكتبة البودليان بأكسفورد[3] وهذا الكتاب مختصر من كتاب أخبار الزمان وهو موجود في: أياصوفيا [٢٩٣٨ رقم ٤] وهي نسخة منقولة عن مخطوط كتب سنة ٣٣٢هـ[4].

ويعتبر هذا الكتاب هو الكتاب الثاني في سلسلة المسعودي التاريخية وهو موسوعة في التاريخ العام يبدأ من بدء الخليقة وذرء البرية وينتهي إلىٰ الوقت الذي عنده انتهىٰ المسعودي في كتابه الأعظم وهو سنة ٣٣٢هـ[5].

وهو من حيث مادته وحجمه كتاب مجمل وسط بين أخبار الزمان المفصل الواسع وبين مروج الذهب المختصر[6] ويظهر أن المسعودي أضاف فيه أموراً جديدة لم ترد في الكتاب الأول. إما بسبب عدم وقوفه عليها أو أنها لم تقع إلا بعد انتهاء تأليف ذلك الكتاب[7] أو أنه أراد أن يميزه بوضع معلومات جديدة فيها لم يسجلها هناك، وقد أشار إليه في كتاب المروج مرات كثيرة جداً [8].

ويحتوي الكتاب علىٰ معلومات عن الممالك والأمم القديمة[9] و علىٰ معلومات مفصلة عن الفتوحات الإسلامية وعن المذاهب القديمة ومعتقدات الفرق المختلفة ويقدم عرضاً لتراجم بعض الشخصيات والأعلام ممن اشتهر من الفقهاء والمحدثين وغيرهم من أهل الرأي والأدب [1].

٣ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر:

لاحظ المسعودي أن الكتابين اللذين سبق له وضعهما، وهما أخبار الزمان والكتاب الأوسط، لا يتوفر لكل قارئ الوقت والجهد والمال للاطلاع عليها بسبب

---

(١) جورج غريب: أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، دار الثقافة، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢٩؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص٤٩.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، طبعة ليدن، ١٨٩٤م، ص ١.
(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢١٢؛ نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص ١٥٣.
(٤) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٥٩/٢.
(٥) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ١٢٩.
(٦) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، الجامعة اللبنانية، ١٩٦٦م، ٢٠٤/٥.
(٧) جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، مجلة سومر، المجلد العشرون، العدد الأول والثاني، بغداد ١٩٦٤م، ص١٠؛ سليمان السويكت، منهج المسعودي، ص١٢٩.
(٨) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ١٣٠.
(٩) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق شارل بلا، ٩٤/١، ١٧٣، ٢٠٨.
(١) نفس المصدر: ١٨/١، ٣١٢/٣.

الضخامة، لهذين الكتابين، لذلك اختصرهما في كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر) وانتهىٰ من جمعه سنة ٣٣٦هـ وأعاد النظر فيه سنة ٣٤٥هـ. قبل وفاته بعام وشهور قليلة. وقد حظىٰ الكتاب بسمعة طيبة لدىٰ علماء الغرب خاصة فسعوا إلىٰ اقتنائه (١).

وقد قسم المسعودي كتابه هذا إلىٰ قسمين كبيرين (٢):

القسم الأول: وصف فيه المسعودي الخليقة وروىٰ قصص الأنبياء باختصار ثم انتقل إلىٰ وصف الأرض والبحار والعجائب والغرائب وتاريخ الأمم القديمة وما كان لها من الأديان والعادات والمذاهب وعرض للأيام والشهور والتقاويم وكل ما يتعلق بذلك من جزئيات وكليات.

والقسم الثاني: خص به تاريخ الإسلام من أواخر عهد الراشدين إلىٰ أوائل خلافة المطيع لله العباسي.

وقد نقل هذا الكتاب المستشرق باربيه دي مينار إلىٰ الفرنسية وطبع في باريس في تسعة مجلدات سنة ١٨٧٢هـ (٣).

ونجد أن المسعودي وضع خلاصة اختياراته وتجاربه في الأسفار والرحلات في هذا الكتاب الذي جمع بين دفتيه خلاصة وافية للمعرفة العلمية في عصره (٤).

ويعتبر هذا الكتاب أحد الكتب التاريخية المهمة التي حظت باهتمام وقبول في مختلف الأوساط، واحتل مكاناً مرموقاً ومحلاً بارزاً بين إنجازات العرب العلمية وانتشر بين الناس علىٰ نطاق واسع وتلقفته الأيدي عند ظهوره وتبادله النُسَّاخ فيما بينهم(٥) حتىٰ أن المسعودي نفسه حينما رأىٰ ذلك الانتشار السريع والقبول الحسن أخذ يزيد في الكتاب ويتعاهده بالرعاية والتنقيح حتىٰ قبيل وفاته(٦).

وحول تسمية الكتاب فيقول المسعودي: (وقد سميت كتابي هذا بكتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر لنفاسة ما حواه وعظم خطر ما استولىٰ عليه من طوالع بوارع ما تضمنته كتبنا السالفة في معناه وغرر مؤلفاتنا في مغزاه) (١).

٤- فنون المعارف وما جرىٰ في الدهور السوالف:

يحتل هذا الكتاب المرتبة الرابعة ويأتي بعد المروج في حلقة السلسلة التاريخية

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا، ١٩٦٦م، ١٨/١؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص٢١٦؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٣١٠.
(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص ١٥٤؛ جورج غريب: أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، ص ٣١-٣٢.
(٣) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ١٥٤.
(٤) نفس المرجع والصفحة.
(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، طبعة ليدن تصوير مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٤٠٠؛ سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٨٦-٨٧.
(٦) المسعودي: المصدر السابق، ص ١٥٥.
(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، ١٨/١.

التي ألفها المسعودي تباعاً، ويمكن أن تقف علىٰ بعض البحوث التي تناولها من خلال الإمالات إليه الواردة في كتاب التنبيه والأشراف فنجد فيه فصلاً عن أخبار الحجاز وعجائبها[1].

٥- ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور:

ويأتي هذا المؤلف ضمن مجموعة المسعودي التاريخية إذ أنه يشترك معها في الإطار العام خاصة فيما يتعلق بالمعلومات الواردة فيه أو الموضوعات التي تطرق إليها عن ملوك الطوائف وعن البيزنطيين[2].

٦- كتاب الاستذكار لما جرىٰ في سالف الأعصار:

وقد ألفه في فترة سابقة لمؤلفه التنبيه والإشراف ويبدو أن المسعودي يولي هذا الكتاب أهمية خاصة لاسيما وأنه كثيراً ما يشير إليه في كتابه مروج الذهب ويشيد به ويعتبره صورة موسعة من كتابه التنبيه[3].

٧- كتاب التنبيه والأشراف:

هذا الكتاب الثاني المطبوع من كتب المسعودي كما أنه في الوقت نفسه هو السابع ضمن السلسلة للكتب التاريخية للمسعودي والأخير منها ولذلك كان له أهمية خاصة إذ أن المسعودي أودعه آراءه النهائية في جميع الموضوعات التي عالجها كما أودعه أفكاره الناضجة بعد رحلة حياته المليئة بالتجارب والدروس والمفاجآت[4].

حين يحمل هذا الكتاب نفسه السنة التي توفىٰ فيها المسعودي وهي ٣٤٦هـ[5].

وهو مطبوع في ليدن سنة ١٨٩٣م[6].

أما سبب تأليف الكتاب فأفصح عنه المسعودي بعد أن قدم عرضاً لمجموعة كتبه التاريخية ومحتوياتها حيث أراد أن يودع هذا الكتاب من فنون المعارف وضروب الأخبار مما لم تأتي الترجمة علىٰ وصفه ولا انتظرت ذكره ولاسيما وأنه قد تحصل لدىٰ المسعودي معلومات جديدة عن بعض الطوائف والأديان بعد استقراره بمصر واختلاطه لبعض العلماء والأقباط[1].

ومن الأهداف الرئيسية لتأليف الكتاب والتي ركز عليها المسعودي في مواضع كثيرة منها أنه أراد أن يشتمل علىٰ جوامع تكون منبهة علىٰ ما تقدم جمعه وتأليفه من

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف ، طبيعة ليدن [تصوير مكتبة خياط، بيروت] ١٩٦٥م، ص ٢، ص٢٠؛ السويكت: منهج السويكت، ص ١٣٠.

(٢) المصدر السابق: ص ٢– ٩٧ – ١٦٧ – ٤٠٠؛ السويكت: منهج المسعودي، ص ١٣١.

(٣) المسعودي: المصدر السابق: ص ٢- ٥ – ٨٤ – ٩٧ ؛ السويكت: منهج المسعودي، ص ١٣٢.

(٤) السويكت: منهج المسعودي، ص٩٨؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢١٢.

(٥) س.م. ضياء الدين علوي: الجغرافية الغربية، ص ٧٢، عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين. ص٣١٠.

(٦) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٤.

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٦ – ٤٥ – ٨٣ – ١٤٥ – ١٥١ – ١٥٨ – ١٧٦ – ١٨٤ .

كتبه السالفة وليكون مدخلاً إليها ولاسيما أنه كان جنباً عليها وسلماً إليها وأن في اسم الكتاب لأفصح تعبير عن هذا المعنى[١].

٨- نظم الجواهر في تدبير الممالك والعساكر:

ذكر المسعودي هذا الكتاب ضمن مجموعة من الكتب عندما ختم كتاب التنبيه والأشراف بقوله: (وما كان من الكوائن والهجر والأحداث في أعصارهم وغير ذلك من أخبار الشرق والغرب والشمال والجنوب، وما كان فيها من الفتن والحروب في كتابنا...) فذكر مجموعة من الكتب من ضمنها كتابه هذا[٢].

٩- الأخبار المسعوديات:

ذكر المسعودي هذا الكتاب ضمن سلسلة الكتب التي ذكرها في كتابه التنبيه والأشراف حيث ذكر فيه أخبار ولاة الأندلس – سياستهم وحروبهم – وما كان في الأندلس من حروب وفتن منذ زمن طارق بن زياد وموسىٰ بن نصير سنة ٩٢هـ وقتل لذريق ملك الأسبان [٣].

١٠- وصل المجالس بجوامع الأخبار ومختلط الآثار:

نجد المسعودي ذكر هذا الكتاب وأوحىٰ أنه مشابه لكتاب الأخبار المسعودية في المباحث التي احتواه هذا الكتاب عن تاريخ الأندلس منذ افتتاحها وحتىٰ عصر المسعودي[٤].

١١- تقلب الدول وتغير الآراء والملل:

أشار المسعودي إلىٰ هذا الكتاب بقوله: (... وغير ذلك من الأخبار مما شرحناه وبيناه في كتاب تقلب الدول وتغير الآراء والملل وإنما نذكر في هذا المختصر لمعاً وجوامع واستذكاراً لما تقدم تأليفه من كتبنا في هذه المعاني، وتنبيهاً عليه) فقد ذكر المسعودي في هذا الكتاب معلومات تاريخية عن الحروب التي جرت بين الأغالبة والفاطميين في شمال أفريقيا[٥].

١٢- راحة الأرواح:

ذكر المسعودي في هذا الكتاب عند الحديث عن سير ملوك الأمم وهو كتاب تاريخي ذكره في كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر[١].

١٣- كتاب المبتدأ:

تطرق المسعودي في هذا الكتاب إلىٰ تاريخ الأنبياء عليهم أفضل الصلاة

---

(١) سليمان السويكت: منهج المسعودي، ص ٩٩.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٤٠٠-٤٠١.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٥٩.
(٤) المسعودي: المصدر السابق، ص ٣٣٣ .
(٥) المسعودي: المصدر السابق، ص ٣٣٤ .
(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق شارل بلا ١٩٦٦م، ٦٨/١، ٢٦٩.

والسلام ودوَّن في هذا الكتاب مبدأ الخلق[1].

١٤- المقالات في أصول الديانات:

وقد ذكره المسعودي في كتاب التنبيه والإشراف بقوله: (وذكرنا في كتاب المقالات في أصول الديانات وكتاب خزائن الدين وسر العالمين أقاويل الأمم العوالم الأربعة في عالم الربوبية وعالم العقل وعالم النفس وعالم الطبيعة ومراتب الروحانية والجواهر العلوية والأجسام السمائية وسائر الوسائط والفرق بين النار والنور ومراتب الأنوار وما قاله كل فريق منهم في ذلك من الهند وقدماء الفلكيين وأصحاب الأثنين ومن وافقهم من أصحاب التأويل في هذا الوقت والحنفاء والكلدانيين وهم البابليون الذين بقيتهم في هذا الوقت بالبطائح بين واسط والبصرة في قرايا هناك وتوجههم في صلاتهم إلىٰ القطب الشمالي والجنوبي)[2]. فمن هنا نجد هذا الكتاب يبحث في المذاهب التي تنتمي إلىٰ الإسلام والأديان والمذاهب غير الإسلامية.

١٥- خزائن الدين وسر العالمين:

فقد ذكره المسعودي في التنبيه ويتضمن نفس موضوعات كتاب المقالات في أصول الديانات للكتاب السابق وأيضاً هو مخصص للآراء الإعتقادية والدينية للمذاهب المختلفة[3].

١٦- الاسترجاع في الكلام:

تكلم المسعودي في هذا الكتاب عن مزاعم بعض الفرق الضالة ذات الأفكار الفاسدة مثل آراء المانوية الملحدة حول مسائل النور والظلمة[4].

١٧- الإبانة عن أصول الديانة:

رد المسعودي في كتابه هذا علىٰ بعض الديانات المسيحية وبعض مذاهبها من مانوية وديصانية ومذاهب الخرمية وذكر المسعودي في هذا الكتاب الفرق بين المعتزلة وأهل الإمامة وما بان به كل فريق منهم عن الآخر[5].

١٨- الانتصار:

جاء الخلط بين كتاب الانتصار والاستبصار فمن الباحثين[1]. من قال أنهما كتاب واحد وهذا غير صحيح فقد ذكر المسعودي مرة واحدة الانتصار وأشار إلىٰ أنه مخصص لأخبار الخوارج والرد عليهم في حين أن الاستبصار كتاب مخصص للإمامة وأن المسعودي ذكر اسم الكتابين الاستبصار والانتصار في صفحة واحدة مما يدل علىٰ

---

(١) المسعودي: المصدر السابق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤ ، القاهرة، المكتبة التجارية ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤/١/٥٧.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، دار مكتبة الهلال، ص ١٥٣ ــ ١٥٤.
(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ١٥٣ ــ ١٥٤.
(٤) المسعودي: المروج، تحقيق: شارل بلا، ١٩٦٦م، ٣٠٤/٢.
(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣٢٢.
(١) جواد علي: موارد تاريخ المسعودي، ص٤-١٣.

أنهما كتابان لا كتاب واحد [(١)].

١٩- نظم الأدلة في أصول الملة:

يبحث هذا الكتاب في تنازع المتفقهين في مقدمات أصول الدين والحوادث التي اختلف فيها آراؤهم وما يذهب إليه من القول بالظاهر وإبطال القياس والرأي والاستحسان في الأحكام وما اتصل بذلك من الكلام في أصول الفتوىٰ والأحكام بالعقليات منها والسمعيات وغير ذلك من فنون العلوم وضروب الأخبار وفي أصول الفتوىٰ وقوانين الأحكام مثل معرفة الناسخ من المنسوخ [(٢)].

٢٠- نظم الأعلام في أصول الأحكام:

لا نعرف عن هذا الكتاب شيء سوىٰ ما أشار المسعودي إلىٰ أنه ذكر فيه نفس محتويات كتابيه نظم الأدلة والمسائل والعلل[(٣)].

٢١- المسائل والعلل في المذاهب والملل:

ويحتوي هذا الكتاب علىٰ نفس المعارف العامة التي ذكر المسعودي أنه تحدث عنها في كتابه نظم الأدلة في أصول الملة وأن المسعودي ذكر أن هذا الكتاب يحتوي علىٰ مجادلاته مع أبي زكريا النصراني التي وقعت ببغداد في الجانب الغربي بقطيعة أم جعفر وبمدينة تكريت في الكنيسة المعروفة بالخضراء في الثالث وغيره سنة ٣١٣هـ [(٤)].

٢٢- الواجب في الفروض اللوازم:

يتحدث فيه المسعودي عن الفقه كما يستدل من العنوان والمحتوىٰ وقد تحدث عن المتعة ومن جوزها ومن لم يجوزها، ".. وما قال الناس في غسل الرجلين ومسحها والمسح علىٰ الخفين، وطلاق السنة وطلاق التعدي وغير ذلك" [(٥)].

٢٣- الاستبصار في الإمامة:

يتحدث فيه المسعودي عن إسلام علي بن أبي طالب ويرد المسعودي علىٰ الخوارج في التحكيم وغيرها من المسائل[(٦)].

٢٤- الصفوة في الإمامة:

تكلم المسعودي في هذا الكتاب عن آراء الفرق الإسلامية في الإمامة وإسلام علي بن أبي طالب وعن المتعة وما قيل من آراء، وعن غسل الرجلين ومسحها وعن الطلاق وأنواعه وهي أمور سبق الإشارة إليها[(١)].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧/٤.
(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص١٩.
(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص١٩ .
(٤) المسعودي: المصدر السابق، ص ١٤٩.
(٥) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق شارل بلا ، ١٩٦٦م، ٤٠/٣ .
(٦) المصدر السابق: ٢٧/٤.
(١) المصدر السابق: ١٠٩/٢ – ٢٧٧/٢ – ٨٢/٣.

٢٥- حدائق الأذهان في أخبار أهل بيت النبي صلىٰ الله عليه وسلم وتفرقهم في البلدان:

قام المسعودي بكتابة تأريخ آل البيت وتحدث عن مناقبهم وأخبارهم وكان تركيزه علىٰ إبراز فضائل أمير المؤمنين الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ومناقبه ومقاماته[١].

٢٦- مزاهر الأخبار وطرائف الآثار للصفوة النورية والذرية الزكية أبواب الرحمة وينابيع الحكمة:

لو نظرنا إلىٰ الكتب السابقة للمسعودي لوجدنا أن محتواها يتضمنه هذا الكتاب الذي يعيد فيه المسعودي أخبار آل البيت وتطرق إلىٰ ذكر عمار بن ياسر رضي الله عنه وحروبه مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه ضد معاوية في صفين [٢].

٢٧- رسالة البيان في أسماء الأئمة القطيعية من الشيعة:

في هذه الرسالة تطرق المسعودي إلىٰ حياة الاثنىٰ عشرية في المذاهب الشيعية فقد تحدث عن تسلسلهم وأسمائهم وأسماء أمهاتهم ومواضع قبورهم[٣].

٢٨- الزاهي:

أشار المسعودي إلىٰ ذلك في كتابه مروج الذهب مرة واحدة وهو يتحدث عن إسلام علي بن أبي طالب وما قالته الشيعة والأباظية وأهل السنة في ذلك[٤].

٢٩- سر الحياة:

ذكر المسعودي هذا الكتاب عندما جرت بينه وبين إحدىٰ النصارىٰ مناظرة في سنة ٣١٣هـ حول مسألة الثالث من معتقدات النصارىٰ[٥]. وكذلك مما تحدث المسعودي في هذا الكتاب عن مذاهب الخرمية في نواحي أصبهان [٦].

٣٠- القضايا والتجارب:

روىٰ المسعودي في هذا الكتاب عن بعض المشكلات والتجارب التي حدثت للمسعودي أثناء تجواله بين البلدان[١].

٣١- الزلف:

أفرد فيه المسعودي مقالات الفلاسفة في علم النفس وأنواعها من الحسية

---

(١) المصدر السابق: ١٧٩/٣ ــ ٢٧٦ .
(٢) المصدر السابق: ١٢٩/٣ - ١٧٩ ، ٦٥/٥ .
(٣) المصدر السابق: ٢١٦/٤، ٣٤٩، التنبيه والإشراف ص ٢٩٧ .
(٤) المسعودي: مروج الذهب، شارل بلا، ص ١٦/٣ .
(٥) المسعودي: التنبيه والإشراف، دار ومكتبة الهلال، ١٩٨١م، ص٤٩.
(٦) المصدر السابق ، ص ٣٢٢.
(١) المسعودي: مروج الذهب، ٩١/٢ .

والشهوانية[1].

٣٢- المبادئ والتراكيب:

فكانت إشارة المسعودي إلىٰ هذا الكتاب مرة واحدة في المروج حيث تحدث فيه عن حركة الشمس والقمر وما ينجم عنها من حركتا المد والجزر وتأثيرها علىٰ الأرض[2].

٣٣- طب النفوس:

تكلم المسعودي في هذا الكتاب عن الطب النفسي وتأثير الأحلام في النفوس وتعليمها حسب الأفرجة والأخلاط وما يصاحبها من السرور والضحك والحزن والألم[3].

٣٤- النهي والكمال:

فنلاحظ أن المسعودي كرر نفس الموضوعات كسابقه فهو يتناول أثر الضحك والسرور علىٰ النفس البشرية[4].

٣٥- الرؤوس السبعية من السياسة الملوكية ومللها الطبيعية:

ذكر المسعودي في هذا الكتاب بعض الأمور والمسائل التي تهتم بالفلسفة مثل حديثه عن الروح والجوهر وعن السياسة المدنية وعدد أجزائها وعللها الطبيعية[5].

٣٦- الدعاوىٰ السنيعة:

تناول المسعودي فيه بعض دعاوي العرب في الجاهلية وغيرهم من أهل الملل الأخرىٰ حول تنقل الأرواح وهي أمور لا أساس لها من الصحة مثل كيفية خروج هذه الأرواح ورجوعها فهي أمور لا يعلمها سوىٰ الله سبحانه وتعالىٰ[6].

٣٧- مقاتل فرسان العجم:

ذكر المسعودي في هذا الكتاب عن مصارع فرسان الفرس وشجعانهم علىٰ طبقاتهم من الملوك وغيرهم أمثال هرمز بن سابور حكم سنة وعشرة أشهر، وبهرام بن هرمز الذي حكم ثلاث سنين وثلاثة أشهر[1] فكان غرض المسعودي من تأليفه هذا الكتاب معارضة للكتاب الذي ألفه أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ في مقاتل فرسان العرب[2].

---

(١) المصدر السابق، ٢٦٢/١ .
(٢) المصدر السابق، ٢٥٧/٢ .
(٣) المسعودي: مروج الذهب، تحقيق : شارل بلا، ١٩٦٦م، ص ٣١٦/٢ .
(٤) المصدر السابق، ٢/ ٣١٦.
(٥) المصدر السابق، ٢/ ٣٦٣.
(٦) المصدر السابق، طبعة عبد الحميد، ١٩٦٤م، ١٧١/٢ .
(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، طبعة دار الهلال، ص ١٠٣- ١٠٦.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦ .

هذه هي الكتب التي ذكرها المسعودي في كتابيه مروج الذهب ومعادن الجوهر والتنبيه والإشراف في مناسبات الحديث عن موضوعات كان قد عالجها من قبل ولذلك فإنه من الممكن أن نجزم بصحة نسبتها إليه، لأنه هو الذي ذكرها بنفسه وتحدث عنها وعن محتويات كل منها إما بإيجاز أو بتفصيل[1].

منهجه:

يختلف منهج المسعودي في التأليف عن أستاذيه الطبري الذي كان يعتمد علىٰ التاريخ بالسنين وعن اليعقوبي الذي كان يركز علىٰ الشخصية التاريخية. لذا نرىٰ المسعودي جمع بين منهج كل من الطبري واليعقوبي مع التركيز علىٰ الموضوع وبلورة خبرته العلمية والتحليل التاريخي وتقصي دوافع الأحداث ونقدها النقد البناء[2].

لقد قسم المسعودي كتاب مروج الذهب إلىٰ قسمين كبيرين – تطرق في القسم الأول فيه إلىٰ بدء الخليقة وأخبار الرسل والملوك. والقسم الآخر ابتدأ فيه بتاريخ الإسلام من خلافة علي بن أبي طالب وانتهاءً بعهد المطيع الخليفة العباسي ٣٣٦هـ ، لهذا تستنتج من هذا المحتوىٰ أن الكاتب ألم بمعظم معارف العصر وهضم ما استوعب منها واستطاع أن يجعل المشاهدة والمعاينة دعامتي بحثه جاعلاً كتابه التاريخ رهناً بتسلسل الزمن وبذلك ركز لهذا الفن منهجه الصحيح ولم يفته ما لعامل المحيط الجغرافي من أثره في التاريخ[3].

ويمكن أن يكون المسعودي أول من جمع بين التاريخ والجغرافيا العلمية بأسلوب رائع، حيث نجده في تاريخه يبدأ بوصف شكل الأرض والمدن والظواهر الجغرافية البارزة وغيرها وبعد أن بحث كل هذا انتقل إلىٰ ذكر أخبار التاريخ[4].

غير أن منهجه في التبويب لا يرقىٰ إلىٰ المستوىٰ المطلوب فقد كان من الصعب عليه أن يأخذ نفسه باتباع منطق صارم سواء في التفكير أو التعبير حيث كان يزاول عملة فائقة، بحيث أضحىٰ من العسير عليه أن يكون دائماً في حالة تسمح له بتحليل المادة المتنوعة التي جمعها من مختلف المصادر عن شعوب نائية[1].

ومن خلال قراءة مصنفاته تبين للباحث أن المسعودي قد اعتمد في منهجه علىٰ ثلاثة مصادر متنوعة هي[2]:

أولاً: المصادر الخطية وهي كتبه التي توفرت له من مؤلفات علماء عصره أو من

---

(١) سليمان السويكت: منهج المسعودي في كتابه التاريخ، ص ١٤٧.
(٢) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١١٦.
(٣) جورج غريب: أدب الرحلة تاريخه وأعلامه، ص ٣١-٣٢.
(٤) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص ١٠.
(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ١٨٣/١.
(٢) سليمان السويكت: منهج المسعودي في كتابة التاريخ، ص ١٥٥.

سبقوه والتي اطلع عليها وهضم مادتها وجعلها مصدراً مهماً من مصادر معلوماته المتنوعة والتي ضمنتها مؤلفاته.

ثانياً: ما تلقاه المسعودي من معلومات شفهية أثناء تجواله وأحياناً ما يعمد إلىٰ تصحيح بعض المعلومات الخاطئة التي توفرت لديه عند لقائه بالعلماء من لهم صلة مباشرة بالموضوع الذي تناوله.

ثالثاً: لم يغفل المسعودي المصادر الأكثر دقة والتي استقاها عبر رحلاته وأسفاره وذلك من خلال المشاهدة والمعاينة للأحداث. وقد سار المسعودي في تأليفه علىٰ تحاشي الإسناد فنجده قليلاً ما يشير إلىٰ مصادره.

ومن الحديث عن مصادره وتأليفه. نجده مصنف علىٰ جناح السرعة، وهذا لا يعني أنه مؤلف أو كاتب روئ بل أنه علىٰ عجلة من أمره فقط، فحب الاطلاع أو الرغبة في انتزاع الشهرة انتزاعاً، أو الاهتمام بالحصول علىٰ أخبار شاملة أسباب لا تكفي في نظرنا لتعليل ما يثير دهشتنا الأولية من استعجاله في العمل، ونشاطه الجدي في التأليف والرحلات، فلابد من التسليم بغرابة موقف إنسان يتلهف إلىٰ المعرفة ويهدر أعواماً طوالاً من حياته مكوراً أقواله[1]. وقد كان يسير في البلاد مفتح العين والأذن كثير التساؤل وبذلك أتيح له أن يدرك من أحوال هذه الدنيا وتطور شعوبها ما لم يتح لكثيرين من معاصريه[2].

ولم يكن علىٰ دراية كبيرة بالعلوم الإسلامية فقط بل بالتاريخ القديم والجغرافية وعقائد وتصورات الشعوب وكان يتصل في كل من الدول التي زارها بذوي المعرفة ويتعرف علىٰ كتاباتهم وعلومهم [3].

ولكن المسعودي كثيراً ما ينقاد باستطراداته إلىٰ الانقطاع عن مجرىٰ التاريخ الصحيح فتقوده اللفظة إلىٰ أقوال لا تنتظم،والسرد العلمي الخالص فتختل أمام عينيه وحدة الموضوع. لذلك حفل كتابه (مروج الذهب) بأشياء لا تستقيم علىٰ ميزان النقد. وأن علىٰ المؤرخ أن لا يؤخذ بالشائع من الأخبار لاسيما إذا كانت حصيلة شعب بدائي يعجز عن إدراك حقائق الواقع وفصلها عن الأساطير بل عليه أن يسقط العنصر الخرافي عن الأشياء ويواجه الحقيقة بالتحقيق التاريخي والملاحظات العلمية[1].

وفاتــه:

لقد تميز نتاج المسعودي بالأصالة والدقة والأمانة العلمية لذا نرىٰ علماء العصر الحديث في كل من الجغرافية والتاريخ ينعتونه بالألقاب العديدة التي تدل علىٰ

---

(١) اندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، ص ١٤- ١٥.
(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ١٥٣.
(٣) س. م . ضياء الدين علوي: الجغرافيا العربية، ص ٧١.
(١) جورج غريب: أدب الرحلة، ص ٣٧.

مكانته العلمية العالمية كما نال إعجاب المؤرخين الجغرافيين ، فلله رده في ذلك العالم. [(١)]

ولد المسعودي في مدينة بغداد حوالي سنة ٢٨٧ هـ من ذرية الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود. وتوفىٰ في القاهرة [الفسطاط] سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٦م. [(٢)]

بينما ذكر صاحب كتاب سير الأعلام أنه توفي سنة ٣٤٥هـ. [(٣)]

---

(١) الدفاع: رواد علم الجغرافية،ص ١١٦.
(٢) المرجع السابق: ص ١١٥، عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٧١.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء: ٥٦٩/١٥.

المبحث الســـابع
الهمداني (ت ٣٦٦ هـ)

- حياتـــــــه.
- مصـــنفاته.
- منهجـــــه.
- وفاتـــــه.

الهمداني (ت ٣٦٦ هـ)

حياته:

الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود[(١)] بن سليمان[(٢)] بن عمرو بن الحارث بن أبي حبش بن منقذ بن الوليد بن الأزهري بن عمرو بن طارق بن أدهم بن قيس بن ربيعة بن عبيد بن عليان بن أرحب بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل بن خشم بن خيوان بن نوف بن همدان[(٣)].

ويعرف بابن يعقوب[(٤)] وابن الدمينة[(٥)] ويدعو نفسه أبو محمد[(٦)] والهمداني[(٧)]. ويعرف أيضاً بالنسابة[(٨)] وبابن الحائك[(٩)] ولسان اليمن[(١٠)].

تعليمه:

ولد في صنعاء في التاسع عشر من شهر صفر سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م[(١١)] من أسرة يمنية تنسب إلىٰ قبيلة همدان الشهيرة في جنوب جزيرة العرب[(١٢)].

ويذكر الهمداني أن أباه كان يتاجر بالذهب وكان رحالة وصل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان والبصرة، وصلة ذويه بالعراق قديمة فقد كان أبو جده محمد بن يعقوب يعرف بالبصري، ويظهر أن الهمداني شارك أهله في عملهم وهو الجمالة – أي حمل

---

(١) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٤م، مطبعة عيسىٰ البابلي الحلبي، ص ٤٩٨؛ الهمداني الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ١٩٧٤م، دار اليمامة الرياض، ص ٦ ؛ الصاعدي، حمود سالم: المصادر العلمية للنقود الإسلامية، ١٤٢٧هـ، [رسالة ماجستير] جامعة أم القرىٰ، ص ٤٣.

(٢) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، ٨١٠/٢.

(٣) القفطي،أبوزير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف: إنباه الرواة علىٰ أنباه النحاه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٥٠م، مطبعة دار الكتب المصرية، ٢٧٩/١.

(٤) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، تحقيق: حمد الجاسر، ١٩٨٧م، دار اليمامة، الرياض، ص١٧؛ كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، القسم الثاني، ٣-٤ / ٦٥٦- ٦٥٧ .

(٥) القفطي: أنباه الرواة، ٢٧٩/١؛ الحموي ياقوت: معجم الأدباء، ٢/ ٨١٠.

(٦) الهمداني: الإكليل، ١٩٨٧م، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، ١٦/١٠؛ القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المثني، بغداد [د.ت]، ص ١٦٣.

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٦.

(٨) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، ص ١٧ ؛ حمود الصاعدي: المصادر العلمية للنقود، ص ٤٤.

(٩) الهمداني:صفة جزيرة العرب، ص ٦ ؛ الإكليل، ص ١٠/ ١٦٨.

(١٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٦ ؛ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين، ص ٢٩١ ؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ١٠٠.

(١١) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، ص ١٧-٢٣.

(١٢) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب،ص ٢٩١.

التجار والحجيج من صعدة[١] إلىٰ مكة[٢].

درس في صعده وصنعاء ثم رحل إلىٰ مكة المكرمة وأطال البقاء في مكة وتفتحت له آفاق المعرفة فقد كانت مكة في ذلك الزمن تعتبر من أعظم مراكز العلم[٣].

وقد تورط بشدة في التآمر علىٰ السلطة الزيدية المحلية التي كان الإسماعيليون وراءها. بالتالي تبدو حياته مضطربة سياسياً. وقد زج به في السجن.[٤]

وأنه كان مصنفاً للكتب في كل فن وأن له من التصانيف ما يكاد يعرفه أهل اليمن[٥].

مشائخه أو الذين استفاد الهمداني منهم:

١- يظهر إنه في إحدىٰ رحلاته طاب له المقام في مكة فجاور فيها وهاجر في أول عمره كما يدل ذلك اجتماعه [الخضر بن داود] [٦] أحد علماء مكة وكتب صدراً من الحديث والفقه ورواه، ثم عاد إلىٰ اليمن فنزل صعدة، فقد نص علىٰ أنه اجتمع بهذا العالم سنة ٣٠٧هـ[٧].

٢- أبو نصر محمد بن عبد الله البهري الحميري وهو أحد أبرز مشائخه الذين يعتز بهم إذ يعتبر قوله الفصل في كل ما يورده من أخبار اليمن وأنساب أهلها وقد أشاد بذكره في مقدمة الإكليل وبالغ في إطرائه وقال عنه: (شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حمير في خزائنها من كنون علمها، وقارئ مساندها والمحيط بلغاتها) [٨].

٣- محمد بن عبد الله الأوساني الحميري. من أشهر مشائخ الهمداني وأكثر معارفه تلقاها عن رواة وعلماء وأناس من أهل قطره. وما عدا ذلك فهو يشير إليه وهو

---

(١) صعدة مخلاف باليمن تقع في الجزء الشمالي من الجمهورية اليمنية ويبعد مركزها الإداري عن العاصمة صنعاء شمالاً نحو ٢٤٣كم وتعتبر إحدىٰ المدن الصناعية وبها عدد من الأسواق؛ حمود الصاعدي: المصادر العلمية للنقود الإسلامية ص ٤٥.

(٢) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢٩١.

(٣) حسين مؤنس: (عالم الجزيرة) الحسن بن أحمد الهمداني، مجلة العرب السنة ١٤ ، ١٩٧٩م، ص ١٣٦.

(٤) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام، ص ٥٥- ٥٦.

(٥) القفطي: إنباه الرواة، ٢٨١/١ – ٢٨٢.

(٦) الخضر بن داود. ذكره الدارقطني، علي بن عمر أنه ممن روىٰ عنه كتاب النسب للزبير بن بكار بواسطة شيخ مدني. ولا نجد في كتاب التراجم التي بين أيدينا ترجمة للخضر هذا: انظر: الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٩.

(٧) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٨) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٠ ، الإكليل، ٢٠/٩/١.

يتلقىٰ معلوماته عمن يتوسم فيه من أهلها[1].

٤- أما صلته بعلماء العراق فقد ذكر القفطي: (أنه صحب أهل زمانه من العلماء وأرسلهم وكاتبهم فمن العلماء الذين يكاتبهم ويعاشرهم. أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري) [2] وأبا عمر النحوي، وأبا عبد الله الحسين بن خالويه، واجتمع بعلماء العراق واجتمعوا به[3].

تلاميذه أو الذين استفادوا من علمه:

١- جلال الدين السيوطي:

يستفاد من إشارات السيوطي في بغية الوعاه أنه استفاد كثير من الهمداني والذي يصفه بأوحد عصره، الفاضل علىٰ من سبقه، المبرز علىٰ من لحقه، لم يولد في اليمن مثله علماً وفهماً ولساناً وشعراً ورواية وفكراً [4]. وهذه دلالة واضحة علىٰ أن السيوطي قد استفاد من علم الهمداني.

من خلال النص السابق يتضح ويتبين أنه قد اطلع علىٰ ما ألفه الهمداني من كتب في شتىٰ العلوم مثل النحو والأدب والتاريخ والجغرافية وعلوم الأرض. حيث دل من كلامه أن الهمداني وصل إلىٰ مرتبة عظيمة في علم النحو حتىٰ صار يلقب بـ (لسان اليمن)[5].

٢- القفطي:

يبدو من حديث القفطي أنه كان متأثراً بعلم الهمداني فقد ذكر قائلاً: (وهذا الرجل أفضل من ظهر ببلاد اليمن وقد ذكرت قطعة من خبره شعره في كتابه النحاة؛ لأنه كان من أهل اللغة ويدل علىٰ ذلك قصيدته الدامغة وشرحها يتضمنه مجلد كبير)[6].

ثم وصفه في موضع آخر بالأديب والنحوي الطبيب المنجم، الأخباري، نادرة زمانه، وفاضل أوانه، الكبير القدر، الرفيع الذكر، صاحب الكتب الجليلة والمؤلفات الجميلة[7].

---

(١) صفة جزيرة العرب: ص ١١، الإكليل، ٣٧١/٢.
(٢) القفطي: إنباة الرواة، ص ٢٨.
(٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ١٣ ؛ القفطي: إنباة الرواة، ص ١/ ٢٨٥.
(٤) جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة، ١/ ٤٩٧.
(٥) نفس المصدر السابق، ٤٩٧/١.
(٦) القفطي: تاريخ الحكماء، ص ١٦٣.
(٧) القفطي: أنباة الرواة، ١/ ٢٧٩.

من كل هذا يتبين لنا مدىٰ علو مكانة الهمداني بين طلابه بل وفي مجتمعه فقد كان من كبار علماء عصره خلال القرن الرابع الهجري وأن آثاره العلمية التي خلفها ظلت من بعده من أهم المصادر التي يعول عليها في التاريخ والجغرافيا وعلم الأنساب وعلم اللغة وحتىٰ الفلسفة أيضاً.

٣-ياقوت الحموي:

ويصفه الجغرافي البارز ياقوت الحموي بأنه كان رجلاً محسداً في أهل بلدته وارتفع له صيت عظيم وكان قد صحب أهل زمانه. [١]

ويذهب بعض الباحثين المتأخرين إلىٰ القول بأن الهمداني قد خلف لنا تراثاً حافلاً بالمنجزات العلمية فالواجب علينا أن نتدبر هذه الثروة العظيمة التي لا تقدر بثمن ونحققها ونقدمها للأمة العربية والإسلامية[٢].

مصنفاته:

يحتل الهمداني مكانة مرموقة بين جغرافيي العرب والمسلمين لأن له آراء سديدة في نواحي عديدة من المعرفة التي لمع في جوانب عدة، ولقد ذاع صيته في كل من علم الجغرافية والتاريخ بين معاصريه وخلف لنا العديد من الكنوز المعرفية في الأدب والجغرافيا ومن ذلك[٣]:

١- **كتاب الإبل**[٤]: وهو من الكتب المفقودة وقد أشار إليه في مقدمة كتاب الجوهرتين: "وقد بوبنا عن الأرض (كتاب الحدث والحيلة) وعن الحيوان (كتاب الإبل)". [٥]

٢- **كتاب الأيام:** وهو من الكتب التي لم تصلنا ولكنها حفظت في طيات ما خلفه لنا الهمداني سواء في كتابه الإكليل أو صفة جزيرة العرب. ويتبين لنا من خلال حديث الهمداني عنه أنه قد ضم أشعار في المديح والفخر إذ يقول عنه (وقد ذكرنا في كتاب الأيام من أشعار متقدمي قضاعة التي يفخرون فيها بحمير شيئاً كثيراً وعن خولان، فمن أخبارهم ما دخل في الكتاب ومنها ما دخل في كتاب الأيام). [٦]

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، ٢/ ٨١٠.
(٢) علي عبدا لله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١٠٢.
(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٤) الهمداني: صفة جزيرة العرب، دار اليمامة، ص ٢١.
(٥) الهمداني: الجوهرتين، ص ٤٨.
(٦) الهمداني: الإكليل، ١/١٧٠؛ حمود الصاعدي: المصادر العلمية للنقود الإسلامية، ص ٤٧-٤٨.

٣- **أخبار الأوفياء:** وقد أشار إليه في مقدمة كتاب الإكليل.[(١)]

٤- **الأنساب:** وهو من الكتب التي استفاد منها ابن حجر إذ يشير إلىٰ ذلك بقوله: ولقد قرأت في كتاب الأنساب للهمداني بينما يميل الشيخ حمد الجاسر إلىٰ القول بأنه جزء من الإكليل[(٢)] غير إشارة ابن حجر هنا واضحة بأنه كتاب مستقل بذاته[(٣)].

٥- **اليعسوب:** ذكره القفطي[(٤)] أنه في فقه الصيد وحلاله وحرامه والآثار الواردة فيه وهو كتاب جيد ومفيد ولكنه مفقود.

٦- **كتاب الأكليل:** وهذا الكتاب صنف علىٰ عشرة أجزاء. وقد طبع الجزءان الأول والثاني باختصار محمد بن نشوان الحميري،وحققه العلامة القاضي محمد علي الأكوع، سنة ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م، و ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م بمطبعة السنة المحمدية بالقاهرة[(٥)].

وقد وصف هذا الكتاب بعض المؤرخين حيث قال: (هو كتاب جليل عزيز الوجود لم أر منه إلا أجزاء متفرقة وصلت إلىٰ اليمن وهي الأول والرابع، والسادس، والعاشر، والثامن، وهي علىٰ تفرقها تقرب من نصف التصنيف) [(٦)].

وكذلك طبع منه الجزء الثامن ونشره المستشرق النمساوي [ملر] مع ترجمة لما فيه وتعليقات وطبع بمطبعة البيك سنة ١٨٧٩م، وكذلك نشره [انستاس ماري الكرملي] سنة ١٩٣١م. بمطبعة السريان الكاثوليكية في بغداد[(٧)].

أما الجزء العاشر، فقد نشره الأستاذ محب الدين الخطيب،وطبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة سنة ١٣٦٨هـ. وطبع كذلك في الدار اليمنية للنشر سنة ١٤٠٧هـ وحققه القاضي محمد بن علي الأكوع، ونشر ببغداد سنة ١٩٨٠م. بدار الحرية[(٨)].

حيث صب الهمداني فيه كل معارفه بالأنساب والتاريخ والآثار وغير ذلك مما يتعلق بالنواحي الأثرية في اليمن حتىٰ أنه تعرض لأدب الحميريين من قدامىٰ العرب وإذا كان قد ذكر الكثير مما وصله من أساطير تراكمت في ثنايا الأدب العربي بعد الرسالة المحمدية فقد وقف وقفة الناقد الفطن مستنداً علىٰ دراسة النقوش التاريخية إذ لم يكن الهمداني من الذين يعتمدون علىٰ النقل من الكتب فحسب بل كان يجوب آفاق

---

(١) الهمداني: نفس المصدر، ١٧٢/١؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، مقدمة المؤلف ، ص ٢١.
(٢) صفة جزيرة العرب، ص ٢٤.
(٣) ابن حجر: لسان الميزان، ٤/ ١٣٩ ؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، مقدمة المؤلف ، ص ٢٤.
(٤) إنباه الرواة، ١/ ٢٨١- ٢٨٢؛ الهمداني: المصدر السابق، ص ٢٩.
(٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، انظر مقدمة الكتاب إشراف حمد الجاسر ، ص ٢٢-٢٣.
(٦) القفطي: إنباه الرواة، ١٨٢/١؛ الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٢.
(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، مقدمة الكتاب إشراف حمد الجاسر، ص ٢٣.
(٨) حمود الصاعد: المصادر العلمية للنقود الإسلامية، ص ٤٩.

الجزيرة ويدرس معالمها ويسجل ما رآه بالعين وأخبر به بالمشاهدة.[١]

٧- **كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء:** حقق هذا الكتاب المؤرخ / حمد الجاسر حيث طبع في دار اليمامة في مدينة الرياض سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. وهو يعتبر من أجود مؤلفات الهمداني، فهو يتعلق بالذهب والفضة من حيث التعدين والصياغة[٢].

ومنه مخطوطة سنة ١٨٩٨م في مكتبة جامعة (ابسالا) في السويد ونسختان منقولتان عنها احداهما في (توبنجن) في ألمانيا والأخرىٰ في (امبروزيانا) في إيطاليا وهي ناقصة، وقد ترجم الكتاب إلىٰ الألمانية ونشره باللغتين الأستاذ كريستوفر تل . في (ابسالا) سنة ١٩٦٨م[٣].

٨- **كتاب صفة جزيرة العرب:** هذا أشهر مؤلفات الهمداني بعد "الإكليل" وقد ورد باسم "جزيرة العرب" وقد ظن بعضهم أنه هو كتاب "المسالك والممالك" أو جزءاً منه. وقد طبع هذا الكتاب في مطبعة بربل في ليدن (هولندا) سنة ١٨٨٤م في مجلدين يشمل الأول الكتاب وفهارسه، والثاني تعليقات علىٰ الكتاب ودراسات عن نسخة مع ذكر اختلافها[٤].

وكذلك قام الشيخ محمد بن عبد الله بن بليهد – رحمه الله – بإعادة طبعه في سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م. في مطبعة السعادة بمصر وجاء في ٤٣٧ صفحة بفهارسه وحواشيه وقد اعتمد المحقق المطبوعة الأولىٰ أصلاً له، واستعان بمخطوطة نسخت له من اليمن[٥].

فقد تناول هذا الكتاب المظاهر الطبيعية في شبه الجزيرة العربية وأجناس سكانها وقبائلها وما ضمت من حيوان ومعادن وطرق وأماكن استقرار الناس فيها[٦].

٩- **شرح قصيدة الدامغة: وهي قصيدة للهمداني مطلعها:**

ألا يا دار هلا تنطقينا   فإنا سائلون ومخبرونا

تقرب من ستمائة بيت، رد فيها علىٰ قصيدة للكميت بن زيد الأسدي في تفضيله عدنان علىٰ قحطان. وقد قام بتحقيق هذا الشرح مؤرخ اليمن محمد بن علي الأكوع سنة

(١) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٢٩٢.
(٢) حمود الصاعدي: المصادر العلمية، ص ٤٩.
(٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، حمد الجاسر [المقدمة ، ص ٢٥].
(٤) نفس المصدر السابق: ص ٣١.
(٥) نفس المصدر السابق: ص ٣٢.
(٦) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢٩٢.

١٣٩٨هـ[٧].

وقيل أنه فرغ من تحقيقها في ٢٠/ مارس / ١٩٧٧م؛ ٣/ ربيع أول سنة ١٣٩٧هـ. لكن الأكوع لم يجهد نفسه في سبيل تحقيق وضبط النصوص وشرحها للهمداني حتىٰ يتمكن القارئ العربي من قراءة الكتاب قراءة صحيحة. [٨]

وهذه أهم مؤلفات ابن الحائك الهمداني وأنه قد يطلق علىٰ المؤلف الواحد اسمين وأن الكتاب قد يجزأ فيطلق علىٰ كل جزء اسماً خاصاً به. وأن البعض من هذه المؤلفات مفقود والبعض الآخر وجد وحقق ونشر.

منهجه:

انتهج الهمداني في كل مؤلف من مؤلفاته منهجاً يتلاءم مع الفن الذي يطرقه فلو تتبعنا كل مؤلف من مؤلفاته علىٰ حدة لأفردنا كل مؤلف منها دراسة منفصلة.

فنرىٰ الهمداني يعلن بصراحة أنه يحتفظ بالأخبار لكتاب الإكليل ويأخذ أصلاً لفظ الأخبار بمعنىٰ واسع جداً فيجرد (صفة جزيرة العرب) ليس فقط من جميع الأخبار التاريخية بل أيضاً وغالباً جداً من المعطيات الأدبية المألوفة ويضمنها بالمعنىٰ الصحيح، طريقة تلميحية في معالجة الأدب[٩]. ونحن لا نتفق مع ما ذهب إليه اندريه من أن الهمداني قد جرَّد كتابه صفة جزيرة العرب من صفته التاريخية وركز علىٰ مسالكها ومياهها.. إلخ والكتاب يأخذ طابع المسالك والممالك وإن صاغه بأسلوب أدبي غير أنه يهتم بجغرافية جزيرة العرب ويعتبر من خير ما أثر عن المتقدمين[١٠].

وهكذا تخلت (صفة جزيرة العرب) عن التاريخ والأدب معاً فأصبحت صفة (مساكن الجزيرة، ومسالكها، ومياهها، وجبالها، ومراعيها، وأوديتها) [١١].

ومن الملاحظ أن الهمداني عندما وصف اليمن كان اعتماده علىٰ الملاحظة الشخصية مع الإفادة بالطبع من المادة الأدبية التي خلفها السابقون، أو ما وصف بقية الجزيرة العربية فيعتمد فيه أساساً علىٰ الرحالة والحجاج الذاهبين إلىٰ مكة كما يعتمد أيضاً بدرجة كبيرة علىٰ مادة الجغرافيين اللغويين المتخصصين في جزيرة العرب بل إنه قد يسوق أحياناً شواهد من مصادر غير معروفة لغير مؤلفين[١٢].

ووصفه بالطبع لا يسير دواماً علىٰ نسق واحد أو يتبع خطة مجردة فهو يكثر من إعادة الكلام علىٰ المناطق التي ذكرها من قبل، وبينما تحتل اليمن مكان الصدارة

(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٥؛ حمود الصاعدي: المصادر العلمية، ص ٤٩.
(٨) أحمد محمد الشامي: جناية الأكوع علىٰ ذخائر الهمداني، ط١ ، ١٤٠٠هـ، دار النفائس، بيروت، ص ٧-٨.
(٩) أندريه ميكيل: جغرافية دار الإسلام البشرية، ص ٥٦.
(١٠) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٣٦.
(١١) نفس المرجع السابق: ص ٥٧.
(١٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تحقيق: صلاح الدين عثمان، ١٧١/١.

في كتابه نجد حضرموت لا تظفر منه بالإشارة الطفيفة والذكر العابر(١).

ونجد أن الهمداني يتبع منهجاً وسطاً بين علماء عصره وأنه أكثر إمعاناً في أخذ المعرفة عن طريق المشاهدة والتجربة ونجده أقل إيراداً للخرافات والأساطير ويعتمد علىٰ التجربة والمشاهدة الشخصية الدقيقة في منهجه(٢).

ومن هذا تدل كتابات الهمداني علىٰ أنه بحاثة صبور يغوص في أعماق الألفاظ والكلمات ويحملها أدق المفاهيم الجغرافية فنجده في كتاب صفة جزيرة العرب يعترض لعبارة صفات بقاع الأرض. فيتعرض مميزاً بين متنوعات الجزء الواحد من التضاريس وهي الجبل والنجد والسهل والوادي وهي تتفاوت عنده في ارتفاعها. وتتضح صفات الأرض عنده بالوصف(٣).

وللهمداني معرفة جيدة ببطليموس وهو يبدأ كتابه بمقدمة رياضية جغرافية وافية يورد فيها ذكر المذاهب المختلفة لتحديد الأطوال والعروض كما يورد فيها أيضاً وصفاً عاماً لمناطق الأرض بحسب توزيعها علىٰ الأقاليم السبعة. أما القسم الأساسي من كتابه فقد كرسه لوصف جزيرة العرب وهو ينقسم إلىٰ خمسة أبواب رئيسية فيوصف تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن(٤).

ونجده يغتنم كل مناسبة للكشف عن تبحره في الآثار والنقوش العربية التي كثيراً ما أفلح في فك رموزها مثلما تتجلىٰ معرفته بالرواية السماعية والأدبية وشدة تحريه في دقة ما أودع كتابه من معلومات. (٥)

ساهم الهمداني في إثراء التراث الإسلامي في مجال الجغرافيا مساهمة فعالة حيث يُعد من أبرز جغرافي القرن الرابع الهجري، فقد أضاف إلىٰ الموسوعة الإسلامية الجغرافية في عصره مؤلفه الكبير (صفة جزيرة العرب) حوالي سنة ٣٤٤هـ. (٦)

وفاتــه:

فنرىٰ أن الهمداني نزل صعده عائداً من مكة سنة ٣٠٧هـ. (٧) لم تكن صعدة مريحة تماماً بالنسبة للهمداني إذ دخل في نزاع شديد مع الشعراء فدخل السجن بين عامي ٣١٩-٣٢١هـ وكذلك في سنة ٣٢٢هـ(٨) لاقىٰ بعض الشدة بسبب الحروب مع

---

(١) نفس المرجع السابق: ص ١٧١.
(٢) الهمداني: الجوهرتين العتيقتين، ص ٧١؛ حمود الصاعدي: المصادر العلمية للنقود، ص ١٠٢.
(٣) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٧٠.
(٤) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١٧١/١.
(٥) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص٢٩٣.
(٦) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٧٠.
(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٩- ٣٠- ٣١.
(٨) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢٩١- ٢٩٢.

القبائل الثائرة علىٰ الإمام الناصر وتوفىٰ سنة ٣٣٤هـ. في سجن صنعاء ضحية مكائد خصومه ودسائسهم، ولكن الأستاذ محمد بن علي الأكوع الحوالي محقق كتاب (صفة جزيرة العرب) يرىٰ أن الهمداني عاش لما بعد ٣٤٤هـ[1]. أي أنه عاش حوالي ٦٤ عاماً. وأنه لم يسجن وأنه توفىٰ سنة ٣٤٥هـ[2].

المبحث الثامن

ابن حوقل (ت ٣٦٧ هـ)

- حياته.
- مصنفاته.
- منهجه.
- وفاته.

(١) كاربروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ٢ / ٦٥٦.
(٢) الهمداني: المصدر السابق، ص ٣١.

ابن حــوقــل (ت ٣٦٧ هـ)

حياتـه:

أبـو القاسـم محمـد بـن حوقـل النصـبي، أو الموصـلي أو البغـدادي(١). ولـد فـي نصيبين(٢) وترجح بعض المصادر التاريخية أنـه ولـد فـي مطلـع القرن الرابـع الهجري (٣) سنة (٣٠٠- ٣٠٥هـ) ما دام قد بدأ رحلته عام ٣٣١هـ والتقىٰ الأصطخري في تلك السنة، وقيل أنه ولد في بغداد وعاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري(٤).

تعليمه:

ففي بغداد تلقىٰ ابن حوقل علومه الأولىٰ، ولقد اتضحت ميوله العلمية في سن مبكرة متجهة نحو علم الجغرافيا وذلك أنه طالع عدداً من كتب الجغرافيين المسلمين فشغف بها، مما عمق في نفسه فيما بعد حب الرحلة الجغرافية، وعلاوة علىٰ ذلك كان اشتغاله بالتجارة ومزاولته لها، سبباً في تزايد حب الترحل والتجوال لديه. ومن هنا فقد قام برحلات طويلة استغرقت منه نحواً من ثلاثين عاماً، طاف خلالها معظم أقطار العالم الإسلامي آنذاك. (٥)

لقد لقيت التجارة هوىٰ في نفسه فأقبل عليها دون أن تمنعه من مطالعة الكتب وزيادة ثروته الثقافية، ولكن أحوال الدولة غير المستقرة أثرت علىٰ تجارته فكان أن أصابها الكساد مما جعله يزهد فيها ويفكر في الخروج من بغداد التي كانت فيها الأحوال السياسية مضطربة ولتحقيق رغبة في نفسه للانطلاق لمعرفة العالم من حوله

---

(١) خير الدين الزركلي: الأعلام ط٥، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م، بيروت، ١١١/٦ ؛ عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ، تراجم مصنفي الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٥/١١ ؛ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص ٣٩؛ ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، [د.ت]، ص٥٠؛ سهام مصطفىٰ أبو زيد: الرحلة في طلب العلم إلىٰ مكة من خلال رحلة ابن حوقل، مطبوعات مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، جامعة أم القرىٰ، ص ٢٢.

(٢) مدينة نصيبين هي من مدن الجزيرة وتمر بها القوافل من الموصل إلىٰ الشام وفيها وفي قراها علىٰ ذكر أهلها أربعون بستان بينها وبين الموصل ستة أيام، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ٢٣٣/٥.

(٣) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، دار الثقافة، تحقيق: صلاح الدين هاشم، ١٩٦٣م، ص ٢٠٠؛ فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٣٠؛ عبد الرحمن حميده، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢١٠؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ١٠٧.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ليدن، ط٢ ، ١٩٨٣م، ص ٢٨٤؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة، ص ٥٦.

(٥) يوسف بن أحمد حوالة: ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٤١٢هـ، ص ٤.

لذلك عقد العزم للانطلاق برحلاته خارج أسوار مدينته فكان ذلك عام ٣٣١هـ.[١] فطاف خلالها حول بلاد مصر والشام والعراق والبحرين وإيران وأذربيجان وأرمينيا كما تجول في بعض جهات آسيا الوسطىٰ والجنوبية الشرقية حيث بلغ إقليم السند ودخل بلاد البلغار ووصل إلىٰ أواسط نهر الفولغا، كما تجول في ربوع بلدان المغرب العربي والأندلس وزار نابولي وصقلية،وكان هدفه الأول اشتغاله بالتجارة إلا أنه استفاد في الوقت نفسه فائدة علمية عظيمة انعكست علىٰ مصنفه[٢].

غير أن اتصاله بالفاطميين دعا بعض المستشرقين إلىٰ اتهامه بالتجسس لحسابهم في الأندلس لأن الفاطميين كانوا في البداية يتطلعون إلىٰ الاستيلاء علىٰ تلك البلاد ولعلهم كانوا يمهدون لذلك بجمع المعلومات الضرورية عن تلك الأصقاع[٣].

ويعد ابن حوقل الخبير الأول من بين جغرافي عصره في شؤون المغرب ويرد عنده وصف مفصل لمنطقة البجة[٤] وتاريخهم ومنطقة أريتريا ويصف الواحات التي يسمىٰ كلاً منها جزيرة وكثيراً ما نجده يحن للتجارة ويميل إلىٰ مقابلة واختلاط التجار في المدن التي يزورها فهو في سجلماسة[٥] يلتقي ببعض التجار العراقيين ويتبادل معهم همومه التجارية والعلمية مما يوحي لنا بوجود مناطق تجارية في المدن الإسلامية تشكل عامل جذب للتجارة في العالم الإسلامي[٦].

فكانت هذه الزيارات والرحلات رغبة من ابن حوقل في نيل المال عن طريق التجارة فحصل علىٰ ذلك وجمع من الكتب الجغرافية الثمينة الكثير فاستفاد من المال ببناء مكتبته التي يعتمد عليها في بحوثه الجغرافية لذا امتاز بوصفه عن غيره من كتب الجغرافية لما يحتويه من الأفكار الأصلية التي لم يسبقه إليها أحد[٧].

كانت صلة ابن حوقل بسيف الدولة الحمداني[٨]. المتوفىٰ سنة ٣٥٦هـ. قوية جداً جداً فساعده بأن حصل علىٰ معظم مراجعة العلمية في مجال علم الجغرافية والجدير

---

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٣٠، عبد الرحمن حميده، أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢١٠.
(٢) شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص ٥٦.
(٣) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢١٠؛ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص ٤١.
(٤) البجة: بلاد متصلة بأعلىٰ عيذاب في منه أهلها صنف من الحبش وبها معادن الزمرد. انظر: القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت ، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م ، ١٨/١.
(٥) سلجماسة/ مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، الجنوب، انظر: معجم البلدان، ٢١٧/٣.
(٦) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٢١١.
(٧) الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ١٠٩.
(٨) سيف الدولة الحمداني/ هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن حمدان ولد سنة ٣١١هـ صاحب حلب، مقصد الوفود، وكعبة الجود وفارس الإسلام وحامل لواء الجهاد توفى سنة ٣٥٦هـ، انظر: الذهبي، سير الأعلام، ٤٤٢/١٠.

ذكره أن ابن حوقل كان من التجار الذين حازوا علىٰ ثقافة عالية ومتنوعة فكان يعتقد أن الرحلات هي الوسيلة الوحيدة لدراسة خصائص الأقاليم وطبائع الشعوب المختلفة علىٰ الطبيعة[1].

فهو يصف النظام الاجتماعي لدولة القرامطة التي كانت قائمة في ذلك الوقت ونمط الحكم فيها [2].

مشائخه:

تنقل ابن حوقل بين البلدان لأكثر من ثلاثين عاماً يحمل بين جوانحه قلباً عامراً يحب الجغرافيا بعد أن قرأ تقريباً جميع كتبها التي وصفها السابقون عليه والمعاصرين له حتىٰ أولع بهذا العلم ومن هذه الكتب ما كان يحرص علىٰ أن تبقىٰ معه دائماً[3] يقول يقول عن ذلك: (وكان لا يفارقني كتاب ابن خرداذبة وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة بن جعفر) [4].

١-ابن خرداذبة:

ويشير ابن حوقل بكتاب ابن خرداذبة الذي تعلم فيه عن وصف الأرض وعن سواد العراق، ووصف الطرق وخاصة التي تخرج من بغداد شمالاً إلىٰ آسيا الوسطىٰ، وجنوباً إلىٰ الهند. [5] فنرىٰ ابن حوقل يذكر ذلك الرحالة في كتابه صورة الأرض.

٢-الجيهاني:

أما الجيهاني الذي جعل العالم سبعة أقاليم وجعل لكل إقليم كوكباً مرة يذكر النجوم والهندسة وكرَّة يورد ما ليس للعوام فائدة وتارة ينعت أصنام الهند وطوراً يصف عجائب السند وحيناً يفصل الخراج والردَّ، ورأيته ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصل الكور ولا رتب الأصفاد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً مع شرح ما فيها من السهول والجبال والأودية والتلال والمشاجر والأنهار وبذلك طال كتابه وغفل عن أكثر طرق الأجناد ووصف المدائن والجياد. [6]

---

(١) نفس المرجع السابق، ص ١٠٩.

(٢) حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٢١١.

(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٢٩.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، طبعة ليدن، ١٨٧٣م، ص ٢٣٦.

(٥) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١/١٥٥-١٥٦.

(٦) نفس المرجع السابق: ص ٢١٩.

فكان كتاب المسالك والممالك الجيهاني لا يفارق ابن حوقل في سفره وترحاله حيث كان يستدل به في بعض المواضع. وقد اعتمد ابن حوقل في كتابه علىٰ ابن الجيهاني وفي ذلك يقول أنه كان لا يستغني عن مؤلفه المسالك والممالك.

٣- قدامة بن جعفر:

صاحب كتاب (الخراج وصنعة الكتابة) أحد البلغاء والفصحاء والفلاسفة والفضلاء وكان يشار إليه في علم المنطق وقد استفاد ابن حوقل من كتابه هذا في ثنايا حديثه في صورة الأرض [١].

كذلك من الذين استفادوا من ابن حوقل وكتابه:

١- الأصطخري:

أكمل عمل معاصره الأصغر منه سناً ابن حوقل الذي التقىٰ به عام ٣٤٠هـ. فنرىٰ الأصطخري ولا نجزم أنه كان من تلاميذ ابن حوقل لأنه أصغر منه سناً ولكنه كان متأثراً به[٢].

٢- المقدسي:

نهج نفس المنهج الذي نهجه ابن حوقل حيث أن كتابي ابن حوقل والمقدسي لا يخلو من آثار الصنعة والتكلف والميل إلىٰ السجع إلا أن المقدسي أكثر منه استخداماً للسجع وأن المقدسي قد يفوق ابن حوقل من ناحية تبويب الكتاب، وكان المقدسي متأثراً بابن حوقل فبدأ بديار العرب[٣].

٣- الشريف الإدريسي[٤]:

وهو من علماء القرن السادس الهجري قام برحلات إلىٰ الأندلس وأفريقية وآسيا الصغرىٰ. وأنه ألف كتاباً مطابقاً لما جاء به ابن حوقل. [٥]

٤- ياقوت الحموي:

---

(١) ابن النديم: الفهرست، تحقيق يوسف طويل، ١٤١٦هـ، ص ٢٠٩.
(٢) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب، ٢٠٠/١.
(٣) عدي مخلص: البشاري المقدسي، ص ١٣٢- ١٣٣.
(٤) أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسيني المعروف بالشريف الإدريسي. الإدريسي. له كتاب اسمه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، انظر كتابة، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد، [د.ت]، ٦/١؛ سهام مصطفىٰ أبو زيد: الرحلة في طلب العلم، ص ٤٣.
(٥) سهام أبو زيد: الرحلة في طلب العلم، ص ٤٣.

من أشهر الرحالة الجغرافيين والمؤرخين والأدباء المسلمين ولد سنة ٥٧٥هـ وقام برحلات عديدة حول العالم الإسلامي حيث ذكر عن ابن حوقل في التعريف بحصن كران حيث قال ياقوت (وذكره ابن حوقل وقال: هو حصن أزلي يقال له سوق كران وبينه وبين ملتانة مرحلة وبينه وبين أشير ثلاث مراحل)[١].

مصنفات ابن حوقل:

بعد أن أمضىٰ ابن حوقل قرابة الثلاثين عاماً في السفر والرحلات العلمية التي تجاوزت حدود العالم الإسلامي، عاد وعكف علىٰ وضع كتابه، صورة الأرض أو المسالك والممالك [٢].

وألف ابن حوقل كتابة هذا علىٰ صفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما يفرد بالأعمال المنوطة بها[٣].

وهناك كتاب علىٰ درجة من الشبه مع كتاب الأصطخري ألفه ابن حوقل يكاد يكون مطابقاً لكتاب الأصطخري مع ذلك فهناك بعض الإضافات في كتاب ابن حوقل وخاصة في وصف الجزء الغربي من العالم الإسلامي وإذا قورنت خرائطه بخرائط البلخي والاصطخري يتضح تفوقه في هذا الجانب [٤].

ويعتبر كتاب ابن حوقل صورة الأرض هو ثالث مؤلفي المسالك والممالك الذي عاصره من العلماء في هذا المجال أمثال الأصطخري[٥].

فمن الملاحظ أن ابن حوقل وضع المسودة الأولىٰ من كتابه الشهير نحو عام ٣٥٦هـ. أما المسودة الثانية فكانت عام ٣٦٧هـ. وقد عثر علىٰ نسخ عديدة منه تفاوتت تواريخ نسخها وكلها مخطوطات لم تحقق بعد وأفضلها النسخة المحفوظة بمكتبة أحمد الثالث باستانبول وحررت هذه المخطوطة كما هو مدون عليها عام ٤٧٩هـ، وتوجد مثلها في دار الكتاب المصرية وثمة فروق طفيفة بين المخطوطات ترجع إلىٰ اختلاف

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ٥٠٤/٤- ٥٠٥، وكران محلة مشهورة بأصبهان.

(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٢٩. وقد ترجم الكتاب إلىٰ الانجليزية عام ١٨٠٠م، إلىٰ الفرنسية عام ١٨٤٢م وكانت أول طبعة من الكتاب علىٰ يد المستشرق الشهير [دي خوية] وأعاد المستشرق [كرامرز] نشره في ليدن سنة ١٩٣٨م وقامت إحدىٰ مكتبات بيروت عام ١٩٧٩م بتصوير الكتاب ونشره دون تحقيق.

(٣) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية، ص ٢٥٣.

(٤) س.م. ضياء الدين علوي: الجغرافيا العربية، ص ٨٩. ؛ ابن حوقل: صورة الأرض مكتبة الحياة، طبعة لبنان، ١٩٧٩م، ص ٢٨٤. يسري عبد الرزاق الجوهري: الفكر الجغرافي، ص ١٠٣.

(٥) محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، ص ١٤٠.

المسودات التي نسخت منها[1].

حيث تبين من خلال قراءة كتاب صورة الأرض لابن حوقل المفاوز والممالك والأقاليم والبلدان علىٰ مر الدهور والأزمان وطبائع أهلها وخواص البلاد وفي نفسها وذكر جباياتها وخراجاتها ومستغلاتها كما ذكر الأنهار واتصالها بشطوط البحار وما علىٰ سواحل البحار من المدن والأمصار وبين مسافة ما بين البلدان للسفارة والتجارة، ويلحن ذلك بحكايات وأخبار ونوادر وغير ذلك. وقد اختصر صور بلاد الإسلام وأخبارها وقد عدَّل ابن حوقل فيما جمعه علىٰ الكتاب أبي القاسم محمد بن خرداذبة وقدامة بن جعفر. [2]

منهجه:

قرأ ابن حوقل قبل شروعه بتصنيف كتابه الكتب الجليلة المعروفة في المسالك وواصل السفر فغادر وطنه فبدأ سفره من بغداد لسبع خلو من رمضان سنة ٣٣١هـ[3].

حيث ضمَّن ابن حوقل مشاهداته وانطباعاته ومذكراته التي نجمت عن رحلاته كتابه المعروف بصورة الأرض، وكتاب صورة الأرض كتاب جغرافي في المقام الأول[4]، ولقد كان الغرض من تأليفه يدخل ضمن دائرة كتب المسالك والممالك التي سبقه إليها بعض الجغرافيين المسلمين منذ بداية القرن الرابع الهجري. ثم تابعت المدرسة الجغرافية الإقليمية بعد ذلك سيرها طوال عصور الازدهار العلمي للعالم الإسلامي[5].

لقد سار ابن حوقل في تأليفه علىٰ غرار كتاب الأصطخري: شكلاً واسماً وتخطيطاً وقدراً من المحتوىٰ مع ما انفرد به بالطبع من مادة علمية جاءت عن طريق رحلاته المتعددة كما صرح هو بذلك في مقدمة الكتاب. ويبدو أن ابن حوقل قد بلغ به التأثر بالأصطخري حداً جعله يطرح من كتابه كل ما نقله عن الجغرافيين قبله، ورغب أن يكون اعتماده علىٰ الأصطخري وحده وأن ينهج منهجه[6].

ونستخلص من مقارنة كتاب ابن حوقل بكتاب الأصطخري أن الأول يدين للثاني فقد أخذ عنه مخططه فضلاً عن فصول برمتها كالتي تتعلق بجزيرة العرب

(١) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٣١.
(٢) عمر رضا كحالة: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، ص ٢٥٣.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ٢٥٤.
(٤) حاجي خليفة، مصطفىٰ بن عبدالله القسطنطيني: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر،بيروت، ١٤١٠هـ ، ١٦٦٢/٢-١٦٦٤.
(٥) يوسف أحمد حواله: ابن حوقل ورحلاته الجغرافية، ص ٥.
(٦) ابن حوقل: صورة الأرض ، مكتبة الحياة ، بيروت، ١٩٧٩م، المقدمة؛ كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الأدب الجغرافي، ٢٠١/١-٢٠٢؛ عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ٢١١-٢١٢. ؛ يوسف حوالة: ابن حوقل ورحلاته الجغرافية، ص ٦.

والخليج العربي وهي فصول اكتفىٰ ابن حوقل بأن أضاف إليها زيادات هامة ولكنها مقتضبة جداً كما استعار منه معظم الأبحاث المتعلقة بمصر وبلاد الشام والعراق وبلاد ما بين النهرين[١].

ويظهر أن يد التغيير والتبديل قد مست بصورة كبيرة الأقسام المفردة لأقطار المغرب وإسبانيا وصقلية وبعبارة أخرىٰ لا تظهر أصالة ابن حوقل إلا من خلال الفصول التي كتبها عن الجناح العربي من العالم الإسلامي[٢].

وأن كتاب ابن حوقل عمل مطول احتوىٰ علىٰ وصف دقيق لمناطق مختلفة غير أن أسماء البلاد المختلفة لم تحدد بالنسبة لخطوط الطول والعرض وبعرض الأمر الذي تتيح عنه الخلط بين مواقع الأماكن المختلفة، وسبب ذلك لم يستخدم الطول والعرض كما فعل بطليموس، في تقسيم العالم إلىٰ أقاليم مختلفة لأنه كان يعتقد أنها طريقة غير كافية، إذ يذكر في مقدمته أنه لم يعتمد في تقسيمه علىٰ المناخ وذلك تفادياً للخلط، ويبين في مقدمته منهج بحثه[٣] فيذكر: (أن الغرض الأساسي هو وصف أنواع المناخ المختلفة والأقاليم الموجودة علىٰ سطح الأرض والتي تقع في دائرة الإسلام بأقسامها العديدة في دراسته الإقليمية سيحاول أن يذكر كل شيء وشاهده في الأقاليم وحدوده وأهم مقاطعاته ومدنه وجباله وأنهاره وبحيراته والصحراء الموجودة به) [٤].

ويعتبر ابن حوقل من الأوائل الذين استطاعوا الربط بين المناخ وغيره من الظاهرات الجغرافية، فقد قسم العالم المعروف لديه إلىٰ قسمين أحدهما شمال وآخر جنوب، وجعل الخط العربي إلىٰ هندستان وأواسط إقليم الإسلام في آسيا[٥].

ولا ينكر إنسان اطلع علىٰ خرائط ابن حوقل وكتابه الذي ضمنه معلومات عظيمة من خلال رحلاته وأقوال أهل الثقة أنه من أعظم الجغرافيين الإسلاميين والذين ظل الغرب يعتمد علىٰ مؤلفاتهم وخرائطهم ويرجع إليها بصفة مستمرة لعدة قرون[٦].

ونورد هذا النص لنستدل علىٰ وضوح المنهجية العلمية في مجال الجغرافيا الإقليمية عند ابن حوقل إذ يقول: (وقد عملت كتابي هذا بصفة أشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الضامر منها والعمران، ثم ذكرت ما يحيط بالأقاليم من الأماكن والبقاع وما في أضعافها من المدن والأصقاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج إلىٰ معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الجبايات والأحوال والأعشار والخراجات والمسافات في

---

(١) عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢١١.
(٢) نفس المرجع السابق، ص ٢١١.
(٣) يسري عبد الرازق الجوهري: الفكر الجغرافي والكشوفات الجغرافية، ص ١٠٣.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص ٩-١٠.
(٥) يسري عبد الرازق الجوهري: الفكر الجغرافي، ص ١٠٩.
(٦) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٧٦.

الطرقات وما فيه من المجالب والتجارب) [١].

نجد ابن حوقل قد اتبع منهجية علمية سليمة في كتاباته فهو قد فصل بلاد الإسلام إقليماً وصقعاً وكورة مبتدئاً ببلاد العرب التي اعتبرها إقليماً واحداً لوجود الكعبة ومكة بها وأوضح ما تحتويه من الجبال والرمال والطرق وما يصب فيها من الأنهار ورسم المغرب بقسميه أحدهما يمتد من مصر إلىٰ القيروان والآخر يمتد إلىٰ طنجة [٢].

وقد قسم ابن حوقل كتابه إلىٰ قسمين كبيرين هما:
القسم الأول: يضم المقدمة وصورة الأرض ثم يستعرض ملامح البلاد التي نراها مبتدئاً بديار العرب.
أما القسم الثاني: فيبدأ من فارس وكرمان والسند ثم أرمينيا.

ويتضح من هذا التقسيم أنه تقسيم جغرافي لا تاريخي أو زمني ولم يتم طبقاً[٣] لظروف رحلته وتوالي زياراته للبلدان لكنه قصد أن يكون كتاباً جغرافياً قلباً وقالباً.

وكان ابن حوقل معنياً بشؤون المال وانعكس ذلك علىٰ أسلوبه في جمع المادة التي كان للنشاط الاقتصادي فيها حظ وافر فكان حريصاً علىٰ ذكر الحاصلات الزراعية والمنتجات الحرفية الأمر الذي نرجح أنه لم يلفت نظر الرحالة السابقين له [٤].

هذا وقد امتاز ابن حوقل في منهجه عن غيره من علماء الجغرافية بأنه اعتمد علىٰ معرفته الشخصية المكتسبة من أسفاره ولقاءاته بعمالقة الفكر الجغرافي، لذا ظهر نتاجه في هذا المجال متكاملاً وخاصة ما يخص بلاد الإسلام من حيث طبيعة الأرض والحياة الاجتماعية في الحواضر والأرياف[٥].

وعن منهجه أيضاً في التأليف فقد اتبع خطوات منهج البحث العلمي فقد كشف لنا عن أبعاد جديدة في ذلك المنهج وتتضح تلك الخطوات في الآتي:

١- أنه جعل الرحلة منهجاً مهماً من مناهج الكتابة العربية فقد سجل خلال رحلاته أسماء المواضع والأماكن وجاءت بشكل دقيق لأنها خصصت للمشاهدة والمعاينة الشخصية منه[٦].
٢- أنه لا يوافق التأليف عنده كتاب الجيهاني ولا رسم ابن خرداذبة، حيث اتخذ منهجاً مخالفاً للجيهاني وابن خرداذبة. [٧]

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص ١٠.
(٢) عبد العليم عبد الرحمن خضر: المسلمون وعلم الجغرافيا، ص ٧٧.
(٣) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٣١- ٢٣٢؛ محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون، ص ١٤٠.
(٤) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٣٤- ٢٣٥.
(٥) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافية، ص ١٠٨.
(٦) سهام أبو زيد: الرحلة في طلب العلم، ص ٣٢.
(٧) نفس المرجع السابق: ص ٣٣.

٣- أوضح الأسباب والدواعي والعوامل التي دعته إلىٰ اختيار ذلك المجال. [١]

٤- عندما نأتي إلىٰ مرحلة جمع المادة العلمية[٢] نجده ينحو نحو مجال المشاهدة والتجريب بنفسه.

٥- تجنب الكثير من التخلط في تقسيم الأرض إلىٰ سبعة أقاليم كما سبقه في ذلك الأصطخري والجيهاني. [٣]

٦- لم يقتصر ابن حوقل علىٰ الجانب النظري في وصفه للأقاليم، بل نحا منحاً تطبيقياً، ولذا فقد زود وزين كتابه بصورة الأقاليم التي رحل إليها معبرة عن الحقيقة. [٤]

وفاتــه:

لم يستطع الباحثون تحديد تاريخ وفاته [٥] ولكن هناك من يقول أنه توفي سنة ٣٦٧هـ. في نفس المدينة التي ولد فيها وهي مدينة نصيبين[٦] .

وذهب آخر إلىٰ تحديد تاريخ وفاته سنة ٣٥٠هـ. وهذا خطأ ووهم. فابن حوقل صرح في أخبار زيارته لصقلية أنه زارها في سنة ٣٦٢هـ.

---

(١) نفس المرجع السابق: ص ٣٣.
(٢) زكي محمد جمال الدين: مناهج البحث والمصادر، ط٣ ، ١٤٠٤هـ [د.ن]، ص ٥١.
(٣) سهام أبو زيد: الرحلة في طلب العلم، ص ٣٨.
(٤) نفس المرجع السابق: ص ٣٨-٣٩.
(٥) شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي العربي، ص ٥٧.
(٦) خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٠م، ١١١/٦.

المبحث التاســـع

المقدســي (ت ٣٨٠ هـ)

- ♦ حياتـــــــه.
- ♦ مصـــنفاته.
- ♦ منهجـــــه.
- ♦ وفاتـــــــه.

المقدســي (ت ٣٨٠ هـ)

حياته :

شمس الدين أبو عبدا لله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي[١] وعرف بالبشاري[٢] واشتهر بالمقدسي نسبه إلىٰ بيت المقدس[٣].

ولد في بيت المقدس سنة ٣٣٥هـ. وقد حج المقدسي سنة ٣٥٦هـ. بعد سن العشرين وحج للمرة الثانية سنة ٣٦٧هـ[٤].

وقد أطلق عليه أثناء تجواله أكثر من ست وثلاثين اسماً خوطب ودعي بها مثل المقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني ومقرئ وفقيه وصوفي..إلخ[٥].

تعليمه :

ولد المقدسي في القدس وهو حفيد للمهندس الذي بنىٰ أبواب عكا لابن طولون[٦]. وعاش صباه وشبابه بالقدس في الفترة التي كان فيها الخليفة العباسي هو أبوالفضل القاسم بن المقتدر (٣٣٤ – ٣٦٣ هـ) وكان يسمي نفسه الطائع لله [٣٦٣-٣٨١هـ].[٧]

وانتقل المقدسي في صباه إلىٰ بغداد، ودرس علىٰ علمائها[٨] وتفقه فيها وكان

---

(١) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار صادر، دار بيروت، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ٤٦٤/٤؛ إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، وكالة المعارف، استانبول، ١٩٥٥م، ٦٢/٢-٦٣ ؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، ط٦، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م، ٣١٢/٦؛ حاجي خليفة: كشف الظنون، دار العلوم الحديثة، بيروت، [د.ت]، ١٦/١ ؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم،دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨هـ، ٣٣٥؛ زكي محمد حسن: الرحالة المسلمون في العصور الوسطىٰ، ص ٤٢ ؛ عبدالعال الشامي: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية، ٣/ ٢٩٩.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٠هـ ، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ١٩٦/٥؛ كارل بروكلمان: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ٦٦١/٢؛ شاكر خصباك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي والعربي، ص ١٠٨.

(٣) البغدادي: هدية العارفين، ٦٢/٢-٦٣؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، ص ٩٥.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن ١٩٠٦م، ص ٤٣-٤٤.

(٦) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٦٩؛ عبد الرحمن حميده، أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.

(٧) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ٢٠٩/١.

(٨) أحمد أبو سعيد: أدب الرحلات وتصوره في الأدب العربي (رحلة المقدسي) منشورات الشرق الجديدة، بيروت،ص٧٧؛ صباح محمود محمد: دراسات في التراث الجغرافي، المركز العربي، ١٩٨١م، ص ٤٣.

أول من درس عليه القاضي أبو الحسين القزويني[1]، كما أنه لازم دور الكتب في بغداد وقد استهوته الجغرافية علىٰ ما يبدو الأمر الذي جعله يراجع ما كتبه الذين سبقوه في هذا المجال. [2]

وذاق المقدسي في تجواله وتنقله مرارة الحياة وحلاوتها فقد أكل الهرائس والثرائر كما يذكر في كتابه وطُرد في الليالي من المساجد وقد ملك العبيد وأشرف مراراً علىٰ الغرق وخدم القضاة والسلاطين وقام بتجليد المصاحف ومشىٰ في السمائم والثلوج ورمي بالبدع، ذلك هو العالم الجليل المقدسي وقد صنف بعد ذلك كتابه فكيف تريد منه أن يصنف كتابه جزافاً وأن يرتبه مجازاً[3]. حاشاه أن ينبع الهوىٰ ومزالق الشيطان وهو الذي يقول: (لم أخرج عن قول الفقهاء والأئمة ولم أؤخر صلاة عن وقتها ألبتة) [4].

ومن خلال بعض العبارات التي صدرت من المقدسي يتبين بوضوح أن ما يتمتع به من حسن ديني وخلقي رفيع ونية صادقة دفعته إلىٰ تأليف كتابه. فمثلاً: يتوجه إلىٰ الله سائلاً إياه التوفيق في إتمام هذا العمل فيقول: (سألت الله عز وجل أن يجنبني الخطأ والزلل ويبلغني الرجاء والأمل). [5] ويقول في موضع آخر مبيناً هدفه منه فيذكر فيذكر أنه يريد أن يقيم علماً يحيىٰ به ذكره ويحقق به نفعاً للخلق يرضي به ربه[6].

ويبدو أن رحلاته لم تصل إلىٰ الأندلس وربما سجستان أيضاً وإن كان يعتقد الكثير من الباحثين أنه زار صقلية ويعترف هو بنفسه بأن معلوماته التي أوردها عن الأندلس إنما استلقاها من حاجين التقىٰ بهما في مكة عام ٣٧٧هـ. والمرجح أن المقدسي كان يعمد في رحلاته إلىٰ التنكر وتغيير اسمه والدخول في الطوائف المختلفة كي تسنح له الفرصة دراسة بيئاتها والوقوف علىٰ عاداتها وأحوالها. وهو في رحلاته ومشاهداته دقيق الملاحظة؛ باحث وناقد يتحرىٰ ما ينقل ويُعني بالأخبار الطريفة والعادات الغريبة. ويعد كتابه أفضل ما خط في الجغرافية العامة لأنه حول في كثير مما كتبه علىٰ اختياراته الشخصية ومشاهداته العيانية مثل لزوم المكتبات لتحقيق ما سمع[7]. فنلاحظ أنه تنكر لأنه أراد أن يذوب بين الجاليات والطوائف الإسلامية المختلفة حتىٰ يتعرف من قرب علىٰ أحوال بيئاتهم وطريقة حياتهم وعاداتهم.

---

(١) أبو الحسن القزويني هو أحمد بن عمر بن العباس، أبو الحسين القزويني،قدم بغداد في سنة ٣٤٥هـ وحدث عن محمد بن عبد الله بن عامر السمرقندي، انظر:عنه الحافظ أبي بكر أحمد بن الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٤٧/٥.

(٢) عدي يوسف مخلص: المقدسي البشاري،ص ٢٤.

(٣) صباح محمود محمد: دراسات في التراث الجغرافي، ص ٤٤.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن ١٩٠٦م، ص ٤٥.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم ١٤٠٨هـ، ص ١٩.

(٦) نفس المصدر السابق: ص ١٥.

(٧) عبد الرحمن حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص ٢٥٥.

حيث أن المقدسي انفق علىٰ أسفاره ما يزيد عن عشرة آلاف درهم وهو مبلغ ضخم بالنسبة لمستويات ذلك العصر ومن حصيلة رحلاته وقراءاته ألف كتابه المعروف، وأضاف إلىٰ هذا الكتاب خريطة.[١]

مشائخه :

من العلماء المشهورين والرحالة الجغرافيين الذين تلقىٰ المقدسي العلم منهم أو قرأ كتبهم:

- الجيهاني الذي كان وزير أمير خراسان[٢] وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة وأيضاً قال عنه المقدسي سأل الغرباء عن الممالك ودخلها وكيف المسالك إليها.[٣]
- كذلك أبو زيد البلخي قال عنه المقدسي[٤]: (قصد بكتابه الأمثلة. وصور الأرض بعدما قسمها علىٰ عشرين جزءاً ثم شرح كل مثل واختصر ولم يذكر الأسباب المفيدة ولا أوضح الأمور النافعة في التفصيل والترتيب وترك كثيراً من أمهات المدن فلم يذكرها وما دوَّخ البلدان ولا وطئ الأعمال ألا ترىٰ أن صاحب خراسان استدعاه إلىٰ حضرته ليستعين به فلما بلغ جيحون[٥] كتب إليه إن كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأي فإن رأيي يمنعني من عبور هذا النهر فلمّا قرأ كتابه أمره بالخروج إلىٰ بلخ).[٦]
- كذلك ابن الفقيه الهمداني حيث قال عنه المقدسي (أنه سلك طريقة أخرىٰ ولم

(١) علية عبد الله سلطان: العلوم عند العرب، مجلة المنهل، ص ١٦٨.
(٢) خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند وتشمل علىٰ أمهات من البلاد منها نيسابور، وهراة، ومرو، وقد فتحت أكثر من مرة عنوة وصلحاً. ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة القاهرة ١٣٢٥هـ، ٤١٠/٢.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، محمد مخزوم ١٤٠٨هـ، ص ١١-١٢.
(٤) نفس المصدر السابق: ص ١٢.
(٥) جيحون: اسم أعجمي، نهر سمي بذلك لاجتياحه الأرضين، أصل اسم جيحون بالفارسية هارون ويقال ويقال له: نهر بلخ وهو اسم وادي خراسان علىٰ وسط مدينة يقال لها: جيهان فنسبه الناس إليها. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٢٨/٢.
(٦) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان من أجَّل مدنها أول من بناها لهراسف الملك لما خرب صاحبه بخت نصر بيت المقدس (ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥٦٨/١)؛ المقدسي: المصدر السابق ص ١٢.

يذكر إلا الحدائق العظمىٰ ولم يرتب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم مرَّة يزهد في الدنيا وتارة يرغب فيها ودفعة يبكي وحيناً يضحك ويلهىٰ)[١].

- أما الجاحظ وابن خرداذبة فقال عنهما المقدسي (فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما كثيراً فائدة فهذا ما وقع إلينا من المصنفات في هذا الباب بعد البحث والطلب وتقليب الخزائن والكتب وقد اجتهدنا في أن لا نذكر شيئاً قد سطروه ولا نشرح أمراً قد أوردوه إلا عند الضرورة لئلا تبخس حقوقهم ولا تسرق من تصانيفهم مع أنه لا يعرف فصل كتابنا هذا إلا من نظر في كتبهم أو دوخ البلدان وكان من أهل العلم والفطنة) [٢].

ويلاحظ من حديث المقدسي عن هؤلاء الرحالة أنه تطرق إلىٰ كتبهم وقرأها وأظهر لنا بعض الآراء حول كتبهم التي كان فيها النقد الهادف إلىٰ توضيح بعض الأمور المنهجية لدىٰ هؤلاء الرحالة مثل الاختصار في كتبهم.

وإذا قرأنا كتاب المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم وجدنا أن هناك جانب تطبيقي فعلي لمصادر هذا الكتاب من قبل مؤلفه وعلىٰ سبيل المثال هناك مصادر ذكر عناوينها ولم يذكر أسماء مؤلفيها مثل: (قرأت في أخبار المدينة) [٣] و (قرأت في أخبار البصرة) [٤] و(قرأت في كتاب الطلسمات) [٥]، وهناك أيضاً مصادر مصادر لم تحدد عناوينها ولا أسماء مؤلفيها مثل (وجدت في بعض خزائن الخلفاء) [٦] و (قرأت في كتاب بخزانة عضد الدولة) [٧] و(قرأت في بعض الكتب) [٨].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص ١٣.
(٢) نفس المصدر السابق: ص ١٣.
(٣) نفس المصدر السابق: ص ٨٢ . وهذه الرواية عن نقل معاوية بن أبي سفيان محل منبر المسجد النبوي إلىٰ جانب المحراب كسائر المنابر.
(٤) نفس المصدر السابق: ص ١١٢، وهذه الرواية عن أثر الريح الشمالية والجنوبية في حياة السكان في في البصرة.
(٥) نفس المصدر السابق: ص ١٧٩، رواية في وضع طلسم لئلا يغلب ماء البحر علىٰ أرض مصر. والطلسمات جمع طلسم وهو في علم السحر خطوط وأعداد. انظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط: إعداد مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ط٣، مطابع الأوفست بشركة الإعلانات الشرقية ١٩٨٥م، ٥٨٢/٢.
(٦) رواية تتعلق بمقدار ما أنفقه المقصور علىٰ مدينة السلام وأجرة العمال. المقدسي: نفس المصدر السابق: ص ١٠٨.
(٧) رواية عن مقابر علة أرض السواد بالعراق (نفس المصدر السابق، ص ١١٨).
(٨) حول مقدار ما أنفق علىٰ جامع دمشق (نفس المصدر السابق، ص ١٤٠).

وهناك مصادر معلومة الاسم والمؤلف مثل (وجدت في كتاب ابن خرداذبة)[1] و(قرأت في كتاب ابن خرداذبة) [2] و (ذكر قدامة بن جعفر الكاتب) [3] وأما الدخل فقرأت في كتاب الخراج لقدامة بن جعفر[4] و (قرأت في كتاب ابن الفقه) [5] .

وهناك أيضاً مصادر شفهية ما صدر بلفظ (سمعت) السماع (منهج معروف يقصد أن يسمع ضمن جماعة من المتعلمين في حلقة من حلقات العلم ولكنه لم يصرح بالشيخ الذي تلقىٰ عنه هذا السماع). بينما نجده ينوع في مصادره فهو يخلط بالطوائف والجنسيات فيسألهم مثل قوله [6] : (سألت بعض المصريين ببخارىٰ عن الخراج) [7] وكذلك ما صدر بلفظه (سألت) وبعدها غير محدد ثم سؤال أكثر من مصدر محدد: وسألت جماعة منهم (أي: من الروم) [8] وما صدر بلفظه (سمعت) بعدها المصدر غير غير مذكور تحديداً (سمعت بعض العثمانية) [9] .

كذلك الجمع بين مصدر شفهي غير محدد وآخر مكتوب غير محدد أيضاً مثل (سمعت بعض العلماء وقرأت في بعض الكتب) [10] كذلك هناك روايات مجهولة الموارد، مصدره ببعض الألفاظ مثل (يزعمون) [11] و (قالوا) [12] و (قيل) [13] و (يقال) [14].

<u>إذن.. فلو رجعنا إلىٰ الذين سبقوا المقدسي في هذا المجال أمثال:</u>

- ابن خرداذبة لوجدنا أن مصادره متنوعة كتنوع مصادر المقدسي فكان منها ما سمعه ومنها ما اطلع عليه في الكتب ومنها مشاهداته وتجاربه الخاصة. ولكن نجد

---

(١) حول خراج اليمن وتقسيمها الإداري (نفس المصدر السابق: ص ٩٨).
(٢) حول خراج حمص والأردن وفلسطين (نفس المصدر السابق: ص ١٦٣).
(٣) حول خراج الحرمين، واليمن، واليمامة (نفس المصدر السابق: ص ٩٨).
(٤) حول دخل مصر (نفس المصدر السابق: ص ١٨٠).
(٥) حول دخل مصر قديماً أيام فرعون ثم الحجاج ثم ولد العباس (المصدر السابق: ص ١٨٠).
(٦) حول ورواية تدور علىٰ نفاس دارين ببيت المقدس. وهذا القاضي عالم بغدادي (المصدر السابق: ص ص ١٠٩-١١٠).
(٧) رواية عن خراج وحوار المقدسي وعن من روي عنه حول هذا الشأن (المصدر السابق: ص ١٨٠-١٨١).
(٨) حديث عن العبيد والصقالية بالأندلس (المصدر السابق: ص ٢٠٠).
(٩) حول مكانة قرطبة وصفتها (المصدر السابق: ص ١٩٢).
(١٠) رواية ترجع إلىٰ عهد موسىٰ عليه السلام (المصدر السابق: ١٥٩).
(١١) نفس المرجع السابق: ص ١٢٩ ، ١٤٧.
(١٢) نفس المصدر السابق: ص ٨٤.
(١٣) نفس المصدر السابق: ص ٤٣ ، ١٦٥ ، ١٧٨.
(١٤) نفس المصدر السابق: ص ٢٨ ، ٤٣ (ويقال عن الأندلس أنها جنات) نفس المصدر السابق: ٨٢، ٨٥، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠.

أن المقدسي يفوقه من ناحية التبويب الذي يفتقرها ابن خرداذبة. (١)

- قدامة بن جعفر وكتابه (الخراج وصنعة الكتابة) (٢) فقد استفاد المقدسي منه في معلومات عن واردات الدولة ولكن المقدسي انتقده في عدم ذكر الأمور الاجتماعية والعجائب والعصبيات كما أن المقدسي لم يغفل عن ذكرها. (٣)
- الأصطخري وكتابه (المسالك والممالك) فنلاحظ أن المقدسي سلك نفس الطريقة التي سلكها الأصطخري في ذكر التقسيمات الإدارية واهتمامه بذكر القبائل في الجزيرة العربية، ولكن نجد المقدسي يخالفه في بعض الأمور العامة أو المعلومات العامة عن الأقاليم التي لم تكن منسقة لدىٰ الأصطخري أي أنه لم يضع خطة عامة لكتابه. ويبدو لنا ذلك جلياً في ذكره للمسافات مثلاً، ففي الوقت الذي ينتهي المقدسي كلامه عن الأقاليم بذكر المسافات في نهاية كل إقليم نجد الأصطخري يحدثنا عن المسافات في بداية حديثه عن الجزيرة تارة وتارة ثانية يختم كلامه بذكر المسافات كما فعل بالنسبة لذكر إقليم مصر. وبالنسبة لإقليم فارس يذكر المسافات في منتصف الكلام. (٤)

ومن ناحية أخرىٰ لم يهتم الأصطخري بأمور الدين، ونجد في المقابل أن المقدسي كان يهتم لأمور الدين بالإيجاز والتفصيل لكل مذهب في أي إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية. ويعلل سبب انتشار المذاهب في المناطق التي يذكرها في كتابه. (٥)

- ابن حوقل فنجد تأثير المقدسي به واضحاً من ناحية عرضه للمادة التي احتواه كتابه لا يخلو بدوره من آثار الصنعة والتكلف والميل إلىٰ السجع فهذا واضح لدىٰ المقدسي إلا أن المقدسي أكثر منه استخداماً للسجع في المنهج والتبويب وأن طريقة المقدسي في التأليف تشبه طريقة ابن حوقل إذ أن المقدسي ابتدأ كتابه بذكر ديار العرب لأن الكعبة فيها ومكة أم القرىٰ وهي واسطة هذه الأقاليم. (٦)

الذين استفادوا منه :

فهذا (ياقوت الحموي) صاحب كتابي (معجم البلدان ومعجم الأدباء) الذي كان أميناً في نقله عن المقدسي وغيره كأمانة المقدسي فهو ينسب كل شيء آخذه عن

---

(١) عدي يوسف مخلص: المقدسي البشاري، ص ١١٨ – ١٢١.
(٢) ابن النديم: الفهرست، طبعة ١٤١٦هـ، ص ٢٠٩.
(٣) عدي مخلص: المرجع السابق، ص ١٢٦.
(٤) نفس المرجع السابق: ص ١٢٧.
(٥) نفس المرجع السابق: ص ١٢٩.
(٦) عدي مخلص: المقدسي البشاري، ص ١٣٣.

الآخرين إلىٰ صاحبه[1]. فوجدنا أن ياقوت الحموي أخذ من المقدسي معلومات عديدة تنحصر في ذكر المدن والبلدان وتعريفها. فقد استشهد ياقوت – بالبشاري كما كان يدعوه – خمسة وخمسون مرة وتدل هذه الاستشهادات علىٰ ثقة ياقوت بالمقدسي إلا أننا نجد ياقوت في بعض الحالات النادرة [2] يقلل من هذه الثقة ومن هذا قوله (وقال البشاري وخانقين أيضاً بلده بالكوفة والله أعلم) [3]. بينما نجد المقدسي لا يساوره الشك عند قوله: (خانقين مدينة بحلوان العراق والخانقين بالكوفة) [4]. وقد استعمل ياقوت النسخة الثانية من كتاب المقدسي التي بعد ثلاثة أعوام من تكملة النسخة الأولىٰ وذلك في عام ٣٧٨هـ. [5]

كذلك من نماذج استشهادات ياقوت الحموي بالمقدسي فيقول ياقوت (قال أبو عبد الله البشاري سلوان محلة من ربض مدينة بيت المقدس) [6].

مصنفات المقدسي:

لقد عمل المقدسي في عدة مهن في هذه الحياة وجال في معظم أرجاء العالم الإسلامي ولا يذكر المؤرخون أنه وضع غير كتاب (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم). وأول من نشره هو دي خويه في ٨ مارس سنة ١٩٠٦م وآخر طبعاته نشرتها مكتبة مدبولي المصرية دون تحقيق[7].

أما الغرض من وضع هذا الكتاب الذي يتجاوز خمسمائة صفحة فقد أعطانا المقدسي من جهد البحث عنه وتلمسه بين حنايا كتابه نذكره في أول صفحة قائلاً: (فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لئلا تدرس آثارهم ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم وأقفو سننهم وأقيم علماً أحيي به ذكري ونفعاً للخلق أرضي به ربي ووجدت العلماء قد سبقوا إلىٰ العلوم فحصنوا علىٰ الابتداء، ثم تبعتهم الأخلاق فشرحوا كلامهم واختصروه فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه وأنفرد بفن لم يذكره إلا

(١) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، ١٩٦٢م، ص ٦٣.
(٢) عدي مخلص: المرجع السابق: ص ١٤٢.
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢/ ٣٩٣.
(٤) عدي مخلص: المرجع السابق: ص ١٤٣.
(٥) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ١٩٦٣م، ٢٠٩/١.
(٦) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ص ٣٤٢/٢.
(٧) فؤاد قنديل: أدب الرحلة ، ص ٢٧١. ولكن وجدت نسخة نشرتها دار الكتب العلمية في بيروت عام ١٤٢٤هـ علق علىٰ هذا الكتاب ووضع حواشيه محمد أمين الضناوي وقامت مكتبة (عباس أحمد الباز) بتوزيعه،= =والناشر هي دار الكتب العلمية بيروت. وقبل هذه النسخة هناك نسخة أخرىٰ بتاريخ ١٤٠٨هـ كانت هذه محققة والذي قام بتحقيقها الدكتور محمد مخزوم وطبعة في دار إحياء التراث العربي ، بيروت، لبنان.

علىٰ الإخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار). [١]

وبهذه المقدمة التي ذكرها المقدسي في كتابه فلا شك أنه نموذجاً للكتاب العلمي المرتب المنتظم، هذا فضلاً عن أنه يحوي نقداً علمياً صريحاً أدبياً لشيوخه في هذا الموضوع ثم يعرض القواعد التي أسس الكتاب عليها ثم يذكر البحار والأنهار وبعد ذلك يقدم للقارئ الأسماء المتفقة اسماً والمختلفة صقعاً وينتقل إلىٰ الخصائص في الإقليم فيجملها، ويذكر المذاهب، ويشفق علىٰ الفقهاء ومن قراءة كتابه بكامله فيحضر لهم باباً خاصاً هو خلاصة الكتب، وبعد أن يعدد أقاليمه الأربعة عشر التي قسم إليها مملكة الإسلام يأخذ هذه الأقاليم فيفصل كورها وقصباتها ثم يعود فيجعل الأقاليم عامة اقتصادياً وإدارياً وما إلىٰ ذلك. [٢]

فهو آخر الممثلين الكبار للمدرسة الكلاسيكية وهو أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة حيث أنه أنهىٰ كتابه وهو في سن الأربعين من عمره، سنة ٣٧٥هـ حيث رفع مسودته الأولىٰ إلىٰ آل سامان والثانية إلىٰ الفاطميين بمصر. ويبدو من مقدمة كتابه أنه اطلع علىٰ ما ألف سابقوه ونظر إليه نظرة فاحصة ناقدة. [٣] حيث نراه دقيق الملاحظة شديد الحرص علىٰ التعرف علىٰ البلاد وسكانها، وكتابه فضلاً عن أنه فريد في الجغرافية فهو في رأينا من كتب الأدب الجميلة لما احتوىٰ من رصين الأسلوب ورقيق العبارة ودقيق التعبير. [٤]

كما أنه لم يسطر شيئاً مما دونوه، لئلا يبخس الناس حقوقهم ولم يسرق من تصانيفهم، وقال عن نفسه إنه لا يعرف فضل كتابه إلا من نظر في كتبهم أو دوخ البلدان، يقر أنه لم يذكر إلا مملكة الإسلام.. ولم يتكلف ممالك الكفار لأنه لم يدخلها ولم ير فائدة من ذكرها ولكنه ذكر مواضع المسلمين منها. [٥]

وسجل المقدسي في كتابه مدىٰ الجهود الكبيرة والصعاب الشديدة التي تجشمها في جولاته بالبلدان وزياراته أقاليم الإسلام (عرباً وعجماً) ومنها يتبين لنا أنه كان يلتقي بالعلماء ويخالط الملوك ويدخل في خدمتهم ويجالس القضاة ويدرس علىٰ الفقهاء[٦].

منهج المقدسي:

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، طبعة ١٤٢٤هـ، ص ٧.
(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، ص ٥٠.
(٣) محمد السيد غلاب: الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي، المجلد الثالث، ص ١٤٠.
(٤) نقولا زيادة: المرجع السابق، ص ٥١.
(٥) محمد السيد غلاب: المرجع السابق، ص ١٤١.
(٦) نفس المصدر السابق: ص ١٦-١٧.

كان المقدسي علىٰ مذهب أبي حنيفة وقد فضله علىٰ بقية المذاهب ومن خلال كثير من النصوص التي أوردها والتي امتدح بها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ودافع عنه نستدل أنه كان يميل إلىٰ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وتأييده ويقف ضد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، فنراه تارة يستشهد بأقوال الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأخرىٰ يدافع عنه في مناسبات مختلفة. [(١)]

ومن خلال قراءة كتاب المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم) يتضح أن هذا الرحالة الجغرافي لا يقدم منهجاً جغرافياً علمياً فقط، بل يكاد يرسي قواعد البحث في الوصف الدقيق لمختلف ألوان الثقافة الإنسانية في بيئة من البيئات أو ببساطة أكثر وصفاً لطبيعة كل بلد وطباع أهلها وطرق حياتهم حيث أدرك المقدسي بحسه الفطري والثقافي ورؤيته العلمية حاجة الناس والعلماء إلىٰ هذا النسق المعرفي[(٢)].

وعند التعرض إلىٰ منهج المقدسي يتضح من خلال النص التالي أهم المصادر التي أعانته بعد الله سبحانه وتعالىٰ في هذا المنهج حيث قال في مقدمة كتابه: (فانتظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام أحدهما ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره وما بقيت خزانة ملك إلا وقد لزمتها ولا تصانيف فرقة إلا وقد تصفحتها ولا مذاهب قوم إلا وقد عرفتها ولا أهل زهد إلا وقد خالطتهم ولا مذكري بلد إلا وقد شاهدتهم، حتىٰ استقام كي ما التقيته في هذا الباب).[(٣)]

إذن.. من خلال هذا النص يتبين أن مصادره أولاً الأسفار والمشاهدات الشخصية من خلال جولاته في البلدان الإسلامية وما شاهده من الأمور التي تخص الطرق والمسالك التي مرَّ بها. وثاني هذه المصادر فيما سمعته من المعلومات وهو أيضاً يتنقل بين المناطق التي زارها خلال رحلته والتقىٰ بالناس عن طريق الصدفة أو تعمد لقاءهم فأفاد من معارفهم[(٤)]. وهناك وقفة مع المصدر الثاني، حيث أن هناك معلومات تنقسم إلىٰ نوعين أخذ بها المقدسي، معلومات ركن إلىٰ صحتها واقتنع بها ولم يساوره أي شك في مضمونها، ومعلومات لم يطمئن إلىٰ صحتها فأسندها إلىٰ رواتها. [(٥)]

أما المصدر الثالث والذي هو خزائن الملوك والأمراء، فلا شك أن المقدسي بذل جهوداً حثيثة في سبيل الوصول إلىٰ الوثائق المكتوبة أو الحصول عليها، ولا ريب أنه أرهق مادياً ومعنوياً وجسدياً في تجواله في أقاليم مملكة الإسلام ليراها عياناً[(٦)].

---

(١) نفس المرجع السابق:ص ٢٨؛ عبد الرحمن حميده: أعلام الجغرافيين، ص ٢٥٥.
(٢) فؤاد قنديل: أدب الرحلة، ص ٢٧٢.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ١٤٠٨هـ تحقيق: محمد مخزوم، ص ٤٩.
(٤) عدي مخلص: المقدسي البشاري، ص ٤٨.
(٥) نفس المرجع السابق: ص ٤٨-٤٩.
(٦) إبراهيم خوري: نوابغ الجغرافية العربية في القرون الوسطىٰ: المقدسي البشاري، أحسن التقاسيم في في معرفة الأقاليم، دار الشروق، بيروت [د.ت]، ص ٢٦-٢٧.

ومن هنا يتضح أن المقدسي قد قسم كتابه إلىٰ الدول المختلفة علىٰ أسس مستقلة إلا أن جمع المادة الجغرافية ومعالجة الموضوع كان علىٰ طريقة الأصطخري وابن حوقل، وتحمل خرائط المقدسي شبها من خرائط الأصطخري[1].

وقد اقتصر المقدسي علىٰ ديار الإسلام وعلىٰ البلاد التي زارها وهي الأقاليم الأربعة عشر العربية منها ستة هي جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب، والباقية أقاليم العجم وهي المشرق والديلم والرحاب والجبال وخورستان وفارس وكرمان والسند ولم يتعرض إلىٰ الأندلس والهند لأنه لم يزرهما[2] ورسم للبلاد التي كتب عنها خرائط قال عنها[3]. وأفردنا أقاليم العجم عن أقاليم العرب..ورسمنا حدودها وخططها وحررنا طرقها المعرَّفة بالحمرة وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة وبحارها المالحة بالخضرة وأنهارها المعروفة بالزرقة وجبالها المشهورة بالغبرة ليقرب الوصف إلىٰ الأفهام.

فنجده لم يتكلف في ذكر ممالك الكفار وذلك طبيعي لأنه لم يدخلها ثم أنه لم ير فائدة من ذكرها. [4] فإنه بذلك يعتمد علىٰ طريقة المقارنة في وصف المواقع الجغرافية وهو الأسلوب العلمي البحت ممثلاً بقوله عن الفسطاط بأنها (آهل من نيسابور وأجل من البصرة وأكبر من دمشق). [5]

وبذلك نراه قد قسم كتابه إلىٰ قسمين تضمن القسم الأول منه مقدمة سلط من خلالها الضوء علىٰ سبب تأليف كتابه[6]، حيث أثنىٰ علىٰ الخالق المبدع سبحانه مبيناً قدرته في بعض ظواهر الكون ثم ذكر أهداف تأليف كتابه وموضوعه وفوائده وأهمية ما بذل في جمعه من جهد. [7] ثم عنوان : (مقدمات وفصول لابد منها) أورد عدة موضوعات منها الأسس المنهجية لكتابه وذكر البحار والأنهار والخصائص العامة للأقاليم الجغرافية والمواضع المختلفة فيها وغير ذلك. [8]

وهو عند الحديث عن كل إقليم في هذه الأقسام نجده يتناوله من ثلاثة محاور رئيسية ففي الأول يركز علىٰ الجغرافية الإقليمية. فيتحدث عن أقسام الأقاليم والمدن[9].

---

(١) س.م. ضياء الدين علوي: الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، ص ٨٩-٩٠.
(٢) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص ٥٣؛ علي عبد الله الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص ١٢٥.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ١-٢.
(٤) صباح محمود محمد: دراسات في التراث الجغرافي العربي، ص ٤٥
(٥) المقدسي: المصدر السابق: ص ١٩٧.
(٦) عبد العزيز راشد السندي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة سفير، الرياض ١٤٢٧هـ، ص ٢٦.
(٧) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه أحسن التقاسيم؛ مجلة المؤرخ العربي، العدد (١٧) المجلد الأول، مارس ١٩٩٩م، القاهرة، ص ٢١٢؛ انظر هذه البداية في كتاب المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم ١٤٠٨هـ، ص ١٥-١٧.
(٨) المقدسي: المصدر السابق، ص ١٩-٧٢.

والمدن[١].

بينما نجده في المحور الثاني يتناول الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية فيبحث عن المناخ والزراعة والتجارة والأوزان والنقود والتبعية السياسية للقطر وخراجه.

أما في المحور الثالث فهو يذكر فيه المسافات وطرق المواصلات[٢].

ومن خلال هذا التقسيم تتضح شخصية المقدسي من حيث المعلومات التي يُدونها مع درجة تفاعله مع هذه المعلومات التي يكتبها من حيث القدرة علىٰ التعليل والاستدلال والتعليق والنقاش العقلي المدعوم بالأدلة والبراهين. ولا شك في أن عناصر ثقافة الرجل الموسوعية تفاعلت معاً حتىٰ أفرزت لنا تلك الشخصية الحاضرة المتوقد فهماً وذكاءً[٣]، حتىٰ قال عنه كراتشكوفسكي: تمتع المقدسي بشخصية واضحة للعيان حتىٰ من خلال مقدماته ومداخله المطولة بعض الشيء إلا أنها لا تخلو من الأصالة عند المقارنة بسابقيه. [٤]

<u>أما العناصر السلبية في منهج المقدسي التطبيقي:</u>

أ) التكرار وضعف التنسيق والترابط، فبرغم من أحكام المقدسي وتنظيم مادته وإحسانه توزيعها علىٰ أماكنها المناسبة إلا أنه وقع – أحياناً – في خطأ التكرار الذي أفضىٰ إلىٰ الإحساس بضعف التنسيق والترابط والتسلسل في عرض مادته. ومن أمثلة ذلك! تكراره الحديث عن أهداف تأليف كتابه في أكثر من موضع[٥] رغم أن ذلك يكتفي بذكره في المقدمة فحسب.

ب) التطويل والاستطراد، علىٰ الرغم من توخي المقدسي الإيجاز في كتابه ونصه علىٰ ذلك في بعض المواطن وخوفه الإطالة كراهية الملال[٦] إلا أنه حتىٰ في بعض المواضع التي توقف فيها عن مواصلة السرد فعل ذلك بعد أن أطال إلىٰ حد ما فعلاً[٧] وبالإضافة إلىٰ ما تقدم فإن المقدسي أطال بعض الشيء في محتويات

---

(١) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: المرجع السابق، ص ٢١٣.

(٢) عدي يوسف مخلص: <u>المقدسي البشاري</u>، ص ٦٨؛ عبد العزيز راشد السنيدي: <u>مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري</u>، ص ٢٧.

(٣) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: <u>المقدسي مؤرخاً</u>، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

(٤) كراتشكوفسكي: <u>تاريخ الأدب الجغرافي</u>، ٢١١/١.

(٥) المقدسي: <u>أحسن التقاسيم</u>، ص ١٥-١٦، ١٩٩، تحقيق: محمد مخزوم ١٤٠٨هـ.

(٦) نفس المصدر السابق: ص ١٨٩؛ ذلك قوله : في (إقليم المغرب): (ولولا خوف الملال وطول الكتاب الكتاب لوضعت بقية مدائن إفريقية وأكثر مدائن الكور في جميع الإسلام وكلنا نميل إلىٰ الإيجاز ونذكر مالا بد منه).

(٧) ذلك في موضع (الأشياء التي يختلف فيها أهل الإقليم). المصدر السابق: ص ٣٩.

(مقدمات الكتاب) [١] رغم أهميتها إلا أنه كان بإمكانه تجميعها وتركيزها وعرضها علىٰ نحو مختصر منظم.

ج) وقد أثنىٰ علىٰ العلماء لاسيما الفقهاء منهم وأشاد بهم وأرجع الفضل لهم وذلك عند الإشارة إلىٰ سلبيات أهم البلدان التي زارها. [٢] وخير مثال علىٰ ذلك قوله: (وكل ما نذكر عن عيوب أهل البلدان فأهل العلم والأدب عنه بمعزل، خاصة الفقهاء لأني رأيت الفضل فيهم) [٣].

وواضح أن المقدسي هنا يلجأ إلىٰ تعميم الأحكام وهذا يبعده عن الموضوعية إذ أن لكل قاعدة شواذ فلا نستطيع تبرئة كل المنتسبين إلىٰ العلم والفقه من العيوب والمذمات. [٤]

وفاته:

أما بالنسبة لتاريخ الوفاة فليست ثمة إشارة ترشدنا إلىٰ تحديده علىٰ النحو الذي حدد به تاريخ مولده. وقد تباينت الآراء في تحديد تاريخ وفاته فمنهم من أشار إلىٰ أنه توفي بعد سنة ٣٧٨هـ[٥] ورجح آخرون إلىٰ أنه توفي ما بين سنة ٣٧٥ – ٣٨١هـ[٦] بينما رجح آخرون بأن وفاته كانت في تاريخ ٣٨٠هـ[٧].

وليس هناك دليل يؤدي إلىٰ الجزم بأي من التواريخ السابقة فإن أحداث كتابه إذا لم يتجاوز سنة ٣٨٠هـ[٨] أو وقفت أخباره عند ذكر الخليفة الطائع (٣٦٣هـ - ٣٨١هـ) دون تجاوزه إلىٰ ما وراءه من الخلفاء ليس بدليل أكيد علىٰ وفاته في عهد ذلك الخليفة[٩] خاصة أن كتابه جغرافي في المقام الأول ولا يسرد الأحداث التاريخية بشكل

---

(١) وهذه امتدت من (صفحة ١٥ إلىٰ صفحة ٧٢) وكان يمكن اختصارها من الداخل فتكون أوجز وأعمق؛ المصدر السابق: ص ٦٦-٧٢.

(٢) عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح: المقدسي مؤرخاً، ص ٢٣٠.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص ٤٣.

(٤) عبد الفتاح: المرجع السابق، ص ٢٣٠- ٢٣١.

(٥) خير الدين الزركلي: الأعلام، ط٩، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٠م، ٣١٢/٥.

(٦) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ٢١٠/١.

(٧) حسين مؤنس: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، ط٢ ، طبعت بعناية المنظمة العربية للتربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٦م، ص ١٠.

(٨) فلاح شاكر أسود: المقدسي، سلسلة نوابغ الفكر العربي، ط١ ، دار الشؤون الثقافية العامة بالعراق، بالعراق، بغداد، ١٩٨٨م، ص ٨.

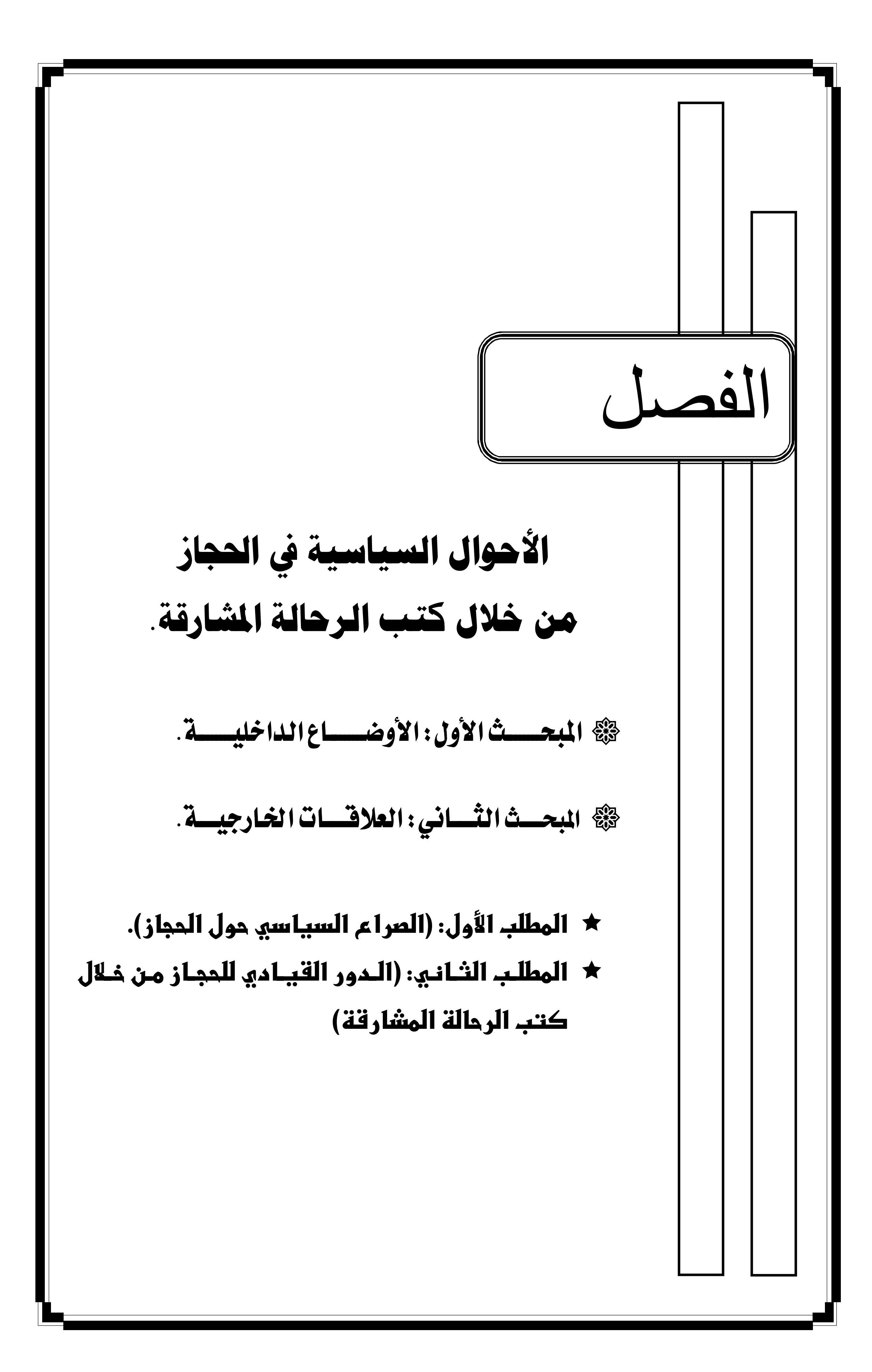
(٩) والشيء نفسه لكن أن يقال رداً علىٰ أن المقدسي توقف في ذكر حكام الديلم (البويهيين) عند ولاية (أبي الفوارس بن عضد الدولة) المتوفىٰ مستهل جمادىٰ الآخرة سنة ٣٧٩هـ. انظر: ابن الأثير، أبي الحسن علي بن أبي بكر الشيباني: الكامل في التاريخ، ط١ ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ، راجعه وصححه: محمد يوسف الدقاق، ٤٣٦/٧.

بشكل أساسي حتىٰ نعلل توقفه عند خليفة محددة بالوفاة.

وبالنسبة لمن جعل الوفاة سنة ٣٨٠هـ أو ٣٩٠هـ. فلم أجد مسوغاً لذلك التحديد. ولعل القول بالوفاة بعد سنة ٣٧٨هـ. أقرب الآراء رغم عدم تحديده،وربما اتكأ في ذلك علىٰ ما ورد من صدور إحدىٰ مخطوطتي الكتاب سنة ٣٧٥هـ والأخرىٰ سنة ٣٧٨هـ فتكون الوفاة بعدها[١] وعلىٰ كل فخروجاً من هذا الخلاف أقول: لعله توفي أواخر القرن القرن الرابع الهجري.

---

(١) كراتشكوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، ٢٠٩/١- ٢١٠.



الفصل

الأحوال السياسية في الحجاز
من خلال كتب الرحالة المشارقة.

- المبحث الأول: الأوضاع الداخلية.
- المبحث الثاني: العلاقات الخارجية.

- المطلب الأول: (الصراع السياسي حول الحجاز).
- المطلب الثاني: (الدور القيادي للحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة)

المبحث الأول

الأوضـــاع الداخليـــة

اتسمت هذه الفترة بعدم استقرار الوضع السياسي في مكة المكرمة بصفة خاصة والحجاز علىٰ العموم نظراً لتعدد الثورات التي تزعمها العلويون ضد الدولة العباسية، والذين كانوا يطالبون بالخلافة، وكانوا يعتبرون أنفسهم أصحاب حق مهضوم يجب استرداده من أبناء عمومتهم العباسيين، حيث أصبحت مكة والمدينة موطناً لثوراتهم ضد الخلافة العباسية التي أخذت علىٰ عاتقها محاربة تلك الثورات العلوية والقضاء عليها وعلىٰ زعمائها ومدبريها[١].

فقد ذكر هؤلاء الرحالة أمثال الأصطخري وابن حوقل وهم رحالة القرن الرابع الهجري ولكنهم عاشوا في أواخر القرن الثالث الهجري، وهم أقرب أثناء زيارتهم للحجاز من الأحداث التي حدثت علىٰ أرض الحجاز.

فقد حدّد الأصطخري[٢] وابن حوقل[٣] أماكن هؤلاء الثوار بقولهما: (وبقرب جبل رضوى[٤] وهو الجبل الذي زعم طائفة يعرفون بالكيسانية[٥] أن محمد بن الحنيفية بن علي بن أبي طالب مقيم به).

يلاحظ أن المقصود بالثوّار هنا في نصوص هؤلاء الرحالة إنما هم العلويون، والذين كانوا قد اتخذوا موقفاً من أبناء عمومتهم بني العباس عندما أعلنوا قيام الدعوة العباسية بحجة أنهم أحق منهم في هذا الأمر، مما جعلهم يقاومون[٦] بني العباس ويصرون علىٰ المطالبة بالخلافة، ونظراً لولاء أهل الحرمين الشريفين وحبهم لهم جعلوا بلاد الحجاز أساس انطلاق ثوراتهم ضد الخلافة العباسية والتي بدورها أثرت تأثيراً سلبياً بالغاً علىٰ جوانب الحياة العامة في بلاد الحجاز.[٧]

ففي سنة ١٩٩هـ كانت ثورة العلويين الثالثة بقيادة الأفطس فلم تكن الحجاز مصدراً لهذه الفتنة ولكن خروج بعض الثأريين علىٰ المأمون وهو السري بن منصور الشيباني والذي خرج في بغداد فأرسل جيشاً إلىٰ مكة فلم يصل بالناس أحد في يوم

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط٣، ١٤٠٠هـ، ٢/٥ – ٧٤ – ٧٥ – ١٧٤، ٣٢٠؛ بندر محمد رشيد الهمزاني: علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم، رسالة ماجستير، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، جامعة أم القرىٰ، ص٣٠.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك، دار القلم، تحقيق محمد جابر عبد العال، ١٣٨١هـ، ص ٢٥.

(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي القاهرة، ص ٤٠-٤١.

(٤) رضوىٰ بفتح أوله وسكون ثانيه جبل ضخم كثير الشعاب والأودية يقع في الجهة الشمالية الشرقية من ينبع وسكانه من بطون جهينة، وأنه كثير المياه والأشجار،انظر: البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق: مراصد الأضلاع علىٰ أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٣٧٣هـ، ٦٢٠/١.

(٥) الكيسانية فرقة من فرق الشيعة تزعم أن محمد بن الحنيفية غيب في مغارة في جبل رضوىٰ وأنه حي يرزق، انظر: حمد الجاسر: بلاد ينبع، لمحات جغرافية، دار اليمامة، الرياض، ص ١٧٨.

(٦) أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين: مقاتل الطالبيين؛ دار المعرفة، بيروت، تحقيق: أحمد صقر [د.ط.ت]، ص ١٧١-١٧٣.

(٧) عبد الرحمن أحمد حفظ الدين المصنف: الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة صنعاء، كلية الآداب، ١٤٢٤هـ، ص ٣-٤.

عرفة وبدون خطبة ولم تقام في ذلك اليوم، وكان ذلك الجيش بقيادة الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب المعروف بـ (الأفطس)، حيث أخلالها داود بن عيسىٰ وقال: لا أستحل القتال في مكة. [1]

حيث ذكر المسعودي "أن الأفطس ذهب إلىٰ مزدلفة فصلىٰ بالناس الصبح ثم مضىٰ إلىٰ منىٰ فمكة فأقام بها ثم مضىٰ إلىٰ جدة وسطا علىٰ أموال الأهالي"[2]. وظل أمره علىٰ مكة حتىٰ توفىٰ السري بن منصور الشيباني [3] وانصرف الناس عنه ونفروا ونفروا من قسوته فعمد إلىٰ رجل من أجلة العلويين هو (محمد بن جعفر الصادق) وسأله أن يبايع الناس باسمه فكره محمد ذلك فاستعان الأفطس بولده حتىٰ قبل البيعة وبذلك استقلت مكة[4].

لقب محمد بن جعفر الصادق بـ (الديباجة) لجمال وجهه وقد أكرهه العلويين علىٰ البيعة حتىٰ بايعهم في ربيع الأول سنة ٢٠٠هـ فبقي شهوراً ليس له من الأمر شيئاً إنما كان ذلك لابنه وللأفطس وهما علىٰ أقبح سيره في الناس ووصل الخبر للمأمون الذي أرسل جيشاً في جمادىٰ الآخرة سنة ٢٠٠هـ أجلاهم من مكة وفر محمد الديباجة إلىٰ منازل جهينة [5] شمال ينبع[6].

حيث ذكر المسعودي أن له بمكة ونواحيها قصص حمل فيها إلىٰ المأمون بخراسان والمأمون يومئذ بمرو فأمنه المأمون وحمله معه إلىٰ جرجان[7].

الشاهد من ذلك عندما تطرق الرحالة المشارقة إلىٰ منازل العلويين في الحجاز

---

(١) الفاسي، محمد بن أحمد الحسين المكي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق: لجنة من كبار العلماء والأدباء، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ط.ت]، ٢١٦/٢؛ العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٦٧/١. وداود بن عيسى كان أمير مكة في سنة ١٩٠هـ وحج بالناس فيها انظر الفاسي: المصدر السابق، ٣٥٧/٤هـ

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧/٤.

(٣) أحمد السباعي: تاريخ مكة دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران، ط٧ ، ١٤١٤هـ، نادي نادي مكة الثقافي، ١٤٢/١- ١٤٣.

(٤) نفس المرجع السابق: ص ١٤٣. الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد ابن علي: شفاء الغرام بأخبار البلد البلد الحرام، ط١، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ٢٨٦/٢.

(٥) جهينة: حي عظيم من قضاعة وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سواد بن اسم بن الحافي بن قضاعة قضاعة كانت منازلهم بين ينبع والمدينة المنورة إلىٰ وادي الصفراء جنوباً والعيص وديار بلي شمالاً علىٰ الضفة الشرقية للبحر الأحمر، وانتشروا إلىٰ الجبهة الغربية من البحر، ووصلوا إلىٰ صعيد مصر، والحبشة. انظر: القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشىٰ في صناعة الأنشا، القاهرة ١٩١٩م، ٣١٦/١.

(٦) المسعودي: مروج الذهب، ٢٦/٤ – ٢٧.الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك، والملوك، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، روائع التراث العربي، بيروت، [د.ط،ت]، ١٢٥/٧. ؛ أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ١٤٤.

(٧) المسعودي: مروج الذهب، ٢٧/٤.

وخاصة ينبع إلىٰ العلويين وللنظر ما قاله الأصطخري وابن حوقل في هذا النص [١] وزعم طائفة من الكيسانية أن محمد بن الحنيفية بن علي بن أبي طالب حي مقيم في جبل رضوىٰ.. ويحمل حجر المسن [٢] إلىٰ سائر الآفاق ويقربه فيما بينه وبين ديار جهينة وبلي وساحل البحر ديار للحسنيين.

والملاحظ في كتابات الرحالة المشارقة أن هناك دلالة واضحة أن هؤلاء الحسنيين من نسل ابن الديباجة الذي أرسل له المأمون جيشه إلىٰ مكة وأجلاهم إلىٰ ديار جهينة فمن المعلوم أن الرحالة المشارقة كانت ملاحظاتهم في كثير من الأحيان أو مشاهداتهم جغرافية في المقام الأول ثم يتطرقون إلىٰ بعض الأحداث التاريخية أمثال المسعودي وعلىٰ هذا النحو نرىٰ ابن حوقل والأصطخري كانا قريبين من الحدث عندما زارا الحجاز في ذلك القرن.

بعد ذلك استقرت الأوضاع الداخلية في بلاد الحجاز، غير أنه في سنة ٢٠١هـ وفي مكة بعد هزيمة ابن الديباجة عيسىٰ بن يزيد الجلودي [٣] قائد جيش المأمون ثم يزيد يزيد بن حنظلة المخزومي [٤]، قامت ثورة علوية سنة ٢٠٢هـ من اليمن وقام بها إبراهيم إبراهيم بن موسىٰ الكاظم [٥] وأخوه علي الرضا [٦] الذي ولاه المأمون ولاية العهد فاحتل فاحتل مكة وقتل عاملها لكن الفاسي نفىٰ ذلك بأن العتيقي الكاظمي لم يقم بهذه الثورة ويقول أنه حج بالناس سنة ٢٠٢هـ[٧].

في حين أن المسعودي أكد أنه حج بالناس سنة ٢٠٢هـ لكنه قام بالقتل، حيث ذكر المسعودي: «ثم كانت سنة اثنتين ومائتين حج بالناس إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام على أنه أقامه متغلباً عليه، لا مولى من قبل خليفة وكان ممن سعى في الأرض بالفساد وقتل أصحاب إبراهيم بن عبيد الجمحي وغيره في المسجد الحرام، ويزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي وغيره من أهل العبادة»[٨].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٤٠-٤١. الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٥.

(٢) هو حجر يقوم بسن السكاكين بدل الآلات الحرفية الآن وهو حجر مشهور في ينبع. انظر: عاتق بن غيث البلاوي: معجم معالم الحجاز، ط١، ١٤٠٠هـ، دار مكة، ٥٤/٤-٥٥.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ط٢، ١٤٢٣هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٣٨/٢. الفاسي: شفاء الغرام الغرام بأخبار البلد الحرام، ١٤٠٥هـ، ٢٨٨/٢.

(٤) نفس المصدر السابق: ٢٨٨/٢.

(٥) إبراهيم بن موسىٰ بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، المصدر السابق: ٢٨٩/٢.

(٦) هو علي بن موسىٰ الرضا، نفس المصدر السابق: ٢٨٩/٢.

(٧) الفاسي: المصدر السابق: ٢٨٩/٢.

(٨) المسعودي: مروج الذهب، ٤٠٤/٤.

وفي سنة ٢٣٠هـ تجددت الأحداث في بلاد الحجاز حيث أغار بنو سليم [١] علىٰ بعض مدن الحجاز وهي مدينة الجار وهي تعتبر الميناء الرئيسي لمدينة جدة والمدينة المنورة حيث عاثوا فيها فساداً ونهبوا الأسواق وقطعوا الطريق. فأرسل الواثق في سنة ٢٣٠هـ جيشاً بقيادة (بغا الكبير) فقتل منهم نحو خمسين رجلاً وأسر نحو ألف ممن عرفوا بالشر والفساد وحبسهم في المدينة[٢].

وذكر اليعقوبي أن علىٰ أرض الحجاز قامت ثورة علوية تعتبر الخامسة في تاريخ حركات العصيان العلوية ضد العباسيين، ففي سنة ٢٥١هـ ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب بمكة فهرب عاملها جعفر بن الفضل بن عيسىٰ[٣] فانتهب إسماعيل بن يوسف منزل جعفر ومنازل أصحاب السلطان وقتل الجند وجماعة من أهل مكة وأخذ ما كان في الكعبة من الذهب وما في خزانتها، وانتهت هذه الفتنة سنة ٢٥٢هـ، حيث ذكر الرحالة الجغرافي ابن رسته في كتابه عندما وصف باب الكعبة المذهب حيث قال: "هذا ما كان عليه الباب من الذهب حتىٰ فتنة العلوي في سنة ٢٥٢هـ والي مكة عيسىٰ بن محمد [٤]، ما كان علىٰ العيار من الذهب فأنفقه في حرب إسماعيل وهو مكشوف إلىٰ اليوم لم يُعد عليه الذهب هذا اليوم"[٥].

أيضاً هنا دلالة واضحة أن ابن رسته عندما ذكر في كتابه الأعلاق النفسية ما كان عليه باب الكعبة المشرفة من الذهب في زمان الخليفة العباسي المعتز[٦] كان قريب قريب من الحدث حيث قال في آخر النص الذي ذكره بقوله: "وهو مكشوف إلىٰ اليوم لم يُعد عليه الذهب إلىٰ هذا اليوم".

ومن خلال نص ابن رسته يتبين لنا مدىٰ دقة المعلومة الجغرافية التي يقدمها، إلىٰ جانب الإطار التاريخي لها، فهو يصف باب الكعبة وما كان عليه من الذهب الذي

---

(١) بنو سليم هم من قيس غيلان يسكنون بقرب المدينة في حرة بني سليم واشتهروا بالبأس والكثرة والعصيان، انظر: أحمد السباعي: تاريخ مكة، ط٧، ١/١٤٤-١٤٥.
(٢) المرجع السابق، ١/ ١٤٥.
(٣) ولي في زمن المستعين أبي العباس أحمد بن المعتصم العباسي وكان أبو الفضل معروف بـ (شاشان). (شاشان). اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٣٥١/٢. الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٢٩٤/٢.
(٤) ولي مكة في خلافة المعتز، محمد وقيل طلحة وقيل الزبير بن المتوكل العباسي: عيسىٰ بن محمد بن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الحميد بن عبد الله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزومي وهكذا نسبه عيسىٰ بن محمد المخزومي، انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٢٩٥/٢.
(٥) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، مطبعة بريل، ١٨٩١م، ص ٣٦-٣٧.
(٦) الخليفة العباسي: المعتز بن المتوكل كان جميل الشخص حسن الصورة ولم يكن بسيرته ورأيه وعقله وعقله بأس إلا أن الأتراك كانوا منذ قتل المتوكل قد استولوا علىٰ المملكة واستضعفوا الخلفاء فكان الخليفة في يدهم كالأسير إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاء قتلوه كانت فترة خلافته من سنة ٢٥٢هـ إلىٰ سنة ٢٥٥هـ، انظر: حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط٧ ، ١٩٦٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٩/٣.

طُلي به زمن الخليفة العباسي المعتز، ووصفه الدقيق لحاله بعد إنفاق ما كان عليه من الذهب في حرب إسماعيل.

وقد أوحىٰ ابن رسته من خلال النص السابق ما كان عليه الخلفاء العباسين من الضعف بسبب نفوذ الأتراك المباشر وقوة السلطة التنفيذية والتفويضية علىٰ الدولة العباسية وكذلك بُعد مركز الخلافة الإسلامية عن أماكن المقدسات، لأن ذكره أن باب الكعبة مكشوف إلىٰ هذا اليوم فعدم اهتمام العباسيين بمقدسات المسلمين أظهر موقف قوتهم أمام الصراعات الداخلية في الحجاز وعدم قدرتهم علىٰ السيطرة عليها.

وفي هذا إشارة إلىٰ انشغال العباسيين عن الاهتمام بأمور المسجد الحرام وانصرافهم إلىٰ الصراعات الداخلية، حيث نلاحظ أن إسماعيل بن يوسف صاحب هذه الثورة توجه إلىٰ المدينة المنورة بعدما مكث في مكة شهراً ونصف عاث فيها فساداً، فتوارىٰ عنها عاملها علي بن الحسين بن إسماعيل[(١)]، ومن ثم عاد إلىٰ مكة فحاصرها حتىٰ ذكر أن أهلها ماتوا جوعاً وعطشاً من شدة الحصار، ثم رحل إلىٰ جدة بعد أن حاصر مكة شهرين وحبس عن جدة وأهلها الطعام، وأخذ الأموال من التجار، ثم رجع إلىٰ مكة.

ووافىٰ الموقف يوم عرفة، وبه محمد بن المنصور الملقب (كعب البقر)[(٢)] وعيسىٰ بن محمد المخزومي صاحب جيش مكة، وكان الخليفة العباسي المعتز (ت. ٢٥٥هـ) قد وجههم إليها فقاتلهم إسماعيل فقتل نحواً من ألف ومائة من الحاج وسلب الناس فهربوا منه إلىٰ مكة حتىٰ ذكر أن الحجاج لم يقفوا بعرفة ليلاً ولا نهاراً باستثناء إسماعيل بن يوسف وأتباعه[(٣)].

وأخيراً رجع إسماعيل إلىٰ جدة فنهبها وأفنىٰ أموالها، وكان يتردد إلىٰ الحجاز من سنة ٢٢٢هـ ولُقّبَ بالسفاك، وكانت وفاته في آخر سنة ٢٥٢هـ بعد أن ابتلاه الله بمرض الجدري[(٤)].

ومن هنا يظهر قول ابن رسته في آخر النص (.. وكانت فتنة العلوي في سنة

---

(١) السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٨٦/١. ذكر الفاسي بقوله وأظنه والله أعلم علي بن الحسن بان إسماعيل بن العباس الذي حج بالناس سنة ٢٥٤هـ. انظر الفاسي: العقد الثمين، ١٥١/٦، ١٥٢.

(٢) تولىٰ في خلافة المعتز أو في خلافة المهتدي محمد الواثق العباسي أو في خلافة المعتمد العباسي [هكذا في شفاء الغرام للفاسي]، وهو أول من جعل القناديل في الصحن وهو محمد بن أحمد المنصوري وقد حج بالناس سنة ٢٥٧هـ. الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٢٩٦/٢.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢٥٧/٢؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٤٧/٩.

(٤) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ت. فؤاد سيد ، ١٤٠٦هـ، ٣١٣/٣؛ الطبري: تاريخ الأمم، الأمم، ٣٤٧/٩؛ السخاوي: التحفة اللطيفة، ١٨٦/١. والجدري مرض يصيب الجلد. انظر الفاسي: المصدر السابق ٣١٣/٣.

٢٥٢هـ)[١] ونتيجة لتلك الأوضاع السياسية المأساوية في الحجاز فقد أفرزت نتائجها إلىٰ التأثير السلبي علىٰ جميع جوانب الحياة في الحجاز السياسية والاقتصادية العلمية وألحقت الضرر الكبير في تلك الفترة بكل ما يخص أهل الحجاز[٢].

وفي سنة ٢٦٢هـ وقع قتال شديد بين فئتين من فئات المجتمع المكي داخل مكة نفسها،وهي فئة الجزارين وفئة الخياطين ووقع ذلك القتال قبل يوم التروية بيوم واحد فقط حتىٰ خاف الناس من أن يبطل الحج في تلك السنة ثم تحاجزوا إلىٰ أن ينتهي الناس من حجهم بعد أن حصر عدد القتلىٰ في تلك السنة أو الموقعة بأكثر من خمسة عشر رجلاً.[٣]

وفي سنة ٢٧١هـ ثار أحد العلويين في المدينة المنورة ويدعىٰ محمد بن الحسين بن جعفر بن موسىٰ الحسيني مع أخيه علي بن الحسين فقتلا الكثير من أهل المدينة وسلبا أموالهم ولم يكتفيا بذلك، بل وصل الأمر بهما إلىٰ أن يقوما بالتخريب والفساد، حتىٰ قيل إن الصلاة لم تقم في المسجد النبوي الشريف لا جمعة ولا جماعة لمدة شهر كامل[٤].

وأخيراً خرج الغزاة حاملين معهم ما نهبوه تتبعهم لعنات أهل المدينة ولم يذكر الرحالة عدد الضحايا الذين أزهقت أرواحهم، ولا حجم الخسائر التي مني بها أهل المدينة ولكننا نستنتج من حالة الذعر التي صوروها وإحجام أهل المدينة عن المقاومة وأن عدد الضحايا كان كبيراً وأن الخسائر كانت ضخمة.[٥]

والمدهش ألا يهب أحد من خارج المدينة لنصرتها مع أن الغزاة مكثوا فيها أربعة أسابيع وهي مدة كافية لانتشار الخبر ووصوله إلىٰ مكة وبغداد رغم خروج الغزاة من المدينة وعودة أميرها إليها فقد ظل أهلها خائفين من عودتهم أو ظهور غزاة آخرين.[٦]

كل هذا يوضح الأوضاع المأساوية التي عاشتها بلاد الحجاز حينذاك حيث كان

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفسية ، ١٨٩١م، ص ٣٦-٣٧.

(٢) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص٧ ، ١٤١٤هـ، ؛ ١/ ١٧٨.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم ١٤٠٨هـ، إحياء التراث العربي، بيروت، ص٩٦؛ الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٥٢٦/٩- ٥٢٧؛ الفاسي: شفاء الغرام ٢١٨/٢؛ السنجاري: علي بن تاج الدين بن تقي الدين: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، ١٤١٩هـ تحقيق:جميل عبد الله المصري، جامعة أم القرىٰ، ١٧٢/٢.

(٤) السنجاري: التحفة اللطيفة ٤٧١/٢.؛ أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، دار الفكر العربي، ١٩٦٥م. ص ٧٠٦- ٧٠٧؛ عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١ ، ١٤١٤هـ، مكتبة الشريف أحمد الحسيني؛ ١٢٢/٢- ١٢٣.

(٥) عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ١٢٤/٢.

(٦) نفس المرجع السابق: ١٢٤/٢.

لها تأثير سلبي علىٰ جميع نواحي الحياة، ولعل بلاد الحجاز سادها الهدوء والاستقرار النسبي بعد ذلك، ولمدة زمنية تصل إلىٰ ما يقرب من ربع قرن فقط، فلم تأت سنة ٢٩٥هـ إلا وحدثت واقعة قتل فيها الكثير، حيث كانت بين والىٰ مكة آنذاك (عج بن حاج) [١] وبين الأجناد الذين كانوا يطالبون بجازة بيعة المقتدر العباسي، وكان ذلك بمنىٰ في ثاني عشر من ذي الحجة. [٢] فهرب الناس من شدة القتال إلىٰ بستان ابن عامر [٣] إضافة إلىٰ ذلك فقد لاقىٰ الحجيج خصوصاً بعد انتهائهم من أداء فريضة الحج في تلك السنة وأثناء عودتهم من مكة إلىٰ بلدانهم العنت من قلة الماء فأصابهم العطش الشديد مما تسبب في موت العديد منهم [٤].

ونتيجة الاضطرابات السياسية التي حصلت في البيت العباسي أدت إلىٰ ظهور العلويين علىٰ الساحة السياسية في مكة المكرمة، حيث استطاع أحد أمراء الأسرة العلوية من طبقة الأشراف أن يستقل بمكة عام ٣٠١هـ وهو محمد بن سليمان بن داود الملقب بالزيدي، نسبة إلىٰ مذهبه الذي كان يعتنقه، وهكذا استطاع الأشراف من العلويين أن يتسلموا زمام الحكم في مكة المكرمة. وأعلن داود بن الحسن المثني بن الحسن خلع طاعة العباسيين. وفي موسم الحج من سنة ٣٠١هـ خطب أمير مكة داود بن حسن في المسلمين فقال: (الحمد لله الذي أعاد الحق إلىٰ نظامه وأبرز زهر الإيمان من أكمامه، وكمل دعوة خير الرسل بأسباطه لا ببني أعمامه صلىٰ الله عليه وسلم وعلىٰ آله الطاهرين. وكف عنا ببركته أسباب المعتدين وجعلها كلمة باقية في عقبه إلىٰ يوم الدين..)[٥].

فنلاحظ أن العلاقة بين أشراف مكة والمدينة اتسمت بالصراع تارة وبالوئام والتعاون تارة أخرىٰ ولكن فترات الصراع كانت أطول وأعمق وهذا الشيء يدعو إلىٰ الغرابة خاصة أنهما فرعان من دوحة واحدة فهما من أحفاد علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفاطمة الزهراء رضي الله عنها، حيث كان من المفترض من الناحية العقلية والذكاء السياسي أن يسود بينهما الود والتفاهم واتحاد الكلمة. [٦]

وفي اليوم الثاني والعشرين من ذي الحجة من عام ٣٠٢هـ خرج أعراب علىٰ

---

(١) هو عج بن حاج مولىٰ الخليفة العباسي المعتضد ولي إمرة مكة من ٢٨١هـ إلىٰ ٢٩٥هـ ويحتمل أن يكون ولي قبل هذا التاريخ وبعد. ؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٣٠٣/٢؛ العقد الثمين، تحقيق: فؤاد سيد، ١٤٠٦هـ، ٥٨/٦.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٠٣/٢.

(٣) بستان ابن عامر يتصل بثنية كريز ويسمى ذو النخيل وهذا البستان كان يقوم حول نمرة، عاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، دار مكة، ١٤٠٢هـ، ٨/ ٧٩.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٠٣/٢.

(٥) انظر: ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر، ط٢، دار الفكر، ١٩٨٨م، ١٢٨/٤؛ بندر الهمزاني: علاقات علاقات مكة الخارجية، ص٣٠.

(٦) إلهام سراج عمر أكبر: بلاد ينبع، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٩هـ، ص ١٥٠.

المنصرفين من مكة فقطعوا عليهم الطريق وأخذوا ما معهم من النساء الحرائر مائتين وثمانين، ناهيك عما أخذوه من الإماء والمماليك. [١]

ونتيجة للأوضاع السياسية غير المستقرة في بلاد الحجاز كثرت غارات الغزاه من الأعراب[٢] علىٰ الحجاج وغيرهم للتربص بهم ومهاجمتهم وإحداث القتل فيهم بين الآونة والأخرىٰ، مما جعل بعض الأقطار الإسلامية تنقطع عن الحج لبعض المواسم خوفاً منهم علىٰ أنفسهم مما قد يلاقونه أثناء ذلك. [٣]

وبعد ذلك ترىٰ أن المنافسة علىٰ حكم الحجاز والسيطرة علىٰ المدينتين المقدستين حتىٰ أي حكم من آل الحسن (الذين كانوا يحكمون مكة) أو آل الحسين(الذين كانوا يحكمون المدينة) ، والطمع في الاستحواذ علىٰ الأموال والهبات والمنح التي ترسل إلىٰ الحرمين الشريفين من جميع بقاع الأرض وخاصة ما يفد إلىٰ الحجاز سنوياً من مصر والعراق.

فلقد كان الحجاز حلبة صراع بين القوىٰ الفاطمية والعباسية طمعاً في الحصول علىٰ المكاسب السياسية والدينية والمكانة السياسية أمام العالم الإسلامي. أي أن من يذكر اسمه على منابر الحرمين يعتبر هو الخليفة الشرعي في نظر العالم الإسلامي. [٤]

(٤)

وأن عدم استقرار الحجاز داخلياً أدىٰ إلىٰ ظهور نظرية جديدة أدركها الفاطميون، وهي أن الاستيلاء علىٰ الحرمين الشريفين في مكة والمدينة يكسب خلافتهم شرعية أمام العالم الإسلامي، لاسيما وأن الأمة غير معتادة لقيام أكثر من خلافة واحدة في المنطقة، ومن هنا بدأ الصراع بين العباسيين والفاطميين حول الحجاز.

وإن طبيعة الثورات التي اندلعت في الحجاز في العصر العباسي الأول كانت متجهة نحو تأسيس سلطة للعلويين فيه. وقد واتتهم هذه الفرصة نسبياً في فترة ضعف العباسيين في القرن الثالث والرابع للهجرة، وذلك بعد أن قاموا بثورتين اثنتين لم تنجحا في تحقيق الهدف المبتغىٰ، الأول ثورة إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في سنة ٢٥١هـ والذي نهب خزائن الكعبة المشرفة[٥] بعدها استولىٰ علىٰ مكة وعلىٰ جدة والمدينة المنورة وكان ظالماً[٦] ولم

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ١٠/١٥٠-١٥١.
(٢) مثل ما فعلته بنو هلال وغيرهم من الأعراب في سنة ٣٦٣هـ من القتل والنهب، الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٣٥٢/٢.
(٣) المصنف: الحياة العلمية، ص ١٣.
(٤) إلهام سراج: بلاد ينبع، ص ١٥١.
(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للنشر والطباعة، بيروت، لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ٤٩٨/٢. ٤٩٨/٢.
(٦) الحربي: أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبد الله: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ١٣٨٩هـ، ص ٤٦١؛ سعيد عبد الله بن

يمهله القدر فلقي حتفه سنة ٢٥٢هـ وخلفه أخوه محمد الأخيضر ولكنه لم يطل مقامه في مكة لسوء سيرة أخيه وعدم رضا أهل الحجاز عنه وانتقل إلىٰ اليمامة وفيها أسس دولة بني الأخيضر[(١)].

لم يكن مرد فشلهما لقوة الدولة العباسية بل كانت الخلافة مع معاناتها من النفوذ التركي وثورة الزنج حاول أحمد بن طولون[(٢)] الذي كان يحكم مصر مستقلاً بها فعلاً ومعترفاً بالعباسيين اسماً أن يملأ الفراغ السياسي في الحجاز، فدخلت قواته مكة غير أن محاولته جاءت في وقت الانتعاش النسبي للخلافة العباسية مع الموفق فهزم هارون بن محمد بن إسحاق الهاشمي والي العباسين علىٰ الحجاز والطولونيين وأجلاهم عن مكة وذلك بمدد من بغداد بقيادة جعفر بن الباغمردي في سنة ٢٦٩هـ.[(٣)]

وقد حاول العلويون محاولتهم الثانية سنة ٣٠١هـ في خلافة المقتدر ما ستغل محمد بن سليمان بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب أحوال العباسيين وأعلن ثورته وخلع طاعتهم وخطب لنفسه بالإمامة مؤسساً إمارة فيها وغير أن القضاء عليه لم يتم علي أيدي العباسيين وإنما علي أيدي الخارجين علىٰ العباسيين ممن اتخذوا حركة الغلو دثاراً وهم القرامطة الذين دخلوا مكة سنة ٣١٧هـ[(٤)].

وعلىٰ الرغم من ذلك فإنه لم تغب سيادة العباسيين عن مكة إلا مدة قصيرة حيث عاد لها نفوذهم عندما انصرف عنها القرامطة عائدين إلىٰ البحرين، فأعيدت الخطبة للراضي العباسي سنة ٣٢٧هـ.[(٥)] وأسند الخليفة ولاية الحجاز لوالي مصر آنذاك محمد

بنيه القحطاني: تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، دارة الملك عبد العزيز، ١٤٢٤هـ سلسلة الرسائل الجامعية (١٢)، ص ٣٥-٣٦.

(١) محمد الأخيضر بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن موسىٰ الجون بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، مؤسس الدولة الأخيضرية في اليمامة، حيث هرب من الحجاز إليها بعد وفاة أخيه إسماعيل بن يوسف سنة ٢٥٣هـ الذي أساء السيرة في بلاد الحجاز وأكثر فيها الفساد وقتل كثيراً من أهلها ونهب أموالهم وأخاف الحجاج، فهرب محمد الأخيضر عندما وجد أنه لم يجد أنصاراً له لمواجهة جيش الخليفة المعتز بالله فهرب إلىٰ اليمامة، انظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٣٤٦/٩-٣٥٧؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق: الأكوع، دار اليمامة، ١٩٧٤م، ص٢٨٢.

(٢) حكم أحمد بن طولون مصر نائباً عن واليها التركي ثم لم يلبث أن انفرد بتدبير شؤونها وأقام بها دولة مستقلة هي الدولة الطولونية ظلت ثمانية وثلاثين عاماً (٢٥٤ – ٢٩٢هـ). انظر: محمد جمال الدين سرور: الدولة الفاطمية في مصر، القاهرة، دار الفكر العربي، ١٩٧٩م، ص ٤.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، تحقيق لجنة من كبار العلماء، مكة، مكتبة النهضة، ١٩٥٦م، ٢/ ١٨٨- ١٨٩. لم أجد له ترجمة في الكتب المتوفرة لدي.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت ١٣٩٩هـ، ٥٣/٧-٨٥؛ أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١- ٤٨٧هـ) جامعة الرياض، الرياض، عمادة شؤون المكتبات ١٩٨١م، ص ٢٢.

(٥) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، ١٩٧٩م. ٨٥٤/٢- ٨٥٥.

الأخشيدي. (١)

ولعل هذا يدل دلالة واضحة علىٰ أن العباسيين لم يعد بإمكانهم السيطرة المباشرة علىٰ الحجاز، خاصة الحرمين الشريفين علىٰ أهميتها فقبلوا ذكر اسم الإخشيدي معهم في الخطبة علىٰ منابر مكة والمدينة(٢). ولما سيطر البويهيون علىٰ الخلافة في بغداد سنة ٣٣٤هـ امتد سلطانهم إلىٰ مكة وشاركوا لخليفة في الخطبة علىٰ منابر الحرمين بدلاً من الأخشيديين، ومن هنا أصبح الحجاز مجال صراع بين الطرفين، البويهي والأخشيدي ابتداء من سنة ٣٤٢هـ فنشب الحرب بين أنصارهما في موسم الحج وانتهت بهزيمة الأخشيديين. (٣)

ولما ورث الفاطميون الإخشيديين في مصر والشام امتد نفوذهم إلىٰ الحجاز فأقيمت الخطبة لهم على منابر الحرمين دون العباسيين(٤) ومن ثم غدا الصراع في الحجاز بين الخلافتين المتنازعتين علىٰ زعامة العالم الإسلامي طمعاً في قيادة المسلمين.

وكان العلويين المحليون يراقبون النزاع القائم بين العباسيين والفاطميين علىٰ بلاد الحجاز فدخلوا طرفاً ثالثاً مستغلين الأحوال الجديدة لتحقيق ما عجزت عنه ثوراتهم من قبل(٥). فبادر جعفر بن محمد بن الحسن بن موسىٰ بن عبد الله بن موسىٰ الجون واستولىٰ علىٰ مكة ودعا للخليفة الفاطمي المعز لدين الله (٣٤١هـ- ٣٦٥هـ) في الحرمين الشريفين(٦)، وكتب بذلك إلىٰ جوهر الصقلي بعد فتح مصر سنة ٣٥٨هـ وذلك وذلك ما أكسبه رضا الفاطميين فمالوا إليه وأرسلوا له الأموال الكثيرة ليثبتوا سلطانهم بواسطته ، ولعل السبب الذي جعل جعفر بن محمد يبادر في إرسال الولاء للفاطميين خوفه من الخلافة العباسية التي أخذت علىٰ عاتقها محاربة أي ثورة علوية، فأراد أن يضع بجانبه قوة يمكن الاعتماد عليها في حالة تعرضه لأي هجوم، كذلك أدرك أن العباسيين لا يمكن أن يعترفوا به(٧).

وعلىٰ هذا يمكن فهم ما قاله المقريزي (من أنه في سنة ٣٥٩هـ عمل المعز لدين الله علىٰ تثبيت سلطته في مكة والمدينة فأرسل عسكراً وأحمالاً عدتها عشرون حملاً

---

(١) تولي الإخشيديون بقيادة أبي بكر محمد بن طنج الإخشيدي ولاية مصر في المدة من ٣٢٣- ٣٥٨هـ ؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٨٥/٨- ٣٢٣- ٣٤٣- ٣٦٣ .

(٢) ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ. ٥٣/٢-٥٤.

(٣) أبو الفداء، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن علي بن محمود: المختصر في أخبار البشر، المطبعة الحسينية المصرية، [د.ت]، ١٠٧/٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التراث، ٣٠٩/٨.

(٥) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٥٦م، ص ١٤-١٥.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٠٩/٧؛ المقريزي. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٧٨هـ، ص ١٤٥- ١٤٦.

(٧) بندر الهمزاني: علاقات مكة الخارجية، ص٣٨.

للحرمين وعدة أحمال متاع) [١] وظل هذا الوضع إلىٰ وفاة المعز في سنة ٣٦٥هـ ولم تقطع الخطبة إلا في عهد العزيز بالله.

وعندما حاول العباسيون السيطرة علىٰ مكة مدة قصيرة جداً واستعادها الفاطميون منهم واستمر الموسويين موالين للفاطميين حتىٰ إنها حاولت أن تقيم أسرة حاكمة مستقلة عنهم وعن العباسيين في مطلع القرن الرابع الهجري. [٢]

ولما تولي أبو الفتوح الحسن بن جعفر أمر مكة سنة ٣٨٤هـ بعد وفاة أخيه عيسىٰ بن جعفر وبتأييد من الخليفة الفاطمي العزيز بالله ظل أبو الفتوح مخلصاً لهم في بداية أمره وحاول الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١- ٤٢٢هـ) استمالته فوعده بالأموال والهدايا وإبقاء الحكم في أسرته من بعده ولكن لم يستجب له. [٣] وظل موالياً للفاطميين مستمداً منهم العون في توطيد دعائم إمارته في الحجاز [٤] وقد قوي أمر أبي الفتوح وتوسع نفوذه حتىٰ أصبح أميراً للحجاز بصفة عامة مع ارتباط وثيق بالخليفة الفاطمي حتىٰ إنه قدم علىٰ الحاكم بأمر الله في مصر سنة ٣٩٧هـ مهنئاً إياه بانتصاره علىٰ أبي ركوة [٥] والقضاء علىٰ ثورته واحتفل به الحاكم بأمر الله وخلع عليه. [٦]

ومن هنا يتضح أن الحجاز ظل خاضعاً للعباسيين في القرن الثالث الهجري وللفاطميين في القرن الرابع الهجري وفي الحالين لم يكن الخضوع مستقراً بل شابته من الفتن والثورات المتمردة الشيء والكثير وهو ما أثر في استتباب أمنه وأدىٰ إلىٰ اضطراب أحواله.

---

(١) المقريزي، اتعاظ الحنفا، ص ٤٢-٤٣، الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٤٢-٤٣.

(٢) سعيد القحطاني: تجارة الجزيرة العربية، ص ٣٨-٣٩.

(٣) ابن فهد، نجم الدين عمر بن محمد بن أبي الخير محمد: إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ، تحقيق: فهيم فهيم محمد شلتوت، مكة المكرمة. كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، ١٤٠٣- ١٤٠٤هـ، ٤٢١/٢.

(٤) ابن فهد: المصدر السابق، ٤٢٤/٢؛ أبو المحاسن،تغري بن بردي، جمال الدين يوسف البشغاوي الظاهري: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة ١٩٥٦م، ٢١٤/٤.

(٥) أبو ركوة: هو الوليد بن هشام بن عبد الملك بن عبد الرحمن الأموي، كني بأبي ركوة لركوةٍ كان يحملها في أسفاره، خرج علىٰ الحاكم والتفت حوله قبائل بني قرة ولواته ومزانه وزناته، أرسل إليه الحاكم جيشاً في سنة ٣٩٥هـ بقيادة ينال التركي، فأنزل به هزيمة وقوىٰ أمره حتىٰ عزم الحاكم علىٰ الخروج إلىٰ الشام وبرز بالعسكر والأموال إلىٰ بلبيس فأشير عليه بالعودة إلىٰ مصر فعاد، ثم مالت أنوقع أبو ركوة في أسر الجيوش الفاطمية حيث جيء به إلىٰ القاهرة وأعدم سنة ٣٩٧هـ، انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٩٧/٩.

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٦٦/٢ ؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ٥٧-٦٠.

المبحث الثـــاني

العلاقات الخارجية

- المطلب الأول: (الصراع السياسي حول الحجاز).
- المطلب الثـاني: (الـدور القيـادي للحجـاز مـن خـلال كتـب الرحالـة المشارقة).

المطلب الأول

الصراع السياسي حول الحجاز

صارت بلاد الحجاز مسرحاً لقيام الثورات والفتن التي تنشب بين الحين والآخر بين مختلف فئات المجتمع الحجازي، ناهيك عن تلك الإغارات لبعض الأعراب علىٰ قوافل الحجاج وغيرهم للسلب والنهب والقتل أيضاً، نتيجة لعدم وجود دولة قوية في الحجاز تمنع حدوث مثل ذلك، حيث لم تحظ بلاد الحجاز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين بالاستقرار والهدوء ما عدا بعض الأوقات القصيرة التي تخللها بعض الاستقرار ونتيجة لعدم الاستقرار أصيب سكان الحجاز بالإحباط حيث قاموا بالهجرة من الحجاز إلىٰ الأقطار الإسلامية الأخرىٰ بحثاً عن الأمن والاستقرار لممارسة حياتهم المعيشية ريثما تهدأ أو تستقر الأوضاع في بلادهم.

فكان الصراع السياسي حول الحجاز يتمثل في عدة دول استقلت عن الخلافة العباسية وهي علىٰ النحو التالي:

١- الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢ هـ).
٢- الدولة الأخشيدية (٣٢٣ – ٣٥٨ هـ).
٣- الدولة الفاطمية (٢٩٧ – ٥٦٧ هـ).

فكانت هذه الدول تتنافس في ضم الحجاز تحت سلطانها لوجود الأماكن المقدسة إضافة إلىٰ حكم الدولة العباسية للحجاز وفي ظل بعد هذا الإقليم عن مركز الخلافة وهناك عنصر آخر اقتحم الحجاز وخاصة مكة المكرمة في بداية القرن الرابع الهجري، وهم القرامطة الذي استباحوا أرض الحرم في سنة ٣١٧هـ. حيث أبطلوا الحج في تلك السنة.

ففي شهر ذي القعدة من العام ٢٦٩هـ أرسل ابن طولون المؤسس لدولته المستقلة بمصر (٢٥٤هـ) جيشين إلىٰ مكة يتكون من ألفي رجل وأكثر من أربعمائة وستين فارساً. بغية الاستيلاء علىٰ مكة [(١)] مزودين بالعدة والعتاد إضافة إلىٰ تمويلهم بالأموال النقدية الكثيرة لتوزيعها علىٰ بعض فئات المجتمع المكي مثل زعماء القبائل وغيرهم كي يكسبوا ودَّهم ويساعدوهم في تحقيق هدفهم المنشود وهو الاستيلاء والسيطرة علىٰ بلاد الحجاز لما فيها من أماكن مقدسة تجعل من يحكمها والياً شرعياً في حكمه من قبل المسلمين عامة وكان عامل مكة آنذاك هارون بن محمد[(٢)] علىٰ رأس مائة وخمسون فارساً وأكثر من أربعمائة رجل فوحد صفوفهما فقوىٰ بهم جعفر [(٣)]

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، مطبع روائع التراث العربي [د.ت، ط] ٦٥٢/٩.
(٢) الفاسي: شفاء الغرام، طبعة ١٤٠٥هـ، ٢٩٨/٢. هارون بن محمد بن إسحاق بن موسى بن عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس الهاشمي أمير مكة تولي مكة المكرمة والمدينة وحج بالناس سنة ٢٦٣هـ توفي سنة ٢٨٨هـ. انظر الفاسي: العقد الثمين، ٣٥٧/٧.
(٣) الطبري: نفس المصدر السابق: ٦٥٢/٩- ٦٥٣؛ الفاسي: المصدر السابق، ٢٩٨/٢.

وتواجها مع أصحاب ابن طولون وأعان جعفر حاج أهل خراسان حتىٰ استطاعوا إلحاق الهزيمة النكراء بأصحاب ابن طولون ببطن مكة فقتل من أصحاب ابن طولون نحو مائتي رجل،وفر الباقون إلىٰ الجبال، ورفع جعفر السيف وأمن المصريين والفئات التي تآمرت مع ابن طولون من سكان مكة وبعد ذلك قرىٰ كتاب في المسجد الحرام يلعن ابن طولون، وسلم الناس وأموال التجار. (١)

وبهذا لم يثبت لابن طولون حكم في مكة وهو صحيح بالنسبة لما وهمه بعض المؤرخين من أن مكة حكمت للدولة الطولونية(٢).

أما الحدث المهم هنا والذي تطرق إليه المسعودي في كتابه (٣) إلا وهو ما حدث في سنة ٣١٧هـ. حيث ذكر المسعودي قائلاً: (أن الحج بطل فلم يحج في سنة ٣١٧هـ لدخول أبي طاهر سليمان بن حسن بن بهرام الجنابي القرمطي صاحب البحرين مكة وكان دخوله إياها يوم الاثنين لسبع خلون من ذي الحجة ولم يبطل الحج منذ كان الإسلام غير تلك السنة وغير ذلك من الأحوال التي كانت في أيامه).

ونرىٰ أن الباحثين اختلفوا حول الصفة المذهبية للحركة القرمطية، ففي حين حاول البعض الفصل بين القرامطة والإسماعيلية، نجد أن الغالبية ربطت بين القرامطة والإسماعيلية وصورت الإسماعيلية في صورة القرامطة والقرامطة في صورة الإسماعيلية. (٤)

فمن الناحية الجغرافية للبحرين في فترة ظهور القرامطة، وضع الجغرافيون القدماء حدوداً للبحرين علىٰ الإقليم الممتد علىٰ ساحل الخليج العربي بين البصرة وعمان(٥) ووضعوا له حدوداً فأطلقوا علىٰ المنطقة الممتدة من أسياف كاظمة حتىٰ شمال عمان اسم البحرين. وبعضهم ذهب أبعد من ذلك فوضعوا حدوداً جغرافية للبحرين أوسع واعتبرها امتداداً طبيعياً لنواحي نجد وبادية العراق وإقليم الجزيرة الفراتية والشام(٦) وإذا أخذنا بالرأي الأول فإن المصطلح يشمل ما نعتبره في الوقت الحاضر الأحساء والكويت وقطر وجزر البحرين الحالية المعرفة قديماً باسم أوال. (٧)

ويعتبر ياقوت أن كاظمة الحد الفاصل بين البحرين والعراق، وجرفار الحد

---

(١) الفاسي: المصدر السابق: ٢/ ٢٩٨- ٢٩٩.

(٢) السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، ط١، ١٤١٩هـ، جامعة أم القرىٰ، معهد البحوث، ١٧٥/٢؛ أحمد السباعي: تاريخ مكة، ص ١٦٧/١ .

(٣) التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت، ١٩٦٥م، ص ٣٧٨.

(٤) علي منصور: قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٤١٧هـ (إقليم الخليج علىٰ مر عصور التاريخ) ص ١٦٠.

(٥) القزويني، أبو زكريا محمد محمود: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٣٨٠هـ، ص ٧٧-٧٨.

(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٨م، ص ٢٩.

(٧) عمر رضا كحالة: جغرافية جزيرة العرب، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٩٤٤م، ص ٢٦١.

الفاصل بين البحرين وعمان، وتسمى أحياناً جلفار، وقد اندثرت الآن رغم وجود أطلالها.

ويعدد ياقوت الأماكن والمدن التي تشتمل عليها البحرين فيذكر الخط[١] والقطيف[٢] والأرة وهجر[٣] وبينونة[٤] والزارة وجواثاً[٥] والساجور[٦] ودارين[٧] ودارين[٧] والغاية وقصبة هجر الصقاء والمشقر[٨]وأحياناً يطلق اسم هجر على البحرين من باب إطلاق الجزء على الكل أو لأهمية هجر. [٩]

فأما أصل تسميتهم بالقرامطة، فقد تعرض العديد من كتب الفرق لتسمية القراطمة واعتبروه لقباً من الألقاب المتعددة للباطنية[١٠] بمعنى أن القرامطة يمثلون مرحلة في الدعوة الباطنية يعود أصلها إلى شخص حمدان بن الأشعت من أهل الكوفة، وهو أحد دعاتهم الأوائل أطلق على أتباعه اسم قرامطة[١١].

وقيل أن كرميته بالنبطية تعني أحمر العينين[١٢] ويقال أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان أحمر البشرة، تشبيهاً له بـ (القرمد) وهو الطوب الأحمر. [١٣]

أما عن نشأة هذه الطائفة (القرامطة) فكان ابتداء ظهور الحركة القرمطية في البحرين حوالي سنة ٢٨١هـ وذلك عندما وفد إلى المنطقة رجل يعرف بيحيى بن المهدي الذي قصد القطيف وأظهر أنه رسول المهدي فاستجاب له أبو سعيد

---

(١) الخط/ وهو خط عبد القيس بالبحرين وهو كثير النخل، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٣٢/٢-٤٣٣.

(٢) القطيف/ هي مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها وكان قديماً اسماً لكورة هناك غلب عليها الآن اسم هذه المدينة، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٢٩/٤.

(٣) هجر/ هي قصبة بلاد البحرين بينه وبين سرين سبعة أيام، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٥٢-٤٥٣.

(٤) بينونة/ موضع بين عُمان والبحرين وبينه وبين البحرين ستون فرسخاً، ياقوت الحموي: معجم البلدان، البلدان، ٦٣٧/١.

(٥) جواثاء/ هو حص لعبد القيس بالبحرين فتحه العلاء بن الحضرمي في أيام أبي بكر الصديق رضي الله الله عنه سنة ١٢هـ عنوة وجواثا مدينة الخط والمشقر مدينة هجر، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٠٢/٢.

(٦) الساجور/ اسم نهربمنبع، المصدر السابق، ١٩١/٣.

(٧) دارين/ فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند، المصدر السابق، ٤٩٢/٢.

(٨) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ١٩٥٦، ٧٢/٢-٧٣.

(٩) نفس المصدر الساق: ٣٩٢/٥.

(١٠) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ط١، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٤١٢هـ، ٢٨٧/١.

(١١) الديلمي، محمد بن الحسن: بيان مذهب الباطنية وبطلانه، استانبول، ١٩٣٨م، ص ٢١-٢٢.

(١٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار صادر بيروت، ١٩٦٥م، ص ٤٤٤.

(١٣) علي منصور: قرامطة البحرين والأحساء، ص ١٦٦.

الجنابي[١]، وأخذ أبو سعيد الجنابي التعاليم الخاصة بالحركة القرمطية عند لقائه بيحيىٰ بيحيىٰ بن المهدي[٢] أثناء مجيئه إلىٰ البحرين.

كذلك يجمع المؤرخون علىٰ أن أبا سعيد كان من أبرع وأشجع قادة القرامطة وكان مؤمناً بأساليب القوة كغيره ومن المتحمسين للفكرة الثورية، فألف جيشاً نظمه تنظيماً دقيقاً، ثم ما لبث أن أعلن قيام الدولة القرمطية في الأحساء والبحرين ولم يأت عام ٢٨٦هـ حتىٰ تمكن من السيطرة علىٰ معظم أنحاء البحرين وأخذ القطيف التي أصبحت مركزاً للقرامطة في القرن الثالث الهجري وقد أثار ذلك قلقاً كبيراً في العراق مركز الخلافة، وخوفاً من امتداد الحركة القرمطية إلىٰ البصرة استؤذن الخليفة في استعمال ١٤٠٠٠ ديناراً لترميم الحصون والقلاع. [٣]

فمن هنا نرجح ما قاله المسعودي في كتابه (أن الحج بطل فلم يحج في سنة ٣١٧هـ لدخول أبي طاهر سليمان بن حسن بن بهرام الجنابي القرمطي صاحب البحرين) [٤]

ففي تلك الفترة كان والي العباسيين علىٰ مكة ابن مخلف[٥] وكان الخليفة العباسي في ذلك الوقت هو المقتدر بالله العباسي (٢٩٥- ٣٢٠هـ) [٦] ، حيث سار أبو طاهر القرمطي بجيشه إلىٰ مكة لانتزاعها من عامل العباسيين المذكور آنفاً، فانتهىٰ إليها في ٧ذي الحجة من عام ٣١٧هـ ذكر المسعودي في كتابه (أنه دخلها في تسعمائة فارس وتسع مائة رجل وأميرها يومئذ محمد بن إسماعيل المعروف بابن محارب بعد أن كان بها من الأولياء وغيرهم من عامة الناس) [٧] فخرج إليه أمير مكة في جماعة من الأشراف يسألونه أموالهم فلم يشفعهم فقاتلوه فهزمهم[٨] فقاتلوه فقتلهم أجمعين ولعل

---

(١) هو حسن القرمطي الجنابي الأعرابي ملك البحرين، السنجاري: منائح الكرم، تحقيق: جميل عبد الله المصري، ١٨٦/٢- ١٩٦.
(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، تحقيق: أبو الفضل دار المعارف، ٢١٨٨/٣.
(٣) الطبري: المصدر السابق: ٢١٨٨/٣، المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي محي الدين عبدالله، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٤٨م، ١٩١/٣.
(٤) المسعودي: التنبيه والإشراف، مكتبة خياط، بيروت ١٩٦٥م، ص ٣٧٨.
(٥) ذكره هكذا: الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٢٠٤/٢ ، وكذلك ذكره صاحب كتاب: العيون والحدائق والحدائق في أخبار الحقائق، مؤلف مجهول، تحقيق:نبيلة عبد المنعم داود، طبعة النجف، ١٩٧٢م. ق١ ، ٣٤٨/٤ "ابن مجلب".
(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ط٧ ، ١٩٦٥م، ٢٠/٣.
(٧) هنا ذكر المسعودي أن أمير مكة هو محمد بن إسماعيل بن مخلب، التنبيه والإشراف، ص ٣٧٨.
(٨) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ١٤١٤هـ، ١٧٠/١-١٧١.
أي أبو طاهر سليمان الجنابي بن أبي سعيد الحسن الجنابي، وجنابة من ساحل فارس نشأ بها أبو سعيد، وكان رقاقاً فنفي عن جنابة، فخرج إلىٰ البحرين فأقام بها تاجراً وجعل يستميل العرب إلىٰ

حكم ابن مخلف هذا كان امتداداً لسلطان دولة بني سليمان الأولىٰ في مكة لأن كلمة الأشراف كما هو معروف تطلق علىٰ الحسنيين الذين ينسبون إلىٰ الحسن بن علي بن أبي طالب هذا إلىٰ جانب أن اسم محمد بن إسماعيل ليس غريباً علىٰ الأسماء العلوية آنذاك. ومن هنا نستطيع القول بأن حركة سليمان استمرت تحكم مكة سبعة عشر عاماً حتىٰ قضىٰ عليها القرامطة أثناء هجومهم علىٰ مكة. (١)

بعد ذلك دخل أبو طاهر القرمطي وجنوده مكة المكرمة يوم التروية سنة ٣١٧هـ واقتحموا المسجد الحرام بخيلهم وسلاحهم علىٰ غفلة. ولما كان العلويين في ذلك الوقت يفتقرون إلىٰ القوة لمواجهة هؤلاء الكفرة، فقد استباح القرامطة في المسجد الحرام دماء المسلمين ووضعوا السيوف علىٰ رقاب الطائفين بالبيت الحرام ولم ينج من بطشهم المصلون والعاكفون والركع السجود،حيث قاموا بحصدهم حصداً وتطايرت الرؤوس عن أجسادها وبعضهم متعلق بالبيت الحرام(٢).

فقد ذكر المسعودي وقت دخول أبي طاهر القرمطي وماذا فعل بداخل المسجد الحرام، بقوله: (أخذ الناس السيف وعاذوا بالمسجد والبيت فاستحر القتل بينهم وعمهم وقد قتل من الناس من أهل البيت وغيرهم من سائر الأمصار، فكثر منهم من يقول ثلاثين ألفاً، ومنهم من يقول دون ذلك وأكثر منه، وكان ذلك ظن وحسبان، إذ كان لا يضبط، وهلك في بطون الأودية ورؤوس الجبال والبراري عطشاً وحراً ما لا يدركه الإحصاء). (٣)

وصاح أبو طاهر القرمطي في المسجد في الحجاج: (يا حمير،أنتم تقولون: ﴿ﮱ ﯓ ﯔ﴾ أين الأمن؟. وقد فعلت ما فعلت فقام له رجل بذل نفسه لله تعالىٰ، وأخذ بعنان فرسه قال له: "ليس الأمر ما فهمت وإنما المراد: ومن دخله فأمنوه" فلم يلتفت إليه،وسلمه الله تعالىٰ منه بصدق نيته). (٤)

ورمىٰ الموتىٰ في بئر زمزم والآبار التي في مكة وأراد قلع الميزاب فلم يستطع وأراد المقام فما وجده وكان بعض السدنة أخفاه، فتألم لفقدانه. (٥)

نجلته فاستجاب له أهل البحرين وما والاها وكذلك فعل بالقطيف ثم سار الجنابي إلىٰ هجر. انظر: محمد طاهر الكردي: التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، ط١، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ، ٣/٣١٩-٣٢٠.

(١) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية (٣٠١- ٤٨٧هـ) عمادة شئون المكتبات، جامعة الرياض، الرياض، ١٩٨١م، ص٢٥.

(٢) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص٣٧٨؛ السيوطي، الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين عبدا لحميد، القاهرة، ١٩٥٢م، ص ٣٨٣؛ عائشة عبد الله عمر باقاسي: مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع حتىٰ منتصف القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٠هـ ، ص ٢٣.

(٣) التنبيه والإشراف، ص ٣٨٦- ٣٨٧.

(٤) السنجاري: منائح الكرم، جامعة أم القرىٰ، ١٨٩/٢.

(٥) نفس المصدر السابق: ٩٠/٢-٩١.

وقام أبو طاهر القرمطي بقلع الباب وقبه زمزم والحجر الأسود وخلع كسوة الكعبة المشرفة وقسمها بين أصحابه ونهب دور مكة وأقام الخطبة لعبيد الله المهدي الفاطمي أو خلفاء الفاطميين بالمغرب. (١)

فلننظر ما قاله المسعودي في هذا الجانب (واقتلع باب البيت الحرام وكان مصفحاً بالذهب وأخذ جميع ما كان في البيت من المحاريب الفضة والجزع وغيره ومعاليق وما يزين به البيت من مناطق ذهب وتازيرات ذهب وفضة وقلع الحجر الأسود ومقدار موضعه ما يدخل فيه السيد إلىٰ أقل من المرفق وجرد البيت مما كان عليه من الكسوة وحُمل ذلك علىٰ خمسين جملاً...) (٢).

وركض أبو طاهر وهو سكران شاهراً سيفه راكباً فرسه ودخل المطاف فبالت فرسه وراثت وصعد إلىٰ باب الكعبة (٣) وهو يقول:

أنـــا بـــالله وبـــالله أنـــا ... يخلـــق الخلـــق وأفنـــيهم أنـــا

وفي ١٤ ذي الحجة قلع الحجر الأسود كما ذكر المسعودي اقتلعه لكنه لم يذكر اليوم الذي تم فيه ذلك، وذهب أبو طاهر القرمطي إلىٰ بلاده هجر وهو إقليم البحرين وهو ما يعرف اليوم بالأحساء وقد يخصص الاسم لمدينة الهفوف(٤) وبقي موضعه خالياً يضع فيه الناس أيديهم للتبرك نحو اثنين وعشرين سنة.

ذكر المسعودي (٥) أن أبا طاهر القرمطي عندما رحل عن مكة اعترضت له هذيل إحدىٰ القبائل المشهورة في الحجاز. حيث حاربوه حرباً شديداً بالنبل والخناجر ومنعوه من المسجد وأشهب عليهم الطرق فأقاموا بذلك ثلاثة أيام حائرين بين الأودية والجبال.

حيث تخلص من كثير من النساء والرجال المأسورين واقتطعت هذيل مما كان معهم من الإبل والثقلة وكانت ثقلته علىٰ نحو مائة ألف بعير، عليها أصناف المال والأمتعة إلىٰ أن دله عبد أسود من عبيد هذيل يقال له [زيادة] استأمن إليه علىٰ طريق سلكه فخرج عن المضايق وسار راجعاً. (٦)

وأقام أبي طاهر القرمطي في مكة أحد عشر يوماً وقيل ستة أيام ثم انصرف إلىٰ هجر حيث أخذ الحجر الأسود معه فمات تحته أربعون هجيناً وقيل مائة،وقيل أزيد وعلقه بمسجده بهجر وقيل بمسجد في الكوفة لكي يستجلب الناس به ليحجوا ذلك

---

(١) عائشة بافاسي: مكة والمدينة، ص ٢٣.
(٢) التنبيه والإشراف، ص ٣٨٦- ٣٨٧.
(٣) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ١٤١٤هـ.
(٤) نفس المرجع السابق: ص ١٧١.
(٥) التنبيه والإشراف: ص ٣٨٧.
(٦) المسعودي: التنبيه والأشراف، ص ٣٧٨.

المسجد عوضاً عن الكعبة فأبىٰ الله تعالىٰ.وبقي موضع الحجر خالياً يلتمسه الناس. [١]
بعد ذلك رمىٰ الله سبحانه وتعالىٰ القرمطي بمرض في جسده، حتىٰ تقطعت أوصاله إرباً إرباً. [٢]

أما من ناحية الحجر الأسود، فبذل الخليفة العباسي المقتدر بالله في الحجر مالاً جزيلاً فأبوا، ولما أيسوا من حج الناس إليه أرسلوه مع سنبر بن الحسن القرمطي[٣]، فدخل به مكة يوم النحر نهار الثلاثاء عاشر ذي الحجة سنة ٣٣٩هـ، فحضر أمير مكة يومئذ وهو أبو جعفر محمد بن الحسن بن عبد العزيز العباسي من قبل الإخشيديين فأخرج سنبر الحجر مِن مَن سفط كان معه، وعليه ضباب فضه لشظايا وقعت فيه فوضعه بيده في محله وقال: أخذناه بأمر الله عز وجل ورددناه بقدرة الله سبحانه وتعالىٰ.وقيل أن الذي وضعه في محله حسين بن المزوق البناء والله أعلم. [٤]

ومدة غيبته عندهم اثنان وعشرون سنة إلا شهراً، وأن سنبر بن الحسن القرمطي لما أحضر الحجر الأسود كان قد دسَّ له حجراً آخر قريباً من لون الحجر الأسود وقال له: ادفع لهم هذا أولاً ليعلم هل جهلوه لبعد المدة أم لا؟[٥].

فأظهره سنبر أولاً علىٰ أنه الحجر الأسود. فأمر الخليفة عبد الله بن عكيم باستلام الحجر الأسود وكان من العلماء المحققين فقال: أن لنا في حجرنا علامة، وهو أنه لا يحمىٰ في النار، ولا يرسب في الماء. [٦]

فأمر سنبر بإحماء الحجر فحمي، ووضعه في الماء فرسب فقال ابن عكيم ليس هذا بحجرنا. فقال سنبر: صدقت. فأمر بالحجر الأسود فجئ به فألقىٰ في النار فلم يحم وألقىٰ في الماء فطفىٰ فقال ابن عكيم: هذا حجرنا فقال له: صدقت فمم أخذت هذا؟ فأورد الحديث: الحجر الأسود عين الله في أرضه، وأنه يطفو علىٰ الماء ولا يسخن بالنار. فقال سنبر: هذا دين مضبوط بالنقل. [٧]

ثم أن السدنة أخرجت الحجر بعد ذهاب القرمطي وأحكموا فضته وأعادوه في محله وذلك سنة ٣٤٠هـ. [٨]

---

(١) السنجاري: منائح الكرم، ١٩١/٢.
(٢) نفس المصدر السابق، ١٩١/٢.
(٣) أبو محمد سنبر بن الحسن كان من خواص القرمطي ووزرائه،ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢٦٨/٦؛ السنجاري: منائح الكرم، ١٩٢/٢. الهامش رقم (٢).
(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ٣١٢/١، طبعة ١٤٠٥هـ، السنجاري: منائح الكرم، طبعة ١٤١٩هـ، جامعة أم القرىٰ، ١٩٢/٢.
(٥) السنجاري: منائح الكرم، ١٩٣/٢.
(٦) السنجاري: منائح الكرم، طبعة جامعة أم القرىٰ، ١٤١٩هـ، ١٩٤/٢.
(٧) نفس المصدر السابق: ١٩٤/٢.
(٨) نفس المصدر السابق: ١٩٤/٢.

ونتيجة لهذه الأعمال المشينة التي قام بها القرامطة والموقف السلبي من الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية فعند تزايد خطر القرامطة بعد هذا الهجوم علىٰ مكة وتبع هذا انقطاع الحجاج عن حج بيت الله الحرام وقام القرامطة بفرض أتاوة علىٰ حجاج بيت الله الحرام خمسة دنانير عن كل جمل وعلىٰ كل رجل سبعة دنانير وهذه الأتاوة في مقابل حماية الحاج،والمحافظة علىٰ أرواحهم وكانت هذه أول مرة يفرض فيها المكس علىٰ الحجاج(١). وهنا لابد من الإشارة إلىٰ أن هذه الأعمال التي قام بها القرامطة كانت دليلاً قاطعاً علىٰ ضعف الدولة العباسية وعدم قيامها بحماية رعاياها من الحجاج وتأمين طريقهم إلىٰ مكة المكرمة ولقد أصيبت الدولة العباسية بضعف أفقدها القدرة علىٰ حماية أقاليمها وأظهر عدم قدرتها علىٰ درء خطر القرامطة علىٰ اقتصادياتها وتجارتها مع غيرها. (٢)

ومما تقدم نجد بأن الهدف دائماً وأبداً هو منع الحجاج من تأدية فريضة الحج والهدف مرتبط بمبادئ القرامطة بالإضافة إلىٰ شعور أبي طاهر بأنه ما زال يتمتع بالقوة، هذا ولم يمت أبو طاهر القرمطي(٣) سنة ٣٣٢هـ إلا وقد فرض علىٰ حكومة بغداد وسلطات الشام ومصر الأموال العظيمة التي كانت تحمل إليه في كل سنة اتقاء خطره(٤) ومن الملاحظ أنه بعد أبو طاهر القرمطي لم يرد أي ذكر لاعتراض الحجاج أو قطع الطريق الحج من قبل أي أحد من زعماء قرامطة الأحساء والبحرين وذلك يكمن في أن حركة القرامطة أخذت في العقد الأخير من حياة أبي طاهر شكل الدولة، والدول في العادة تتعامل بالسياسية حسبما تمليه المصالح، وإنشاء الدولة معناه وصول الثورة إلىٰ غايتها القصوىٰ أو قناعتها بعدم إمكان حصول ذلك لاكتفاء بما تحقق من مكاسب، وفي هذا انكماش وبداية تراجعت وسير في دروب الانهيار، وهذا ما حصل بالفعل بالنسبة لقرامطة البحرين، حيث أن عبد الله المنعوت بالمهدي القائم ببلاد المغرب كتب إلىٰ القرمطي يذكر فعله ويلومه ويلعنه ويقول أخفقت علينا سعينا وأشهرت دولتنا بالكفر والإلحاد بما فعلت ومتىٰ لم ترد علىٰ أهل مكة ما أخذته وتعيد الحجر الأسود إلىٰ مكانه وتعيد كسوة الكعبة فأنا برئ منك في الدنيا والآخرة فلما وصل

---

(١) العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، القاهرة، ١٣٨٠هـ، ١٩٤/٤، المكس هي الضرائب غير الشرعية.

(٢) عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٩-٣٠؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص ٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٢٦٣/٨-٢٦٤. ؛ فايزه محمد الكلاس: قرامطة البحرين من قطع طريق الحج إلىٰ اقتلاع الحجر الأسود، مطبوعات الندوة العالمية الكبرىٰ بمناسبة اختيار مكة عاصمة للثقافة الإسلامية، ١٤٢٦هـ، جامعة أم القرىٰ، المحور السادس، ص ٣٢٩.

(٤) ثابت بن سنان:تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم، تحقيق: سهيل زكار، بيروت، ١٣٩١هـ، ص١٠٤

هذا الكتاب أعيد الحجر الأسود إلىٰ مكة شرفها الله تعالىٰ.[(١)]

من جهة أخرىٰ يلاحظ أن التهديد بإرجاع الحجر الأسود من قبل الخليفة الفاطمي قد تم في حياة أبي طاهر وإرجاع الحجر فعلياً تم سنة ٣٣٩هـ أي بعد موت أبي طاهر بعدة سنوات. ولم يقم أبي طاهر بإرجاعه لأنه كان يشعر بأنه بحاجة لفرض وجوده السياسي في المنطقة من أجل تأسيس الدولة والسيطرة علىٰ مناطق أوسع بالإضافة إلىٰ سعيه الدائم لتحقيق مبادئ القرامطة وهذا ما لوحظ من خلال مهاجمته لحجيج وقطع طريق الحج أكثر من مرة رغم عقده اتفاق مع الحكومة العباسية بعدم التعرض للحجيج مقابل أتاوة تدفع له، لذلك وكما مرَّ سابقاً فإن الدول عندما تصل مرحلة كبيرة من القوة في إثبات وجودها وتوسعها تميل إلىٰ التعامل بالسياسة والدبلوماسية نوعاً ما وهذا ما حصل بعد موت أبي الطاهر الذي يعتبر المؤسس الحقيقي والفعلي للدولة في الإحساء والبحرين حيث تم إرجاع الحجر بعد موته ولم يرجع في عهده.[(٢)]

والواقع أن حادثة احتجاز الحجر الأسود تعتبر من أهم الأحداث البارزة في تاريخ القرامطة لما تمثله من تحرك كبير لسياسة الدولة العباسية، ولم يكن أحد يتصور أن الصراع بين القرامطة والعباسيين سيصل إلىٰ هذه المرحلة أو الدرجة من التحدي، ونظراً لما لمكة والحجر الأسود من مكانة في قلوب المسلمين جميعاً.[(٣)]

حيث استغلت الدولة العباسية ما قام به أبو طاهر من احتجاز الحجر الأسود استغلالاً كبيراً في التشهير بالقرامطة الذين كانوا يتوسعون في الأقاليم والولايات العباسية ويحققون انتصارات علىٰ الصعيدين السياسي والعسكري، وفي تلك الفترة كان الإمام عبد الله المهدي يثبت أقدامه في أقاليم المغرب العربي علىٰ حساب الخلافة العباسية والقضاء عليها تماماً[(٤)] وكان التحالف بين الطرفين علناً، ولم يحاول أبو طاهر القرمطي إخفاء صلته وتبعيته لعبد الله المهدي، فعندما دخل مكة سنة ٣١٧هـ خطب لعبد الله المهدي صاحب أفريقيا.[(٥)]

ومن الواضح أن استجابة القرامطة لدعوة أبي عبيد الله المهدي في إرجاع الحجر الأسود وما أخذ من أهل مكة تدل دلالة واضحة علىٰ ما ساد العلاقات بين القرامطة والفاطميين من تطور فقد وجد كل من الطرفين أن استمرار تلك العلاقات

---

(١) ابن فهد، النجم عمر بن فهد: إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ، تحقيق:فهيم شلتوت، ط١، القاهرة، ١٤٠٤هـ، ٣٧٨/٢؛ فايزة الكلاس: قرامطة البحرين، ص ٣٣٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ٣٨٠/٢ ، ٣٩٨.

(٣) علي منصور: قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي، ص ١٧٦.

(٤) إسماعيل أمير علي: القرامطة والحركة القرمطية في التاريخ، ط١، ١٤٠٣هـ، دار مكتبة الهلال، بيروت، ص٢٠٠؛ علي منصور: قرامطة البحرين، ص ١٧٩.

(٥) القلقشندي: صبحي الأعشىٰ، طبعة ١٩٦٣م، ٢٦٨/٤، القلقشندي: مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق: عبدالستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ١٩٦٤م، ٢٧٩/١.

تخدم مصالحهما وخططهما، فقرامطة البحرين رأوا أن الارتباط بدولة كبيرة وقوية مثل الدولة الفاطمية يعطيها نوعاً من الحماية ويطيل أمرها في البقاء ولا يتعارض ذلك مع النزعة الاستقلالية لديهم وذلك لبعد المسافة بين البحرين والقيروان، أما بالنسبة للفاطميين فقد وجدوا أن كل ما يطلبونه في تلك المرحلة هو توجيه المزيد من الضربات للخلافة العباسية،ووجدوا في القرامطة خير من يقوم بهذا الدور مقابل ما يقدمونه لهم من العون والمساعدة المالية. (١)

وعندما استطاع الفاطميون أن يوسعوا دائرة نفوذهم من الأراضي المغربية إلىٰ الأراضي المصرية في سنة ٣٥٨هـ في عهد المعز لدين الله الفاطمي ثم امتد النفوذ الفاطمي أيضاً ليشمل فلسطين والشام. (٢)

وجاءت هذه الانتصارات الفاطمية لتزيد من مخاوف العباسيين الذين خشوا من امتداد النفوذ الفاطمي إلىٰ بغداد نفسها، خاصة أن القرامطة في تلك المرحلة كانوا يشكلون خطورة بالغة علىٰ بغداد، لذلك أدرك العباسيون وعلىٰ رأسهم الخليفة المعتمد أنه من صالحهم التحالف مع القرامطة أو تحييدهم علىٰ الأقل لتخفيف خطرهم علىٰ بغداد. هذا من جانب أما الجانب الآخر فإن سيطرة الفاطميين علىٰ مصر أدت إلىٰ قطع الإتاوة التي كان يدفعها كافور الأخشيدي للقرامطة ومقدارها (٣٠٠) ألف دينار، وربما تكون هذه أحد الأسباب التي أدت إلىٰ تبدل صلة المودة بين قرامطة البحرين والفاطميين(٣).

وهكذا نجح العباسيون في أحداث فجوة في العلاقات القرمطية الفاطمية واستطاعوا استغلال سوء العلاقات بين الطرفين لصالحهم،ولاشك في أن وجود تحالف قرمطي فاطمي يشكل خطورة كبيرة علىٰ الكيان السياسي العباسي ثم أن انهيار الجبهة الفاطمية القرمطية كان في صالح العباسيين الذين نجحوا في جذب القرامطة إلىٰ جانبهم ضد أعدائهم الفاطميين، فكان لهم في بغداد نافذ الأمر، وقد برهنت الأحداث التالية مدىٰ التعاون الوثيق فيما بينهم والذي تطور إلىٰ ما يشبه حلف صداقة ودفاع ضد الفاطميين. (٤)

ومما تقدم من خلال الحديث عن قيام القرامطة بمهاجمة مكة المكرمة واقتلاع الحجر الأسود ومهاجمة الحجاج وقطع الطريق علىٰ الحجاج يمكن التوصل إلىٰ بعض النتائج التالية:

١) اندفاع بعض القبائل عن طريق الإغراء بالغنائم ودفع الأموال وأخذ العباسيون يسعون لشراء ولاء بعض زعماء القبائل كما أن بعض هؤلاء الزعماء أخذ يفكر

---

(١) علي منصور: قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي، ص ١٧٩- ١٨٠.
(٢) عارف تامر: القرامطة أصلهم، نشأتهم، تاريخهم، حروبهم، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت]، ص١٤٩؛ إسماعيل علي: القرامطة، ص ٢٤٤.
(٣) علي منصور: المرجع السابق، ص ١٨٠.
(٤) المرجع السابق، ص ١٨٠.

بالعمل لصالحه ولمنفعته الخاصة.[(١)]

٢) اعتداءات القرامطة المتكررة علىٰ الحجيج هزت صورة الخلافة العباسية وأظهرتها بمظهر الضعيف العاجز عن حماية الإسلام والمسلمين باعتبارها مسئولة عنهم، والدليل علىٰ ذلك الضرائب التي دفعها الخليفة لأبي طاهر ليكف يده عن مهاجمة الحجاج [(٢)] بل إن أبي طاهر أخذ يتدخل في سياسة حكومة بغداد ويؤثر علىٰ سير الأعمال فيها، وهذا أكبر دليل علىٰ ضعف الخلافة.[(٣)]

٣) ضعف النشاط العلمي نتيجة لقتل الكثير من العلماء في ذلك الحدث،حيث ظهرت قلة الحلق والمجالس العلمية في الحجاز.[(٤)]

٤) نتيجة لعدم وجود وضع مستقر ودولة قادرة علىٰ حماية سكان ذلك البلد من أي هجوم آخر للقرامطة أو غيرهم علىٰ بلاد ا لحجاز مما حدىٰ بالكثيرين من العلماء إلىٰ الهجرة من الحجاز إلىٰ الأقطار الإسلامية الأخرىٰ لتوفر الأمن والاستقرار.[(٥)]

٥) أثر هذا الحدث علىٰ اقتصاد المنطقة في شبه الجزيرة العربية والحجاز ذلك أن فريضة الحج ما هي إلا مناسبة عظيمة وكبيرة للبيع والشراء بالإضافة إلىٰ أن لها أكبر الأثر علىٰ طرق المواصلات بين بلاد الشام والحجاز مما يؤثر علىٰ التجارة المعروفة والمألوفة بين بلاد الشام والحجاز في ذلك الوقت.[(٦)]

٦) النقص الشديد في أعداد الحجاج والمجاورين في الأعوام التي لحقت ذلك الحدث المشئوم وهذا بدوره كان له تأثير سلبي علىٰ الجوانب الحضارية في الحجاز.[(٧)]

٧) أخلت هذه الهجمات بأمن الطرق وخلفت الفوضىٰ وعدم الأمان بين بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية مما أثر علىٰ وقف عمليات الحج في بعض السنوات أي أنها أوقفت فريضة أساسية من فرائض الإسلام الخمسة أو أركانه.[(٨)]

هذه الأحداث الخارجية التي أفرزتها سنة ٣١٧هـ في مكة خاصة والحجاز بشكل عام كانت مجتمعة وكان لها أضراراً بالغة علىٰ الحياة بشكل عام في هذا الإقليم

---

(١) فايزة محمد الكلاس: قرامطة البحرين من قطع طريق الحج، ص ٣٣٢؛ ثابت سنان: أخبار القرامطة، ص١٤٦، ١٦٠، ١٦١.

(٢) ثابت سنان: أخبار القرامطة، ص ٣٦٠- ٣٦١؛ فايزة محمد الكلاس: قرامطة البحرين من قطع طريق الحج، ص٣٣٢.

(٣) فايزة الكلاس: نفس المرجع السابق، ص ٣٣٢.

(٤) المصنف: الحياة العلمية، ص ١٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٩.

(٦) فايزة الكلاس: قرامطة البحرين، ص ٣٣٢- ٣٣٣.

(٧) المصنف: الحياة العلمية، ص ١٩.

(٨) فايزه الكلاس: المرجع السابق، ص٣٣٣- ٣٣٤.

الذي ظهر علىٰ أرضه خاتمة الديانات السماوية فقد استمرت تأثيرات هذا العام عقوداً طويلة إلىٰ أن استعادت الحياة بشكل عام عافيتها للوصول إلىٰ الحالة التي كانت عليها قبل ذلك الحدث.

الدولة الأخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ)[١]:

وقد كانت الخلافة العباسية قد حاولت قبل ذلك إسناد ولاية الحرمين الشريفين إلىٰ ولاة أقوياء فوجدت في محمد بن طغج الأخشيدي ضالتها[٢] فأسندتها إليه ولكنه لم يجعل إقامته فيها بل بقي في مصر وعين نواباً عنه[٣] مثل محمد بن الحسين بن عبد العزيز العباسي الذي تولاها سنة ٣٣٣هـ.[٤]

لم تذكر المصادر أن الأخشيديين أساؤوا معاملة أهل مكة، بل عرف عنهم أنهم كانوا يعملون علىٰ حماية الحجاج من هجمات القبائل ودفعوا من أجل ذلك للقرامطة أتاوة تقدر بثلاث مئة ألف دينار سنوية[٥] ولم يكتفوا بذلك بل أمدوا أهالي مكة بالأموال بالأموال التي كان للعلماء نصيب منها، وكان لهذه السياسة الحسنة التي اتبعها الأخشيديون أثرها علىٰ استقرار الأوضاع وانصراف العلماء إلىٰ الاهتمام بعلومهم.[٦]

(٦)

ولعل هذا يدل دلالة واضحة علىٰ أن العباسيين لم يعد بإمكانهم السيطرة المباشرة علىٰ الحجاز، خاصة الحرمين علىٰ أهميتها فقبلوا ذكر الإخشيدي معهم في الخطبة علىٰ منابر مكة والمدينة المنورة[٧]، ولما سيطر البويهيون علىٰ الخلافة في بغداد سنة ٣٣٤هـ امتد سلطانهم إلىٰ مكة وشاركوا الخليفة في الخطبة علىٰ منابر

---

(١) ينسب الأخشيديون إلىٰ أبي بكر محمد بن طغج بن حف وهو من أحفاد الأتراك الذين استقدمهم المعتصم في النصف الأول من القرن الثالث الهجري وقد خدم الأخشيد العباسيين وتقلب في عدة مناصب في بلاد الشام ومصر واشترك في حروب الدولة العباسية مع الفاطميين وأبلىٰ فيها بلاء حسناً. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار الثقافة ، بيروت، [د.ت] ، ٥٦/٥.

(٢) كان طغج من رجالات الطولونيين تولىٰ الشام لخماروية بن أحمد ومن أولاده محمد هذا، وقد تنقل في في المراتب إلىٰ أن ملك مصر والشام للعباسيين واختلف في زمن ولاته علىٰ مكة فقيل سنة ٣٢٥هـ، وقيل سنة ٣٣٢هـ،= =أنظر: الفاسي: العقد الثمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٩٨٦م، ٣٠/٢-٣١؛ الزيلعي: علاقات مكة الخارجية، ص ٣٣.

(٣) ابن ظهيرة، جمال الدين محمد بن جار الله: الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف، ط٤ ط٤ ، ١٩٧٣م، ص١٨٨-١٨٩.

(٤) خيرية محمد آل سنه: الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال القرن الرابع والخامس الهجريين، جامعة جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ، ص٦.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورىٰ،طبعة جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٤هـ، ٤٠٤/٤.

(٦) الذهبي، شمس الدين محمد: الأمصار ذوات الآثار، ط١، دار البشائر الإسلامية، بيروت، تحقيق: قاسم قاسم علي سعد، ص٥٢.

(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٢٣/٣.

الحرمين بدلاً من الأخشيدي ابتداءاً من سنة ٣٤٢هـ فنشب الحرب بين أنصارهما في موسم الحج وانتهت بهزيمة أنصار الأخشيدين. [١]

ولكن يبدو أن البويهيين لم يغيروا شيئاً من وضع مكة بل اكتفوا بالحصول علىٰ الخطبة وأبقوا محمد بن الحسن في ولايتها فباشرها لأبي القاسم أنوجور[٢] الذي خلف أباه في ولاية مصر والشام والحرمين تحت وصاية كافور الأخشيدي[٣] هذا من ناحية ومن ناحية أخرىٰ فقد أقر معز الدولة البويهي ولاية الأخشيديين في مكة ولكنها لم تكن عن طيب خاطر بل (كان الزعيم البويهي مضطراً إلىٰ قبول ما لا يستطيع رفضه أو تغيره لبعد الشقة.. ولاشتغاله بتذليل العقبات التي كانت تعترضه لتوطيد سلطانه والقضاء علىٰ البقية الباقية من سلطان الخليفة) [٤] حتىٰ إذا استتب الأمر لمعز الدولة البويهي في بغداد أخذت علاقاته مع الأخشيديين في التدهور[٥]، وقد ظهر هذا واضحاً في حرصه علىٰ حذف اسم الأمير الأخشيدي من الخطبة علىٰ منابر الحجاز[٦] حيث يذكر ابن الأثير[٧] أن الحرب التي وقعت في مكة سنة ٣٤٣هـ والتي ذكرتها في السابق، حيث بعدها خطب للبويهيين أصحاب معز الدولة وركن الدولة وولد معز الدولة بختيار إلا أن الأخشيديين لم يخسروا المعركة نهائياً فقد خطب لهم في نفس السنة بالموسم بعد بختيار بن معز الدولة[٨].

فقد أعقب هذه الفتنة أن الخليفة العباسي المطيع بالله أصدر قراراً بتولية كافور الأخشيدي ولاية بلاد الحجاز بالإضافة إلىٰ ولايته لمصر والشام، وأصبح الدعاء لكافور الأخشيدي علىٰ منابر مكة والمدينة مدة ولايته، وكان علىٰ ولاية مكة والمدينة في هذه الفترة بنو الحسن في مكة المكرمة وبنو الحسين في المدينة المنورة، وكان كل من البيتين يريد الزعامة لنفسه علىٰ الحرمين الشريفين فدبَّ الخلاف بينهما، ودارت معارك طاحنة بين بني الحسن وبني الحسين. ولم يتدخل العباسيون في هذا النزاع الداخلي[٩].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة الساحل الجنوبي، بيروت، دار العرفان، ١٩٥٩م، ٣٣/١.
(٢) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٣٣.
(٣) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٨٨، الزيلعي: مرجع سابق ص ٣٣.
(٤) سيده إسماعيل كاشف: مصر في عهد الأخشيديين، القاهرة، ١٩٥٠م، ص ٩٦.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط٢ ، بيروت، القاهرة، ١٩٦٧م، ٣٤٧/٦.
(٦) سيده إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص ٩٦.
(٧) ابن الأثير: المصدر السابق، ٣٤٧/٦.
(٨) مسكوية، أبو علي أحمد بن محمد: تجارب الأمم، مصر، ١٩١٤م، ١٥٨/١؛ الزيلعي: المرجع السابق: السابق: ص٣٤.
(٩) العصامي: سمط النجوم، ١٩٥/٤.

من ناحية أخرىٰ كان رد فعل أهالي مكة أن رضوا بالتبعية المصرية لما يترتب علىٰ ذلك من الدعم الاقتصادي لمدينتهم، فقد حفظ لنا التاريخ اعتماد الحجاز علىٰ مصر اقتصادياً في مختلف مراحل تاريخه كما سيأتي في حين أن المصريين كانوا حريصين علىٰ بسط نفوذهم علىٰ الأماكن المقدسة لما لذلك من الآثار المعنوية والأدبية والمكانة الدينية[1] في جميع أنحاء العالم الإسلامي هذا من ناحية ومن ناحية أخرىٰ فإن سيادتهم علىٰ الحجاز تؤمن لهم حماية طريق تجارة المرور في البحر الأحمر وهذه الحماية تكفلها لهم السيطرة علىٰ الجانب الشرقي للبحر الأحمر وهي البقعة التي تحتلها الحجاز[2].

استمرت السيادة الأخشيدية والخطبة في مكة حتىٰ سنة ٣٤٨هـ. من أجل قدوم الحاج العراقي تحت أمرة محمد بن عبيد الله العلوي[3] الذي تقابل مع المصريين وأخذ وأخذ يتناظران في من هو أحق بالخطبة بعد الخليفة الأمير الأخشيدي أم البويهي؟ حيث لجأ أمير العراق إلىٰ المكر والخديعة، فعرض علىٰ الأمير المصري إفراد الخليفة بالخطبة مع عدم ذكر أي من الأخشيديين أو البويهيين،[4] فتقدم الأمير العراقي العراقي وصعد المنبر فخطب للخليفة ولمعز الدولة وتفاجأ الآخر وتمت عليه الحيلة[5]،ولما علم كافور بما جرىٰ عاقب أمير حجه عقوبة قاسية[6].

بلغت أخبار هذه الأحداث وخاصة هذا النزاع الخليفة الفاطمي المعز لدين الله في بلاد المغرب، فوضع خطة ناجحة في أمور بلاد الحجاز، لأن الفاطميين منذ أن قامت دولتهم في بلاد المغرب رأوا أن تكون السيادة في مكة والمدينة لهم دون منافسيهم من العباسيين، فأرسل المعز لدين الله الفاطمي من بلاد المغرب سراً إلىٰ كلا الطرفين المتنازعين من بني الحسن والحسين الأموال والهدايا والعطايا، وأرسل بعض رجاله للتوفيق بين الطرفين، ونجح المعز ورجاله في عقد الصلح بين الحسن وبني الحسين في المسجد الحرام سنة ٣٤٨هـ. وقام الخليفة الفاطمي بدفع دية القتلىٰ إلىٰ بني الحسن[7] الحسن[7] ولقد كان لهذا الموقف أثره الطيب علىٰ ولاة مكة والمدينة مما أكسب المعز مكانة عظيمة لدىٰ أتباع الفريقين وأهل الحرمين الشريفين.

---

(١) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٣٤.
(٢) نفس المرجع السابق: ص ٣٤.
(٣) ابن خلدون: الخبر وديوان المبتدأ والخبر، مكتبة بولاق، ١٢٨٤هـ، ١٠٠/٤.
(٤) العصامي: سمط النجوم العوالي، ٩٤/٤.
(٥) ابن خلدون: المصدر السابق، ١٣٠/٤.
(٦) العصامي: المصدر السابق: ٩٤/٤.
(٧) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة،١٣٧٠هـ، ٣٥٣/١.؛ محمد جمال الدين الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٣٩٦هـ، ص ٢٣-٢٤.

ورغم هذا الموقف الطيب من الخليفة الفاطمي، فإن الدعاء كان علىٰ منابر مكة المكرمة والمدينة المنورة للإخشيديين في مصر، مع أن ولايتهم علىٰ الحرمين الشريفين كانت ولاية اسمية واستمرت الخطبة تقام لكافور الإخشيدي إلىٰ حين وفاته سنة ٣٥٦هـ ثم من خلفه من الأخشيديين(١)، وليس هناك ما يدل علىٰ أن كافور تدخل في شئون مكة أو أناب بها أحداً ليتولىٰ أمرها نيابة عنه، شأنه في ذلك شأن من سبقه من الأخشيديين(٢)، وفي خضم هذه الأحداث استولىٰ جعفر بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسىٰ بن عبد الله بن موسىٰ الجون علىٰ ولاية مكة المكرمة وذلك في نهاية حكم كافور الأخشيدي علي مصر والشام، وسرعان ما دب الضعف في الدولة الأخشيدية وبدأت تنكمش انكماشاً ظاهراً، الأمر الذي انتهزه المعز لدين الله الفاطمي، فأرسل جيشاً كبيراً تحت قيادة قائده جوهر الصقلي لفتح مصر في سنة ٣٥٨هـ(٣).

ومنذ هذا التاريخ بدأ الاتصال الفعلي بين أمراء الحجاز وبين الدولة الفاطمية بمصر بعد أن مهد له موقف الخليفة الفاطمي المعز لدين الله من النزاع الذي كان بين بني الحسن وبني الحسين سنة ٣٤٨هـ(٤).

وتجدر الإشارة إلىٰ أن كبير الأشراف الحسنيين جعفر بن محمد لم يعلن عن هويته حتىٰ فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٨هـ، فسارع جعفر بالخطبة للمعز الفاطمي، وأعلن تبعية مكة للخلافة الفاطمية.ويبدو أن جعفر بن محمد رأىٰ الانضمام إلىٰ الفاطميين لظروف اقتصادية وأخرىٰ سياسية سيتحقق لمكة من ورائها الدعم الاقتصادي والاستقلال الذاتي في ظل النظام الجديد في مصر(٥).

من خلال ما تقدم ذكره عن الدولة الطولونية والدولة الأخشيدية وما أحدثه القرامطة في سنة ٣١٧هـ وصراعهم حول الحجاز والتنافس حول منابر الحرمين الشريفين بين هذه الدول. كانت الدولة الفاطمية تنظر إلىٰ هذه الأحداث وما يدور حول

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٩٣١- ١٩٣٣م، ٢٢/٣. الفاسي: شفاء الغرام، ١٩٣/٢- ١٩٤. بيروت.

(٢) عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٢٨.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، بيروت [د.ت،ط]، ١٩٣/٢-١٩٤. وجوهر الصقلي: هو أبو الحسن جوهر بن بن عبد الله القائد المغربي المعروف بالكاتب، مولىٰ الخليفة الفاطمي المعز لدين الله،كان من كبار قواده، ثم جهز المعز إلىٰ مصر بعد موت كافوري الإخشيدي، وكان ذلك سنة ٣٥٨هـ.فضم البلاد المصرية إلىٰ أملاك الدولة الفاطمية بالمغرب،وقام بتأسيس مدينة القاهرة وأنشأ الجامع الأزهر بناء علىٰ الأوامر التي تلقاها من المعز لدين الله الفاطمي، انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، ٢٨/٤-٣٥.

(٤) أحمد الزيلعي: مكة و علاقاتها الخارجية، ص٤٢.

(٥) سليمان مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتىٰ سقوط الخلافة العباسية في بغداد (من منتصف القرن الرابع الهجري حتىٰ منتصف القرن السابع الهجري) الرياض، ١٤٠٣هـ، ص٣٠.

هذا الإقليم ذو المكانة الدينية لدىٰ المسلمين في جميع أنحاء العالم، حيث نراها تتدخل في شئون هذا الإقليم عن طريق غير مباشر حيث تدخل في الصلح بين الأخشيديين والبويهيين وكذلك التدخل في إرجاع الحجر الأسود وكذلك التدخل بين الحسنيين والحسينيين في الحجاز سنة ٣٤٨هـ.

فمنذ أن قامت الدولة الفاطمية في بلاد المغرب علىٰ أنقاض دولة الأغالبة سنة ٢٩٧هـ، وتنتسب هذه الدولة ادعاءً إلىٰ السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وزوجة الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه رابع الخلفاء الراشدين حيث ادعىٰ الفاطميون بأنهم أحق بالخلافة من بني العباس. فكان أول خلفاء هذه الدولة التي قامت في المغرب هو عبيد الله المهدي[(١)] والذي لقب بأمير المؤمنين واتخذ عاصمة جديدة سماها المهدية.

لقد كانت لعبيد الله المهدي محاولات عدة للاستيلاء علىٰ مصر، غير أنها باءت بالفشل لتيقظ الدولة العباسية من ناحية، وعدم مساندة القرامطة له في ذلك من ناحية أخرى[(٢)].

بعد هاتين المحاولتين توقف الغزو الفاطمي لمصر أكثر من ربع قرن في عهدي القائم والمنصور وشطراً من عهد المعز نتيجة قيام الدولة الأخشيدية، وكذلك انشغال الفاطميين بالثورات الداخلية في المغرب [(٣)] وكذلك أخذوا يمهدون لنشر المذهب الإسماعيلي في مصر ولكن اتصالهم بالأخشيديين [(٤)] لم ينتج عنه شيء.

وفي عهد المعز لدين الله بدأ يستعد لفتح مصر، بعد أن استتب له الأمر في بلاد المغرب وأخذ يعد العدة لهذا الفتح منذ سنة ٣٥٦هـ. أي بعد تسعة وخمسين عاماً من قيام الدولة الفاطمية، وتوطيد أركانها في بلاد المغرب واشتداد قوتها ونزعت الدولة الفاطمية إلىٰ الاتساع في اتجاه الشرق الإسلامي حيث يمتد سلطان الخلافة العباسية السنية التي رأىٰ الفاطميون أنهم أحق منها بتنبؤ خلافة المسلمين، حيث ساعدت

---

(١) عبيد الله المهدي: هو عبيد الله بن محمد الحبيب بن جعفر المصدق ابن محمد المكتوم من أولاد جعفر الصادق، وهو مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب كان يسكن سلمية ببلاد الشام ومولده بالكوفة، أرسل أبوه الدعاة، وأعظمهم أبو عبدا لله الشيعي فمهد له البيعة في المغرب وفتح بلداناً وناحرته قبائل كتامة ووعدها بقرب ظهور المهدي إمام الزمام ووصلت إلىٰ المهدي رسل أبي عبد الله الشيعي تدعوه، فبلغ خبره الخليفة العباسي المكتفي بالله فطلبه، ففر من سلميه إلىٰ العراق ثم لحق بمصر فالإسكندرية ومنها إلىٰ المغرب، وكان ظهور عبيد الله المهدي سجلماسة في أواخر سنة ٢٩٦هـ وبويع بالقيروان بيعة عامة سنة ٣٩٧هـ واستوطن في رقادة عاصمة الأغالبة وبعث الولاة إلىٰ طرابلس وصقلية،واستولىٰ علىٰ تاهرت وحاول الاستيلاء علىٰ مصر ولم يظفر،واختط مدينة المهدية سنة٣٠٣هـ ومات بها، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة، ١٣٨٤هـ، ٣٤٥/٢ـ ٣٤٧؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، القاهرة، ١٣٧٣هـ، ١٩٧/٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٤٧/٦؛ ابن مسكويه: تجارب الأمم، مصر، ١٩١٤م، ٣٦/١؛ ابن خلدون: العبر، ٨٩/٤.

(٣) القرطبي، عريب بن سعيد: صلة الطبري، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٣هـ، ص٤٣.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢٢١/٦.

الظروف السياسية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي، وانشغال العباسيين لصد البيزنطيين عن بلادهم[١].

كما ساعدت الأوضاع الداخلية في مصر علىٰ تحقيق أهداف الفاطميين، ومن ذلك سوء الأوضاع السياسية والاقتصادية التي أعقبت وفاة كافور الإخشيدي عام ٣٥٨هـ، وتولي الحكم أحمد بن علي الأخشيدي، والذي كان في مقتبل عمره، ولم يكن يتسم بالحنكة والخبرة السياسية، لذلك بادر الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلىٰ إرسال قائده جوهر الصقلي الذي نجح في فتح مصر سنة ٣٥٨هـ. [٢]

وأسس جوهر الصقلي مدينة المنصورية تيمناً بالمنصور بالله والد المعز لدين الله وبناء الجامع الأزهر سنة ٣٥٩هـ، لنشر المذهب الشيعي وعندما قدم المعز لدين الله الفاطمي بعد أربع سنوات سماها (القاهرة) تفاؤلاً بأنها ستقهر الدولة العباسية. [٣]

وفي ظل الأحداث التي جرت في بلاد مصر من استيلاء الفاطميين علىٰ بلاد مصر خطط الحسنيين للاستيلاء علىٰ مكة وقد تم لهم ذلك علىٰ يد زعيمهم [٤] جعفر بن محمد بن الحسن بن موسىٰ بن عبد الله بن موسىٰ الجون [٥] إلا أن هذا الثائر [الجون] لم يعلن عن هويته إلا بعد أن تم للفاطميين فتح بلاد مصر فسارع بالخطبة للمعز لدين الله الفاطمي، وأعلن التبعية للفاطميين [٦] وخاصة في موسم الحج من هذه السنة [٣٥٨هـ][٧].

وترجع هذه الأسباب لأن الفاطميين أعطوا الدية لبني الحسن دفاعاً عن الحسنيين وكان ذلك في سنة ٣٤٨هـ فحفظ الحسنيين ذلك للفاطميين [٨] وكذلك حث الفاطميين للقرامطة في إرجاع الحجر الأسود في سنة ٣٣٩هـ.

فتولىٰ جعفر بن محمد بن الحسن بن موسىٰ الجون ولاية مكة سنة ٣٥٦هـ بعد وفاة كافور الأخشيدي. وفي سنة ٣٥٨هـ يذكر أن أمير الحاج المصري فرق في موسم

---

(١) عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٣٣.
(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، دار الكتب المصرية، ٢٨/٤-٢٩؛ باقاسي: المرجع السابق: ص٣٣.
(٣) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤١.
(٤) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، ص٣٥٤؛ الزيلعي:المرجع السابق: ص٤٢.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، ١٩٥٩م، القاهرة، ١٧٠/١ (نسبة إلىٰ أولاد موسىٰ أو الموسويين إلىٰ الحسن بن علي بن أبي طالب.
(٦) دحلان، أحمد زيني: خلاصة الكلام، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٥هـ، ص١٦.
(٧) ابن عذاري: أبو عبد الله محمد المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشر كولان كولان وليفي برونسال، ٢٢١/١.
(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، القاهرة، ١٢٧٠هـ، ٣٥٣/١، محمد جمال الدين الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، ص ٢٣-٢٤.

الحج أموالاً عظيمة علىٰ أهالي مكة. (1)

ومن خلال هذه الأحداث والصراع حول الحجاز نجد أن أهالي مكة أدركوا أن الدولة الفاطمية استطاعت أن تسيطر علىٰ مصر وفي طريقها إلىٰ بلاد الشام واتساع رقعتها من المغرب إلىٰ أطراف الشام فكان من البديهي أن يبادر أهل مكة في الاستجابة إلىٰ هذا الواقع السياسي والعسكري. (2)

غير أن هذا النفوذ لم يدم طويلاً، حيث إن الخلافة العباسية بدأت تستعيد قواها مرة أخرىٰ ففي سنة ٣٥٩هـ قطع أمير مكة جعفر بن محمد الموسوي الخطبة للخليفة الفاطمي المعز من علىٰ منابر مكة وأمر بالخطبة للخليفة العباسي المطيع بالله وكذلك للقرامطة. (3)

ومن ذلك الوقت لم تكن الخطبة علىٰ منابر مكة مستقرة علىٰ المدىٰ الطويل فوقع أمير المؤمنين تحت ضغوط سياسية واقتصادية فكانت الخطبة تقام للمعز لدين الله الفاطمي وحده من منابر مكة، وأحياناً كانت تقام معاً في مكة والمدينة، وبعد مدة تقام للخليفة العباسي علىٰ منابر مكة، ففي سنة ٣٥٩هـ ترأس الركب العراقي لحج بيت الله الحرام أبو أحمد الحسين بن موسىٰ، والد الشريف الرضى(4) حيث استفاد العباسيين من من نسبته إلىٰ العلويين حيث أقيمت الخطبة للعباسيين ونصب أبو أحمد بن موسىٰ الحسيني نقيب الطالبيين. (5)

وفي العام التالي سنة ٣٦٠هـ كانت الخطبة في مكة تقام للخليفة المعز لدين الله الفاطمي، وقطعت الخطبة لبني العباس. وحدث في موسم الحج سنة ٣٦١هـ وذلك عندما نجح الفاطميون في استخدام بنو هلال(6) وجمع من القبائل علىٰ الركب العراقي وقتلوا منهم عدداً ولم يسلم من الحجاج إلا طائفة مضت مع الشريف أبو أحمد الحسين

---

(١) العيني، بدر الدين محمود بن أحمد: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٥٨٤ بتاريخ، حوادث، سنة ٣٥٨هـ؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة المنورة، ص٣٤.

(٢) ابن الجوزي: القرامطة، تحقيق:محمد الصباغ، ط٢، ١٣٥٨هـ، ١٩٦٨م، ص١٨-١٩؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٣٣٥/٦.

(٣) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٣٥٧هـ، ٥٣/٧؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط٢، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧، بيروت، ٢٤٠/٧.

(٤) ابن الأثير: الكامل، ٤٠/٧؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٤١.

(٥) هذا المنصب (نقيب الطالبيين) أي متولي نقابة الأشراف الطالبين،وهي الوظائف الهامة لا يتولاها إلا إلا من شيوخ الأشراف وأجلهم قدراً، انظر القلقشندي: صبح الأعشىٰ، طبعة ١٩١٩- ١٩٢٢م، ٤٨١/٣- ٤٨٢.

(٦) بنو هلال: كانت مواطنهم بنجد فيما بين الطائف وجبل غزوان وكان لبني هلال أيامها في الجاهلية كيوم النجار الثاني وصلتهم قوية بقريش وتزوج النبي صلىٰ الله عليه وسلم من بني هلال أم المؤمنين ميمونة وزينب بنت خزيمة،انظر: فائزة سجيني: غزوة بني هلال وسليم للمغرب، رسالة ماجستير، لم تنشر، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية،جامعة أم القرىٰ، ١٤٠١هـ، ص ٣٦-٤١.

بن موسىٰ أبو الحاج العراقي علىٰ طريق المدينة وبذلك تم حجهم في ذلك العام[١].

ومما لا شك فيه أن كلا الدولتين العباسية والفاطمية قد حرصتا علىٰ أن تتم شعائر الحج في مكة التي يجتمع فيها حشد هائل من المسلمين تحت رعايتهما إذ تحول الحج إلىٰ مناسبة يستغلها أنصار النظامين العباسي والفاطمي للدعاية للنظام الذي يؤيدونه فكان التجاوب بين الحجاج تجاوب وجداني للانتماء السياسي لأي من النظامين[٢].

كذلك ما حدث في موسم الحج لعام ٣٦١هـ وعدم اتخاذ الوسائل الكفيلة من أمير مكة لحماية حجاج بيت الله الحرام،حيث قامت حرباً بين أهل مكة من بني الحسن وبين أهل المدينة المنورة من بني الحسين،الذين أقاموا الخطبة للفاطميين، فقد جاء بنو الحسين برفقة أمراء المعز لدين الله الفاطمي لإقامة الخطبة له في مكة المكرمة، غير أن القرامطة جاءوا لنصرة بني الحسن من أهل مكة وبذلك انهزم أهل المدينة. [٣]

ولكن بعد أن انضمت الحجاز إلىٰ الخلافة الفاطمية وأخذت تنافس الدولة العباسية في سنة ٣٦٢هـ كانت مكة مهيأة للنفوذ الفاطمي بعد الضعف الذي دب في الخلافة العباسية بسبب تغلب البويهيين وضعف الخلفاء العباسيين في ذلك الوقت حيث اتخذ أمير مكة ابن جعفر الحسني قراراً بأن يضاف إلىٰ الآذان عبارة (حي علىٰ خير العمل) تقرباً من الفاطميين لأنها من رسوم الخلافة الفاطمية الشيعية وحذف اسم الخليفة الطائع من الخطبة في مكة. فمن ناحية الإضافة في الآذان كان الأشراف ينظرون إلى ميزان القوة في ذلك الوقت وكانوا لا يؤيدون المذهب الشيعي باعتبارهم على المذهب السني. [٤]

وفي موسم الحج من تلك السنة [٣٦٢هـ] أرسل الخليفة المعز لدين الله مع أمير الحج أموالاً كثيرة وأمر بتوزيعها علىٰ الحجاج في الحرمين الشريفين لتثبيت نفوذه علىٰ أرض الحجاز[٥].

ولتشديد قبضته علىٰ مكة اتخذ عدة خطوات يهدف من ورائها إلىٰ نشر المذهب الإسماعيلي بها؛ لأنه ربما أيقن أن اعتناق الرعية لمذهب السلطة الحاكمة يخلق جواً من الترابط بينها، وهذا بدوره يزيد من عمق الترابط السياسي[٦]، لاسيما وأنه يرىٰ في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥٨/٧.
(٢) أبو سعيد، حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عصر البويهيين، ط١ ، القاهرة، ١٩٧١م، ص٣٣٣؛ أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٤.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، تحقيق: فهيم شلتوت، القاهرة، ١٩٨٣م، ٤٠٨/٢- ٤٠٩؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٤٣.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ١٣٥٧هـ، ٧٥١٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٢٤/٣؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٤٤.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ٢/ ٤٠٦- ٤٠٧.
(٦) الزيلعي: علاقات مكة، ص٤٤.

في الحسينين في مكة عدم رضاهم عنه وأنهم غير صادقين في الولاء له، لذلك اتجه إلىٰ قيام دويلة في المدينة المنورة جعلها للحسينين من آل مهنا[(١)] تدين له بالولاء وتقوم بدور مراقبة الحسنيين في مكة واستمر ذلك حتىٰ عام ٣٦٥هـ عندما توفي الخليفة الفاطمي المعز.

وعلىٰ هذا النحو استمرت مظاهر السيادة للفاطميين بمكة بسبب تعميق الصلة بين الفاطميين وأمير مكة لاستمرار الخليفة الفاطمي في سياسة العطاء والهبات لأشراف مكة المكرمة[(٢)]. وعندما توفىٰ المعز لدين الله تولىٰ ابنه العزيز بالله سنة ٣٦٥هـ تولىٰ إمارة الحج بالناس (أبو منصور محمد بن عمر بن يحيىٰ العلوي) حيث لم يحج أهل العراق في سنة ٣٦٥هـ لاضطراب الأوضاع في الحجاز[(٣)] واستمرت الخطبة تقام للخليفة الفاطمي حتىٰ انقطعت في سنة ٣٦٦هـ نتيجة هجوم القرامطة علىٰ مصر والشام. وذلك لانشغال الفاطميين بصد هجوم القرامطة حيث أرسل الخليفة العباسي إلىٰ الحجاز [أبو عبد الله أحمد بن أبي الحسين العلوي] وكان الخليفة العباسي حينذاك الطائع [٣٦٣-٣٨١هـ] [(٤)] وقد استقبل أمير مكة ورحب به وتمت إقامة الخطبة الخطبة له، وانقطعت الخطبة للفاطميين. [(٥)]

فكانت ردة فعل الخليفة الفاطمي العزيز بالله أن أرسل جيش كبير إلىٰ الحجاز سنة ٣٦٦هـ وحاصر مكة والمدينة المنورة حصاراً شديداً[(٦)] حيث تحكم في أقوات الطعام وغلت الأسعار حتىٰ تمكن من دخولها وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي وقطع الخطبة عن الخليفة العباسي. [(٧)]

غير أن العباسيين لم يتركوا العزيز بالله الفاطمي يفرح بهذا الانتصار حيث

---

(١) نسبة هذه الأسرة إلىٰ الحسن بن طاهر بن مسلم الذي خلف أباه في إمارة المدينة سنة ٣٨١هـ وكان يلقب المهنا وإليه تنسب الأسرة [ورأىٰ آخر] أن المهنا هو اسم شخص انتقلت إليه الإمارة بعد وفاة طاهر بن مسلم ونسبة أذن هو مهنا بن هانئ بن داود بن القاسم بن عبد الله بن طاهر. فمهنا حسب هذه الرواية هو حفيد ابن عم طاهر بن مسلم، ويستبعد ابن خلدون الرواية الثانية وعلىٰ أية حال فإن أسرة المهنا هي فرع من الأسرة الحسينية ذاتها سواء كان المهنا ابن طاهر أو حفيد ابن عمه.. انظر: عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، ١٤١٤هـ، ١٤٤/٢.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٠٧؛ ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي،: بدائع الزهور، تحقيق مصطفىٰ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، [د. ت]، ٣٧/١، حسن إبراهيم حسن: الدولة الفاطمية، ص١٥٦.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ٤١٣/٢. عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٤٧.

(٤) حسن إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، ط٣، ١٩٦٢م، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة، ص٤٦.

(٥) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ٢٣٧- ٢٣٨.

(٦) الجزيري: درر الفوائد، ص٢٤٦؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٤٩.

(٧) المقريزي: المرجع السابق: ٢٣٨/١، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص١٥٥.

صفىٰ عضد الدولة البويهي حسابه مع عز الدولة بختيار وقبض علىٰ زمام السلطة في بغداد سنة ٣٦٧هـ[١] وصمم علىٰ استعادة السيادة العراقية علىٰ مكة عن طريق استخدام القوة فبعث جيشاً إلىٰ مكة فسيطر الجيش علىٰ مكة فأعلنت مكة التبعية للعباسيين في سنة ٣٦٨هـ[٢] كما أرسل السلطان البويهي عضد الدولة الأموال الطائلة إلىٰ مكة[٣].

فكانت ردة الفعل لدىٰ الفاطميين أن أرسل جيشاً في سنة ٣٦٧هـ بقيادة أحد المغاربة وهو باديس بن زيري الصنهاجي [٤] الذي تولىٰ الأمارة علىٰ الحجاج المصريين[٥] وهزم الجيش الفاطمي قوات أمير مكة المكرمة الذي هرب إلىٰ البادية وأعاد باديس الصنهاجي الخطبة للفاطميين[٦].

وبعد ذلك عاد باديس الصنهاجي بالقوات العسكرية إلىٰ مصر، عاد بعد ذلك جعفر بن محمد الحسني إلىٰ مكة واستردها وأعاد الخطبة لعضد الدولة البويهي صاحب السيادة الفعلية علىٰ الخلافة العباسية[٧].

وبالرغم من استمرار سياسة إرسال الهبات والعطاء لأشراف مكة من جانب البويهيين، إلا أن الخطبة عادت للفاطميين بسبب انتهاجهم لهذه السياسة ففي سنة ٣٦٨هـ[٨] خرجت قافلة الحاج المصري محملة بالقمح والشعير والدقيق ومحراب من ذهب للكعبة[٩] وفي سنة ٣٦٩هـ جهز الخليفة الفاطمي العزيز مع قافلة الحج كسوة الكعبة والطيب والشمع والزيت فبلغ مصروفه [١٠٠] ألف درهم[١٠] فكان لهذا العطاء الجزيل أثره في استمرار إقامة الخطبة للفاطميين من فوق منابر مكة[١١].

ولكن الحجاز في سنة ٣٧٠هـ خرجت عن النفوذ الفاطمي بسبب سوء الأحوال الاقتصادية في مكة وتأخرت المساعدات والهبات من الخليفة الفاطمي إلىٰ أمير مكة

---

(١) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ١١٤/٢ – ١١٦ – ١١٧ ؛ أحمد الرباعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٥.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشي، ٢٦٩/٤.
(٣) أبو سعيد غنيم حامد: العلاقات العربية السياسية في عصر البويهيين، ص٣٣٦.
(٤) باديس بن زيري الصنهاجي هو أبو مناد باديس بن المنصور بن بلكين بن زيري مناد الحميري الصنهاجي تولىٰ ولاية إفريقية نيابة عن الخليفة الفاطمي وتوفىٰ في ذي القعدة سنة ٤٠٦هـ، انظر: ابن حلكان: وفيات الأعيان، طبعة ١٣٨٤هـ، ٢٦٥/١- ٢٦٦.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورىٰ: ٤١٤/٢ – ٤١٦.
(٦) الجزيري: درر الفوائد، ص٢٤٦- ٢٤٧.
(٧) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي، ص١٥-١٦.
(٨) ابن فهد: إتحاف الورىٰ: ٤١٦/٢ ؛ الجزيري: درر الفوائد، ص ٢٤٦- ٢٤٧.
(٩) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢٤٦/١.
(١٠) نفس المصدر السابق: ٢٥٢/١.
(١١) ابن فهد: إتحاف الورىٰ: ٤١٦/٢.

فسمح أمير مكة عيسىٰ بن حسن بن جعفر الحسني لأمير الحجاج العراقي بإقامة الخطبة علىٰ منابر للخليفة العباسي، ولعضد الدولة البويهي، حتىٰ يضمن استمرار وصول المساعدات والهبات من العباسيين والبويهيين [١].

واستمر السجال والصراع حول إقامة الخطبة علىٰ منابر الحرمين الشريفين بين الخلافتين العباسية والفاطمية حتىٰ عام ٣٨٠هـ. فنلاحظ أن الخلافتين تسعىٰ كلاً منهما إلىٰ بسط نفوذها علىٰ مكة لما يكسبها ذلك من سمعة طيبة في نظر العالم الإسلامي وبالتالي ينظر إليها علىٰ أنها هي الخلافة الشرعية وهي التي تمارس نفوذاً مباشراً علىٰ الحرمين الشريفين خلال تلك الفترة التاريخية، حيث تمتع حكام مكة المكرمة بنظام وراثي في الحكم وكان هذا التنافس بين الخلافتين قد أبرز أمارة مكة المكرمة في شبه استقلال ذاتي أقرب في ولائها إلىٰ الفاطميين في مصر منها إلىٰ العباسيين في العراق[٢].

وفي حين كان هذا التنافس بين الخلافتين قائم حول إقامة الخطبة في مكة وتحقيق السيادة عليها طوال عهد العزيز بالله، فقد رأىٰ القيام بعمل يتقرب به إلىٰ قلوب أهل مكة ويبعد الأثر السيئ حيث أرسل في سنة ٣٨٠هـ قافلة كبيرة محملة بالعطايا والهبات وكسوة الكعبة المشرفة إلىٰ مكة[٣]. وبذلك استمرت الخطبة ما بين عامي ٣٨١- ٣٨٤هـ تقام للدولة الفاطمية. هذا مما يؤكد رسوخ السيادة للفاطميين في بلاد الحجاز وبصفة خاصة في مكة المكرمة خلال تلك السنوات. [٤]

فعندما لاحظ أمير مكة عيسىٰ بن جعفر أن الأوضاع السائدة في مكة تميل إلىٰ الفاطميين رأىٰ أن يبرهن علىٰ عمق الصلات التي تربطه بهم فقام بزيارة إلىٰ مصر سنة ٣٨٤هـ حيث لقي استقبال يتناسب مع مكانته، وفي أثناء عودته حُمل بالهدايا والأموال والخلع مما كان له الأثر الطيب لدىٰ أمير مكة ومما ساعد علىٰ استمرار إقامة الخطبة للفاطميين. [٥]

وبعد عودته ببضعة شهور وافته المنية في نفس تلك السنة [٣٨٤هـ] بمكة المكرمة وتولي أخوه [الحسن بن جعفر الحسني] المعروف (بأبي الفتوح) [٦] التي كانت كانت فترة توليه أمارة مكة ما بين سنتي ٣٨٤ – ٤٣٠هـ[٧] حيث عاصر من الخلفاء الفاطميين [العزيز بالله، والحاكم بأمر الله، والظاهر لإعزاز دين الله، وأوائل حكم

---

(١) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص ١٦.
(٢) نفس المرجع السابق: ص ٧٧؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص ٥٣-٥٤.
(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٢٦٧/١.
(٤) المصدر السابق: ٢٧١/١- ٢٧٤.
(٥) المصدر السابق: ٢٨١/١ – ٢٨٢.
(٦) الفاسي: شفاء الغرام، بيروت، [د.ت]، ٢٥٢/١.
(٧) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، ١٩٥٨ – ١٩٦٦م، القاهرة، ٩٦/٤.

الخليفة المستنصر بالله الفاطمي]، حيث كان أبو الفتوح جميل الوفاء جليل القدر في الوفاء شجاعاً طموحاً شاعراً، تمتع بنفوذ كبير في حياة أخيه عيسىٰ وكان يساعده في تصريف أمور الإمارة. (١)

وعندما تقلد أمور الإمارة في مكة استمر في سياسة أخيه عيسىٰ بن جعفر في الولاء والإخلاص للفاطميين، وحين ظلت الدولة الفاطمية تواصل الأعطيات لأهالي مكة مصحوبة بالكسوة في كل موسم حج واستمرت علىٰ هذا المنوال في هذه الفترة من حكم أبي الفتوح. (٢)

ولإثبات هذا الولاء للفاطميين قام أبو الفتوح بحملة علىٰ المدينة المنورة سنة ٣٩٠هـ فأزال عنها إمرة بني مهنا عندما بلغه طعنهم في نسب الفاطميين وانتمائهم لآل البيت، بعد أن حاصر المدينة وجرت اشتباكات مع أهالي المدينة خارج وعندما أغلقوا عليهم أبواب سورها اشتد عليهم الحصار فطلبوا الصلح من أبو الفتوح فقبل مقابل خروجهم من المدينة المنورة وفعلاً تم الصلح وخروج آل المهنا من المدينة إلىٰ بعض القرىٰ في ينبع، ودخل أبو الفتوح المدينة ووفىٰ بوعده فنزل الأمان للناس. (٣)

وفي نفس السنة [٣٩٠هـ] أرسل الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله قافلة كبيرة محملة بالغلال والعطايا والكسوة، حتىٰ يضمن استمرار الولاء له في مكة المكرمة(٤)

تذكر المصادر أن سبب مجيء أبو الفتوح إلىٰ المدينة أن بعض الزنادقة أشاروا إلىٰ الحاكم بأمر الله الفاطمي بأن يقوم بنبش قبر الرسول ﷺ وصاحبيه وحملهما إلىٰ مصر بقصد جذب الأموال والعطايا والهبات إليه ونظراً لتخبط عقل الخليفة الفاطمي دخل هذا القول قلبه فأرسل إلىٰ أبي الفتوح بتنفيذ ذلك وعندما وصل أبو الفتوح إلىٰ المدينة المنورة اكتفىٰ بإخراج بني المهنا من المدينة ورجع إلىٰ مكة.

أما فيما يتعلق بنبش قبر النبي فإنه من تحليل هذه الواقعة فإننا نلاحظ أن معظم المصادر المكية اتفقت علىٰ سنة حدوثها كما أنها أوردت تفاصيل الهدف الرئيسي الذي من أجله سار أبو لفتوح من المدينة المنورة، وهو تنفيذ أمر الحاكم بنبش القبور(٥)، بينما يشير ابن فهد أن حسنيي المدينة قد قدحوا في نسب الفاطميين. ومن خلال هذه النصوص يتبين لنا أن هدف أبي الفتوح لم يكن بقصد ضم المدينة إلىٰ حكمه بقدر ما كان معاقبة من قدح في نسب الفاطميين، أما فيما يتعلق بنبش قبر المصطفىٰ ونقله إلىٰ مصر فلا يمكن أن يكون رجلاً مثل أبي الفتوح يفكر فيه لأنه لو تم ذلك ستفقد المدينة أهميتها ولن يكون هناك جدوىٰ من ضمه إليه، فلم يكن غرضه هذا أو ذاك بدليل

---

(١) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية ، ص ٤٧.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ٧/٢ – ١٥- ٢٤- ٢٥.؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٧.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٤٩٩/٤؛ عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ١٤٥/٢- ١٤٦.
(٤) المقريزي: المصدر السابق: ٥١/٢.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٤٣٠/٤؛ ابن فهد: اتحاف الورىٰ، ٤٢٦/٢.

أنه رجع إلىٰ مكة ولم يترك له نائباً فيها، كما أن لأبي الفتوح من الحكمة ما يمنعه من الاقتناع بنبش قبر الرسول ﷺ خاصة وهو جده[(١)].

هذا القول يخالف ما ذكره القلقشندي في كتابه [(٢)] من أن أبو الفتوح حاصر المدينة المنورة وطلب خروج آل المهنا منها.

إلا أن الأمور بدأت تتغير نتيجة تصرفات الخليفة الحاكم حيث أنه جاءت الأوامر في سنة ٣٩٠هـ من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي أنه إذا ذكر اسمه في المجالس العامة علىٰ الناس أن يسجدوا له كما هو الحال في مصر وبلاد الشام،[(٣)] بل وصل به الأمر إلىٰ مهاجمة الصحابة رضي الله عنهم وانتقادهم، ولم يهتم أمير مكة بهذا الأمر ولم يطبقه لمخالفته عقيدة أهل مكة التي تتفق مع قواعد أصول الدين الإسلامي الحنيف.
[(٤)]

وقد تسرب نبأ هذه التوجيهات التي سجلها الحاكم بأمر الله في سجل وأرسلها إلىٰ أمير مكة، طالباً من إمام وخطيب المسجد الحرام بقرائته أثناء خطبته، مما أثار حفيظة أهل مكة من القبائل المحيطة بها مثل هذيل[(٥)] ورواحة[(٦)]، وكذلك المجاورون لها، اجتمع أمرهم علىٰ قتل الإمام وحدثت موجة من الغضب في المسجد الحرام، مما تسبب في النهاية بحدوث انشقاق وعصيان ضد الفاطميين [(٧)].

وهكذا كان لموضوع السجل أثره في تحول أهل مكة عن الفاطميين إلىٰ العباسيين،ومهد العباسيين لهذا بأن بدأ نشاطهم في إرسال عطاياهم إلىٰ مكة، وجاءت باكورة هذا النشاط من الخليفة العباسي القادر بالله الذي حث سنة ٣٩٦هـ أبو الفتوح أمير مكة علىٰ الدعوة للعباسيين من فوق منابرهم والدخول في طاعته، غير أن أبو الفتوح لم يقتنع بهذه العروض وأصر علىٰ ولاء الفاطميين، مما يدل علىٰ ذلك أنه

---

(١) السباعي: تاريخ مكة، ٢٧٧/١.
(٢) صبحي الأعشىٰ: ٤/ ٤٩٩.
(٣) الفاسي: تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ١٦٤٦. ورقة ١١٨؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص ٥٨.
(٤) عائشة باقاسي: المرجع السابق: ص٥٨.
(٥) هذيل من قبائل الحجاز الهامة وتنقسم إلىٰ قسمين شمالي وجنوبي وتقع ديار هذيل الشمالي في أطراف أطراف مكة من جهة الشرق والجنوب وبالأخص في أطراف مكة والطائف يقرب جبل برد وجبل ذكا، ويتألف هذا القسم من سبعة أفخاذ: المطارفة والمساعيد، والسواهر لحيان عمرو أو عمير والجنابر، أما التقسيم الثاني فيدعىٰ هذيل اليمن، ويتألف من الأفخاذ الآتية: الندوية وعد السروانة، العاهلة،وجمبل، انظر:عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ١٣٦٨هـ ، دمشق، ١٢١٣/٣.
(٦) رواحة بطن من غطفان من العدنانية، انظر: عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، والحديثة، ٤٤٩/٢.
(٧) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ٤٣١/٢، زيني ابن دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ١٣٩٧هـ، [د، ن]، ص١٧.

استمر في إقامة الخطبة للفاطميين في مكة المكرمة[1]، حيث أرسل الخليفة الحاكم بأمر الله في السنة التالية (٣٩٧هـ) إلىٰ أهل مكة العطايا والأموال الكثيرة وكسوة الكعبة من القباطي الأبيض[2].

واتصفت الحوادث في سنتي ٣٩٨هـ - ٣٩٩هـ بعد الاستقرار واضطراب الأمن خاصة في موسمي الحج بسبب النهب والسلب من قبل قبيلة بني هلال وكان لهذه الأعمال السيئة أثرها الإيجابي من الناحية الاقتصادية، وفي ظل هذه الأحداث إلا أن الخطبة ظلت للخليفة الفاطمي في مصر[3].

---

(١) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص١٦-١٧.

(٢) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٧هـ؛ عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٦٠ . والقباطي أو القبطية ثياب بيض رقاق تعمل بمصر وهي منسوبة إلىٰ القبط واشتهرت هذه الثياب بالدقة والرقة والبياض، انظر: ابن منظور: محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري: لسان العرب، القاهرة، ١٨٨٢م – ١٨٩١م، ٢٤٨/٩.

(٣) العيني: عقد الجمان، حوادث سنة ٣٩٨- ٣٩٩هـ ، عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٦١.

المطلب الثـــاني

الدور القيادي للحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة

لقد كان لمكة المكرمة دورها القيادي المميز عبر العصور الإسلامية المختلفة، و هو بلا شك امتداد لدورها القيادي في عصر ما قبل الإسلام، وقد تمتعت مكة بقدر كبير من الاستقرار السياسي والتنظيم الإداري والنشاط التجاري في الفترات التي سبقت دعوة المصطفىٰ ﷺ مما جعلها تختلف عن سائر مدن الجزيرة العربية، فهي لم تخضع للسيادة الأجنبية التي أطبقت علىٰ مناطق الجزيرة العربية.

وعندما آلت الخلافة إلىٰ أبناء البيت الأموي الذين اتخذوا من دمشق حاضرة لهم[١]، ثم فيما بعد خلال عصر العباسيين الذين جعلوا عاصمتهم بغداد، كل ذلك جعل مكة تمثل دور المعارضة، لاسيما وأنها ضمت العديد من كبار أبناء الصحابة والتابعين من أهل الحل و العقد، مما كان لهم تـأثيرٌ في السياسة العامة للحجاز والذين ينظرون بشيء من المرارة والأسىٰ وعدم الرضا لانتقال مركز الخلافة إلىٰ خارجها، كل ذلك جعلهم يحسون بالشيء من الألم والامتعاض إذ أن هذه التطورات السياسية قد تفقدهم مركزهم السياسي والقيادي فتكون مكة تمثل ولاية تابعة، مما يعكس أثره السياسي والقيادي، وهذه التغيرات برمتها تفسر لنا طبيعة العلاقات التي قامت بين مكة والقاهرة من ناحية وبغداد من ناحية أخرىٰ والتي اتصفت بنوع من أنواع الصراع السياسي[٢].

لقد كان أثر الحج واضحاً عبر التاريخ في دول الخلافة الإسلامية (الراشدة أو الأموية أو العباسية أو العثمانية)، كان هذا الأثر واضحاً في تحقيق ريادة أو قيادة مكة الدينية، حيث كانت هذه الدول تستمد قيمتها الدينية وهيمنتها الأدبية والسياسية من سيطرتها علىٰ المدينتين المقدستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة)، فقد اتضح أثر ريادة وقيادة الحج في مكة المكرمة في عدة أمور[٣]، منها علىٰ سبيل المثال، أن مكة أصبحت سوقاً تجارياً في موسم الحج وتحققت بذلك المعجزة الإلهية في القرآن الكريم الممثلة في قوله تعالىٰ: ﴿ں ں ڻ ڻ ڻ ڻ ۀ ۀہ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ﴾[٤].

---

(١) فواز الدهاس: الدور القيادي لمكة خلال العصر الأموي، مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد (١٩)، العدد (٤١)، جمادىٰ الثانية، ١٤٢٨هـ، ص٢٤٩.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٢٤٩.

(٣) عبدالباري الطاهر: الحج في الشرائع الإلهية وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخياً، الندوة العالمية الكبرىٰ بمناسبة اختيار مكة عاصمة الثقافة الإسلامية لعام ١٤٢٦هـ، جامعة أم القرىٰ، المحور الرابع، ص٥٩ – ٦٠.

(٤) سورة القصص: آية رقم ٥٧.

كذلك أصبحت مكة المكرمة في موسم الحج مكاناً لإظهار الاحتكاك اللغوي المتزايد بين أبناء الأمة أثناء الموسم[1] وصدق بهم قوله تعالىٰ: ﴿ں ڻ ڻ ۀ ۀ ہ ۀ ہ ہ ہ ھ ھ ھ ھ﴾[2].

إذن فهناك احتكاك ثقافي حين يجتمع عدد كبير من علماء المسلمين من أنحاء العالم، واحتكاك لغوي حين يجتمع المسلمون علىٰ اختلاف لغاتهم في موسم الحج مما يؤدي إلىٰ مزيد من التأثير والتأثر في هذا المجال، واحتكاك اجتماعي حين تتم عبادة واحدة وتختلف فيها الممارسات والسلوكيات، واحتكاك تجاري أو اقتصادي حين يأتي إلىٰ مكة في موسم الحج من كل أصناف التجارة العالمية، واحتكاك ديني حين يلتقي المسلمون علىٰ اختلاف مذاهبهم في موسم الحج. [3]

هذا كله ينعكس علىٰ إقليم الحجاز فبعد ما يؤدون الحجاج مناسكهم يذهبون إلىٰ المدينة المنورة لزيارة المسجد النبوي فيمكثون مدة من الزمن، فقد يكون منهم علماء وتجار فيتم التعايش مع أهالي وسكان المدينة المنورة فهذا ينعكس علىٰ جميع جوانب الحياة الحضارية سواء دينية أو ثقافية أو سياسية.

ولهذا فقد رأينا الصراع المحتدم بين القوىٰ الإسلامية للسيطرة علىٰ الحجاز، وإقامة الخطبة للخليفة المتغلب عليه إذ أن نظرية سياسية برزت حينما بدأ الصراع بين القوىٰ الفاطمية والعباسية ومؤداها أن من يملك زمام الأمور في مكة المكرمة والمدينة المنورة فإنه يكسب خلافته شرعية في نظر المسلمين قاطبة.

ومن خلال ما تقدم ذكره نجد أن الرحالة المشارقة في القرنين الثالث والرابع قد زاروا الحجاز ووصفوه عن طريق المشاهدة الجغرافية أثناء زيارتهم لمكة والمدينة والطائف وينبع وجدة وغيرها من مدن الحجاز، فنجد أن المقدسي قد قسم البلدان الإسلامية التي خصص كتابه للحديث عنها إلىٰ أربعة عشر إقليماً وجعل الجزيرة العربية والتي قدمها علىٰ جميع الأقاليم الإسلامية في حديثه معللاً سبب بدايته بالجزيرة العربية[4]. حيث قال المقدسي[5] (إنما بدأنا بجزيرة العرب لأن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر دين الإسلام وفيها كان الخلفاء الراشدون، والأنصار والمهاجرون، وبها عقدت رايات المسلمين، وقويت أمور الدين، وأيضاً فإن بها المشاعر والمناسك والمواقيت والمناحر؛ ولأن منها دحيت الأرض ودعا إبراهيم عليه السلام الخلق..).

فمن هذا النص الذي أورده المقدسي في كتابه تأتي أهمية الحجاز وذلك من

---

(١) عبد الباري الطاهر: نفس المرجع السابق، ص٦٠.
(٢) سورة الروم: آية رقم ٢٢.
(٣) عبد الباري الطاهر: المرجع السابق، ص٦٣.
(٤) عبد العزيز السندي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط١، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص ٣٦-٣٧.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم ، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، دار أحياء التراث، بيروت، ص٧٣.

ناحية أهمية الموقع أو أهمية الدور القيادي للحجاز، إذ ابتدأ المقدسي بالجزيرة العربية أو إقليم الجزيرة العربية، لأن بها بيت الله – الكعبة المشرفة – ومدينة النبي عليه الصلاة والسلام ثم أشار إلىٰ وجود الخلفاء الراشدون والأنصار والمهاجرون، لما لهؤلاء من مكانة في نفوس المسلمين مما يضفي عليها من احترام وتقدير ويعزز من مكانتها لدىٰ المسلمين قاطبة، فهو عندما يتحدث عن الحجاز يشير إلىٰ أن مكة هي قصبته ومصره، ومدينته التي لا تنافسها مدينة أخرىٰ في مكانتها وقدسيتها.

وقد كشف لنا المقدسي من خلال معلوماته السابقة المكانة السياسية التي بلغتها مكة خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومدىٰ ما وصلت إليه حدودها الإدارية التي شملت جميع مدن وقرىٰ بلاد الحجاز و التي اعتبرها المقدسي حسب تقسيمه ومنهجه مجرد نواحي لمكة وتوابع لها. [١]

ومن سياق ما ذُكر لا نستبعد أن الدولة العبيدية (الفاطمية) والتي امتد حكمها إلىٰ بلاد الحجاز منذ سنة ٣٥٨هـ ودخلت في صراع مع الدولة العباسية عليه، قد منحت لشريف مكة آنذاك حكم الحجاز[٢] بصفة عامة خصوصاً بعد أن نجح حكامها في السيطرة التامة علىٰ الحجاز منذ سنة ٣٦٥هـ[٣] بعد أن وجدوا ميلاً وولاءً من الأشراف خاصة وأهل الحجاز عامة، وهو ما رآه المقدسي خلال مجيئه لمكة وأكده في كتابه[٤]. من جانب آخر فإن في ذكر المقدسي لتوابع مكة الإدارية دليل علىٰ توسيع نطاق إمارتها. وبالتالي ازدياد نفوذ حاكمها، حيث أدرج ضمن توابع مكة مجموعة من المدن والمناطق البعيدة عنها جغرافياً والتي لم تكن في الوقت ذاته ضمن نطاقها الإداري سابقاً. [٥] أن هذا وذاك يدفعنا إلىٰ القول بأن أشراف مكة كانوا أكثر ولاءً وانقياداً للبعيدين من أشراف المدينة المنورة فنالوا بذلك ثقتهم وتوصيلهم علىٰ غيرهم في المنطقة.[٦]

من خلال هذه الظروف التي حدثت علىٰ أرض الحجاز سواء كانت سياسية أو دينية فقد هيأت لمكة بصفة خاصة والحجاز بصفة عامة السبل الكفيلة لتطورها في شتىٰ نواحي الحياة فبلغت مكة وهي تمثل قصبة إقليم الحجاز كما ذكر المقدسي مكانة،

---

(١) عبد العزيز السندي: مكة كما وصفها المقدسي، ص ٣٨.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٣٥١/٢- ٣٥٤؛ ابن فهد: إتحاف الورىٰ، تحقيق: فهيم شلتوت، ط١، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٤هـ، ٤٠٦/٢-٤١٦.

(٣) الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: فؤاد سيد، ط٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٨٦/١.

(٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٩٧-٩٨.

(٥) قال المقدسي في ذكر توابع مكة: (ولمة: منىٰ، أحج (أملج) الجحفة، الرفع، جبلة، مهايع، حاذة، الطائف، بلدة، وناحية يثرب لها بدر الجار العُشيرة الحوراء المروة شفيا ، يزيد، خيبر) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٦١.

(٦) عبد العزيز السندي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٣٨-٣٩.

تفوقت بها علىٰ عدد من المدن المعروفة في الحجاز وغيره فقد عدّها المقدسي قصبة بلاد الحجاز ومصرها أيضاً، وحتىٰ أيضا من ناحية المساحة فذكر المقدسي أن مكة أكبر من مدينة القدس[١] وعن حديثه عن المدينة أن عمارتها أقل من نصف مكة.[٢]

ومن إشارات المقدسي السابقة فقد يتبين لنا كثير من الحقائق والمعلومات التاريخية والحضارية المتعلقة بإقليم الحجاز ومكة فهي توحي بدخول عهد جديد من الاستقرار الأمني والتطور الحضاري خلال منتصف القرن الرابع الهجري بعد أن عانا الحجاز وعانت مكة خلال النصف الأول من القرن نفسه الكثير من المشاكل السياسية والأزمات الحضارية والتي نتج عنها اضطراب الأوضاع الأمنية، وتدهور الأوضاع الاقتصادية المختلفة، وتفاقم العديد من المشاكل الاجتماعية، في ظل انشغال العباسيين بمشاكلهم عن بلاد الحجاز وإهمال شؤونه وتزايد هجمات القرامطة والأعراب وتنوعها علىٰ مكة وطرق الحج وكثرة نزاعات الأشراف علىٰ السلطة.[٣]

أما ناحية تصدي مكة والمدينة وبقيت مدن الحجاز للحركات السياسية الداخلية والخارجية فمن هنا يتضح الدور القيادي الذي قامت به مدن الحجاز في قمع هذه الحركات والثورات التي حلت بإقليم الحجاز خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، ففي سنة ٢٣٠هـ عندما سطا بنو سليم علىٰ ميناء الجار أرسل الخليفة العباسي الواثق جيشاً بقيادة (بغا الكبير) الذي استطاع إخماد الثوار، وهنا تمثل الدور القيادي في قمع هذه الفتنة التي قامت في إحدىٰ مدن الحجاز وهي مدينة أو ميناء الجار فكان خطر هذه الفتنة أو الثورة يمتد إلىٰ المدينتين المقدستين مكة والمدينة التي هي محط أنظار المسلمين الذي يفدون إلىٰ هاتين المدينتين وخاصة في موسم الحج.[٤]

وبعد الهدوء والاستقرار الأمني في الحجاز لمدة قد تكون ربع قرن تقريباً ظهر علىٰ الساحة السياسية في مكة المكرمة (العلويون) حيث ظهر داود بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فاستطاع قطع الخطبة للعباسيين في موسم ٣٠١هـ[٥].

وبالرغم أن أشراف مكة والمدينة ينتسبون جميعاً إلىٰ بيت واحد غير أن العلاقة بينهما اتسمت بالصراع تارة والوئام تارة أخرىٰ، ولم يكن هناك من مجال لاتحاد الفرعين لأن الفاطميين والعباسيين يرون في ذلك تهديداً لمصالحهم، فقد كانوا حريصين علىٰ إذكاء العداوة بينهما، والعلويون أنفسهم أدركوا أيضاً أن استمرار الصراع بين الفاطميين من ناحية والعباسين من ناحية أخرىٰ يصب في النهاية في مصلحتهم، إذ يوظفون ذلك لمصلحة المدينتين المقدستين إدراكاً منهما أن كلا المتصارعين في حاجة إليها ليضيفا الشرعية علىٰ حكمهما.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٤٤.
(٢) نفس المصدر السابق: ص٨١.
(٣) السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٤٠-٤١.
(٤) السباعي: تاريخ مكة، ١٤٥/١.
(٥) الفاسي: العقد الثمين: القاهرة، ١٩٨٥م، ٤٢٩/٣- ٤٣٠، ابن زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ١٣٩٧هـ، ١٥/١.

ومن هنا ظل دور العلويين القيادي مراقبة الصراع الذي كان قائم بين الفاطميين والعباسيين، ولكن تحول دورهم القيادي في دخولهم طرفاً ثالثاً في هذا الصراع بعدما قام ثائر جديد من العلويين وهو جعفر بن محمد بن الحسن بن موسىٰ بن عبد الله بن موسىٰ الجون في سنة ٣٥٨هـ أو سنة ٣٥٩هـ،[١] الذي استولىٰ علىٰ مكة المكرمة ولكن هذا الثائر لم يكن مستقلاً عندما استولىٰ علىٰ مكة في حكمه بل أعلن التبعية وإعلان الخطبة للفاطميين[٢].

ومن هنا بدأ الصراع الخارجي بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فكان الدور القيادي المتمثل في الحجاز لهاتين الخلافتين كما ذكر بعض الباحثين[٣] (هو حرص هؤلاء الخلفاء من فاطميين وعباسيين علىٰ أن تتم شعائر الحج في مكة تحت رعايتهم) هنا يتمثل الدور القيادي في الحج للخلافتين العباسية والفاطمية في إقليم الحجاز بسبب تجمع المسلمين في هذه البقعة، وقال أيضاً بعض الباحثين.[٤] (فقد كان الحج مناسبة يستغلها أنصار النظامين العباسي والفاطمي للدعاية للنظام الذي يتاجرونه وقد كان هؤلاء الحجاج يؤخذون بالدعاية ويتجاوبون بوحداتهم مع الخليفة الذي تتم تحت رعايته وحمايته تأديتهم لمناسك شعيرتهم الدينية).

ومن هنا يكون الحج وإمارته من أهم القضايا التي تلقىٰ اهتماماً وعناية من الخلافة فيتم اختيار أمير الحج بعناية فائقة فهو سوف يتولىٰ قيادة حجاج هذه الخلافة أو تلك، فلابد أن يتسم بالفصاحة والكياسة والفطنة ولابد له أن يكون ملماً بالأمور الشرعية، مهتماً بمن يتولىٰ أمرهم من الحجاج علىٰ اختلاف مستوياتهم، وأن يمثل الخليفة في أرض الحرمين خير تمثيل وأن يحسن إلىٰ أهل المدينتين المقدستين ويترك الانطباع الحسن عن إمارته مما سيكون له الأثر الحسن عند أهل مكة والمدينة.

ومن ذلك يتضح أن تيسير الحجيج قيادة وريادة وزعامة وتدبير وحنكة سياسية فلابد فيمن يتولىٰ هذا المنصب أن تتوفر فيه شروط منها الشجاعة والهيبة، والهداية.[٥]

(٥)

وأن من حقوق أمير الحج والشرف الذي يناله أمير الحج أن الخليفة كان يقره علىٰ تعيين الأمراء في الحرمين الشريفين، بل أن بعض الخلفاء أعطىٰ أمير الحج سلطات واسعة مثلما أعطىٰ الخليفة المعتصم في موسم حج ٢٢٦هـ أحد قواده إمارة الحج وعقد له علىٰ منابر الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة وغيرهما من البلاد

---

(١) جمال الدين سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص ١٥/١٤.
(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا، ص ١٤٥ـ ١٤٦.
(٣) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٤٤.
(٤) نفس المصدر السابق والصفحة.
(٥) سليمان صالح كمال: إمارة الحج في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٤٧هـ)، رسالة ماجستير ١٤٠٨هـ، ١٤٠٨هـ، ط١، ١٤٢٦هـ، مطابع جامعة الملك عبد العزيز، بمناسبة اختيار مكة عاصمة الثقافة لعام ١٤٢٦هـ. ص ٥٦.

التي اجتازها بالأمرة[1] إلىٰ أن رجع إلىٰ سامراء وهو القائد [أشناس التركي] [2] الذي وصل بعد ذلك إلىٰ مكة المكرمة وفوض إليها محمد بن داود العباسي في إقامة موسم الحج. [3]

فكان هذا المنصب له أثره الكبير من الناحية السياسية فقد تنافس الأمراء عليه لدىٰ الخليفة فحاول كل أمير أن يقدم أفضل ما عنده للحجاج ليفوز بثقة الخلافة وثقتهم، فلو لاحظنا أن كل أمير كان يعين لإمارة الحج أنه يحرص علىٰ أن تكون خطبة الموسم أفضل من خطبة سلفه تأييداً للخلافة وهجوماً علىٰ أعدائها فقد كانت هذه الخطبة رغم أنها لغرض ديني – تصبغ غالباً بالصبغة السياسية الدعائية حيث يقوم أمير الحج بتمجيد الخليفة الذي ولاه لهذا المنصب مما ينعكس ذلك علىٰ تنميق العبارات في الخطب فتزدهر بذلك الخطب السياسية[4].

فنلاحظ أن في سنة ٢٠٠هـ تولىٰ أمارة الحج عبد الله المأمون أبو إسحاق المعتصم بالله حيث تمكن من القضاء علىٰ فتنة ابن الأفطس والقبض عليه[5].

وعلىٰ ذلك يتمثل الدور القيادي لإقليم الحجاز عامة ومكة خاصة في إبراز دور أمارة الحج السياسي في تسكين الفتن ونشر المذاهب وتثبيت دعائم الحكم والخلافة[6].

لذا فقد كان هذا المنصب مجالاً للتنافس بين الأمراء وذوي الشأن في الدولة الإسلامية كما كان مجالاً للمتوثبين والطامعين في السلطان، ذلك أنه في موسم سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م. تولي إمارة الحج إبراهيم بن موسىٰ الكاظم بن جعفر الصادق ودعا لأخيه بعد المأمون بولاية العهد وهو أول طالبي أقام للناس الحج في الإسلام علىٰ أنه كان متغلباً لا متولياً من قبل خليفة وكان قد قدم من اليمن. [7]

فكانت أمرة الحج تمثل الدور القيادي منذ عصر الرسول ﷺ وعصر الخلفاء

---

(١) سليمان كمال: المرجع السابق: ص٦٠.

(٢) أشناس غلام تركي اشتراه المعتصم ورقاه لما ظهر من شجاعته وكان في غزوة عمورية علىٰ مقدمة الجيش واستخلفه مرة علىٰ سامراء حينما خرج منها وزاده رفعة سنة ٢٢٥هـ بأن أجلسه علىٰ كرسي وتوجه ووشحه وزوج ابنته اترنجة للحسن بن الأفشين وأحضر عرسه عامة أهل سامراء وكانت تلك منزلته عند الواثق حتىٰ أنه في سنة ٢٢٨هـ. توجه وألبسه وشاحين بالجوهر ولم يزل في عظمته حتىٰ توفي سنة ٣٢٠هـ، انظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٥٥٨/٨ – ٦٢٣.

(٣) المصدر السابق: ١٦٦/٩ – ١٦٧- ١٦٨.

(٤) سليمان صالح كمال: إمارة الحج في العصر العباسي، ص ١٠١- ١٠٢.

(٥) المسعودي: مروج الذهب، ٤٠٤/٤؛ ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن شباب العصفري: تاريخ تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٤٧٠؛ سليمان صالح كمال: المرجع السابق، ص١١٥.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ط١ ، أم القرىٰ، ١٤٠٣هـ، ٢٧٩/٢؛ سليمان صالح كمال: المرجع السابق، السابق، ص١١٥.

(٧) المسعودي: مروج الذهب، ٤٠٤/٤؛ ابن فهد: المصدر السابق، ٢٧٩/٢؛ سليمان صالح كمال، المرجع المرجع السابق، ص١١٥.

الراشدين والدولة الأموية والعصر العباسي الأول، حيث ازدهرت في العصر الأخير (العباسي الأول) إلىٰ أكبر شخصيات البيت العباسي بل أن أربعة من الخلفاء تقلبوا علىٰ أمارة الحج في عهد خلافتهم وهم: أبو جعفر المنصور[١] ، ومحمد المهدي[٢]، وهارون الرشيد[٣]، وعبد الله المأمون الذي حج بالناس في سنة ٢١٢هـ علىٰ خلاف ذلك. [٤]

أما في النصف الثاني من القرن الثالث، فقد كانت أمور الدولة العباسية مضطربة نتيجة حياة الترف والانقسام الذي أضعف الدولة وسيطرة الأتراك وتسلطهم على أن يفكروا في الخروج علىٰ رأس ركب الحجيج إلىٰ مكة المكرمة لأداء تلك الفريضة الدينية بل لعل مصاعب الطريق وأخطاره من الأمور التي حالت دون تولي هؤلاء الخلفاء إمارة الحج ولكنهم مع ذلك أسندوها إلىٰ أمراء أقوياء من البيت العباسي[٥]، مثل الفضل بن العباس[٦] ، مما يشعر برغبة الدولة العباسية في الاحتفاظ الاحتفاظ بقوة سيطرتها علىٰ مكة، لأن ذلك يكسب الدولة الحق الشرعي في هذا المنصب القيادي والروحي وأنه يجب أن يبقىٰ في البيت العباسي. [٧]

ولكن مع تغير الأوضاع وضعف الدولة العباسية أصبح ولاة الحج يعينون مراعاة للأوضاع السياسية التي تفرض نفسها في مكة، وكذلك اتجاهات القبائل التي تسيطر علىٰ طريق الحج العراقي وكذلك ما فعله القرامطة من السلب والنهب في ركب الحجيج، فقد أسندت ولاية طريق الحج ومرافقة الحجاج إلىٰ بعض القادة العسكريين من خارج البيت العباسي، إلا أن إقامة الحج للمسلمين كان يتولاه في بعض هذه السنوات قاضي مكة الحسن بن عبد العزيز بن عبد الله العباسي[٨]، ثم ابنه عبد العزيز فيما بعد، وقد استمر في هذه الولاية حتىٰ سنة ٣٣٥هـ علىٰ أرجح الأقوال، ويبدو أن إسناد ولاية

---

(١) كان ذلك في سنة ١٣٦هـ، المسعودي: المصدر السابق: ٤٠١/٤؛ الزيلعي: المرجع السابق: ص٨٥.

(٢) كان ذلك في سنة ١٥٣هـ، المسعودي: المصدر السابق: ٤٠٢/٤؛ الزيلعي: المرجع السابق: ص ٨٥.

(٣) كان ذلك في سنة ١٧٠هـ، المسعودي: المصدر السابق: ٤٠٣/٤؛ الزيلعي: المرجع السابق: ص ٨٥. ٨٥.

(٤) المسعودي أكد ذلك في مروج الذهب، انظر: ص ٤٠٥/٤؛ في حين أن المقريزي لم يذكر أن المأمون المأمون حج وهو خليفة، الذهب المسبوك في ذلك من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٥، ص٣٦-٥٨؛ الزيلعي: المرجع السابق، ص٨٥.

(٥) الزيلعي: المرجع السابق، ص٨٥.

(٦) الفضل بن العباس بن الحسن بن إسماعيل بن العباس بن محمد بن علي حج بالناس من سنة ٢٦١هـ ٢٦١هـ إلىٰ سنة ٢٦٣هـ؛ المسعودي: المروج، ٤٠٧/٤. وذكره المسعودي في كتابه المروج بقوله: (ثم كانت سنة تسع وثمانين ومائتين حين حج بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن العباس بن محمد بن علي، ولم يزل يحج بالناس كل سنة إلىٰ سنة خمس وثلثمائة)، ٤٠٧/٤.

(٧) الزيلعي: المرجع السابق، ص ٨٥.

(٨) الجزيري: درر الفؤاد المنظمة في أخبار الحجاج وطرق مكة المعظمة، المطبعة السلفية بالقاهرة، [د.ت]، ص٢٣٤.

قافلة الحج فقط لهؤلاء القادة مع بقاء إقامة الحج بمكة لقاضيها الحسن هو عدم توفر شروط الإمامة في بيت بني العباس[1]، لذلك تمثل الدور القيادي في هذه الحالة لقاضي مكة وبعض القادة العسكريين.

وبعد ضعف الخلافة العباسية في بغداد بسبب سيطرة البويهيين الشيعة وخطر القبائل المسيطرة علىٰ طريق الحج وطمعهم في قوافل الحجيج، وقيام أسر علوية ذات نفوذ بمكة ثم ظهور الخلافة الفاطمية بالمغرب وتطلعها للسيطرة علىٰ الحجاز، والصراع الذي حدث بين الخلافتين العباسية والفاطمية، وبسط نفوذ الفاطميين علىٰ الحجاز كل هذه التطورات جاءت لصالح العلويين الذين يتمتعون باحترام وتأييد جميع هذه الأطراف لذا نرىٰ إمارة الحج والمنصب القيادي لمكة ينتقل إلىٰ البيت العلوي. [2]

لذلك نرىٰ العباسيين أسندوا إليهم ولاية الحج، والذي شجع العباسيين علىٰ ذلك هو النجاح الذي حققه الزعيم العلوي عمر بن يحيىٰ الفاطمي[3] في سفارته لدىٰ القرامطة والذي أقنعهم سنة ٣٢٧هـ بفتح الطريق للحجاج وحمايتهم لهم مقابل ضريبة تؤديها الخلافة العباسية[4].

فنلاحظ أن أبو الحسن محمد بن عبد الله العلوي[5] أول من شغل منصب أمير الحج من العلويين علىٰ أرجح الآراء وكان ذلك سنة ٣٤٣هـ، واستمر في هذه الولاية حتىٰ سنة ٣٥٤هـ. [6] وبعد ذلك أسندت لأبي أحمد الحسين بن موسىٰ بن محمد العلوي نقيب الطالبيين[7] فأخذ يسير الحج مرة بنفسه أو بنواب يعينهم من قبله. [8]

فنلاحظ أن دور إمارة الحج هنا مثلت الدور القيادي للحجاز من نفس أبناء الحجاز أي الفرعيين الحسني والحسيني (الطالبيين) الذين لعبوا دوراً هاماً في هذه

---

(١) الزيلعي: المرجع السابق، ص٨٦.
(٢) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٨٧.
(٣) ذكر الفاسي في شفاء الغرام، (أن عمر بن يحيىٰ العلوي الفاطمي حج بالناس في سنة خمس وثلاثين وثلاثين وست وثلاثين وسبع وثلاثين وثمانٍ وثلاثين وتسع وثلاثين بولاية السلطان له)، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٣٤٩/٢.
(٤) الزيلعي: المرجع السابق: ص٨٧.
(٥) ذكر ابن الأثير: (في أخبار سنة ٣٤٢هـ: فيها سيَّر الحجاج الشريفان أبو الحسن محمد بن عبد الله، وأبو عبد الله أحمد بن عمر بن يحيىٰ العلويان، فجرىٰ بينهما وبين عساكر المصريين من أصحاب ابن طنج حرب شديدة، فكان الظفر لهما، فخطب لمعز الدولة بمكة، فلما خرجا من مكة لحقهما عساكر مصر فقاتلهما فظفر به أيضاً وقال في أخبار سنة ٣٤٣هـ فيها وقعت الحرب بمكة بين أصحاب معز الدولة وأصحاب ابن طنج من المصريين فكانت الغلبة لأصحاب معز الدولة، فخطب بمكة والحجاز لركن الدولة ومعز الدولة وولده عز الدولة بختار وبعدهم لابن طنج انتهىٰ)، الكامل في التاريخ، طبقة دار صادق، بيروت، ١٩٦٥م، ٥٠٦/٨-٥٠٩.
(٦) ابن الأثير: نفس المصدر السابق، ٥٠٩/٨.
(٧) الفاسي: المصدر السابق، ٣٥١/٢.
(٨) الزيلعي: المرجع السابق، ص٨٧.

الولاية وحققوا نجاحاً كبيراً في هذه الولاية، مما جعل بني العباس في عهد الطائع لله سنة ٣٨٠هـ تفويض أمير الطالبين تفويضاً مطلقاً إلىٰ جانب نقابته للطالبيين والنظر في المظالم واستخلاف ولديه المرتضىٰ والرضىٰ في ذلك. وخلع عليهما من دار الخلافة[١].

فيتضح من هذه المناصب التي يتقلدها العلويون وجود إدارة مركزية في مقر الخلافة العباسية تتولىٰ تنظيم الحج وتسييره تحت أمرة أمراء يقومون بهذه المهمة نيابة عن أمراء الحج الذين يعينون من قبل الخلافة العباسية ويتمركزون في بغداد، هذا من ناحية ومن ناحية أخرىٰ فقد استطاع العلويين بنفوذهم أن يحققوا للخلافة العباسية بعض المكاسب السياسية والأدبية في مكة المكرمة، وأن يحولوا دون وقوع بعض الكوارث التي كانت تنزلها قبائل البدو بالحجاج العراقيين[٢]، ومن هنا يفهم أن الدور القيادي المتمثل في أمرة الحج كان يقوم به العلويين، بمساندة الخلافة العباسية تارة وتارة أخرىٰ بمساندة الخلافة الفاطمية في أواخر القرن الرابع الهجري.

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية [د.ت]، ٥٧/٤؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٨٧.

(٢) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص٨٨.

الفصل

أهم مظاهر الحضارة في الحجاز
من خلال كتب الرحالة المشارقة

❁ المبحث الأول : الجانب العلمي :

المطلب الأول: مراكز العلم

المطلب الثاني: كبار العلماء.

المطلب الثالث: أشهر العلوم وأهم الكتب.

❁ المبحث الثاني : الجانب الاقتصادي :

المطلب الأول: الزراعة ووسائل الري.

المطلب الثاني: التجارة.

المطلب الثالث: الصناعات والحرف.

المطلب الرابع: المعاملات المالية.

❁ المبحث الثالث : الجانب الاجتماعي :

المطلب الأول: عناصر السكان.

المطلب الثاني: الحياة العامة في الحجاز.

المطلب الثالث: الكوارث والأوبئة.

المبحث الأول

الجـــانب العـلمي

- المطلب الأول: مراكز العلم.
- المطلب الثاني: كبار العلماء.
- المطلب الثالث: أشهر العلوم وأهم الكتب.

المطلب الأول

مــراكــز العـــلم

إن من أسباب استمرار الحركة العلمية في بلاد الحجاز وخاصة في مكة المكرمة وغيرها من مناطق الخلافة الإسلامية، دعوة القرآن الكريم والسنة النبوية إلىٰ التعلم والتعليم وحثهما الناس علىٰ طلب العلم وبيانهما لفضيلته وإشادتهما بأهله[١]، فجعل الله للذين يعلمون ميزة علىٰ غيرهم بقوله تعالىٰ: ژ □ □ □ □ □ □ □ □□ □ ى ى ي ي □ ژ [٢].

وأعلىٰ الله منزلة العلماء وأغرق عليهم أسمىٰ الدرجات فقال تعالىٰ: ژ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ ژ [٣]، كما أمر سبحانه وتعالىٰ رسوله ﷺ ومن ثم عباده بالاستزادة من العلم فقال سبحانه: ژ ٺ ٺ ٿ ٿژ [٤].

كما حث الرسول عليه الصلاة والسلام علىٰ طلب العلم فكان يشجع المسلمين علىٰ تعلم القراءة والكتابة، وقد طلب من قريش مقابل فك أسرىٰ معركة بدر أن يعلم الأسير عشرة من أبناء الأنصار القراءة والكتابة، وقال رسوله الله ﷺ : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما العلم بالتعلم) [٥]. ورغب المسلمين في طلب العلم فقال ﷺ : (من سلك طريقاً يبتغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلىٰ الجنة..) [٦].

مما لا شك فيه أن أولىٰ هذه المراكز العلمية في الحجاز المدينتين المقدستين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) وهذا لا يعني انعدام الحياة العلمية في بقية مدن الحجاز، فمن خلال إشارات المصادر المعنية برصد الحركة العلمية في الحجاز يتضح لنا النشاط العلمي الذي كان منتشراً في مدن الحجاز الأخرىٰ.[٧]

حيث نجد في كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين أن

---

(١) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، ١٤٢١هـ، ص٢٦.
(٢) سورة الزمر: آية ٩.
(٣) سورة المجادلة: آية ١١ .
(٤) سورة طه: آية ١١٤.
(٥) صحيح البخاري، بيروت، المكتبة الثقافية [د. ت] ، ٤٥/١.
(٦) نفس المصدر السابق والجزء الصفحة.
(٧) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٥.

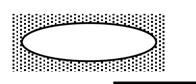
أم القرىٰ وهي مكة المكرمة كما قال المقدسي في كتابه [١] (هي مصر هذا الإقليم) فمن خلال ما ذكره المقدسي يتضح أن مكة المكرمة كانت أهم المراكز العلمية في الحجاز بسبب وجود المسجد الحرام الذي له مكانة رفيعة في قلب كل مسلم، بل أن إسلام المسلم القادر لا يكتمل إلا بأدائه فريضة الحج وبذلك يتم الالتقاء في هذا البلد وفي هذا الموسم من كل عام فيحصل الاطلاع والنقاش ومعرفة ما لدىٰ بعضهم والاستفادة من كل ذلك في شتىٰ مجالات الحياة، فتعقد اللقاءات والمناظرات العلمية [٢]. فقد حازت مكة شهرة علمية كبيرة منذ القرن الأول الهجري وذلك لكثرة من يوجد بها من علماء الصحابة والتابعين وتابعيهم [٣]، رضي الله عنهم أجمعين مما جعلها تتفوق وتشتهر علىٰ الأقطار الأقطار الإسلامية الأخرىٰ في مختلف العلوم الشرعية وغيرها باستثناء جارتها المدينة المنورة. [٤]

وتأتي مدينة الرسول ﷺ ثانياً بعد مكة المشرفة، فقد ذكر المقدسي (أنها اقل من نصف مكة) [٥] حيث أوحىٰ المقدسي أنها البلدة الثانية بعد مكة المشرفة والتي شرفها الله بتلقي كلماته ووحيه، ففيها نزلت معظم آيات التشريع وفيها عاش خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ ودفن فيها وكذلك أغلب الصحابة رضوان الله عليهم وفيها اكتملت تعاليم الإسلام[٦]، فمن ذلك ازدهرت الحياة العلمية فيها كما ذكر السخاوي[٧]: "فأما المدينة فكان العلم وافراً بها في زمن الصحابة من القرآن والسنن، وفي زمن التابعين كالفقهاء السبعة "[٨].

حيث أن هناك مؤسسات ومراكز ومقرات وأماكن كان يتم فيها إلقاء العلوم من المعلمين وتلقيها من الطلاب أو غيرهم ممن يرغبون في السماع والاستفادة ويمكن أن تقسم هذه الأماكن أو المؤسسات إلىٰ عدة أقسام حيث كان بعضها يخدم التعليم في

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ص٧٥.
(٢) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٧.
(٣) ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي: مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء فقهاء الأقطار، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، ط١، ١٤٠٨هـ، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص٥٥-٦٤ – ١٣٣.
(٤) عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص١٧٩.
(٥) أحسن التقاسيم: ص٨١.
(٦) المصنف: الحياة العلمية، ص٢٧.
(٧) السخاوي، محمد بن عبدالرحمن بن محمد: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: فرانز رورنثال، رورنثال، ترجمة: صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٢٩١، ٢٩٢.
(٨) وهم: القاسم بن محمد [ت ٩٤هـ]، وسعيد بن المسيب [ت٩٤هـ]، وعروة بن الزبير [ت ٩٤هـ]، وأبو وأبو بكر بن عبد الرحمن [ت ٩٤هـ]، وخارجه بن زيد [ت٩٩هـ]، وسليمان بن يسار [ت١٠٧هـ]، وعبيد الله بن عبدالله بن عتبه [ت ١٠٢هـ]، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق: صالح السمر، ١٤٠٢هـ، ٤٣٨/٤.



مراحله الأولىٰ، والبعض الآخر يخدم التعليم في مراحله العليا، وبعضها كان مشتركاً في مرحلتين،[1] ولهذا كان أولىٰ هذه المؤسسات التعليمية أو المقرات أو الأماكن علىٰ النحو التالي:

١- المساجد:

يحتضن الحجاز المسجد الحرام في مكة المكرمة والمسجد النبوي بالمدينة المنورة، إلىٰ جانب العديد من المساجد الأخرىٰ ذات السمة التاريخية العريقة.

أ) المسجد الحرام:

حيث كان المسجد الحرام أشهر الأماكن لتلقي العلوم المختلفة في المراحل العليا علىٰ مستوىٰ دار الإسلام فقد كانت تدار فيه الحلقات العلمية في مختلف العلوم، سيما وأن المجاورين فيه من مختلف بلدان الإسلام يتنوعون في فنونهم العلمية إضافة إلىٰ علماء الحجاز أنفسهم، الأمر الذي جعل من المسجد الحرام مدرسة يتم فيها تدريس مختلف العلوم وفي أوقات مختلفة لكون أغلب علماء المسجد الحرام والمجاورين يسكنون بجوار الحَرَم مما جعل الحلق والمجالس العلمية فيه مستمرة من الصباح حتىٰ المساء،[2] ومع أن المسجد الحرام لا يخلو من رواد العلم علىٰ مدار العام علىٰ الرغم من الخلافات المذهبية، فقد استمرت فيه حلقات العلم وكانت هذه الحلقات تزداد كثرة في موسم الحج وشهر رمضان المبارك حيث يكثر في هذه المواسم زوار بيت الله الحرام، وتكثر الحلقات العلمية فيه حيث كانت تنقسم [3] إلىٰ حلقات دائمة وهي الحلقات الحلقات العلمية التي يعقدها شيوخ مختصون في أيام معلومة يحضرها الطلاب وطلبة العلم وهي علىٰ شكل حلقة ويجلس العالم في صدر هذه الحلقة، أما القسم الثاني من الحلقات فهي المؤقتة وهي التي تعقد لفترة قصيرة وبشكل مؤقت في المواسم مثل موسم الحج وشهر رمضان المبارك[4]، مثل حلقة إسماعيل بن إبراهيم الجرجاني. (ت ٣٩٦هـ)[5].

ومع ذلك فلم تكن المساجد الأخرىٰ بمكة، سيما مساجد المشاعر المقدسة المعروفة بمنأىٰ عن التعايش مع النشاطات العلمية المتأججة آنذاك فقد احتوت هذه المساجد إسهامات علمية متنوعة، خصوصاً في مواسم الحج من كل عام لذلك لا

---

(١) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢-٣٣.
(٢) نفس المرجع السابق: ص٣٩.
(٣) عمر عبد الجبار: دروس في ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، ط١، دار نفيس، مصر، ١٣٧٩هـ، ص٧؛ خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٧٥.
(٤) خيرية آل سنه: المرجع السابق، ص١٧٨.
(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء، طبعة ١٤٠٢هـ، ٨٨/١٧.

نستبعد أيضاً انتشار بعض الحلق العلمية أو الدروس في مساجد مكة الأخرىٰ في ظل ملاءمة الظروف ومناسبتها في كثير من هذه المساجد التي عُني بعمارتها وتزويقها[١] والتي شهدت في الوقت نفسه زيارات لبعض العلماء وطلابهم[٢] ممن سيحرصون بطبيعة الحال أثناء ذلك علىٰ تداول بعض المعلومات الواردة عن هذا المكان وقدسيته[٣].

ب) المسجد النبوي:

يُعتبر المسجد النبوي علىٰ صاحبه أفضل الصلاة والسلام ثاني المساجد أهمية بعد المسجد الحرام بالنسبة لأماكن تلقي العلوم في المراحل العليا علىٰ مستوىٰ دار الإسلام، فقد ذكر الاصطخري بأن المدينة المنورة أقل من نصف مكة، وبذلك يأتي المسجد النبوي بعد المسجد الحرام[٤] ، حيث تقام الحلق والمجالس العلمية فيه ووجود العلماء به سواء من أبناء المدينة أو ممن رحلوا إليه من مختلف الأقطار الإسلامية الأخرىٰ بهدف المجاورة به والتفرغ للعبادة ونشر العلم فيه وكذلك فضل الصلاة حيث قال ﷺ: (صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام) [٥] ولأن قبر الرسول ﷺ فيه فقد ازدادت أهميته لدىٰ المسلمين، حيث كان هذا المسجد يرابط فيه الطلبة الذين يحرصون علىٰ الرحلة والهجرة إليه [٦]، لذلك زخر بالحلق والمجالس العلمية الدائمة مثله مثل المسجد الحرام، كما وجدت أيضاً وفي معظم الأحيان العديد من المجالس والحلقات العلمية في وقت واحد وبإشراف العالم نفسه عن طريق تأهيله لبعض طلابه في المراحل العليا، بأن جعل علىٰ كل مجلس أو حلقة علمية من يقوم بالاقراء والتدريس فيها فهذا العالم [قالون] [٧] عرف واشتهر بقارئ أهل المدينة في زمانه ونحويهم، يصف لنا ذلك بقوله: (قال لي نافع: لم تقرأ علي، اجلس إلىٰ اسطوانة حتىٰ أرسل إليك من يقرأ) [٨] هذا يدل علىٰ كثرة وجود الحلق والمجالس العلمية في المسجد النبوي وفي نفس الوقت وجد من العلماء ممن كانوا يقيمون في

---

(١) الفاكهي، محمد بن إسحاق: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ١٤٠٧هـ، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ٣٠/٤-٣٣.

(٢) نفس المصدر السابق، ١٨/٤.

(٣) عبد العزيز بن راشد السنيدي: الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، ص١١٩.

(٤) الاصطخري: المسالك، ص٢٢.

(٥) أخرجه: الترمذي، أبو عيسىٰ محمد بن عيسىٰ بن سورة بن موسىٰ: جامع الترمذي، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٤٢٠هـ، دار السلام، الرياض، (باب ما جاء في فضل المدينة) رقم (٣٩١٦)، ص٨٨١.

(٦) الذهبي: معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والإعصار، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، [د.ت]، ١٢٨/١.

(٧) هو عيسىٰ بن مينا بن وردان بن عيسىٰ الزرقي مولىٰ بني زهرة، ربيب نافع، وهو الذي لقبه قالون قالون لجودة قراءته،وهي لفظة رومية معناها جيد،ولم يزل يقرأ علىٰ نافع مهر وصدق، وطال عمره، وتوفىٰ بالمدينة سنة ٢٢٠هـ، الذهبي: المصدر السابق ١٢٨/١ – ١٢٩.

(٨) المصدر السابق: ١٢٩/١.

المدينة ويطيب لهم في فترات مختلفة أن يلقوا أثناء ذلك الدروس العلمية، إضافة إلى ذلك كانوا يجيبوا على الأسئلة العامة والخاصة [١]، وهذا دليل على وجود مجالس علمية دائمة في المسجد النبوي الشريف يتم فيها إلقاء الدروس في ميادين العلوم المختلفة والتي تعود بالنفع على أصحابها وبما يتلاءم مع نصوص وآيات القرآن الكريم وأهداف ديننا الإسلامي الحنيف التي لا يزيغ عنها إلا هالك[٢].

كما أن هناك علماء تخصصوا بإصدار الفتاوى في مجالسهم العلمية داخل المسجد النبوي[٣] مثل: علي بن موسى بن جعفر أبو الحسن الهاشمي[٤].

وهناك علماء كانوا يأتون من أقطار إسلامية أخرى إلى المسجد النبوي أثناء أدائهم لفريضة الحج، فكانوا يأتون إلى المدينة المنورة لزيارة[٥] المسجد وقبر الرسول ﷺ وأثناء ذلك كانوا يحضرون [٦] الحلقات والمجالس العلمية في المسجد النبوي ويشاركون فيها بما لديهم من علوم مختلفة. [٧]

هذا بالنسبة للمسجد الحرام والمسجد النبوي اللذين أسهما في نشاط الحركة العلمية في الحجاز وهذا لا يعني إغفال دور المساجد الأخرى في الحجاز وأن عدم ذكر هذه المساجد يعني أنها لم يكن لها إسهام فاعل في الحياة العلمية في الحجاز في هذه المدة ولكن هناك الكثير من المساجد في الحجاز في تلك المدة أدت دورها في تطور وازدهار الحياة العلمية[٨]، وللتأكيد على ذلك يروى عن ابن الأعرابي [٩] أنه حدث في في مسجده بمكة [١٠] وهذا دليل كافٍ عن دور المساجد الأخرى في تطور الحياة العلمية في الحجاز في مدة دراسة هذا البحث. ولعل المساجد الموجودة في الطائف مثل مسجد العباس بن عبد المطلب ومدن الحجاز الأخرى لا تقفل، ورغم عدم وجود

(١) القاضي عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبي البستي: تركيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت، ٣٧٠/١.
(٢) نفس المصدر السابق، ١/ ٣٧٠.
(٣) السخاوي: التحفة اللطيفة، ط ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٣٠٢/٢-٣٠٣.
(٤) هو الإمام السيد أبو الحسن علي الرضى ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي بن الحسين الهاشمي العلوي المدني، ولد بالمدينة في سنة ١٤٨هـ، حيث أفتى وهو شاب في أيام مالك، توفي سنة ٢٠٣هـ. انظر: الذهبي: سير الأعلام، ٢١٨/٧.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، طبعة ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، ١٧٠/٥.
(٦) الذهبي: المصدر السابق، ١٦٢/١.
(٧) القاضي عياض: تراجم أغلبية، تحقيق: محمد الطالبي، ١٩٦٨م، المطبعة التونسية، ص١٧٥-١٨٤. ١٨٤.
(٨) مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف، ص ١٨٥- ١٨٧.
(٩) هو أحمد بن محمد بن زياد بن بشير بن درهم العبدي، أبو سعيد الأعرابي البصري، نزيل مكة وشيخها، حدث عن أبي داود السجستاني بكتاب السنة من تأليفه، وهو شيخ الحرم في وقته، مات بمكة سنة ٣٤١هـ. انظر: السخاوي: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق: فرانز رورنثال، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢٧٣-٣٨٢.
(١٠) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: مجموعة من المحققين، ط١ ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، دمشق، ٢٦١/٣.

معلومات إلا أنها لا يمكن أن تكون بعيدة عن النشاط العلمي[١].

٢- الكتاتيب[٢]:

تعد الكتاتيب من أبرز مؤسسات التعليم وأهمها عند المسلمين [٣] لارتباطها بتربية وتثقيف النشء، ولقد عرفت الحجاز الكتاتيب منذ زمن بعيد قبل الإسلام حيث وجدت عند العرب بصفة عامة آنذاك[٤]، واتضح ذلك من خلال اشتراط الرسول ﷺ علىٰ الأسرىٰ من أهل مكة بعد غزوة بدر أن يكون فداؤهم هو تعليم المسلمين. [٥]

وقد كانت مهمة هذه المؤسسة التعليمية آنذاك علىٰ تعليم القراءة والكتابة فقط مختلفة في هذا كثيراً عن منهجها فيما بعد. [٦]

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين ازداد وجود الكتاتيب علىٰ مستوىٰ دار الإسلام عامة والحجاز بشكل خاص[٧] نتيجة لازدياد أعداد السكان، الأمر الذي يتطلب يتطلب ضرورة إنشاء الكتاتيب في كل قرية أو حي أو مدينة، وللتأكيد علىٰ وجود الكتاتيب في المدة المذكورة آنفاً يروىٰ عن الإمام الشافعي [٨] قوله: (كنت وأنا في المكتب أسمع المعلم يلقن الصبي فأحفظ ما يقول) [٩] ويذكر السبكي[١٠] أن أحمد بن

---

(١) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٤٧.

(٢) الكتاب: موضع تعليم الصبيان، والجمع الكتاتيب، والمكاتب، المُعلم، انظر ابن منظور: لسان العرب، العرب، ٣٨١٧/٦ "مادة كتب" طبعة دار المعارف.

(٣) عبد اللطيف بن دهيش: الكتاتيب في الحرمين الشريفين وما حولهما، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، مكة مكة ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص١١ ؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١١٥.

(٤) عبد الفتاح أحمد حجاج: التعليم الإسلامي "دراسة تاريخية تحليلية" مجلة كلية التربية بمكة، جامعة الملك عبدالعزيز، العدد الخامس، رجب، ١٤٠٠هـ، ص٩٤؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١١٥.

(٥) ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل: مسند الإمام أحمد بن حنبل، إعداد: محمد سليم سمارة ورفاقه، ورفاقه، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ٣٠٧/١.

(٦) عبد اللطيف بن دهيش: المرجع السابق، ص١١.

(٧) المرجع السابق: ص ١٠-٦٨.

(٨) هو محمد بن إدريس الشافعي، ولد بالشام بغزة وقيل: باليمن سنة ١٥٠هـ وحمل إلىٰ مكة وسكنها وتردد علىٰ الحجاز والعراق وغيرهما، ثم قدم مصر واستوطنها، روي عن مالك وابن عيينة، والدراوردي وغيرهم؛ القاضي عياض: المدارك ٣٨٢/١.

(٩) نفس المصدر السابق: ٣٨٣/١.

(١٠) السبكي: طبقات الشافعية الكبرىٰ، تحقيق: عبد الفتاح الحلو، محمود محمد الطناحي، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مطبعة هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ٤٦/٣-٤٧.

محمد بن عبدوس[1] كان يدرس في مكة[2] في القرن الرابع للهجرة وهذا يدل علىٰ أن أن التدريس كان يتم في مكة وفي غيرها من أرض الحجاز لطلاب المراحل الأولىٰ.[3]

وكانت الكتاتيب منتشرة في أحياء مكة وأزقتها خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين كما يبدو بشكل وافر حيث تسعفنا بعض المصادر بأسماء عدد من الكتاتيب المنتشرة في مكة آنذاك ككُتاب أبي عثمان المقام عند باب دار القسري[4] وكتاب آخر لرجل يدعىٰ مهر[5] وثالث لأبي عمر المعلم[6]، إضافة إلىٰ ما انتشر منها في المسجد المسجد الحرام[7] كما تلمح المصادر أيضاً لشخصيات عُرفت بتولي مهمة تعليم الصبيان في مكة كعطاء بن أبي رباح[8] وقيس بن سعد الحبشي[9] وعبد الكريم بن أمية بن أبي المخارق وغيرهم.[10]

ولا شك أيضاً أن الكتاتيب كانت موجودة ومن الدلائل علىٰ وجود الكتاب في فترة الدراسة أن الكثيرين من أبناء مكة وصلوا إلىٰ مرحلة متقدمة في العلم مع صغر سنهم، ولابد أنهم التحقوا بالكتاب ليتعلموا مبادئ الكتابة والقراءة فقد سمع أحمد بن

---

(١) هو: أحمد بن محمد بن عبد القدوس بن حاتم الفقيه أبو الحسن الحاتمي، وكان من علماء الشافعية وسمع الكثير من الأحاديث بخراسان والعراق والحجاز، وتوفىٰ سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م؛ انظر: السبكي: المصدر السابق، ٤٦/١-٤٧.

(٢) السبكي: المصدر السابق، ٤٧/١.

(٣) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٣٣.

(٤) دار القسري: نسبة إلىٰ خالد بن عبد الله القسري، وقد اشترىٰ هذه الدار من قوم من الأزد انظر: الفاكهي: أخبار مكة، تحقيق: عبد الملك بن دهيش ١٤٠٧هـ، مطبعة النهضة الحديثة، ٢١١/٣؛ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد، تحقيق: رشيد ملحس، ط٤ ، دار الثقافة، مكة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢٤٩/٢.

(٥) الفاكهي: المصدر السابق: ٢١١/٤.

(٦) الأزرقي: المصدر السابق: ٢٤٢/٢.

(٧) ابن حبان: مشاهير علماء الأمصار، دار الكتب العلمية، عُني بتصحيحه فلايشهمر، ص١٤٨.

(٨) هو شيخ الإسلام ومفتي الحرم أبو محمد القرشي، كان من مولدي الجند، نشأ بمكة، ولد في أثناء خلافة خلافة عثمان بن عفان، كان ثقة فقيهاً عالماً، كثير الحديث، توفي سنة ١١٤هـ. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٤٨/٥-٤٩.

(٩) وقيس بن سعد أحد مشائخ مكة وفقهائها روىٰ عن عطاء بن أبي رباح ومجاهد بن جبر وغيرهما وهو وهو ثقة في مروياته عند كثير من الأئمة توفىٰ سنة ١١٩هـ بمكة؛ ابن حيان: المصدر السابق، ص١٤٦.

(١٠) وابن أبي المخارق: بصري نزل مكة واشتغل بتعليم الصبيان، وقد روىٰ الحديث عن سعيد بن جبير ومجاهد بن جبير وغيرهما، وروي عنه الثوري وابن جريج وغيرهما وقد ضعفت مروياته لدىٰ عدد من أئمة الجرح والتعديل مات سنة ١٢٧هـ ؛ العقيلي، محمد بن عمرو بن موسىٰ: الضعفاء الكبير، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٨٤م، ٦٢/٣-٦٣.

إبراهيم بن فراس[١] وهو ابن عشر سنين، وإذا كان المقصود بسمع علم الحديث أو الفقه، أو القراءات فإنه لن يصل إلىٰ هذه المرحلة حتىٰ يتعلم أصول القراءة والكتابة، وهكذا بالنسبة لبقية أبناء مكة وأبناء الحجاز، تعليم كل الصغار عن طريق آبائهم، وأفراد أسرهم. [٢]

وقد كان يتم بعد انتهاء ختم الأبناء في مكة للقرآن الكريم حفل كبير، له مراسيمه الخاصة [٣]، وكانوا يسيرون بهم في موكب يقطع به طرق مكة. [٤]

٣- منازل العلماء:

لم تكن اللقاءات العلمية في المنازل بمكة وليدة القرن الثاني والثالث الهجريين وما بعده وإنما عُرفت كأماكن للتعليم منذ بزوغ فجر الإسلام عندما كانت الدعوة الإسلامية في طور النشأة حيث كانت دار الأرقم بن أبي الأرقم ﵁، وكذلك منزل الرسول ﷺ مكاناً مناسباً اختلىٰ فيه المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام بأصحابه يدرسهم فيها القرآن الكريم ويعلمهم أمور الدين ومبادئه.

ومع ذلك فقد حل القرن الثاني الهجري بنشاطه العلمي المتدفق في مكة علىٰ المنازل مزيداً من التألق لدعم الحركة العلمية وإنمائها آنذاك كما أتاحت في الوقت نفسه المجال أمام عدد من الدارسين لإشباع رغباتهم العلمية المختلفة. [٥]

من هذه الناحية لم يقتصر التعليم علىٰ المسجد بل وجدت أماكن أخرىٰ للغرض نفسه وهي تلك المنازل العلمية في بيوت أو منازل العلماء وهذا العمل لم يكن ملزماً لدىٰ العلماء أنفسهم أو أمراً مفروضاً عليهم بل كان في المقام الأول تقرباً منهم إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ، وثانياً أنه نابع من قناعتهم الكاملة بضرورة ذلك، حرصاً منهم علىٰ نشر علومهم، حتىٰ ولو كان علىٰ حساب راحتهم مع أفراد أسرهم كون المتعارف عليه أن المنازل قد جعلت للاستقرار والهدوء والراحة لكون الإنسان يمارس نشاط عمله خارج المنزل منذ الصباح. [٦]

ومع ذلك فلم تكن منازل العلماء كمنازل العامة أو الخاصة، لكنهم جعلوها

---

(١) هو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن علي بن فراس العبقسي أبو الحسن المكي العطار، مُسند الحجاز في زمنه، ولد سنة ٣١٢هـ، وتوفي سنة ٤٠٣هـ. الفاسي: العقد الثمين، ٣/٣ – ٤.
(٢) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة المكرمة، ص ١٧١.
(٣) الفاكهي: أخبار مكة، ٣٠٢/١.
(٤) ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد: العيال، ط١، تحقيق: نجم خلف، الدمام، دار ابن القيم، ١٩٩٠م، ٤٨٩/١، ٥٣٠؛ خيرية آل سنه: المرجع السابق، ص١٧١.
(٥) عبد العزيز السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١٢٠.
(٦) عبد الرحمن الشجاع: الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين، (رسالة دكتوراه) دكتوراه) في التاريخ والحضارة، غير منشورة، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ص٩٠؛ عبد الرحمن المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٤٧.

وسخروها لخدمة العلم وحملته. ولكونهم كانوا يعقدون الحلقات والمجالس العلمية في المساجد أو في غيرها من الأماكن التي خصصت للتعليم في المراحل الأولىٰ والعليا، منذ الصباح وحتىٰ المساء، فقد كان العلماء يعقدون مجالسهم العلمية في منازلهم في الغالب بعد انقضاء الصلوات.[١]

ويهيئ لقاء الطالب للعالم في منزله فرصاً ومزايا لا تتحقق في الغالب أثناء الدروس والحلق المنتظمة؛ كالغوص أكثر في علوم الشيخ ومعارفه المتنوعة أو كشف ما غمض علىٰ الطالب أو استعصىٰ فهمه أثناء الدرس.[٢]

ومن الطلاب من يتجه إلىٰ منازل بعض العلماء رغبة في تعويض ما فاته من دروس علمية للعالم أو استظهار ما لم يدركه منه أثناء الدرس.[٣]

كما أن لقاء الطالب للعالم في منزلة يتيح له فرصة الإطلاع عن كثب علىٰ ما يحويه منزل العالم من مقتنيات علمية قيمة، فهذا أحد طلاب العلم[٤] يقول: (كان مجاهد يصعد بي إلىٰ غرفته فيخرج إليّ كتبه، فأنسخ منها)[٥].

وكذلك هناك مجالس علمية تقام في منازل العلماء قد تكون معلنة أو سرية حسب الأوضاع السياسية والمذهبية، ومن المؤكد أن من يعقد المجالس السرية لابد وأن يكون له مكانة كبيرة حتىٰ يحضر إليه من يبغي حضور مجلسه سراً.[٦]

وكذلك هناك مجالس علمية تقام في منازل العلماء لظروف ما، ربما بسبب توقف العلماء أنفسهم عن نشاطهم العلمي المعهود ممتنعين عن التدريس، فيبحث الطلاب عنهم بوسيلة ناجحة، للاستفادة منهم في منازلهم، يقول عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي[٧] متحدثاً عن محمد بن محمد بن يزيد بن حنيس المكي[١]: (سألت أبي

---

(١) السمهودي، نور الدين علي بن أحمد: وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد، دار الكتب العلمية، بيروت، [د،ط، ت]، ٦٦٥/٢؛ عبد الرحمن المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٤٧-٤٨.

(٢) عبد العزيز السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١٢٠.

(٣) منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتىٰ القرن الخامس الهجري، ترجمة: سامي الصقار، دار المريخ، الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٧٢؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١٢١.

(٤) هو أبو يحيىٰ الكناسي، ولم أجد من ترجم له في المصادر المتاحة؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص١٢١.

(٥) الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت: تقييد العلم، ط٢، دار إحياء السنة النبوية، ١٩٧٤م، تحقيق: يوسف العش، ص١٠٥؛ السنيدي: المرجع السابق، ص١٢١.

(٦) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨٤.

(٧) هو إمام حافظ، ولد بالري سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م ورحل في طلب العلم إلىٰ بلدان إسلامية مختلفة، وكان بحراً في العلوم ومعرفة الرجال، له مصنفات عديدة في الفقه والتفسير والاختلاف فضلاً عن جهوده في علم الرجال حيث خلف مصنفاً ضخماً في الجرح والتعديل. ت ٣٢٧هـ؛ انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ت]، ٢٨٩/٣- ٨٣٢.

عنه فقال: كان شيخاً صالحاً كتبنا عنه بمكة، وكان ممتنعاً من التحديث فأدخلني عليه ابنه) [٢].

وروي عن بعض الراحلين إلىٰ مكة، أنهم أقاموا عند سفيان بن عيينة[٣] وأخذوا عنه العلم[٤] وهذا يوضح أن منزل سفيان بن عيينة كان يمثل مدرسة يتم فيها الدراسة وكذا الإقامة.

وبهذا فقد لعبت منازل العلماء دوراً في الحياة العلمية في مكة، خاصة بعد السيطرة الفاطمية عليها وظهور حكم الأشراف[٥].

٤- خزائن الكتب (المكتبات):

إن خزائن الكتب ليست مجرد مستودع لكتب يشرف عليه عالم، أو أديب أو متعلم يحرص علىٰ ما فيه ويحفظه من الضياع، بل معمل للثقافة، ومؤسسة علمية وقد عرفها المسلمون بهذه الصفة، وقد كان لها دورها في الحركة العلمية والتعليمية. [٦]

ولأهمية الكتب لدىٰ العلماء والمتعلمين من العامة والخاصة فقد حرص الجميع علىٰ اقتنائها وبذلوا في سبيل ذلك جهوداً لا يستهان بها،[٧] بل وصل الأمر إلىٰ اهتمام أولياء أمور المسلمين في مختلف دار الإسلام إلىٰ تكوين المكتبات العامة بل والخاصة وتشجيع المهتمين بذلك، كما حرصوا علىٰ ترجمة مختلف الكتب غير العربية إلىٰ العربية لمعرفتها وتداولها بين أيدي المسلمين[٨] والأخذ منها كل ما يعود نفعه علىٰ

---

(١) من رواة الحديث الثقات في مكة روي عن الثوري وابن جريح وغيرهما من كبار العلماء، كما روىٰ عنه عدد من طلبة العلم، وهو من موالي بني مخزوم، توفي بعد سنة ٢٠٠هـ/ ٨١٥هـ؛ انظر: ابن حبان: الثقات، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ٦١/٩.

(٢) الرازي، عبد الرحمن ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل، ط١، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، [د.ت] ١٢٧/٨.

(٣) هو سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، أحد أئمة الإسلام، قال عنه الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز، عالم بالتفسير وبالسنن، توفي سنة ١٩٨هـ. انظر : الفاسي، العقد الثمين، ٥٩١/٤-٥٩٢.

(٤) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: صفة الصفوة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، المجلد الأول عند تثبيت ابن الجوزي وكتابه، ٢٠٧/٢.

(٥) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨٤.

(٦) طرفة بن عبد العزيز العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٩٩٦م، الرياض، ص٨١، خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨٥.

(٧) عبد الرحمن المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٥١.

(٨) عامر جاد الله أبو جبل: تاريخ التربية والتعليم في صدر الإسلام، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨، عمَّان، الأردن، ص٢١٦- ٢٢٠.

الإسلام والمسلمين وترك ما دون ذلك. (١)

فإن موسم الحج يعتبر فرصة لالتقاء العلماء من خلال إقامة الحلقات والمجالس العلمية والتي كان يشارك فيها علماء الأقطار الإسلامية، مما جعل الكثيرين يقومون بالتدوين(٢) لكل ما يلقونه في تلك الحلقات والمجالس العلمية، وكذلك كان كثير من العلماء ينتهزون فرصة الالتقاء ببعضهم البعض أثناء الموسم فكانوا يحملون معهم أنفس كتبهم لشرحها في المواسم علىٰ الحجاج(٣)، وربما نسخت في مكة وبيعت للراغبين فيها إضافة إلىٰ ذلك وجود العديد من العلماء ممن كانوا يأتون بكتبهم لعرضها في الموسم بغية بيعها والتكسب منها الأمر الذي أدىٰ بدوره إلىٰ أن تكون مكة والمدينة بمثابة معرض للكتب(٤) ، لمن أراد الشراء والبيع، وهذا يوحي لنا بوجود سوق أو أماكن خاصة بذلك (٥) بل أن الأرزقي أكد أن هناك سوق للوراقين بأسفل مكة. (٦)

كذلك أدت رغبة الكثير من العلماء للمجاورة في الحرمين الشريفين والتي كان البعض منهم تصل مدة مجاورته إلىٰ أربعين سنة إلىٰ أن يقوموا باصطحاب كتبهم معهم(٧) وشرحها في الحرمين أثناء مجاورتهم فيهما علىٰ المتعلمين في الحلق والمجالس والمجالس التعليمية التي كانوا يعقدونها، ومن ثم لابد من تداول الكتب هذه من خلال النسخ المجاني أو بالمقابل علىٰ أيدي الوراقين، وأيضاً هناك الكثير من حملة العلم ممن كانوا يرحلون إلىٰ الحرمين الشريفين للتصنيف فيهما تبركاً بذلك(٨)، ومن المحتمل أنهم سينشرون كتبهم في الحرمين الشريفين، وسيكون للوراقين دور في هذا النشر. وزاد في هذا المجال اشتهار الكثير من العلماء بالتصنيف في مكة والمدينة والذي أدىٰ إلىٰ زيادة الاهتمام بتوفير الأوراق وكذلك الكتب، كون ذلك من المتطلبات واللوازم الضرورية لعملية التصنيف، فقد وجد الكثير من العلماء ممن نزل مكة وسكنها خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، أو جاور بالحرمين الشريفين عملوا في تصنيف العديد من الكتب وفي مختلف فنون العلوم مثل سعيد بن منصور المروزي (ت٢٢٧هـ/٨٤١م) صاحب

---

(١) المصنف: المرجع السابق، ص٥٢.
(٢) ابن الجوزي: صفة الصفوة، المجلد الأول، ١٥٥/٢.
(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت، ١٣/١٤.
(٤) السيوطي: بغية الدعاة، طبعة دار المعرفة، [د.ت،ط]، ص٣٤.
(٥) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٥٤.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الثقافة للطباعة، مكة المكرمة، تحقيق: رشيد ملحس، ٢٦٣/٢.
(٧) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت [د،ط،ت]، ٣١١/٦؛ الذهبي: سير أعلام أعلام النبلاء، تحقيق: صالح السمر، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، بيروت، ٣١٤/١٦.
(٨) الخطيب البغدادي: نفس المصدر السابق، ٧/٢-٩.

"السنن"[١]، ومحمد بن المنذر النيسابوري[٢]، وكذلك أبو سعيد بن الأعرابي[٣] الذي سكن مكة، وحصل بتصانيفه الانتفاع[٤]، وهذا يدل علىٰ وجود الورق والوراقين في هذه المدة بالحجاز أكثر من غيرها، والذين يُعدون أدوات التصنيف الهامة[٥].

كما كان لأبي القاسم إبراهيم النصر آباذي (ت ٣٦٧هـ) خزانة في مكة حوت كتباً كثيرة، ومما يؤسف له أن مثل هذه المؤلفات لم تحفظ بعد موته، أو حتىٰ توقف علىٰ خزانة الحرم، بل تم بيعها. [٦]

مما سبق يتضح أن في مكة خزائن متعددة الكتب، بعضها خزائن عامة في الحرم نفسه، وأخرىٰ خاصة بالعلماء، وأصحاب المذاهب وهذه الخزائن حوت مجموعة كبيرة من المصاحف، والكتب الموقوفة، ومؤلفات أصحاب الخزائن، إضافة إلىٰ الكتب التي جمعوها أثناء رحلاتهم العلمية[٧].

٥- الأربطة:

أنشئت هذه الأربطة في البدايات لتقوم بمهمة الدفاع عن الأراضي الإسلامية فكانت تُقام علىٰ المدن الحدودية المتاخمة للعدو، وعلىٰ ذلك فالرباط عبارة عن بناء حصين يُعسكر فيه المتطوعين من المجاهدين في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله[٨]، وذلك امتثالاً لقول الله عز وجل: ژ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ژ[٩].

فحرص المسلمون علىٰ بناء الأربطة منذ القرون الأولىٰ للهجرة، فكان نصيب

---

(١) هو سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني، أبو عثمان المروزي، ويقال الطالقاني أحد الأعلام، مؤلف السنن، كان المتقنين الأثبات ممن جمع وصنف، توفي بمكة سنة ٢٢٧هـ. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ٥٨٦/٤.

(٢) هو الإمام الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو بكر محمد بن إبراهيم ابن المنذر النيسابوري الفقيه، نزل نزل مكة، صاحب التصانيف مثل: "الإشراف في اختلاف العلماء"، وكتاب "الإجماع" وكتاب "المبسوط"، توفي سنة (٣١٦هـ)، وله تفسير كبير في بضعة عشر مجلداً، يقضىٰ له بالإمامة في علم التأويل. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٤/ ٤٩٠-٤٩٢.

(٣) سبقت ترجمته، ص٢٥٢ .

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، ٨٨/١٤.

(٥) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٥٤-٥٥.

(٦) الذهبي: سير الأعلام، ط١، تحقيق: الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م، ٥٦١/١٧.

(٧) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨٦- ١٨٧.

(٨) الزمخشري: جار الله أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، ص١٥١، ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، [د.ت]، بيروت، ٣٠٢/٧؛ حسين عبدالعزيز حسين شافعي: الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتىٰ نهاية العصر المملوكي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ص١٣.

(٩) سورة الأنفال: آية ٦٠.

غرب وشمال إفريقية من الأربطة العديد منها، وذلك لمتاخمة العدو لها. كما أعقب ذلك العديد من الأربطة في أنحاء الدولة الإسلامية. [1]

وعند توسع الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، وقويت شوكتها ورافق ذلك تطور في النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية تغيرت وظيفة الرباط خاصة في المشرق الإسلامي، حيث تحول إلىٰ مسكن للفقراء والمساكن وغيرهم وبعد أن كان يبني في المناطق الحدودية لحماية الثغور صار يُبنىٰ داخل المدن لغرض اجتماعي وهو الإيواء والسكن[2].

وهي من المؤسسات الخيرية التي أنشأها أيضاً الحكام وأهل الخير لخدمة المسلمين[3]، وقد لعبت دوراً في خدمة المجتمع، حيث فتحت هذه الأربطة أبوابها للعلماء وطلاب العلم الذين ينتقلون في أرجاء العالم الإسلامي طلباً للحديث النبوي وعلوم الدين، واللغة العربية وغيرها[4]، ولم يقتصر علىٰ إيواء الرجال وحدهم، بل وجدت أربطة خاصة بالنساء[5] ولأهل بلاد معينة[6]، وقد ساعد وجود هذه الأربطة علىٰ تشجيع ودفع الفقراء والعوز من النزلاء وهيأ لهم فرصة طلب العلم والتفرغ له[7].

له[7].

ومن أهم الأربطة في فترة الدراسة:

أ) رباط السدرة: وهو موقوف علىٰ الفقراء بالجانب الشرقي من المسجد الحرام علىٰ يسار الداخل إلىٰ الحرم من باب بني شيبة، ولم يعرف بالتحديد تاريخ وقفة، ولكنه كان موقوفاً في سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م علىٰ حدّ قول الفاسي[8]، وموضعه دار القوارير التي بنيت في زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، ولا يعلم واقفة.

وذكر أيضاً الفاسي أنه يقع في الجانب الشرقي من المسجد الحرام علىٰ يسار الداخل من باب بني شيبة[9]. وذكر الصباغ[10] أنه كان يقع من باب السلام إلىٰ

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس، الدار السعودية، جدة، ١٤٠٥هـ، ص٦٢٣؛ شافعي: المرجع السابق: ص١٣.
(٢) حسين شافعي: المرجع السابق: ص١٣.
(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٩٨٥م، عبد السلام تدمري، ٥٢٨/١-٥٣٥.
(٤) نفس المصدر السابق: ٥٢٩/١؛ الزيلعي: مكة وعلاقاتها، ص١٥٠.
(٥) نفس المصدر السابق: ٢٥٩/١.
(٦) نفس المصدر السابق: ٥٢٨/١.
(٧) خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨٠-١٨١.
(٨) شفاء الغرام، تحقيق: عبد السلام تدمري، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٥٢٧/١.
(٩) نفس المصدر السابق، ٥٢٧/١.
(١٠) الصباغ، محمد بن أحمد بن سالم بن محمد: تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام، ط١، ١٤٢٤هـ، مكتبة الأسدي، مكة، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ٦٢٣/٢.

بـاب النبي ﷺ وأصل هذا الرباط كان رحبة بين المسجد الحرام والمسعىٰ اقتطعها[1] جعفر بن يحيىٰ البرمكي[2] من الخليفة هارون الرشيد ثم أصبحت فيما بعد تحت يد حماد البربري[3] ومن بعده توالت عليها الأيدي حتىٰ أصبحت رباطاً[4].

ب- رباط الحافظ أبي عبد الله بن مندة محمد بن إسحاق (ت. ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م)

وهو ملاصق لزيادة دار الندوة وبابه مقابل لبابها الذي يخرج منه إلىٰ السويقة، وعلىٰ بابه الذي عند باب زيادة دار الندوة، حجر مكتوب فيه، إنه وقفه علىٰ القادمين من أصبهان أربعين يوماً، وعلىٰ سائر الناس عشرة أشهر وعشرين يوماً[5].

واكتسب هذا الرباط اسمه من اسم واقفه الحافظ أبي عبد الله بن مندة الأصبهاني[6]، كما عرف هذا الرباط في زمن الفاسي[7] باسم رباط البرهان الطبري[8]، وأخيراً عرف في زمن ابن فهد[9] برباط بدر الدين الطاهر[10].

إذن هذه الأربطة لم تكن في مكة المكرمة أو في إقليم الحجاز مجرد مكان لإقامة المجاورين في الأماكن المقدسة وإيواء الفقراء والمساكين، ولم يكن نزلاء الأربطة من فئة الفقراء والمساكين الذين ألجأتهم ظروفهم المعيشية إلىٰ السكن المجاني

---

(١) الإقتطاع هنا بمعنىٰ إعطاء الحاكم لأحد أفراد الدولة قطعة من الأرض، انظر: الزمخشري: أساس البلاغة، ص٣٧١؛ حسين شافعي: الأربطة في مكة، ص٢٩.

(٢) جعفر بن يحيىٰ بن خالد بن برمك الفارسي: تفقه في الدين قتله الرشيد سنة ١٨٧هـ، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط٧، ١٤١٠هـ، مؤسسة الرسالة، ٥٩/٩.

(٣) حماد البربري: تولىٰ إمرة مكة واليمن من قبل الخليفة هارون الرشيد، سنة ١٨٤هـ، وله عدة دور بمكة، انظر: الفاسي: العقد الثمين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٢٢٤/٤-٢٢٥.

(٤) الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج، تحقيق: حمد الجاسر، ١٤٠١هـ، الرياض، ص٤٨٠.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٥٢٨/١؛ خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص١٨١.

(٦) الإمام الحافظ المحدث الجوال محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيىٰ بن مندة العبدي الأصبهاني [٣١٠هـ/ ٣٩٥هـ] رحل في طلب العلم، طاف المشرق والمغرب له من المصنفات العديد منها: كتاب، الإيمان، والتوحيد والصفات، والتاريخ، ومعرفة الصحابة، وغير ذلك من الكتب: انظر: الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: أخبار أصبهان، ط٢، نشره عبد الوهاب عبد الواحد الخليجي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، الدار العلمية، دلهي، الهند، ٣٠٦/٢؛ حسين شافعي: شفاء الغرام، ٥٢٨/١.

(٧) الفاسي: شفاء الغرام، ٥٢٨/١.

(٨) ربما يكون البرهان الطبري أحد النزلاء في الرباط، ولم نجد له ترجمة في المصادر التي بين أيدينا، أيدينا، لعدم اكتمال اسمه، أيضاً انظر: حسين شافعي: الأربطة في مكة، ص٣٨.

(٩) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، ط١، ١٤٠٥هـ، جامعة أم القرىٰ، ٢٥/٣.

(١٠) بدر الدين الطاهر حسن بن محمد بن قاسم بن قاسم بن علي بن أحمد الصعدي اليمني [٧٨٩هـ/ ٨٧١هـ] ولد بصعدة باليمن ونشأ بها، جاور بمكة وحج عدة مرات، وله مآثر بمكة مثل: تجديد هذا الرباط واستئجاره، وتجديد الميضأة المنسوبة لطنبغا الطويل بباب العمرة وغير ذلك، انظر: السخاوي: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٢٧/٣؛ حسين شافعي: الأربطة في مكة، ص٣٨.

في الأربطة وما يحصلون عليه من لقمة العيش المجانية بل كان ينزل في الأربطة فئات مختلفة من الناس، ومنهم العلماء وكان وقف الكتب على الأربطة حافزاً قوياً للعلماء للنزول في الأربطة فقد وجدت في بعض الأربطة المخصصة في البحث مكتبة يرتادها طلاب العلم والعلماء للبحث والمناقشة.[(١)]

ويمكن أيضاً القول أن الغاية من بناء الأربطة في هذه الفترة إيواء الوافدين إلى مكة من أجل طلب العلم أو الواردين إليها للعبادة والحج ولتأمين المأوى للفقراء والمعوزين، والأرامل، ولأولئك الذين آثروا البعد عن العواصم الإسلامية التي كانت ترزخ بكثرة الفتن التي انتابت هذه الحقبة الزمنية.[(٢)]

---

(١) سعيد إسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م، ص٦٠٠-٦٠١؛ ٦٠١؛ حسين شافعي: الأربطة، ص٢٤٩.

(٢) مالكي: بلاد الحجاز، ص ١٤١؛ خيرية آل سنه: الحياة العلمية في مكة، ص ٨٣.

المطلب الثـــاني

كـــبار العلمــاء

لقد رفع الإسلام قدر العلم، واهتم به وبحملته، فحث من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة علىٰ التعلم والتعليم، كما احترم العلماء ومجدهم، ورفع منزلتهم في الدنيا وفي الآخرة. حيث كان لهذه المبادئ الإسلامية النبيلة أثر قوي وفاعل في حياة المسلمين إذ راجت جماعات كبيرة منهم تبذل جهدها، وتحفز قواها في سبيل طلب العلم وتحصيله فنمت – بذلك – الحياة العلمية وازدهرت في بلدان إسلامية متعددة، ومن أبرزها بلاد الحجاز عامة ومكة المكرمة والمدينة المنورة بصفة خاصة في هذا الإقليم، والذي زاد النشاط العلمي وتوهج في صدر الإسلام خصوصاً إبان القرنين الثاني والثالث الهجريين في هذا الإقليم، حيث شارك في تحريك النشاط العلمي في هذا الإقليم علماء اختلفت مشاربهم واهتماماتهم العلمية، فكان منهم المفسرون والقراء والمحدثون والفقهاء والمؤرخون والمهتمون باللغة والأدب وغيرهم ممن آثروا الحياة العلمية بمختلف ميادينها وساهموا في تطور دراسة كثير من العلوم بعد أن جدوا في طلبها والاشتغال بتدوينها والتصنيف فيها. [1]

من جانب آخر فقد تعددت أجناس العلماء في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبقية بلدان الحجاز، فكان منهم العرب، كما كان منهم الموالي الذين شاركوا في دعم النشاط العلمي بشكل ملفت للنظر فشكلوا أغلبية المهتمين بالعلم في مكة، زد علىٰ ذلك أن كثيراً من علماء الأمصار رغبوا في النزول الدائم في مكة أو المجاورة فيها بعض الوقت، فبذلوا أثناء ذلك جهوداً علمية طيبة خدمت النشاط العلمي في مكة، فضلاً عن هؤلاء وأولئك فإن هناك مجموعة أخرىٰ من العلماء وفدوا إلىٰ مكة لغرض أو لآخر، فكانت لهم مشاركة علمية فاعلة. [2]

ولقد أشار المقدسي إلىٰ بعض الجوانب العلمية في بلاد الحجاز عامة ومكة والمدينة خاصة حيث لاحظ قلة الفقهاء والقراء بها[3]، مما يشير إلىٰ أن هناك ضعف في الحياة العلمية في تلك الفترة – أواخر القرن الثالث الهجري- عقب المشاكل السياسية التي عانت منها مكة، بعد أن شهد هذا الجانب تطوراً ملحوظاً قبل القرن الرابع الهجري[4]، وبطبيعة الحال فإن ذلك لا يعني انعدام المهتمين بالعلم خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، فالمقدسي نفسه أشار إلىٰ وجود بعض القراء

---

(١) عبد العزيز راشد السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٧-٨.
(٢) نفس المرجع السابق: ص٨.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٩٠.
(٤) عبد العزيز راشد السنيدي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، مكتبة السفير، الرياض، ص٩٣.

في مكة، وبين أنهم لا زالوا متمسكين بقراءة ابن كثير.[1] ومنهم من هو علىٰ قراءة أبي عمرو بن العلا[2] ووضح أن علىٰ هذه القراءة السواد الأعظم من سكان إقليم الجزيرة العربية.[3]

ورغم تمسك المكيين بقراءة ابن كثير واعتمادها كقراءة رسمية لإمام الحرم طوال الفترة التاريخية السابقة[4]، إلا أن المقدسي أشار إلىٰ بدء تخلي أئمة الحرم عن ذلك عندما قال[5]: (وسمعت بعض صدور القراء في مكة يقول ما رأينا ولا سمعنا أن أحداً أمَّ خلف المقام بغير قراءة ابن كثير إلا في هذا الزمان).

وقد كان أبرز المشاركين في علم القراءات في الحجاز في القرن الرابع الهجري من الحجاج والمجاورين يحيىٰ بن مجاهد الأندلسي، المتوفىٰ سنة ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م، الذي حج فعنىٰ بعلم القراءات أثناء ذلك[6] ولا شك من أن وجود علماء القراءات في مكة والمدينة ممن وفدوا علىٰ بلاد الحجاز من أقطار الإسلام للحج والجوار، وعملوا علىٰ إقراء الناس القرآن[7] وشرح مؤلفاتهم العديدة في علم القراءات القراءات خاصة، ساعد علىٰ تباين القراءات واختلاف وجوهها في بلاد الحجاز في عصر الدراسة، مما أفسح المجال أمام الراغبين والشغوفين في التوسع العلمي في هذا المجال.[8]

وهناك علماء في الحجاز اشتهروا بالعلم والمعرفة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، فمن العلماء الذين اشتهروا بعلمهم في الحجاز خلال القرن الثالث الهجري:

---

(١) وهو عبد الله بن كثير الدَّاري، إمام المكيين في القراءة، وأحد السبعة القراء المعروفين، قرأ علىٰ عبد الله ابن السائب المخزومي، ومجاهد بن جبر وآخرين كما درس الحديث علىٰ بعض الصحابة والتابعين، وتتلمذ عليه عدد كبير من طلبة العلم في مكة وغيرها، توفي سنة ١٢٠هـ/ ٧٣٧م، وقيل: ١٢٢هـ/ ٧٣٩م. وقيل غير ذلك، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط١، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٦م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠/٥؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تقديم: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠/٢.

(٢) التميمي البصري، شيخ القراء، وعالم باللغة العربية، اختلف في اسمه وأشهر ما قيل في ذلك زيان، برز في الحروف، وفي النحو، وتصدر للإفادة مدة. واشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم، توفىٰ سنة ١٥٤هـ/ ٧٧٠م. وقيل ١٥٧هـ/ ٧٧٣م، انظر: الذهبي: سير الأعلام، ٥/ ٤٥٠.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩١.

(٤) السنيدي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع، ص٩٤.

(٥) المقدسي: المرجع السابق، ص٩١.

(٦) هو ابن عوانة، أبو بكر الفزاري الأندلسي، الزاهد، كان زاهد عصره وناسك مصره الذي به يتبركون يتبركون وإلىٰ دعائه يفزعون، مجاب الدعوة، يُمنىٰ بالقراءات والتفسير، وهو من أهل العلم والزهد والتقشف، الذهبي: سير الأعلام، ٤٧٨/١٠، طبعة عام ١٤٢٨هـ.

(٧) مثل: محمد بن أحمد بن محمد بن القاسم الهروي المقري، توفىٰ سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٧م، نزيل مكة، كان يقرأ الناس فيها القرآن، انظر: الذهبي: سير الأعلام، ١٩٢/١١.

(٨) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص١٩٥.

عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون[١] والذي دارت عليه الفتوىٰ فكان مفتي أهل المدينة فتفقه عليه خلق كثير وأئمة جلة.

وهذا الإمام الحافظ المقرئ، عبد الله بن يزيد المكي [٢]، يذكر أنه أقرأ القرآن بمكة خمساً وثلاثين سنة وتلقن عليه عدد كثير، ومن المعلوم أن طريقة التلقين تستخدم في تعلم الصبيان في المرحلة الأولىٰ من التعلم في الكتاتيب.

وهناك الكثير من معلمي الصبيان في الحجاز خاصة ودار الإسلام عامة ممن اشتهروا بإلمامهم الواسع بمختلف العلوم وكانوا نموذجاً في علمهم وعملهم سواءً لدىٰ طلابهم أو لدىٰ من سمع وقرأ عنهم ومن ذلك أبو عبد الرحمن المقرئ.[٣]

كما أن هناك الكثير من العلماء المدنيين ممن ظلوا يترددون بين مكة والمدينة منذ نشأتهم العلمية وحتىٰ وفاتهم، بل أن الكثير منهم رغبوا في البقاء بمكة والسكن فيها لمدة طويلة وخلال ذلك استطاعوا تزويد حملة العلم فيها بمختلف العلوم التي تلقوها وأخذوها عن علماء مكة والمدينة وغيرهما، مثل: يعقوب بن حميد بن كاسب المدني[٤] ومحمد بن عثمان بن خالد المدني[٥] وعبد الله بن مسلمة المدني[٦] وأحمد وأحمد بن محمد بن المنكدر التميمي المدني[٧] الذي ولد بالمدينة ونشأ نشأته العلمية بالحرمين الشريفين.

وكذلك من العلماء الذين كان لهم حلقات علمية داخل الحرمين الشريفين محمد

---

(١) هو أبو مروان عبد الملك بن الإمام عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة بن الماجشون التميمي مولاهم، المدني، المالكي، تلميذ الإمام مالك وإبراهيم بن سعد، وطائفة، حيث كان بحراً لا تكرره الدلاء، توفىٰ سنة ٢١٣هـ، وقيل ٢١٤، انظر: الذهبي: سير الأعلام، ٥١٥/٧.

(٢) هو الإمام الحافظ المقرئ من عُرف بشيخ الحرم المكي في عصره توفىٰ سنة ٢١٣هـ؛ الذهبي: معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والإعصار، ط١، دار الكتب الحديثة، القاهرة، [د.ت]، ١٦٢/١.

(٣) هو الإمام المقرئ المحدث أبو عبد الرحمن المكي، قد رحل إلىٰ البصرة واستمر في رحلته تلك يقرأ الناس القرآن وينتشر علمه بين أوساط المتعلمين فيها لمدة تزيد عن ثلاثة عقود من الزمن توفىٰ سنة ٢١٣هـ؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب، بيروت، [د.ت]، ٣٦٧/١.

(٤) أبو الفضل يعقوب بن حميد بن كاسب المدني، نزيل مكة، كان من أئمة الأثر علىٰ ثرة من كثرة مناكير له وهو من الثقات توفىٰ سنة ٢٤١هـ، الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ١٠٠/٨.

(٥) الإمام المحدث، أبو مروان محمد بن عثمان بن خالد الأموي، العثماني المدني حدّث عن أبيه وهو ثقة وصدوق إلا أنه يروي عن أبيه المناكير توفي سنة ٢٤١هـ، الذهبي: المصدر السابق، ٢٥٠/٨.

(٦) بن قعنب، الإمام، الثبت القدوة شيخ الإسلام، أبو عبد الرحمن الحارثي القعنبي المدني، نزيل البصرة ثم مكة ولد سنة ١٣٠هـ، وهو من أخشع الناس حيث قال اختلفت إلىٰ مالك ثلاثين سنة ما من حديث في الموطأ إلا لو شئت قلت سمعته مراراً، انظر: الذهبي: المصدر السابق ٢٥٩/٧- ٢٦٠.

(٧) هو أحمد بن محمد، أبو بكر القرشي التميمي ولد بالمدينة ونشأ بالحرمين وسكن البصرة ثم أصبهان والري ونيسابور وتوفي بمرور سنة ٣١٤هـ، السخاوي: التحفة اللطيفة، ط١، ١٤١٠هـ، دار الكتب العلمية، ١٤٢/١.

بن إبراهيم بن عبدوس[١] الذي كانت له حلقات علمية في ركن المسجد النبوي وكذلك محمد بن سحنون[٢] الذي حج في سنة ٢٣٥ هـ وكان له العديد من الحلقات العلمية في الحرمين أثناء ذلك فاستفاد من علمه الكثير ممن سمعوا عنه وأخذوا منه حتىٰ العلماء أنفسهم، فكانت هذه الحلقات التي كانت تنشأ في أوقات قصيرة وعارضة خصوصاً في أوقات موسم الحج وتسمىٰ "الحلقات الطارئة" نتيجة لقدوم بعض علماء المسلمين من خارج الحجاز أو من داخله إذا ما انتقل من مدينة إلىٰ أخرىٰ وقد كان هذا النوع من الحلقات في الحجاز له إسهام كبير وتأثير إيجابي فاعل في التعليم في تلك المدة أو في غيرها، فنتيجة لارتياد المسلمين لبلاد الحجاز في كل عام من أقطار الإسلام عامة، أو من مختلف مدن وقرىٰ الحجاز خاصة لأداء فريضة الحج والعمرة بصفته سبباً رئيسياً ثم يأتي سبب آخر هو التعبد والتنسك في الحرمين الشريفين ولو لمدة قصيرة قد لا تتجاوز بضعة أشهر فقد لوحظ عن هذا النوع كثرة ممارسته للتدريس والقيام به أثناء ذلك، بل إن بلاد الحجاز قاطبة تشهد خلال ذلك حركة علمية قوية أكثر من أي مدة زمنية أخرىٰ علىٰ مدار العام الكامل نتيجة لمرور مختلف علماء دار الإسلام علىٰ وجه الخصوص في الأراضي الحجازية، فقد كان لهم تأثير إيجابي علىٰ الحياة العلمية في الحجاز حيث إن أغلبهم كانوا يقيمون حلقاتهم العلمية، وينشرون فيها علومهم.[٣]

أيضاً من العلماء المشهورين في الحجاز قنبل بن عبد الرحمن المكي[٤] الذي كان يتولىٰ أمر الشرطة بمكة، حيث كان لا يتولىٰ هذا المنصب إلا أهل العلم والفضل لتقوم بواجباتها وهو لم يتفرغ للتدريس كلية كونه مرتبط بأعمال الشرطة ولكن إلىٰ جانب هذا العمل يقوم بتعليم الناس فكان له حلقة علم ومجلس يرتادها الكثير من طلاب العلم لكنها لم تكن ثابتة بل تقام أثناء أوقات الفراغ.[٥]

---

(١) كان ثقة، إماماً في الفقه، صالحاً، وكان صحيح الكتاب، حسن التقيد، عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه حيث كان أحد أئمة مذهب الإمام مالك، توفي سنة ٢٦٠، انظر: القاضي عياض، أبو الفضل بن محمد بن عياض اليحصبي البستي: تراجم أغلبية، تحقيق محمد الطالبي، ١٩٦٨م، المطبعة التونسية، ص١٩٠.

(٢) هو محمد بن سحنون بن سعيد بن حبيب التنوخي، أصله شامي من حمص، تفقه بأبيه، وألف كتابه المسند في الحديث، توفي سنة ٢٥٦هـ في الساحل، وجيء به إلىٰ القيروان فدفن بها. انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق: أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت]، ٥٨٥/١، ١٠٤/٢، ١١٦.

(٣) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٧٨-٧٩.

(٤) قرأ علي، عبد الله بن كثير وكان من جلة أصحابه، ومن جهته انتشرت قراءته وقبل موته بعشر سنين سنين قطع الإقراء، توفىٰ سنة ٢٩١هـ، ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار المستشرق داود، بيروت، [د.ت]، ١٧/١٧-١٨.

(٥) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص١٠٢.

كذلك قاضي مكة الزبير بن بكار القرشي (١) كان من العلماء المشهورين تقلد القضاء علىٰ مكة من الخليفة العباسي المتوكل (ت ٢٤٧هـ/ ٨٦١م)، ومع ذلك لم يشغله هذا المنصب عن نشره لعلومه بين أوساط المتعلمين واستمر علىٰ ذلك حتىٰ في الأيام الأخيرة من حياته إضافة إلىٰ مساعدته المحتاجين من طلابه أو غيرهم وتوفىٰ سنة ٢٥٦هـ وهو قاضياً لمكة.

كذلك من العلماء المشهورين والذين تولوا مناصب مهمة في الدولة إلىٰ جانب العلم الذي يلقونه علىٰ طلابهم في أوقات فراغهم أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزهري المدني (٢) فقيه المدينة في عصره وتولىٰ قضاء المدينة، حيث اشتهر بسعة علمه فكان من خيار العلماء الذين برزوا في علم الفقه والفتاوىٰ.

كما وجد من العلماء من كان يترأس مجلساً يضم العديد من الناس للمناظرة فإذا اختلفوا في شيء تكلم فيه (٣) وقطع برأيه السديد حبال طريق الخطأ، لأن المتعارف عليه في تلك الأثناء أنه لا يشترك في تلك المجالس إلا من كان عالماً مشهوراً (٤) بعلمه ملماً بالمعرفة التامة في فنون العلوم المختلفة فها هو الإمام أبو بكر القرشي المدني (٥) الذي كان يتربع علىٰ مجالس المناظرة.

كذلك هناك علماء كان لهم شأن كبير في حلقات العلم والتدريس فهذا العالم محمد بن عمر بن حماد العقيلي الحافظ (٦) عالم من علماء الحديث متقن لعلمه، عمل في في التدريس وكان يصحح أخطاء طلابه دون إخراج أصله، كما كان مصنفاً، فقد صنف كتاباً جليلاً في الضعفاء، ما زال يُعتمد عليه حتىٰ عصرنا هذا توفىٰ سنة ٣٢٢هـ.

أيضاً من العلماء الذين كان لهم في مختلف المجالس والحلق العلمية داخل

---

(١) الزبير بن بكار بن مصعب الزبيري المدني تلقىٰ علومه المختلفة عن أشهر العلماء المدنيين والمكيين علىٰ السواء الأمر الذي أهله لأن يكون أحد علماء الحجاز المشهورين بعد ذلك، فصنف العديد من المصنفات في علوم متعددة، فكان منها أخبار العرب وأيامها، كتاب نسب قريش وأخبارها وكتاب نوادر أخبار النسب، فكان نسبه يصل إلىٰ ثابت بن عبد الله بن الزبير بن العوام، انظر: ابن النديم: الفهرست، تحقيق: يوسف الطويل، ط١، ١٤١٦هـ، ص١٧٧.

(٢) هو الإمام الثقة، شيخ دار الهجرة أبو مصعب أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث بن زرارة بن مصعب بن عبد الرحمن بن عوف القرشي، الزهري، المدني، الفقيه، قاضي المدينة ولد سنة ١٥٠هـ، لازم مالك بن أنس وتفقه به وسمع منه الموطأ وأتقنه عنه، توفىٰ سنة ٢٤٢هـ، انظر الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ٢٤٨/٨.

(٣) الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤١٢هـ، مؤسسة الرسالة، ٤٧/١١.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، تحقيق فؤاد السيد، ط٢، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، ٤٦٦/٥.

(٥) هو الإمام أبو بكر محمد بن المنكدر القرشي المدني، ولد في المدينة ونشأ بالحرمين الشريفين حيث حيث صنف وأفاد، يقول "أناظر في ثلاثة مائة ألف حديث" توفىٰ سنة ٣١٤هـ، انظر الذهبي: تذكرة الحفاظ، ٧٩٣/٣-٧٩٤.

(٦) الذهبي: تاريخ الإسلام، ط١، دار الكتاب العربي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ص١١٧.

الحرمين الشريفين، العالم المشهور أحمد بن محمد النيسابوري [1]، حيث استمر بضع عشرة سنة يسهم بعطائه العلمي، والذي يروىٰ أنه تقلد منصب قاضي الحرمين الشريفين.

وكذلك من العلماء المشهورين بمكة عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي[2] الذي صنف كتاب "الجمل" في النحو بمكة فكان إذا فرغ من باب منه طاف أسبوعاً ودعا الله بالمغفرة وأن ينفع الله بكتابه وقراءاته، فانتفع بكتابه (الجمل) خلق لا يحصون وهذا دليل كاف علىٰ أنه قام بشرحه خلال ذلك بمكة. [3]

ولقد كان عبد الله بن محمد بن العباس الفاكهي المكي وهو ابن العالم الفاكهي أبو عبدالله محمد بن إسحاق صاحب كتاب "أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه" محدثاً وعالماً كبيراً. وكان من أكثر علماء عصره علماً بالإسناد وله تصانيف في أخبار مكة[4] توفىٰ سنة ٣٥٣هـ.

كذلك من ناحية التأثيرات العلمية للعلماء الحجازيين الراحلين من بلدهم إلىٰ البلدان الإسلامية الأخرىٰ علىٰ تلك البلدان أكثر عمقاً وأبعد أثراً فهذا إبراهيم بن إسماعيل المكي[5] الذي ولي الإمامة والقضاء علىٰ مكة رحل إلىٰ كل من دمشق ومصر فكانت له تأثيرات علمية علىٰ جملة العلم في تلك الأقطار من خلال عقده للكثير من الحلقات والمجالس العلمية فيها واتضح ذلك من خلال الإقبال المتزايد لحملة العلم علىٰ مجالسه العلمية فسمعوا منه ورووا عنه.

---

(١) العلامة: أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله التيسابوري الحنفي، شيخ الحنفية ولي قضاء الحرمين نيف عشرة سنة ، ثم قدم تيسابور، وولي قضاءها، توفىٰ سنة ٣٥١هـ، عن سبعين سنة، انظر: الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ،٣٤٣/١٠.

(٢) شيخ العربية أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق البغدادي، النحوي صاحب (الجمل) والتصانيف وتلميذ العلامة أبي إسحاق إبراهيم السري الزجاج وهو منسوب إليه توفىٰ سنة ٣٤٠هـ في طبرية، الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٦٦/١٠.

(٣) الذهبي: العبر في خبر من غبر، طبعة ١٩٦١م، تحقيق: فؤاد السير، التراث العربي، الكويت، ٢٥٤/٢.

(٤) الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٣٥٤/١٠.

(٥) هو إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر الحسيني الموسوي المكي، وهو عالم بالحديث تولىٰ قضاء الحرمين الحرمين وسمع منه الكثير أثناء رحلته، وحضر دروسه العديد من الطلبة، له رحلة علمية إلىٰ دمشق ومصر وكان يسمع ويحدث أثناء رحلته؛ انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ط١، ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، ٦٦/١.



المطلب الثالث

أشهر العلوم وأهم الكتب

لقد تزايد دور العلماء بنشاطهم العلمي المتدفق في كافة المجالات العلمية ونشر العلم والمعرفة بين المسلمين، بعد أن احتوىٰ الحرمين الشريفين العديد من المناشط العلمية والتي تزامنت مع هذه الحقبة التاريخية ولا غرو فقد أصبح بحق بمثابة جامعة متعددة التخصصات، حقيقة بشد الرحال إليهما في سبيل طلب العلم.

ويُعد موسم الحج في حد ذاته تظاهرة علمية تتيح للكثير من العلماء إقامة حلقاتهم العلمية فيها ويتساوىٰ الأمر هنا بين العلماء المكيين وإخوانهم القادمين من أقطار إسلامية أخرىٰ ومن خلال هذه الحلقات العلمية تنبثق المناقشات وتطرح الآراء، وتعقد الندوات[(١)].

كما أن هذا التجمع السنوي للحجاج يتيح الفرصة لأبناء الحجاز قاطبة وطلاب العلم في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة للقاء العلماء البارزين والخروج بحصيلة علمية في كثير من المسائل الخلافية في فنون العلم المختلفة وعن طريق أولئك الذي جاءوا إلىٰ الحج من علماء الأنصار الإسلامية انتقلت الكثير من الأفكار والآراء العلمية بل وحملوا معهم المؤلفات العديدة سواء ما كان منها من نتاج علماء الحجاز أو غيرهم من علماء المسلمين وشكل ذلك في حد ذاته تاريخاً معرفياً وثقافياً واسعاً بين أبناء المسلمين[(٢)].

ومن أشهر العلوم:

أولاً: العلوم الشرعية:

(أ) العقيدة[(٣)]:

لقد اهتم علماء الحجاز بالتأليف في مجال الدراسات العقدية وقد برز فيهم عدد

---

(١) عبدالعزيز السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٤٣٤.

(٢) نفس المرجع السابق، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥.

(٣) العقيدة: مأخوذة من العقد وهو نقيض الحل، والعقد هو العهد؛ ابن منظور: لسان العرب، تحقيق: نخبة من العاملين بدار المعارف، القاهرة، [د.ت]، ٥/١٠٣١، وتطلق العقيدة في الاصطلاح العام علىٰ الإيمان الجازم والحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شك، أما العقيدة الإسلامية فهي الإيمان الجازم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره وبكل ما جاء في القرآن الكريم والسنة الصحيحة من أصول الدين وأموره، وأخباره، وما أجمع عليه السلف الصالح والتسليم لله تعالىٰ في الحكم، والأمر والقدر والشر ولرسوله عليه الصلاة والسلام بالطاعة والتحكم والإتباع؛ انظر: محمد بن إبراهيم الحمد: عقيدة أهل السنة والجماعة مفهومها.. خصائصها.. خصائص أهلها، ط١، دار الوطن، الرياض، ١٤١٦هـ، ص١٣-١٤.

من العلماء أمثال:

١) محمد بن يحيىٰ بن أبي عمر العدني[١] والذي ألف كتباً مفصلة عن الإيمان.

٢) عبدالله بن الزبير الحميدي[٢].

ألف رسالة صغيرة في أصول السنة اشتملت علىٰ إيضاح بعض المعتقدات الإسلامية.

(ب) علم القراءات:

لقد اهتم علماء الحجاز بعلم القراءات اهتماماً بالغاً لاسيما وأنه يعني العلم بكيفية أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها وفائدته تتمثل في صون كلام الله من التحريف والتغيير.

وممن اشتهر بإلمامه وإتقانه لعلم القراءات من العلماء الحجازيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين:

١- عبيد بن ميمون القرشي المدني المقرئ الذي توفىٰ سنة ٢٠٤هـ[٣].

٢- محمد بن إدريس الشافعي المكي المتوفىٰ سنة ٢٠٤هـ وقد جوّد القرآن علىٰ إسماعيل بن قسطنطين[٤] مقرئ مكة في عصره وغيره فكان أول من صنف "أحكام القرآن"[٥].

٣- عبد الله بن يزيد العدوي المكي المقرئ المتوفىٰ سنة ٢١٣هـ[٦]. الذي أخذ علم القراءات عن نافع وغيره، فصار أحد الأئمة في علم القراءات، نهل عنه الكثير من حملة العلم في الحجاز وفي البصرة حيث عمل في تدريس القرآن في

---

(١) هو الإمام المحدث الحافظ، شيخ الحرم، أبو عبد الله محمد بن يحيىٰ بن أبي عمر العدني توفي بمكة ٢٤٣هـ حج سبعاً وسبعين حجة ولم يقعد عن الطواف ستين سنة، الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٣٧٥/٨، وقد صدر كتاب الإيمان للعدني في طبعته الأولىٰ سنة ١٤٠٧هـ، عن الدار السلفية بالكويت بتحقيق حمد حمدي الجابر الحربي.

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن عبيد الله بن أسامه بن عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزىٰ، توفىٰ سنة ٢١٩هـ ألف كتاب أصول السنة: انظر: الذهبي: المصدر السابق، ٦٦٢/٧- ٦٦٣.

(٣) هو عبيد بن ميمون القرشي التميمي أبو عباد المدني المقرئ مولىٰ هارون بن زيد المهاجر بن قنفذ هو والد محمد بن عبيد بن ميمون التبان، ذكره ابن حبان في كتاب الثقات وقال توفي سنة أربع ومئتين من الهجرة وروىٰ له ابن ماجه، انظر المزي، جمال الدين بن الحجاج بن يوسف: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق: بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، [د.ت.ط]، ٢٣٧/١٩.

(٤) إسماعيل بن عبدالله بن قسطنطين المخزومي، شيخ القراء بمكة في زمانه، توفي سنة ١٩٠هـ انظر: الفاسي: العقد الثمين، ٣٠٠/٣.

(٥) الداودي، محمد بن علي بن أحمد: طبقات المفسرين، تحقيق: علي محمد عمر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، مكتبة وهبة، القاهرة، ٩٨/٢-١٠٠.

(٦) السيوطي: طبقات الحفاظ، ط١ ، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ص ١٥٦-١٥٧.

البصرة لمدة تزيد عن ثلاثة عقود[١]، فضلاً عن تدريسه للقرآن في مكة لمدة خمس وثلاثين سنة[٢].

٤- وأبو موسىٰ عيسىٰ بن مينا الملقب بقالون المتوفىٰ سنة ٢٢٠هـ[٣] والذي اختص به نافع كثيراً، وهو الذي أسماه قالون – أي جيد باللغة الرومية – لجودة قراءته، فصار بعد ذلك يُعرف بقارئ المدينة[٤]، كما خلفه ابنه أحمد بن قالون المتوفىٰ في القرن الثالث الهجري في الإقراء بالمدينة[٥].

ولقد جاء بعدهم في تدريس القرآن في الحجاز محمد بن إسحاق القرشي المخزومي المدني [٦] الذي اشتهر بصحبته لنافع وقراءته عليه القرآن، مما مكنه لأن يكون أحد علماء القراءات في عصره فقرأ الكثير من طلبة العلم القرآن عليه وكذلك أحمد بن محمد بن عبد الله البزي[٧] مقرئ مكة ومؤذنها، الذي تلا عليه القرآن خلق كثير من الحجازيين والوافدين، اشتهر بأنه أستاذ محقق ضابط متقن في علم القراءات. [٨]

وقد خلفهم طبقة أخرىٰ من القراء بالحجاز اقتفوا أثرهم ومنهجهم في القراءة فتعاقبوا علىٰ التدريس والإقراء ومن أبرز هؤلاء أبو محمد إسحاق بن أحمد الخزاعي مقرئ أهل مكة في عصره. [٩]

(ج) علم التفسير:

---

(١) الذهبي: سير الأعلام، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ، ١٠/١٦٦- ١٦٨.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٥/٢٩٨- ٢٩٩.
(٣) سبقت ترجمته ص٢٥١.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، [د.ط.ت]، ٢/٤٨.
(٥) الذهبي: معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والإعصار، ط١، دار الكتاب الحديثة، القاهرة [د.ت]، ١/١٨٢.
(٦) هو محمد بن إسحاق بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن المسيب: ابن أبي السائب بن عابد بن .. .. بن عمر بن مخزوم أبو عبد الله القرشي المخزومي المسيبي، المدني، سكن بغداد يروي عن أبيه صاحب نافع توفىٰ سنة ٢٣٦هـ، انظر: السخاوي: التحفة اللطيفة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢/٤٤٧.
(٧) مقرئ مكة ومؤذنها، أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن القاسم بن أبي بزة المخزومي مولاهم مولاهم الفارسي الأصل ولد سنة ١٧٠هـ، سمع من ابن عيينة توفىٰ سنة ٢٥٠هـ، حيث كان ديناً عالماً صاحب سُنةٍ رحمه الله: انظر الذهبي: سير الأعلام، ط١ ، ١٤٢٥هـ، ٨/٣٥٠.
(٨) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ١٩٣.
(٩) الإمام المقرئ المحدث، أبو محمد إسحاق بن أحمد بن إسحاق بن نافع الخزاعي المكي شيخ الحرم، الحرم، جوَّد القرآن علىٰ البزي، فكان متقناً ثقة وله مصنفات في القراءات توفىٰ سنة ٣٠٨هـ: انظر: الذهبي، المصدر السابق، ٩/٤٩٧.

لقد ارتبط علم التفسير بعلم القراءات، إذ يهتم بتفسير آيات القرآن الكريم، وسبب نزول آياته، وما كان منها مكياً أو مدنياً.
لذلك فقد اشتهر الكثير من الصحابة الكرام رضي الله عنهم بتفسيرهم للقرآن الكريم، لمعرفتهم الكاملة وإلمامهم التام بمعانيه ومناسبات نزوله.[1]

ولقد اشتهر الكثير من التابعين وتابعيهم في الحجاز، ممن اقتفوا أثر الصحابة وتمكنوا من الإلمام التام بعلم التفسير[2]، مما أدىٰ إلىٰ ظهور العديد من المبرزين في علم التفسير من الحجازيين الذين أسهموا في تطور علم التفسير في بلاد الحجاز عن طريق إقامتهم الحلقات والمجالس العلمية في الحرمين الشريفين والتي كان يتم فيها إلقاء دروس في علم التفسير، فضلاً عن قيامهم بتصنيف العديد من الكتب المختصة بهذا العلم وشرحها علىٰ طلاب العلم المهتمين والراغبين في معرفة وإتقان علم التفسير[3].

فمن العلماء المفسرين في الحجاز:

١- أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدي[4]: له رواية في مقدمة مسلم توفي سنة ٢١٩هـ، وله كتاب المسند وكتاب النوادر. والذي تتلمذ علىٰ الإمام سفيان بن عيينة وغيرهم من علماء التفسير، مما أهله لأن يكون أحد علماء التفسير في عصره، فصنف كتاباً في التفسير تداوله الكثير من حملة العلم الحجازيين والوافدين.
٢- عبدالرزاق بن همام الصنعاني: ارتحل إلىٰ الحجاز، من مصنفاته كتاب التفسير، وكتاب المصنف[5].
٣- عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن أبي شيبة العبسي الكوفي، أحد علماء التفسير، فقد سمع من سفيان بن عيينة وله مصنفات منها "المسند"، و"الأحكام" و"التفسير"[6].

(د) علم الحديث:

(١) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد: صفة الصفوة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٧١/١.
(٢) فائقة إدريس عبد الله: التفسير في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٤هـ، ١٤٠٤هـ، ص٩٦-١٣٢.
(٣) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص١٩٦.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عبد السلام تدمري، ط١، ١٤١١هـ، دار دار الكتاب العربي، بيروت، ص ١٧٥. الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٦٦٢/٧.
(٥) الذهبي: سير الأعلام، ٣٢٣/٧، الفاكهي: أخبار مكة، ص٦٦.
(٦) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٦٦/١٠ – ٦٨.

وهو كل ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو تقرير أو صفة[١]، وينقسم علم الحديث إلىٰ قسمين[٢]:

أ) علم الحديث رواية وهو علم يشتمل علىٰ أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وأفعاله وتقريره وصفاته وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها.

ب) علم الحديث دراية وهو علم يُعرف منه حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بها.

لقد أدرك عدد من المهتمين بالحديث النبوي في الحجاز مزايا حفظه في الصدور وما يترتب علىٰ ذلك من فوائد جمة[٣]، ومن جهة أخرىٰ فقد عمد بعض العلماء في الحرمين الشريفين إلىٰ إلقاء الحديث في دروسهم ومجالسهم العلمية حفظاً[٤] حفظاً[٤] موحين لطلابهم أهمية هذا النهج في دراسة الحديث النبوي وقيمته في الحفاظ علىٰ السنة المطهرة، حيث ترتب علىٰ عناية أبناء الحجاز بالحديث وعلومه تعدد في المجالس والحلق العلمية داخل الحرمين الشريفين[٥].

وقد فطن علماء الحديث في الحجاز بأهمية حفظ الحديث بالتدوين فشرعوا بكتابته في صحائف وأجزاء خاصة[٦]، مما أدىٰ إلىٰ التصنيف في هذا العلم ومن الكتب الكتب التي استفاد منها طلاب العلم مسند يعقوب بن حميد بن كاسب[٧].

كذلك محمد بن يحيىٰ بن أبي عمر العدني المكي، والذي نزل مكة وهو من شيوخ مسلم، والفاكهي ، وله من الكتب كتاب المسند، وكتاب الإيمان، حيث سمع من سفيان بن عيينة، توفي بمكة سنة ٢٤٣هـ[٨].

وكان لتوافر الأماكن الشريفة في مكة وما حولها أثر في انصراف بعض العلماء

---

(١) رفعت فوزي عبد المطلب: توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، ط١، مكتبة الخانجي، مصر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١ ، ص١٩.

(٢) حسين إسماعيل الجمل وسليمان مسلم الحرشي: معجم مصطلحات الحديث، ط١، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٣٤.

(٣) همام عبد الرحمن سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين، ط١، كتاب الأمة "١٦"، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الريفية، قطر، ١٤٠٨هـ، ص٦٣.

(٤) الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن: المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، تحقيق: محمد عجاج عجاج الخطيب، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص ١٩٥- ١٩٦.

(٥) السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٢٤٩.

(٦) همام عبد الرحيم سعيد: الفكر المنهجي عند المحدثين، ص٦٦.

(٧) وابن كاسب من علماء المدينة ومحدثيها البارزين، نزل مكة، وكان قد سمع إبراهيم بن سعد الأنصاري وعبد العزيز بن أبي حازم وغيرهما. وحدث عن البخاري وابن ماجه وعبد الله بن أحمد بن حنبل وغيرهم توفىٰ سنة ٢٤١هـ، انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤٦٦/٢- ٦٦٧.

(٨) انظر: الفاسي: العقد الثمين، ط١٣٨١هـ، ٣٨٧/٢ – ٣٨٨.

لتبيان فضائلها وقدسيتها، ورواية ما ورد حول ذلك عن المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام مثل فضائل الحجر الأسود[(١)]، كما راج بين طلاب العلم في مكة كتاب الحسن البصري الذي جمعه في فضائل مكة[(٢)]، إضافة إلىٰ ما نلحظه من كثرة الأحاديث حول حول هذه الجوانب لدىٰ مصنفي مكة آنذاك، سيما منهم الأزرقي[(٣)] والفاكهي في كتابيهما عن أخبار مكة.

وانطلاقاً من اهتمام العلماء بالحديث ودقتهم وتشددهم في روايتهم فقد امتدت جهودهم إلىٰ علوم دراية الحديث سواء ما يتعلق منها بالسند أو المتن[(٤)]، كما عُني بعض العلماء في الحجاز بفحص رجال السند الراوين للحديث والتحقيق من حالهم مشاركين بذلك فيما يسمىٰ بعلم الرجال أو الجرح والتعديل[(٥)].

وقد تميز المحدثون بمكة في دراستهم للحديث ببعض المناهج فرخص عدد بارز منهم مجيزاً رواية الحديث بالمعنى[(٦)] ولكن بشرط عدم الإخلال بمضمون الحديث الحديث ومعناه[(٧)]، كما وافق بعض العلماء والمكيين علىٰ قبول خبر الواحد، بل والاحتجاج والأخذ به سيما إذا كان الراوي متمتعاً بالثقة والثبات[(٨)].

ومن العلماء في هذا العلم:

١- سعيد بن منصور بن شعبة الخراساني ثم المكي، أحد الأعلام، مؤلف السنن، حفظ قرابة عشرة آلاف حديث، توفي سنة ٢٢٧هـ[(٩)].

٢- الحسين بن الحسن المروزي، حدث عن ابن المبارك وعن سفيان بن عيينة،

---

(١) الفاكهي، محمد بن إسحاق: أخبار مكة في تقديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، ط١، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ٨٧/١-٨٨.

(٢) المصدر السابق: ٢٨٨/٢.

(٣) هو محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي الغساني: مؤلف كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار حدث في كتابه هذا عن جده إبراهيم بن محمد الشافعي والعدني وغيرهم، واختلف في تاريخ وفاته، إلا أنها حوالي النصف الأول من القرن الثالث الهجري، انظر: كتابه: أخبار مكة، ط٤، تحقيق: رشدي ملحس، دار الثقافة، مكة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ١١/١-١٥.

(٤) محمد ضياء الرحمن الأعظمي: دراسات في الجرح والتعديل، ط١، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥، ص٦.

(٥) نفس المرجع السابق: ص ٥٤-٥٥.

(٦) أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرجال، تحقيق: وصي الله عباس، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ٤٣٥/٢.

(٧) الشافعي، محمد بن إدريس: الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م، ص٣٧٠.

(٨) نفس المصدر السابق: ص ٤٥٦-٤٥٧؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٢٦٥.

(٩) الفاسي: العقد الثمين، ط١٣٨٤هـ، ٥٨٦/٤.

وجاور بمكة، وتتلمذ عليه الفاكهي، حيث له كتاب البر والصلة وراوي كتاب الزهد، توفي سنة ٢٤٦هـ[١].

(هـ) علم الفقه وأصوله:

وفي القرن الهجري الثالث ظهر عدد من الفقهاء والمفتين، ومن أشهرهم: الإمام عبد الله بن الزبير الحميدي[٢]، الفقيه البارز[٣]، والعالم المجتهد في كثير كثير من المسائل الفقهية[٤]، إضافة لفقهاء آخرين غلب عليهم التأثر بفقه السابقين وبرزوا من خلال توليهم منصب الإفتاء في مكة إبان هذا القرن[٥].

فقد أشار المقدسي إلىٰ المذهب الديني السائد في مكة فقد ذكر في حديثه عن المذاهب المنتشرة في الجزيرة، أن أهل مكة علىٰ المذهب السني [٦] علىٰ مذهب الإمام مالك بن أنس[٧] هذا مع وجود طائفة علىٰ المذهب الشيعي المتمثل في فئة الخياطين[٨].

الخياطين[٨].

ومن خلال ما تقدم يتبين أن علم الفقه هو العلم والفهم لما ظهر أو خفي من الأشياء سواء كان قولاً أم غير قول[٩]، وعلم الفقه علم يبحث عن الأحكام الشرعية الفرعية العملية من حيث استنباطها من الأدلة التفصيلية[١٠].

أما علم أصول الفقه، فيهدف إلىٰ معرفة مراتب الأوامر والنواهي المذكورة في الكتاب والسنة، ومعرفة ما أجمع عليه الأئمة وما قاسوه، وما ولّدوه بالاجتهاد عن طريق الاستنباط[١١].

---

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ص٦٧، الذهبي: السير، ٤٢٦/٨.
(٢) سبقت ترجمته عند الحديث عن علم التفسير في هذا المطلب.
(٣) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب: اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، ط١، مطابع الفردوس، الرياض ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٢٢٠.
(٤) المروزي، محمد بن نصر: اختلاف العلماء، تحقيق: السيد صبحي السامرائي، ط١، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ٥٦، ٥٨، ٦٢.
(٥) الفاكهي: أخبار مكة، ٣٤٨/٢.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٩٠.
(٧) نفس المصدر السابق: ص ٩١.
(٨) نفس المصدر السابق: ص٩٦.
(٩) الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط "مادة الفقه" ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت، مج١-٢، ص٩.
(١٠) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٠٤.
(١١) الشعراني: الدرر المنثورة ، ص٤٠.

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين ظهر في الحجاز علماء وأيضاً وافدين إلى أرضه اشتهروا بعلم الفقه، مقتفين في ذلك أثر أسلافهم فقهاء القرنين الأول والثاني للهجرة(1) فأسهموا وبشكل متميز في تطور علم الفقه في بلاد الحجاز خاصة وأقطار الإسلام عامة، وممن تألقوا في ذلك: الإمام عبد الله بن نافع القرشي المدني(2) الذي عُدّ عُدّ من كبار فقهاء المدينة، ولكونه برع في الفقه وعلومه، مما أهله لأن يكون مفتي أهل المدينة في عصره.

وقد تأثر عدد من طلبة العلم الحجازيين بمعلميهم خصوصاً بعد ملازمتهم لهم مدة زمنية طويلة فنقلوا عنهم آراءهم الفقهية، ورووا عنهم معظم كتبهم التي ألفوها في علم الفقه وغيره مثل: موسىٰ بن أبي الجارود المكي الفقيه(3) الذي تتلمذ علىٰ الشافعي وتفقه به، ثم صار بعد ذلك من فقهاء المكيين القيمين بفقه الشافعية بمكة، روىٰ عن الشافعي كتبه(4) منها: كتاب الأمالي، والإمام عبد الله بن الزبير الحميدي المكي الذي تفقه علىٰ الشافعي واستمر في ملازمته له في مكة سنين عديدة، ومرافقته له في مكة إلىٰ مصر وبقائه معه فيها حتىٰ وفاة الشافعي بها، ثم رجع الحميدي إلىٰ مكة بعد ذلك فكان مفتي أهل مكة في عصره(5).

ونظراً لقضاء العلماء الحجازيين والوافدين أخصب حياتهم العلمية في الحرمين الشريفين فقد كان لهم تأثير كبير ومساهمة فاعلة في تطور الحركة العملية في بلاد الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين، ومن خلال نتاجهم العلمي في مختلف العلوم، والذي بدوره أثرىٰ الحياة العلمية في دار الإسلام عامة(6).

ثانياً: العلوم الإنسانية والأدبية:

(أ) علم اللغة والنحو:

لقد اهتم العلماء بعلوم اللغة كونها تخدم علوماً متنوعة أهمها العلوم الشرعية.

---

(١) الشافعي، محمد بن إدريس: جماع العلم، تحقيق: محمد أحمد عبد العزيز، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٤٢-٤٦.

(٢) ولد نيفه وعشرين ومائة وهو ثقة وروىٰ عن مالك غرائب ولزم مالك لزوماً شديداً توفىٰ سنة ٢٠٦هـ، ٢٠٦هـ، انظر الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٥٢١/٧.

(٣) ابن الجارود المكي الفقيه أحد تلاميذ الإمام الشافعي وهو أحد الثقات توفىٰ في القرن الثالث الهجري، الهجري، انظر الأسنوي، عبد الرحيم جمال الدين: طبقات الشافعية، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٩/١-٣٠.

(٤) المزي: تهذيب الكمال، ٢٩/ ٤١-٤٢.

(٥) الأسنوي: المصدر السابق، ٢٢/١.

(٦) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٠٩.

يقول المقدسي أن اللغة العربية هي لغة أهل الجزيرة العربية بصفة عامة [١] كما وضح أن لغة هذيل – وهي من أبرز القبائل المكية – أصح اللغات في الجزيرة العربية وذلك بقوله[٢]: "وجميع لغات العرب موجودة في بوادي هذه الجزيرة إلا أن أصحها لغة هذيل، وكان المقدسي قد أكد علىٰ الفصاحة كخاصية تميز بها أهل مكة عن غيرهم من أهل الأمصار الإسلامية الأخرى[٣].

إذن.. علم اللغة والنحو: هو العلم الذي يبحث عن مدلولات جواهر المفردات وهيئاتها الجزئية[٤] فضلاً عن البحث عن أحوال المركبات الموضوعة وضعاً نوعياً لما أراده المتكلم من المعنىٰ، وغايته الاحتراز عن الخطأ في تطبيق التراكيب العربية علىٰ المعاني الوضعية الأصلية[٥].

ونظراً لإتقان حملة العلم الحجازيين لعلم اللغة والنحو، والذي اتضح من خلال التزامهم وتمسكهم بقواعده وأسسه، فضلاً عن بُعد بلادهم عن المؤثرات الخارجية التي تربك اللغة كتغلغل الأعاجم مثلاً كل ذلك أدىٰ إلىٰ جعل علماء الحجاز ينصرفون عن الاهتمام بالدراسات اللغوية، خصوصاً أن بلاد الحجاز استمرت موطئاً خصباً لكثير من طلبة العلم الوافدين[٦] الذين يبحثون عن اللغة العربية الفصحىٰ في بوادي الحجاز.

ولم يمنع عدم إقبال العلماء الحجازيين في القرنين الثالث والرابع الهجريين علىٰ الدراسات والمصنفات اللغوية، من تقديم البعض منهم جهوداً مثمرة ومضنية في خدمة اللغة والنحو مثل: الإمام محمد بن إدريس الشافعي[٧]، والذي استمر في تعلمها في بوادي الحجاز ما يزيد عن عقد من الزمن فبرع[٨] في علم اللغة والنحو والأدب وغيره.

وغيره.

ومن جانب آخر تجدر الإشارة هنا إلىٰ أن توجه وإقبال حملة العلم الحجازيين علىٰ تعلم العلوم الشرعية خاصة ليؤكد لنا قدرتهم وكفاءتهم اللغوية لاسيما أن الإلمام والإتقان لهذه العلوم لا يتأتىٰ إلا للعارفين والمتقنين لأسس وقواعد وأصول اللغة

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٩١.
(٢) نفس المصدر السابق: ص٩١.
(٣) نفس المصدر السابق: ص٤١.
(٤) زاده، طاش كبرىٰ زادة: مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق: كامل بكري، بكري، عبد الوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال الكبرىٰ، القاهرة، [د.ط.ت]، ١٠٠/١.
(٥) نفس المصدر السابق: ١٤٤/١.
(٦) السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص ٣٠٩.
(٧) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، ط١، ١٤٠٤هـ، دار الفكر، دمشق، ٨٤/٩.
(٨) الداودي، محمد بن أحمد بن علي: طبقات المفسرين، ٩٩/٢.

العربية ومنهم علىٰ سبيل المثال: أبو بكر عبد الحميد بن أبي أويس(١) ومحمد بن إدريس الشافعي الذي برع في علوم الشعر واللغة وأقبل(٢) علىٰ الفقه والحديث والقراءات فكان إماماً في كل علم من تلك العلوم.

كما لا يفوتنا أن نذكر جهود بعض العلماء في علم اللغة والنحو في الأقطار الأخرىٰ ممن كان لهم نتاج علمي في هذا العلم وحرصوا علىٰ نشر مؤلفاتهم وتزويد حملة العلم في الحجاز ودار الإسلام عامة بها، عن طريق عرضها بمكة في موسم الحج لتوافد حملة العلم إليها في كل عام(٣).

(ب) الشعر:

لقي الشعر في الحجاز في القرنين الأول والثاني للهجرة اهتماماً بالغاً وإقبالاً متزايداً من قبل حملة العلم والمولعين بطلبه وتتبعه مقارنة بالقرنين الثالث والرابع الهجريين الذين شهدوا فتوراً ملحوظاً في ميدان الشعر لأسباب عديدة أهمها:

١- لكون بلاد الحجاز لم تُعد عاصمة الدولة الإسلامية كسالف عهدها فلم تُعد أرض جذب للمولعين بالشعر يمدحون الساسة والقادة(٤).

٢- نظراً للانتقادات التي كانت توجه من قبل بعض العلماء في الحجاز لأولئك المولعين بطلب الشعر وتتبعه وإبداء النصح لهم بتركه وطلب العلوم الشرعية بدلاً عنه، مما أدىٰ إلىٰ عزوف الكثير من حملته عنه والإقبال علىٰ تعلم العلوم الشرعية. منهم الإمام الشافعي(٥) الذي كان قد برع في الشعر ثم أقبل بعد ذلك علىٰ تعلم العلوم الشرعية.

(ج) الخطابة:

إن الخطابة في بلاد الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين تميزت

---

(١) كان بارعاً في علم اللغة العربية وعلم القراءات توفي سنة ٢٠٣هـ، انظر: القاضي عياض: المدارك ٣٧١/١.

(٢) الداودي: المصدر السابق، ٩٨/٢-١٠٠.

(٣) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٢١٣. مثل أبو القاسم عبد الرحمن النهاوندي النحوي [ت [ت ٣٤٠هـ] والذي جاور بمكة مدة، وصف أثنا ذلك كتاب "الجمل"، انظر الزجاجي، أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق: أمالي الزجاج، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، ١٩٨٧م/ ١٤٠٧هـ، دار الجيل، بيروت، ص١١.

(٤) المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد: الكامل في اللغة والأدب،١٣٨٦هـ، ١٩٦٥م، مكتبة النصر، الرياض، ٣٩٣/١.

(٥) الداودي: طبقات المفسرين، ٩٩/٢.

بمميزات عدة أهمها[(١)] فخامة الألفاظ، وحسن الأسلوب، وقد يرجع ذلك لاستقرارهم في الحجاز أو لكسب ودّ الناس.

وتُعد أحد أركان علوم اللغة قاطبة، كما أنها وثيقة الصلة بغيرها من علوم اللغة، حيث لا يستطيع أحد إجادة فن الخطابة دون إلمامه بقواعد اللغة العربية الأخرىٰ، ويوضح الجاحظ[(٢)] ذلك بقوله "وفي الخطباء من يكون شاعراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً بيناً".

وفي القرنين الثالث والرابع، شهدت الخطابة في بلاد الحجاز تطوراً ملحوظاً خصوصاً الخطابة الدينية والسياسية منها، فنظراً لأهمية الحرمين الشريفين الدينية لدىٰ أبناء الإسلام كافة، وما تشهده بلاد الحجاز من تجمع إسلامي سنوي، جعل كل الخلافات الإسلامية المتعاقبة، تحرص علىٰ إبقاء بلاد الحجاز تحت سيطرتها، وتسخير منابر الحرمين الشريفين في خدمة مصالحها، مما أكسبها أهمية سياسية فضلاً عن أهميتها الدينية[(٣)]، لذلك حرصت الخلافة العباسية علىٰ جعل ولاة لها علىٰ مكة والمدينة تقع علىٰ عاتقهم مسئولية إقامة الخطب الدينية في أيام الأعياد والجمع ومواسم الحج[(٤)] يتم فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ناهيك عن إبرازهم للأدوار الإيجابية للخلفاء العباسيين في سبيل توفير الأمن والاستقرار[(٥)].

ومما ينضوي في تلك الخطب السياسية التي كانت تقام في الحرمين الشريفين تلك الخطب التي كانت تلقىٰ في الحرمين من قبل بعض الخلفاء العباسيين[(٦)] أثناء قدومهم لأداء فريضة الحج منتهزين فرصة توافد المسلمين من أقطار الإسلام العديدة بغية المزيد من كسب الأنصار والأتباع.

كما برع الكثير من الحجازيين والوافدين في فن الخطابة مثل أحمد بن عبد الله بن محمد المعقلي[(٧)].

---

(١) محمد عبد المنعم خفاجي: تاريخ الأدب في العصر العباسي الأول، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص ٤٧.

(٢) الجاحظ: البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، [د.ط.ت]، ٢٧/١.

(٣) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٢١٨.

(٤) سليمان كمال: إمارة الحج في العصر العباسي، رسالة ماجستير، ١٤٠٥هـ، أم القرىٰ، ص ٤٠-٦٤.

(٥) عبد الله محمد السيف: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، ص ٣١١-٣٢٠.

(٦) مثل الواثق بالله الذي أراد الحج فكتب إلىٰ واليه علىٰ مكة بذلك فعمل له ثلاثة منابر: منبر بمكة، ومنبر في منىٰ، ومنبر في عرفة، انظر: عبد الله بن محمد بن عُبيد البغدادي؛ ذم الدنيا، تحقيق محمد عبد القادر، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ص ١١٨- ١١٩.

(٧) الذي حج بالناس وخطب بمكة وقدم إليه المقام وهو قاعد في جوف الكعبة، وهذه الولاية يحتمل أن تكون ولاية حج فقط، ويحتمل ولاية للخطابة بمكة، توفىٰ سنة ٣٥٦هـ، انظر الفاسي: العقد الثمين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٧٢/٣.

(د) الكتابة:

يتضح أن الكتابة كانت تُعد من أهم الأعمال التي لا تسند إلا لمن يتقنها، لذلك كان يجب علىٰ من يمتهنها أن يكون مميزاً بصفات حسنة تميزه عن غيره وتتلاءم مع مهنته الجليلة مثل "أن يكون الكاتب نقي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، صادق الحس، حسن البيان"[(١)].

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين انتشرت الكتابة في بلاد الحجاز انتشاراً واسعاً لاسيما في مكة والمدينة، حيث شهدت ازدهاراً ملحوظاً من خلال كثرة المصنفات في العلوم المتنوعة التي كان يتم عرضها في مكة مكتوبة بخط مصنفيها أو كتابهم، والتي تميزت بحسن وجودة كتابيها[(٢)].

وقد برع في فن الكتابة العديد ممن اشتهروا بحسن خطوطهم، وسلامة تعبيراتهم من الحجازيين مثل:

١- أبو عبد الله بن محمد بن إسحاق المكي[(٣)] أحد العلماء والمكيين ممن كان يرغب يرغب في خطه لضبطه.

٢- إبراهيم بن سعدان الأصبهاني الكاتب[(٤)] الذي نزل المدينة و سكن بها وعرف بحسن خطه.

٣- أبو سعد إسماعيل بن أحمد بن إبراهيم الفقيه[(٥)] الذي عُدَّ إمام زمانه في الفقه واللغة العربية والكتابة عُقد له العديد من المجالس العلمية في مكة أثناء حجه[(٦)]، حجه[(٦)]، فاستفاد من ذلك الكثير من طلبة العلم الحجازيين والوافدين[(٧)].

---

(١) ابن عبد ربه، أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق محمد سعيد العريان، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٤/٢٥٣-٢٥٤.

(٢) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٢٢١.

(٣) المكي هو المحدث أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق بن أبي خميصة، نزيل بغداد حدث عنه أبو أبو عمر بن حيوية حيث كان كاتب الحكم للقاضي أبي عمر محمد بن يوسف وهو ثقة توفىٰ سنة ٣١٧هـ، انظر الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٩/ ٦٠٧.

(٤) هو إبراهيم بن سعدان بن إبراهيم أبو سعيد الأصبهاني الكاتب: سكن المدينة ولذا نسبه الذهبي مدنياً مدنياً وهو صدوق مشهور وهو ثقة سكن المدينة توفىٰ سنة ٣٨٤هـ، السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/٧٢.

(٥) العلامة، شيخ الشافعية أبو سعد إسماعيل ابن الإمام شيخ الإسلام أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس الإسماعيلي، الجرجاني الشافعي صاحب التصانيف ولد سنة ٣٣٣هـ، حدث عن أبيه توفىٰ سنة ٣٩٦هـ، وهو يقرأ سورة الفاتحة، الذهبي: المصدر السابق، ١١/٤٣.

(٦) ابن العماد الحنبلي، أبو الفرج عبد الحي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، مكتبة القدسي، القاهرة، القاهرة، [د.ط.ت]، ٣/١٤٧.

(٧) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٢١.

(ج) علم التاريخ:

وينقسم علم التاريخ إلى قسمين رئيسيين هما:

١- علم السير والمغازي:

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين أقبل الدارسون من حملة العلم الحجازيين وغيرهم من الوافدين علىٰ تعلمها، فبرع منهم العديد في هذا العلم، مما حدَّىٰ بهم إلىٰ أن يكون من العلماء البارزين المشهورين في الإتقان والتثبيت في هذا العلم، واتضح دورهم جلياً من خلال نتاجهم العلمي الذي أثرىٰ علم السير والمغازي في الحجاز خاصة ودار الإسلام عامة، بالعديد من المصنفات، منهم: محمد بن عمر بن واقد الواقدي(١) المدني، أحد أدعية العلم، وصاحب التصانيف في علم المغازي والسير والطبقات، وأخبار النبي عليه الصلاة والسلام التي تداولها واقتناها الكثير من حملة العلم الحجازيين وغيرهم، ومحمد بن إدريس الشافعي الذي كان أعلم أهل عصره(٢) بالمغازي والسير ولاشك من أن له مصنفات إلا أنني لم أعثر علىٰ شيء منها في المصادر التي توفرت لدي وإبراهيم بن المنذر القرشي المدني الذي كتب عنه العديد من حملة العلم في المدينة في علم المغازي(٣)، وإبراهيم بن يعقوب الجوزجاني الذي روي عن الإمام أحمد بن حنبل حيث أقام بمكة مدة من الزمن، وله كتاب إمارات النبوة وكتاب أحوال الرجال، توفي بدمشق سنة ٢٥٦هـ(٤).

٢- علم الأخبار والأنساب:

وهو أحد فروع علم التاريخ كونه يهتم بالبحث عن الوقائع العظيمة والأهوال الشديدة(٥) بين القبائل العربية قبل الإسلام، فضلاً من أن الراوي لتلك الحروب التي شهدتها القبائل العربية مع بعضها بعضاً كان لابد له من معرفة أنساب قبائل العرب ومثالبها ومفاخرها حتىٰ يستطيع تدوين ذلك بشكل صحيح وسليم، الأمر الذي جعل

---

(١) هو محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولاهم الواقدي المدني القاضي، صاحب التصانيف والمغازي، العلامة الإمام أبو عبد الله، أحمد أدعية العلم علىٰ صعفة المتفق عليه، ولد بعد العشرين ومائة، وطلب العلم عام بضعة وأربعين وسمع من صغار التابعين فمن بعدهم بالحجاز والشام وغيرهم، توفىٰ سنة ٢٠٧هـ، انظر الذهبي: سير الأعلام، ط١، ١٤٢٥هـ، ٢٦١/٧؛ القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٤٠٤/١.

(٢) ابن كثير: مناقب الإمام الشافعي، تحقيق خليل إبراهيم خاطر، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، ص٢٠٣-٢٠٤؛ المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٢٣.

(٣) ابن عبد الله بن المنذر بن المغيرة بن عبد الله بن خالد بن حزام بن خويلد بن أسد الإمام الحافظ الثقة الثقة أبو إسحاق القرشي الأسدي الحزامي المدني، توفىٰ في عام ٢٣٦هـ، انظر الذهبي: المصدر السابق، ٧١٠/٧.

(٤) انظر: الفاكهي: أخبار مكة، ٦٨/١، الفاسي: العقد الثمين، ٢٧٤/٣.

(٥) القنوحي، صديق بن حسن: أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق: عبد الجبار زكار، طبعة ١٩٧٨م، دار الكتب العلمية، دمشق، [د.ط]، ١٢١/٢.

العرب يولون هذا العلم جل اهتمامهم[١].

ومع انتشار التصنيف والتدوين في القرنين الثالث والرابع الهجريين في الأقطار الإسلامية عموماً، لم تكن بلاد الحجاز بمنأىٰ عن ذلك، بل ظل دور علمائها في علم الأخبار والأنساب جلياً من خلال نتاجهم العلمي الذي دونوا فيه أخبار الماضين وأنسابهم فأثروا هذا العلم بمصنفاتهم العديدة نذكر منهم:

١- مصعب بن عبد الله بن مصعب القرشي المدني[٢] الذي عُدَّ أفقه قرشي في علم الأخبار والأنساب، وله كتاب نسب قريش.
٢- أحمد بن حفص بن المغيرة المخزومي[٣] الذي وصف بأنه علاّمة بأنساب بني مخزوم أخذ عنه علمه طلبة العلم الحجازيين والوافدين.
٣- عبد الله محمد الأنصاري المدني[٤] أحد علماء المدينة في علم الأنساب، صنف كتاب "نسب الأنصار".

ولقد هرت مصنفات في بلاد الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين اهتمت بمجالات التاريخ المتعددة من أهمها: تلك التي اهتمت بالتاريخ المحلي لبلاد الحجاز[٥]

الحجاز[٥] مثل:

- تاريخ مكة لأحمد بن محمد بن الوليد المكي الأزرقي المتوفىٰ سنة ٢٢٢هـ[٦].
- محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الغساني الأزرقي المتوفىٰ سنة ٢٥٠هـ وكتابه "أخبار مكة"[٧].

---

(١) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٢٢٤.

(٢) عالماً بالأخبار والأنساب وأفقه قرشي في علم الأخبار والأنساب، توفىٰ سنة ٢٣٦هـ، انظر: المزي: تهذيب الكمال، ٣٤/٢٨-٣٨.

(٣) من أهل مكة عاش وتوفي فيها وهو من عالم الأخبار والأنساب توفىٰ في القرن الثالث الهجري، انظر: الفاسي: العقد الثمين، ٣٥/٣.

(٤) هو عبد الله بن محمد بن سعيد بن محارب بن عمرو بن عامر بن لاحق بن شهاب أبو محمد الأنصاري، سكن بغداد وتوفي في القرن الثالث الهجري، انظر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ط٢، ١٤٢٥هـ ، دار الكتب العلمية، ١٣٢/١٠.

(٥) فرانز روزنثال: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(٦) أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرقي بن عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني، أبو الوليد الوليد وأبو محمدا لأزرقي المكي، روىٰ عن سفيان بن عيينة، والإمام الشافعي وهو من أقرانه، وهو مؤلف تاريخ مكة، توفي سنة ٢٢٢هـ. انظر: الفاسي: العقد الثمين ١٧٦/٣، ١٧٨؛ المزي: تهذيب الكمال، ٤٨٠/١.

(٧) هو محمد بن عبدالله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة الغساني، أبو الوليد الأزرقي، مؤلف كتاب كتاب أخبار مكة المشرفة وما جاء فيها من الآثار، حيث حدث عن جدّه أحمد بن محمد الأزرقي، وأنه كان حياً في خلافة المنتصر محمد بن جعفر المتوكل العباسي، توفي سنة ٢٥٠هـ. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٤٩/٢.

- محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي المكي المتوفىٰ سنة ٢٧٣هـ وكتابه [١] "أخبار مكة في الجاهلية والإسلام".
- عبد الله بن محمد بن إسحاق الفاكهي المكي المتوفىٰ سنة ٣٥٣هـ، وله كتاب "أخبار مكة".
- أبو زيد عمر بن شبة النميري المتوفىٰ سنة ٢٦٢هـ وكتابه (تاريخ المدينة المنورة).[٢]
- أبو سعيد بن الأعرابي المتوفىٰ سنة ٣٤١هـ وكتابه "فضائل مكة".
- المفضل بن محمد بن الجندي المتوفىٰ سنة ٣١١هـ وكتابه "فضائل مكة"[٣].
- أبو عبد الله محمد بن سعد[٤]. (أخبار مكة) ت/ ٢٣٠هـ.

وكما شهدت بلاد الحجاز في فترة الدراسة إقبال وولع كبير من قبل حملة العلم فيها علىٰ المزيد من إثراء علم الأنساب والأخبار بالعديد من المصنفات في مجالات التاريخ المتعددة، الأمر الذي يؤكد لنا ويبين الحجم للنتاج العلمي في هذا العلم ونضرب مثالاً فنذكر ما ألفه الزبير بن بكار بن عبد الله القرشي منها "أنساب قريش وأخبارها" و "نوادر أخبار النسب" و "الأوس والخرج" وغيرها لابن بكار المتوفىٰ سنة ٢٥٦هـ[٥]

(د) الجغرافيا والرحلات:

احتلت الجغرافيا والرحلات المرتبة الأخير بين العلوم الإنسانية والأدبية من

---

(١) محمد بن إسحاق بن العباس الفاكهي، المكي، مؤلف أخبار مكة وهو كتاب حسن جداً، لكثرة ما فيه من الفرائد النفسية، ويعتبر الفاكي من أهل الفضل وأنه من أهل العدالة، توفي سنة ٢٧٣هـ. انظر: ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، ط١، ١٤١٥هـ، ص ١٣٩.

(٢) ابن عبدة بن زيد رائطة، العلامة الإخباري الحافظ الحجة صاحب التصانيف، أبو زيد النميري البصري النحوي، نزيل بغداد، ولد سنة ١٧٣هـ، صنَّف تاريخاً كبيراً للبصرة وكتاباً في أخبار المدينة، وصنف أخبار الكوفة، وأخبار مكة، وكتاب الأمراء، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب أخبار المنصور، وكتاب النسب، وكتاب التاريخ، توفي سنة ٢٦٢هـ في مدينة سامراء. انظر: الذهبي: سير الأعلام، ط١ ، ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، ٣٦٩/١٢- ٣٩٧.

(٣) هو المقرئ المحدث الإمام أبو سعيد المفضل بن محمد بن إبراهيم بن مفضل بن سعيد بن الإمام عامر عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي، ثم الجندي، له حلقة بالمسجد الحرام وهو ثقة، له كتاب فضائل مكة، توفي سنة ٣٠٨هـ، وقيل سنة ٣١١هـ. انظر: الذهبي، السير، ٤٧٨/٩، السخاوي: الإعلام بالتوبيخ، ص٢٨٢.

(٤) هو ابن منيع الحافظ العلامة الحجة، أو عبدالله البغدادي، كاتب الواقدي، مؤلف كتاب "أخبار مكة، و"طبقات أهل مكة" و"الطبقات الكبرى"، و"الطبقات الصغرى"، توفي ببغداد لأربع خلون من جمادىٰ الآخرة سنة ٢٣٠هـ، وكان كثير العلم والحديث والرواية، كثير الكتب. انظر: ابن النديم: الفهرست، ط١، ١٤١٦هـ، تحقيق: يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، ص ١٥٨؛ الذهبي: السير، ٦٩٣/٧.

(٥) ابن النديم: الفهرست، تحقيق: إبراهيم رمضان، ط١، ١٤١٥هـ، ص ١٤١.

حيث عدد العلماء ومن حيث المصنفين والمصنفات حيث ظهر أبو علي الهجري[(١)].

كذلك من الوافدين إلىٰ الحجاز والذين اهتموا في كتاباتهم بإقليم الحجاز:

١- أبو العباس أحمد بن يعقوب بن واضح اليعقوبي، حيث ألف كتابه البلدان، فذكر فيه أسماء الأقطار والأجناد والكون وما في كل مصر من المدن والأقاليم، وتطرق إلىٰ مدينة الرسول ﷺ ذاكراً الطرق والمسالك التي تؤدي إليها والأودية غيرها[(٢)].

٢- أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق بن الفقيه الهمذاني، الذي كان عمد شهرته كتابه الجغرافي البلدان، الذي تطرق هذا الكتاب إلىٰ جميع المملكة الإسلامية[(٣)].

٣- أبو القاسم عبدالله بن أحمد بن خرداذبة حيث ألف كتابه المشهور باسم "المسالك والممالك" وهو كتاب رسمي عن الطرق مع معلومات دقيقة عن المحطات ومراحل البريد وجباية كل إقليم[(٤)].

٤- أبو علي أحمد بن عمر بن رسته، حيث ألف كتاب الأعلاق النفيسة واصفاً فيه الأفلاك وهيئة السماء والكواكب والبروج والشمس والقمر والليل والنهار[(٥)]، كما أنه قدم دراسة واقعية عن المناخ وأثره علىٰ المخلوقات وعن التضاريس المختلفة لجميع البلدان[(٦)].

٥- أبي القاسم إبراهيم بن محمد الاصطخري وكتاب المسالك والممالك الذي أورد فيه الحدود والمدن والمسافات وطرق المواصلات لكل قطر وكذلك أورد تفاصيل متفرقة عن الحاصلات والتجارة والصناعة وعن الشعوب والأجناس[(٧)].

والأجناس[(٧)].

٦- علي بن الحسن بن علي بن عبدالله المسعودي الهذلي، وله مؤلفات عديدة أهمها كتابه مروج الذهب ومعادن الجوهر حيث وضع خلاصة تجاربه في الأسفار والرحلات في هذا الكتاب[(٨)].

٧- الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الهمداني، له مؤلفات عدة وكان

---

(١) الهجري هارون بن زكريا أبو علي، عمل مؤدبا في العقين وهو عالم بالحديث واللغة والآداب، عالم بالأنساب، جغرافي، له العديد من المؤلفات توفىٰ سنة ٣٢١هـ، انظر عنه: حمد الجاسر: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، ط١، ١٩٦٨م، دار اليمامة، الرياض، ص ١٧-٢٩.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٢ – ٣١٣.

(٣) عمر كحالة: التاريخ والجغرافية، ص٢٥٣.

(٤) شاكر خصاك: كتابات مضيئة في التراث الجغرافي، ص٢١.

(٥) ضياء الدين علوي: الجغرافية العربية، ص٦٩.

(٦) علىٰ الدفاع: رواد علم الجغرافيا، ص٨٥.

(٧) محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون، ص١٣٩ – ١٤٠.

(٨) نقولا زيادة: الجغرافية والرحلات، ص١٥٤.

عماد شهرته في كتاب الجغرافي صفة جزيرة العرب، حيث تناول في هذا الكتاب المظاهر الطبيعية في شبه الجزيرة العربية وأجناس سكانها وقبائلها، وطرق وأماكن استقرار الناس فيها[1].

٨- أبو القاسم محمد بن حوقل، وكتابه صورة الأرض حيث ألفه علىٰ صفة أشكال الأرض ومقدارها وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها[2].

٩- أبو عبيد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء المقدسي البشاري الذي ألف كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، حيث اقتصر علىٰ ديار الإسلام وتناول الجغرافية الطبيعية والبشرية والاقتصادية للمناطق التي زارها ذكر المسافات وطرق المواصلات[3].

ثالثاً: العلوم التطبيقية:

وهذه العلوم التي يربطها عامل مشترك ورئيسي وهو ما كان للقياسات العقلية فيه الدور الأساسي فضلاً عن الجوانب التجريبية. وتشمل هذه العلوم، علم الطب والكيمياء والهندسة المعمارية.

(أ) علم الطب:

ممن أسهموا خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين في هذا العلم :

١- ذو النون ثوبان بن إبراهيم المصري[4] الذي رحل من مصر إلىٰ مكة فأقام عند علمائها مدة من الزمن، وظهر اهتمامه بعد ذلك بعلم الطب مما يوحي لنا أنه اقتبس ونهل عن العلماء الموجودين في مكة من الحجازيين والوافدين في علم الطب خاصة فألف فيه كتاب "الثقة في الصنعة".

٢- أبو بكر محمد بن أحمد بن مسلمة الأنصاري المروزي[5] الذي أثرىٰ علم الطب الطب بالكثير من مصنفاته "الجامع" و"الأعصاب" و"الطب الروحاني".

---

(١) عبدالرحمن حميدي: أعلام الجغرافيين العرب، ص٢٩٢.
(٢) عمر كحالة: المرجع السابق، ص٢٥٣.
(٣) عدي يوسف مخلص: المقدس البشاري، ص٦٨.
(٤) هو الزاهد، شيخ المصريين، ثوبان بن إبراهيم وقيل: فيض بن أحمد، وقيل: فيض بن إبراهيم النوبي النوبي الأخميمي يكنىٰ: أبا الفيض، ويقال: أبا الفياض ولد في أواخر أيام المنصور، توفىٰ سنة ٢٤٦ وقيل ٢٤٨هـ، انظر: الذهبي: المصدر السابق، ٣١٢/٨.
(٥) توفي بين مكة والمدينة سنة ٣١٠هـ، انظر: الذهبي، المصدر السابق، ط١، ١٤٠٢هـ، مؤسسة الرسالة، ٣٥٤/١٤-٣٥٥.



٣- عبد الملك بن أبي عثمان النيسابوري[١].

فبرغم من أن هناك عدد لا بأس بهم قد عنوا بالطب فلابد أن هناك دور للمرضىٰ [البيمارستانات – والمستشفيات] في مكة والمدينة علىٰ وجه الخصوص سواء أعدت من قبل أولياء الأمور المسلمين أم من قبل أهل البر والإحسان في دار الإسلام ممن جاوروا في الحرمين[٢].

(ب) علم الكيمياء:

وهو علم تُعرف به طرق سلب الخواص من الجواهر المعدنية وجلب خاصية جديدة إليها وإفادتها خواصاً لم تكن لها، والاعتماد فيه على أن الفلزات كلها مشتركة في النوعية والاختلاف الظاهر بينها إنما هو باعتبار أمور عرضية يجوز انتقالها[٣].

ونظراً للارتباط الوثيق بين علمي الكيمياء والطب (الصنعة) آنذاك، حيث كان الكيميائي يقدم للطبيب أنواع العقاقير التي يحتاجها الطبيب، فعدَّ الكيميائي صيدلياً صاحب أدوية، لذلك نرىٰ أن معظم الذين اشتهروا بإتقانهم لعلم الطب والكيمياء كان يطلق عليهم أصحاب الصنعة[٤].

وفي القرنين الثالث والرابع الهجريين، اشتهر الكثير من العلماء الحجازيين والوافدين بإلمامهم بعلم الكيمياء ومن أشهرهم، يوسف بن أحمد المكي[٥]، الذي عرف بالصيدلاني – أي الكيميائي – الذي كان يحضر العقاقير للأطباء، ومحمد بن أحمد بن سعيد الأنصاري الذي ذكر عنه أنه كان من أهل الصنعة[٦] وممن يجيدون معرفتها.

فكان إقبال طلاب العلم الحجازيين والوافدين علىٰ تعلم علم الكيمياء متزايد حيث أقيمت العديد من الحلقات العلمية، فهذا أبي الحسن الهمداني المتوفىٰ سنة ٣٦٦هـ تقريباً له حلقات علمية كان يعقدها أثناء مجاورته في مكة نظراً لشهرته في علم الكيمياء وكان ذلك واضحاً من خلال مصنفه في علم الكيمياء المسمىٰ بكتاب "الجوهرتين العتيقتين

---

(١) المتوفىٰ سنة ٣٨٨هـ، ذكر أنه مارس الطب في الحجاز وكان عليه إقبال شديد ضمن طلبة العلم ثم جاور بمكة سنين طويلة وذكر أنه بنىٰ داراً للمرضىٰ وأوقفها، وله خزانة كتب موقوفة، انظر: الذهبي، المصدر السابق، طبعة مؤسسة الرسالة، ٢٥٦/١٧- ٢٥٧.

(٢) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص ٢٣٠.

(٣) القنوجي: أبجد العلوم، ٤٥٦/٢.

(٤) ابن النديم: الفهرست، ترجمة: إبراهيم رمضان، ط١، ١٤٠٥هـ، ص ٣٠٢؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ٣٤٩/١- ٣٥٠.

(٥) له إسهامات في علم الطب والكيمياء وكان يصنع الأدوية للأطباء توفىٰ في سنة ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م. انظر: الفاسي: العقد الثمين، ط٢، ١٤٠٦هـ، ٤٨٢/٧.

(٦) من علماء الحجاز في علم الكيمياء والذين كانوا يجيدون هذا العلم وله العديد من المصنفات، توفىٰ سنة سنة ٣١٠هـ/ ١٩٢٢م، انظر: السيوطي: طبقات الحفاظ، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، تحقيق: علي محمد عمر، ص٣١٩.

المائعتين من الصفراء والبيضاء الذهب والفضة"[1].

ولقد شهد علم الكيمياء في القرنين الثالث والرابع الهجريين تطوراً ملحوظاً من خلال تزايد أعداد الكتب المصنفة فيه، والتي أوضحت المستوى الرفيع الذي وصل إليه علماء المسلمين باختراعاتهم واكتشافاتهم المتواصلة والجديدة في علم الكيمياء وعلى سبيل المثال ما ألفه عثمان بن سويد الأخميصي المصري والتي تصب جميعها في علم الكيمياء [2].

---

(١) عبد الرحمن الشجاع: الحياة العلمية في اليمن، ص ٤٠٩- ٤١١.

(٢) كان من علماء القرن الرابع الهجري من مؤلفاته كتاب الكبريت الأحمر وكتاب الإبانة والتصحيحات وحرف التوهم عن ذي النون المصري والتعليقات وآلات القدماء والحل والعقد والتدبير والتصعيد والتقطير والجحيم الأعظم ومناظرات العلماء ومفاوضاتهم، انظر: ابن النديم: الفهرست، ترجمة: إبراهيم رمضان، ص٤٣٩.

المبحث الثـــاني

الجـانب الاقتصــادي

- ❑ المطلب الأول: الزراعة ووسائل الري.
- ❑ المطلب الثاني: التجــارة.
- ❑ المطلب الثالث: الصنــاعات والحــرف.
- ❑ المطلب الرابع: المعـامـلات المـالـية.

المطلب الأول

الـــزراعة ووسائل الري

تعتمد الزراعة في بلاد الحجاز عامة علىٰ الأمطار أو مياه العيون ويرجع ذلك إلىٰ اختلاف التضاريس ومناخ مكة المكرمة بصفة خاصة حيث يغلب عليها الجبال التي تتخللها الأودية، ولا يوجد بها أنهار جارية، إلا ما كان يجري إليها من مياه العيون البعيدة عن عين البلد، وأطيب مياهها ماء زمزم[1].

مكة المكرمة:

ذكر ذلك الرحالة المشارقة ومنهم الاصطخري الذي قال: (إن مكة ليس بها ماء جار إلا شيء بلغني بعد خروجي عنها أنه أجري إليها من عين كان عمل فيها بعض الولاة فاستتم في أيام المقتدر أمير المؤمنين ومياههم من السماء وليست لهم آبار تشرب وأطيبها بئر زمزم ولا يمكن الإدمان علىٰ شربه وليس بجميع مكة فيما علمته شجر مثمر إلا شجر البادية فإذا جزت الحرم فهناك عيون وآبار وحوائط كثيرة وأودية ذات خضر ومزارع ونخيل وأما الحرم فلم أر ولم أسمع أن به شجراً مثمراً إلا نخيلات رأيتها بفخ[2] ونخيلات يسيرة متفرقة) [3].

من خلال هذا النص يتضح أن مناخ مكة يمتاز بالجفاف وارتفاع الحرارة[4] لذلك نجد أن محاصيلها الزراعية قليلة – تكاد تكون معدومة وبخاصة في بساتينها التي تقع في أطرافها وضواحيها، التي كانت منتشرة إلىٰ مسافات بعيدة، وقد كان ذلك سبباً لأن يعتمد المكيون علىٰ غيرهم في حياتهم المعيشية وفي أقواتهم[5]، هذا بالإضافة إلىٰ الحجاج الذين يأتون لأداء فريضة الحج، فيضطرون إلىٰ جلب ميرتهم معهم من بلادهم، ولذلك كانت هذه المناطق المجاورة لمكة المكرمة والوديان الموجودة بين مكة وجدة تنبت مختلف النباتات وتمد مكة بكل ما تحتاج إليه من الخضر والبقول والفواكه وبخاصة منطقة الطائف، التي حباها المولىٰ تبارك وتعالىٰ بجو جميل وطبيعة خلابة، فأغدقت عليها كثيراً من هباتها. وشهدت الطائف رخاء اقتصادياً واضحاً[6].

---

(١) باقاسي: مكة والمدينة، ص ١٦٩.
(٢) فخ وادٍ بمكة يقال له وادي الزاهر (حي الشهداء) انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٧/٧-١٨.
(٣) الأصطخري: المسالك والممالك، طبعة دار القلم، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ت. محمد شفيق غربال، ص٢٢-٢٣.
(٤) أحمد السباعي: تاريخ مكة، ط٤ ، ١٩٧٩م، ١٥/١.
(٥) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، [د.ت]، ٣٠١/١.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشي، طبعة القاهرة، ١٩١٩م، ٢٥٨/٤- ٢٥٩.

وتأكيداً لما ذكره الرحالة المشارقة عن الطائف في الفقرة السابقة حيث ذكروا عن مدينة الطائف في هذا النص "والطائف مدينة صغيرة نحو وادي القرىٰ إلا أن أكثر ثمارها الزبيب، وهي طيبة الهواء وأكثر فواكه مكة منها"[١].

وأكد المقدسي ذلك بقوله: "الطائف مدينة صغيرة شامية الهواء، باردة الماء، أكثر فواكه مكة منها، موضع الرُّمان الكثير والزبيب والعنب الجيد والفواكه الحسنة"[٢].

إذاً يتضح أن المكيون استثمروا ممتلكاتهم وعقاراتهم وبساتينهم في الطائف وجعلوها أساساً لاقتصادياتهم، وبذلك أصبحت مكة تعيش علىٰ الإنتاج الزراعي بمنطقة الطائف، ولم يقتصر الأمر علىٰ هذا بل نجد بعض أهل مكة يمتلكون موارد المياه أي الآبار والعيون بالطائف وخففت ثروة الطائف الطبيعية الأزمات الاقتصادية التي كانت تحتاج مكة في بعض الفترات، وقد تغيرت نظرة الرجل الحجازي بالنسبة إلىٰ الزراعة وتبدلت عما كانت عليه في العصر الجاهلي، عندما كان يأنف الزراعة، وكان يفضل عليها حرفة التجارة والرعي، أما بعد ذلك فقد أخذ يمارس الزراعة بمساعدة الخدم والعبيد، مقابل حصوله علىٰ ربع غلة المحصول[٣]. وكان لبعض المكيين مزارع بالقرب من مكة، ترویٰ بمياه العيون والآبار، وكانت هذه المزارع تنتج مختلف الحاصلات الزراعية، وقد عمل المكيين علىٰ استقدام عمال من المغاربة ذوي الخبرة بالفلاحة والزراعة، نهضوا بالزراعة فيها وأحدثوا بها كثيراً من البساتين والمزارع[٤]، والمزارع[٤]، حيث توجد التمور بكميات قليلة في مكة، حيث يعملون منه الرطب، وكان المكيون عندما يطيب يبسطونه علىٰ الأرض حتىٰ يجف قليلاً ويرصونه في سلال فوق بعضه البعض ويرفعونه[٥].

واعتمدت قرىٰ بطن نخل[٦] علىٰ سوق مكة في بيع محاصيلها الزراعية وهي إلىٰ الشرق من مكة، فيما بينها وبين الطائف وهي قرىٰ ذات عيون وحدائق ومزارع، وكانت هناك قرىٰ كثيرة وعيون غزيرة تقع في بطن مرّ[٧] شمال مكة، وهو واد خصيب كثير النخل، وتشغل مزارع النخيل ببطن ببطن مرّ رقعة واسعة تتصل بوادي نخلة، وتجاور بطن مرّ عدة أودية ومناطق

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك: ص ٢٤.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٨.
(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، طبعة ١٨٦٦م، ٨/٤-١١.
(٤) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٥٩.
(٥) ابن جبير: الرحلة، بيروت، ١٣٨٨هـ، ص ٨٩.
(٦) عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ط١، ١٣٩٨هـ، دار مكة، ٢٣٤/١.
(٧) ابن خرداذبه: المسالك، ص١٣٠. وهو من نواحي مكة، عنده يجتمع وادي النخلتين فيصيران وادياً واحداً، انظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ٥٣٣/١؛ البلادي: المرجع السابق، ٢٣٣/١ – ٢٣٤.

زراعية مثل عسفان(1)، والبرزة(2)، وخليص(3)، وجمعيها تشتهر بزراعة الخضر والحبوب والنخيل وتعتمد في زراعتها علىٰ العيون والأمطار واعتمدت هذه القرىٰ علىٰ سوق مكة في بيع محصولاتها الزراعية(4).

وإلىٰ الجنوب من مكة تقع جبال السراة وهي أرض عالية وجبال مشرفة علىٰ البحر تمتد من الطائف إلىٰ صنعاء، وهي موطن الحبوب والتمور والعسل وكانت تضم أكثر من مائتي قرية، بها عيون متدفقة و مزارع ونخل. وكان سكان هذه القرىٰ يجلبون إلىٰ مكة كثيراً من الخيرات من الحنطة والشعير والسويق والسمن والعسل والدخن واللوز والزبيب وغيرها(5).

لقد توفرت في الحجاز عوامل عدة لقيام الزراعة حيث وجدت بعض المناطق الخصبة وتوفرت المياه من مصادر مختلفة مثل الأمطار أو الآبار أو العيون أو الينابيع(6).

أما الأيدي العاملة فقد استخدم عدد من الرقيق الذين اختلفت أعمالهم فيها، فهناك من يقوم بالسقىٰ وآخرون بالزراعة(7) والبعض يقوم بنقل المنتوجات الزراعية إلىٰ الأسواق، وعادة يقوم بهذا العمل صغار العبيد الذين ليس لديهم خبرة بالزراعة(8).

ويستقر العبيد في الأراضي الزراعية مع عائلاتهم وهذا الاستقرار يجعل اهتمامهم منصباً علىٰ تحسين الأراضي وزيادة الإنتاج(9)، هذا بالنسبة لمزارع الأغنياء، علىٰ أن هناك مزارع أخرىٰ نجد أن أصحابها يعملون بأنفسهم(10) بها وقد

---

(1) عسفان: منهلة من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وهي من مكة علىٰ مرحلتين، وهي علىٰ ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وحي حدّ تهامة. انظر: البلادي: المرجع السابق، ١٠٠/٦.

(2) البرزة: قرية عامرة في وادي غرّان بين رهاط وعسفان، فيها زراعة ومدارس وسوق، سكانها حرب، وبها إمارة تابعة لإمارة خليص. انظر: البلادي: المرجع السابق، ٢٠٣/١ ــ ٢٠٤.

(3) خليص: وادٍ كثير الماء والزرع واسع علىٰ شكل مربع من السهل يبلغ ضلعه قرابة عشرين كيلاً، يقع يقع شمال مكة علىٰ بعد ١٠٠ كيل يحف به من الغرب جبلا جمدان، وليس من الشمال حرة الخليصية ويصب فيه من الجنوب= وادي غران، سكانه من حرب زبيد والبلادية، وعدد سكانه يقرب من ثلاثين ألفاً، وتبعد عن جدة ٩٠ كيلاً شمالاً شرقياً، انظر: البلادي: المرجع السابق، ١٤٩/٣ ــ ١٥٠.

(4) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٥٨ـ ١٥٩.

(5) نفس المرجع السابق: ص ١٥٩ـ ١٦٠.

(6) الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض ١٣٨٩هـ/ ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص ٥٠

(7) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: دي غوجيه، بيروت، ١٩٦٥م، ٩٩٢/١١.

(8) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد [د.ط.ت]، ص ٢٩٧.

(9) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك محمد: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨من ص٩٦.

(10) الزبيدي، أبو عبد الله المصعب بن عبد الله بن المصعب: نسب قريش، ط٢، مصر، [د.ت]، ص ٢٩٠.

يستعينون بالآخرين وخاصة في موسم جني الثمار[١].

وهناك عوامل عرقلت الزراعة وحدت من ازدهارها مثل الثورات فقد شهدت مناطق الحجاز عدداً من الثورات والتي نتج عنها حرق النخيل وكذلك قتل عدد كبير من العبيد الذين يعملون في هذا المجال[٢].

وللعوامل الطبيعية أثرها في الحد من مساحة الأرض الزراعية فزحف الرمال علىٰ بعض المناطق عرقل توسع الزراعة بها[٣] ومنعت خشونة الأرض وغلاظتها الزراعية عليها رغم توفر المياه العذبة[٤] بها، وللسيول تأثير سلبي علىٰ الزراعة عندما عندما تزيد كمياتها أو تأتي في غير مواسمها حيث أنها تجرف التربة وتفسد المحاصيل الزراعية[٥].

ومن الآفات الطبيعية التي تهدد الزراعة الجراد الذي يتلف المحاصيل الزراعية، وتتلف القرود بعض المزروعات وخاصة قصب السكر والأعشاب. وقلة الماء العذب تحد من الزراعة[٦] في بعض المناطق، فمثلاً ماء الهديبة[٧] فيه ثلاث آبار، ولكن ليس حوله حوله زراعة، وذلك لعدم صلاحية الماء للزراعة[٨] وأحياناً تتوفر المياه العذبة بكثرة، ولكن لا يستفاد منها استفادة زراعية بل تهدر.

إذن.. هذا بالنسبة للنشاط الزراعي في مكة المكرمة والقرىٰ التابعة لها، و أنها تستمد إنتاج المحاصيل الزراعية من الطائف حيث يمتلك المكيون في الطائف أراضي زراعية هناك، حيث ذكر بعض الرحالة المشارقة بقوله "وأكثر فواكه مكة تحمل من الطائف"[٩].

وأهم هذه الفواكه علىٰ الإطلاق العنب، فعليه تعتمد ثروة الطائف الاقتصادية منذ القدم، حيث يذكر أن سليمان بن عبد الملك لما أدىٰ فريضة الحج مرَّ بالطائف فرأىٰ

---

(١) الفيروز أبادي: المصدر السابق، ص ٢٢١.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩٩٢/١١.
(٣) الفيروز أبادي: المغانم المطابة في معالم طابه، ص ٤٣٩.
(٤) المصدر السابق: ص ٣٦٤- ٣٦٥.
(٥) المصدر السابق: ص ٢٧٩- ٢٨٠.
(٦) ابن بكار: جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: محمود شاكر، بيروت، ١٣٨١هـ، ص٢٢٣.
(٧) الهديبة وهي آبار ثلاث ليس لها نخل ولا شجر واسعة بين حرتين تكون ثلاثة فراسخ عرضاً أكثر نباتها الحمض وهي لبني خفاف ثم تنتهي إلىٰ السوارقية، انظر: البكري، أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: جمال طلبة، ٩٠/١.
(٨) الفيروز آبادي: المصدر السابق، ص٤٣٣.
(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٩.

بيادر الزبيب فقال: ما هذه الحرار؟ قالوا ليست حرار ولكنها بيادر الزبيب[١] وذكر أيضا أحد الرحالة المشارقة أن في أكناف الطائف كروم علىٰ جوانب جبلها "فيها من العنب العذب ما لا يوجد مثله في بلد من البلدان وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل"[٢].

المدينــة المنــورة:

أما المدينة فأرضها من أخصب أراضي الحجاز فهي أرض بركانية خصبة تتوافر فيها مياه الأودية والآبار والعيون، وأرض علىٰ هذا النحو من الخصوبة تكون صالحة للزراعة وقد رأينا أن النخيل كان أهم المحصولات الزراعية في يثرب وعليه كان يعتمد سكانها[٣] وتمر يثرب الصيحاني يفوق تمور غيرها[٤] وكان الشعير يؤلف المصدر الثاني لثروة يثرب الزراعية وكان طعامهم، أما التمر الموسر منه فكان يباع[٥]، وكان يزرع القمح والكرم وفواكه أخرىٰ كالرمان والموز، واللبان[٦].

أيضاً من المحاصيل الزراعية تأتي التمور في الدرجة الأولىٰ حيث انتشرت زراعة النخيل في الحجاز وتميزت تمور المدينة المنورة بجودتها وكثرة إنتاجها، كما ذكر المقدسي أن هناك في بدرٍ أيضاً التمور الجيدة، فزرع فيها الصيحاني والبرني وهو نوع من التمور مدور أحمر مشرب بصفرة، وأيضاً زرع فيها البردي والعجوة[٧].

وتأتي زراعة الحبوب في المرتبة الثانية بعد التمور علىٰ أن المحاصيل من الحبوب كالشعير والقمح لا تسد الاستهلاك المحلي بخلاف التمور، لذلك يعتمد أهالي الحجاز علىٰ استيراد الحبوب من مصر واليمن[٨].

إذاً تعتبر المدينة المنورة عامرة بالزراعة ولكنها أصغر من مكة المكرمة من ناحية المساحة حيث ذكر بعض الرحالة ذلك بقوله "أما المدينة فهي أقل من نصف مكة وهي في حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار

---

(١) ابن قتيبة: عيون الأخبار، ص ٢٢٧/٣.
(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص ٧٩.
(٣) اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣١٣.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، مادة يثرب، ص ٨٧.
(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ص ٢٧٨.
(٦) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص ٢٥.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٠؛ الزمخشري: ربيع الأبرار، ص ٢٥٤-٢٥٦.
(٨) ابتسام عبد المحسن آل سويلم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتىٰ حتىٰ منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، قسم التاريخ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٩٥.

يسقون منا العبيد"[(١)].

ومن خلال النص السابق يتضح أن المدينة المنورة تقع في منطقة خصيبة التربة تسيل فيها الوديان، والتي تغذي هذه المنطقة بالمياه الكافية لقيام الزراعة فيها بشكل جيد، أضف إلىٰ ذلك العيون والآبار التي كثرت في منطقة المدينة وما حولها والتي قام بحفرها السكان، للانتفاع بمياهها للشرب والسقي، ولتوفر المياه في المدينة اشتغل معظم أهلها بالزراعة، واتخذوا منها حرفتهم الرئيسية[(٢)]، ومما ساعدهم علىٰ نجاحها خصوبة التربة، ووجود مصادر كثيرة من مياه الآبار والعيون ووديان تفيض بمياه السيول، لذلك فقد برع أهل المدينة بالزراعات المتنوعة التي توفر الجزء الأكبر من حاجة السكان الغذائية، أما الذي يفيض عن حاجتهم من الثمار والمزروعات، فكان أهل المدينة يبادلون بها تجارياً مع المدن الحجازية الأخرى[(٣)]، وقد تعددت المحاصيل الزراعية في المدينة من الأعناب والتمور والحبوب والبقول[(٤)]، وهذا دليل علىٰ أن سكان المدينة المنورة عرفوا هذه المحاصيل الزراعية وأنواع الفواكه المختلفة.

ومن أهم مصادر المياه في المدينة المنورة:

أ) الآبار:

حيث ذكر أحد الرحالة المشارقة أن أهالي المدينة يسقون نخيلهم من الآبار بقوله: "ولها نخيل – المدينة – كثيرة ومياه نخيلهم وزرعهم من الآبار"[(٥)].

ومن آبار المدينة المنورة وأولها بئر (حاء) [(٦)] شمال شرقي المدينة، وبئر (أريس) [(٧)] غربي المدينة مقابلة مسجد قباء وماؤها عذب، وبئر (بضاعة) [(٨)] بالقرب

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٣؛ المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٨٨؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، ٩٧/٥.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ،ط٢، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٦٠. ص٦٠.

(٣) سليمان مالكي: مرافق الحج والخدمات في الأراضي الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتىٰ حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ٤٣؛ بلاد الحجاز، ص ١٠١- ١٠٢.

(٤) ابتسام آل سويلم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص ١٧٥.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص٢٣.

(٦) وهي شمال السور، بينهما الطريق، تعرف الآن بالنوبرية اشتراها بعض النساء النوبريين، أي: خطباء خطباء مكة اليوم، ووقفها علىٰ الفقراء والمساكين، انظر: السمهودي، علي بن عبد الله بن أحمد الحسيني: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، تحقيق: محمد الأمين محمود أحمد الجكني، ٤٣٦/٢-٤٣٧.

(٧) بئر أريس لا تزال معروفة بجوار قباء في ساحة تقف فيها السيارات وقد طمت بأمر من السلطات هناك، ولكن فوهتها لا تزال معروفة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٦٠/١ – ١٦١.

(٨) تقع غربي بئر حاء إلىٰ جهة الشمال، وتبعد عنها بنحو ثلاثمائة متر تقريباً. وبضاعة هي دار بني ساعدة بالمدينة وبئرها معروفة فيها، وكانت موجودة منذ زمن النبي ﷺ، وبها مال لأهل المدينة من أموالهم، وهي في المدينة المنورة، ويطلق اليوم اسمها علىٰ حي فيه مدرسة للبنات في الجهة الشرقية

بالقرب من سقيفة بني ساعدة، ثم بئر (غرس) [1] التي كانت تبعد عن مسجد قباء نحو نصف ميل، وبئر (البصة)[2] التي كانت قريبة من البقيع، ثم أخيراً بئر (رومة) [3] في وادي العقيق، وكانت بعيدة عن المدينة المنورة.

ب) الأودية:

ومن الأودية في المدينة المنورة وادي العقيق حيث ذكره بعض الرحالة المشارقة بقوله: "والعقيق واد من المدينة في قبليها علىٰ أربعة أميال في طريق مكة وأعذب مياه تلك الناحية آبار العقيق"[4].

ويعتبر وادي العقيق من أخصب مناطق المدينة المنورة حيث بنيت كثير من السدود علىٰ الأودية للاستفادة من مياه الأمطار، وأن هذه الوديان كانت تتخلل منطقة المدينة كلها، فتروي أرضها وتسيل مياهها من شراج الحرة الشرقية في مياه قليلة، عادة لا تصل إلىٰ أكثر من ارتفاع الكعبين، ولكن في معظم الأحيان تفيض حتىٰ تصل إلىٰ أنصاف النخيل، وكان الري يتم في الأرض المختلفة والارتفاع بطريقة توصف بالنظام والترتيب، فقد كان الزراع يسقون نخيلهم وزرعهم من هذه المياه، فيقسمون المياه بينهم، وذلك بأن يحبس الماء صاحب الأرض العالية، حتىٰ يتم سقاية نخله وزرعه، ثم يرسلها إلىٰ من هو أسفل منه فيسقي[5]، وفي الأوقات التي تقل فيها مياه الوديان أو تنقطع، أو في الأماكن التي لم تكن تصل إليها المياه، فإن المزارعين في المدينة كانوا يستخدمون مياه الآبار في ري مزارعهم.

ينبع والعيص:

من مناطق الحجاز والتي اشتهرت بالزراعة حيث ذكر بعض الرحالة المشارقة هاتين المنطقتين بقوله " والعيص حصن صغير بين ينبع والمروة والعشيرة تفضل

لباب الشامي. انظر: السمهودي: المصدر السابق: ٤٢٧/٢؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٦١/١، وأيضاً ٢٢٥/١. وعن أبي سعيد قال: مررت بالنبي ﷺ وهو يتوضأ من بئر بضاعة، فقلت: أتتوضأ منها وهي يُطرح فيها ما يكره من النتن؟ فقال: "الماء لا ينجسه شيء" النسائي: السنن، بشرح السيوطي وحاشية السندي، ط٢، حلب، مكتبة المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ١٧٤/١، رقم ٣٢٧.

(١) وهي بئر بقباء شرقي مسجدها، علىٰ نصف ميل من جهة الشمال وتعرف الآن بالغرس وحولها مقابر لبني حنظلة، انظر: السمهودي: المصدر السابق، ٤٤٧/٢.

(٢) وهي قرية من البقيع علىٰ طريق قباء، بين نخل، وقد هدمها السيل، وفيها ماء أخضر، وعرضها سبعة أذرع، فهذا منه جزم بأنها الكبرىٰ التي في قلبي الحديثة، وقد عمرت بعده، وهناك بئر أصغر منه، انظر: السمهودي: المصدر السابق، ٤٢٦/٢.

(٣) وهي بأسفل العقيق قرب مجتمع الأسيال وكانت قد خربت ونفضت حجارتها فأحياها وجددها قاضي مكة: الشهاب أحمد بن محمد المحب الطبري في حدود سنة ٧٥٠هـ. انظر: السمهودي: المصدر السابق: ٤٤١/٢-٤٤٢.

(٤) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٣.

(٥) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص ٣٥٦.

تمورها علىٰ سائر تمور الحجاز إلا الصيحاني بخيبر والبرني والعجوة بالمدينة وبقرب ينبع جبل رضوىٰ وهو جبل منيف ذو شعاب وأودية. وأن به مياهاً كثيرة وأشجاراً"[١].

من خلال النص السابق يتضح أن ينبع من أهم المناطق الزراعية والرعوية و كذلك العيص[٢]، وقد اكتسبت ينبع اسمها من الينبوع وهو مورد الماء فلا غرو، أن تتوفر فيها المياه والتي تعتبر سبباً رئيسياً في خصوبة التربة، وانتشار الزراعة بها، هذا بالإضافة إلىٰ تعدد المحاصيل الزراعية، والتي كانت سبباً في عمارة المنطقة، وجعلها آهلة بالسكان مما شجع الكثيرين للهجرة إلىٰ تلك المناطق، وكذلك ساعد علىٰ تعدد القرىٰ، والتي كان السبب في وجودها تعدد العيون، والأودية وروافدها[٣] كما أسلفنا، وأكد أحد الباحثين[٤] أن من روافد وادي الأشعر[٥] عباثر[٦]، ونخلىٰ[٧]، وهي وهي تشتهر بالزراعة وخاصة النخيل، كما أن وجود الترع الصغيرة أعطىٰ للأرض خصوبة، وساعد علىٰ ازدهار الزراعة وتنوع المحاصيل الزراعية[٨]، التي كان أهم محصول لديهم التمور، فكانت تفضل علىٰ سائر تمور الحجاز إلا الصيحاني بخيبر والبرني والعجوة بالمدينة[٩]. وقد مهر أهل ينبع في الزراعة، والحرف التي تقوم عليها عليها حيث اعتنوا بالمناحل لتربية النحل، والاستفادة منها في استخراج العسل[١٠] ووجود النحل هذا يشير إلىٰ وجود الأزهار المتنوعة في تلك الأرض الخصبة، والجهنيون من سكان ينبع تولوا العناية بالزراعة والاهتمام بالمزارع عن طريق استخدام كثير من العمال المهرة في فلاحة الأرض وزراعة البساتين علىٰ مدار السنة، وحين يأتي جمع المحصول من الثمار أو التمور ينزلون من مناطق سكانهم في سفوح

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ٢٥.

(٢) وهو موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له ذنبان العيص؛ قاله أبو الأشعث وهو فوق السوارقية، قال ابن إسحاق في حديث أبي بصير: خرج حتىٰ نزل بالعيص من ناحية ذي المروة علىٰ ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلىٰ الشام، انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، تحقيق: فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٥/٤.

(٣) العباسي، أحمد بن عبد الحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق: محمد الطيب الأنصاري، حمد الجاسر، المكتبة العملية [د.ط.ت]، ص ٢٨١- ٤٣٣.

(٤) البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار مكة، ٤٢/٤-٥٠، ٥٢/٢، ٣٦/١٠.

(٥) الأشعر، بجدة من شقة اليماني وادي الروحاء ومن شقه الشامي: بواطان وعن أبي هريرة رضي الله الله عنه قال: "خير الجبال أحد والأشعر ودرقان"، انظر: السمهودي: خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفىٰ، ٥٤٦/٢.

(٦) عباثر، جمع عبيثران للنبات المعروف وهو وادي من الأشعر بين نخلي وبواط، انظر: السمهودي: السمهودي: المصدر السابق، ٦٧٤/٢.

(٧) ونخلي من أودية الأشعر الغورية تصب في ينبع وبأسفله عيون لحسن بن علي بن حسن منها ذات الأسيل وبأسفله البلدة، انظر: السمهودي: المصدر السابق، ٧٤٥/٢.

(٨) الجزيري: درر الفوائد، ط١، دار اليمامة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ١٤١٧/٢- ١٤١٨.

(٩) الاصطخري: المسالك، ص٢٥.

(١٠) الجزيري: درر الفوائد، ١٤١٨/٢.

الجبال، ويقومون بجمعها، ومن ثم حملها إلىٰ الأسواق لبيعها[١].

وتشير بعض المصادر التاريخية إلىٰ أن الزراعة تجود في منطقة البحيرة حيث يوجد بها أغزر العيون، ويزرع فيها البقول والفواكه والبطيخ والرمان[٢] وتقوم ينبع بزراعة نبات الحناء وهي من أهم الهدايا التي تجلب من المدينة وما جاورها خصوصاً بعد تجفيفها، وطحنها، وتعبئتها[٣].

---

(١) بوركهارت، جون لويس: رحلات في شبه جزيرة العرب، ترجمة عبد العزيز صالح الهلابي، عبد الرحمن عبدالله الشيخ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) البكري: معجم ما استعجم، ٨٣٦/٣.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٣.

المطلب الثاني

التجارة

كان النشاط التجاري مرتبطاً بتوفر الطرق البرية والموانئ للحجاز فلابد لنا من دراسة الطرق البرية والموانئ التي هي أساس تلك التجارة.

فقد أمدنا الرحالة المشارقة بمعلومات وافرة عن التجارة بهذا الإقليم، فمن ذلك ما ذكره الإصطخري عن جده بقوله: "وجدة فرضة أهل مكة علىٰ مرحلتين منها علىٰ شط البحر"[1]. وذكر المقدسي ذلك بقوله: "والتجارات بهذا الإقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا وسوق منىٰ والبحر المتصل بالصين وجدة والجار خزانتي مصر"[2].

الطرق البرية:

حيث يزداد اهتمام الخلفاء بإصلاحات الطرق عندما يقرر الخليفة أن يحج حيث يقوم بإرسال أحد موظفيه للإشراف علىٰ إصلاح الطرق، وفي نفس الوقت يتأكد من أمنها وتوفر الماء فيها، وفي حالة عدم توفر هذه الشروط فإن الخليفة يعدل عن الحج[3].

ولم تكن الإصلاحات قاصرة علىٰ الدولة فقد يقوم بعض الأفراد ببناء الآبار ابتغاء المثوبة من الله[4]، أو لأسباب سياسية أو لكسب محبة الناس أو للدعاية، ومن إصلاحات الطرق بناء البرك وخزانات المياه والآبار، وقد ساهمت شخصيات كثيرة في هذه الإصلاحات مثل بعض كبار الموظفين وبعض جواري الخليفة[5]، ويتوقف ازدهار الطريق وانتعاشه علىٰ وفرة المياه فيه فقد تسلك بعض الطرق الطويلة نظراً لتوفر الماء بها بينما تهمل طرق أقصر منها لقلة الماء بها[6].

وتوفر الماء في الطريق عامل مهم جداً في تشجيع الناس للقدوم من العراق وغيرها لأداء فريضة الحج، كما أنه مهم أيضاً في تنشيط الحركة التجارية، ففي سنة ٢٥٨هـ رجع كثير من الحجاج إلىٰ بلادهم من أثناء الطريق ولم يتموا حجهم، وذلك بعد

---

(١) الإصطخري: المسالك، ص٢٣.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٧.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، طبعة بيروت، ١٩٦٥م، ١٣٥٠/١٢.
(٤) الحربي، إبراهيم بن إسحاق: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، مطبعة المتنبي، بيروت، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩، ص ٣٣٣.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٢٩١.
(٦) نفس المصدر السابق، ص ٤٤١ وما بعدها.

علمهم بقلة الماء في طريق مكة[١]. ويقوم بعض سكان القرىٰ بحفر الآبار والزراعة عليها وذلك لكي يتحول الطريق إليهم مثلما حدث عندما حفرت امرأة بئرين واتخذت عليهما بستاناً فتحول الطريق إليهما أولاً لوفرة الماء وثانياً لأنه أقرب بميل[٢].

وينتج عن تحول الطريق ازدهار لبعض القرىٰ وإهمال للقرىٰ الأخرىٰ وذلك أن القرىٰ التي علىٰ الطريق تعتمد علىٰ القوافل التجارية التي تمر بها فعندما يتغير مسير هذه القوافل من طريق إلىٰ طريق آخر تتأثر القرىٰ الواقعة علىٰ الطريق الأول ويهجرها سكانها وقد تتلاشىٰ نهائياً[٣].

وهناك إشارات أو أعلام توضع علىٰ الطريق التي تكون عليها البرك والآبار بأعلام صغار لتتميز عن أعلام محطات البريد[٤]، ويضاف إلىٰ توفر الأعلام بالطرق لإرشاد القوافل والآبار والبرك وخزانات مياه توفر المواقيد الجاهزة للاستعمال من قبل المسافرين[٥]، كذلك تبنىٰ الحصون في بعض القرىٰ التي تقع علىٰ الطريق ويكون في هذه الحصون سوق وآبار ومساكن لأصحاب القرية[٦] وقد تقام الحاميات لحماية الطرق الطرق كما تقوم الخلافة بتعيين مراقبين رسميين للأشراف علىٰ الطرق ومحطاتها وعمل الإصلاحات اللازمة[٧].

وكان يؤثر علىٰ هذه الطرق التجارية الاعتداءات والثورات التي تحدث في بلاد الحجاز مثل (القرامطة) عندما دخلوا مكة في موسم ٣١٧هـ فقد أثر ذلك اقتصادياً علىٰ المدن الحجازية[٨] وذلك بارتفاع الأسعار، وقد تكون الطرق أحياناً عاملاً مساعداً في فشل بعض الثورات وذلك لكثرتها فيضيع المهاجم وتشتبه عليه الطرق لذلك نرىٰ أن الجيوش التي ترسلها الخلافة إلىٰ الحجاز تزود بالدليل الذي لديه معرفة بالطرق[٩].

الطرق البحرية:

لم تقتصر التجارة علىٰ تلك الطرق البرية فقد سلكت الطرق البحرية ولعل أهم هذه الطرق، الطريق البحري الذي يبدأ من الصين ويمر بموانئ الحجاز ثم منها إلىٰ

(١) الطبري: المصدر السابق، ١٨٧٣/١٢.
(٢) الحربي: كتاب المناسك، ص ٣٣٣.
(٣) المصدر السابق، ص ٣٣٣.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٧.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٨٧- ٢٩٣- ٤٥٤.
(٦) المصدر السابق، ص ٣٠٩.
(٧) سعد الراشد: برك المياه علىٰ طريق الحج من العراق إلىٰ مكة، مجلة الأطلال، العدد الثالث، وزارة وزارة المعارف سابقاً، (وزارة التربية والتعليم) عام ١٣٩٩هـ، ص٦٦.
(٨) المسعودي: التنبيه والإشراف، بيروت، ١٩٦٥، ص ٣٨٥-٣٨٦.
(٩) الطبري: الرسل والملوك، ١٣٥٨/١٢.

مصر، ومن أهم الموانئ الحجازية التي يمر بها هذا الطريق ميناء جدة الذي اكتسب شهرة تجارية[1]، حيث قصدته السفن القادمة من الهند والصين والمتجهة إلىٰ مصر، وتنشط الحركة التجارية نشاطاً كبيراً في هذا الميناء في فترة الحج ولكثرة ما يفد إليها التجار أصبحت مركزاً للتبادل التجاري[2]، واستقر بها عدد من التجار الذين جنوا مكاسب كثيرة لعظم حجم التجارة التي تمر بها.

١- ميناء جدة:

ذكر أحد الرحالة عن هذا الميناء قوله: "وجدة فرضة أهل مكة علىٰ مرحلتين منها"[3].

ويزود ميناء جدة هذا، المدن الحجازية وخاصة مكة بمعظم تجارتها واحتياجاتها، ولازدحام ميناء جدة بالسفن وكثرة ما يحصل منها وإليها نجد أن هناك أعمالاً كثيرة في الميناء، وكان طبيعياً أن يستقطب ميناء جدة عدداً كبيراً من العمال الذين يقومون بتفريغ وتحميل البضائع ويبدو أن العمل بهذا الميناء شاق ولكنه يدر مكاسب لا بأس بها، لذلك نرىٰ أن بعض سكان مكة يتركون أهاليهم ويذهبون إلىٰ جدة للعمل بها في المواسم[4].

٢- ميناء الشعيبة:

وميناء الشعيبة هو ميناء مكة الرئيسي في الجاهلية، ولكن الخليفة عثمان بن عفان نقل أعمال هذا الميناء إلىٰ ميناء جدة[5] وأهمل هذه الميناء ولم يستعمل بعد ذلك إلا مرة واحدة عندما أمر الخليفة المهدي بنقل الرخام من مصر والشام إلىٰ الحجاز لعمل التوسعة الشاملة للمسجد الحرام وقد نقلت معظم مواد البناء التي استخدمت في عمارة المسجد الحرام عن طريق ميناء جدة واستعمل ميناء الشعيبة لنقل الحمولة الثقيلة وذلك لقرب مرساة بخلاف جدة التي تقف فيه السفن بعيدة من البر[6].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.
(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن، ١٩٦٧م، ص ١٥٣.
(٣) الاصطخري: المسالك، ص٢٣.
(٤) التوخي، أبو علي الحسن بن علي: مشوار المحاضر وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجي، بيروت، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ٥/٢٨٥-٢٨٦.
(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٥٣.
(٦) الأنصاري: تاريخ مدينة جدة، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م، ص٦١-٦٢. وذكر الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق: رشدي ملحس، ٧٦/٢ (بأن أساطين الرخام حملت من ميناء جدة ولم يحدد بالشعيبة).



٣- ميناء الجار:

هو ميناء المدينة المنورة الرئيسي ويأتي في المرتبة الثانية بعد ميناء جدة ويسكنه كثير من التجار(١)، ويقصد الجار مراكب كثيرة من الهند والصين والبحرين(٢) وترسو به السفن القادمة من القلزم ومن عيذاب(٣)، وهو علىٰ ثلاث مراحل من المدينة(٤).

لابد هنا أن نوضح تاريخ هذه المنطقة أو الميناء التاريخي والذي هو الآن خالي من معالم الحياة، أرضها بطحاء ناعمة، تتخللها السباخ الملحية المشبعة لا شجر فيها ولا طير ولا حيوان، كل شيء فيها هادئ من الأرض إلىٰ البحر بعد ما كان "ميدان حركة صاخبة دائمة".. التجار والمواطنون المقيمون متحركون دائماً لتنمية تجاراتهم عن طريق تصريف ما يرد بحراً إليهم وما يصدر براً من مينائهم وبلدهم والعمال البحريون دائمة حركتهم في نقل البضائع المكدسة في السفن الراسية الوافدة من شرق وغرب ومن شمال وجنوب إلىٰ أرصفة الميناء وإلىٰ المدينة ثم إلىٰ المدينة النبوية ومدنها والسائحون في حركة دائمة إذ يتجولون في الميناء ويعجبون بحركته الدائمة وتجارته القائمة ويتجولون في المدينة ذات القصور الكبيرة والدكاكين المفعمة ببضائع العالم من كل صنف ولون(٥).

ثم إن ميناء الجار قد ساهم مساهمة فعالة في نقل المجاهدين إلىٰ ميناء القلزم المصري لكي يشاركوا في فتح بلدان المغرب العربي والأندلس، وإن كانت الروايات لم تذكر شيء من هذا إلا أنه من المحتمل وجود الأمر سيما إذا علمنا بأن ارتباط ميناء الجار بموانئ مصر قد تم منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ ، فكان البحر يعد خير وسيلة وأسرع من البر للوصول إلىٰ الديار المصرية ثم إلىٰ بلدان شمال إفريقيا والأندلس(٦). وقد قام ميناء الجار بدور حيوي ومهم في نقل حجاج بيت الله الحرام "فمدينة القلزم" السويس حالياً، كانت مركزاً هاماً لتجمع الحجاج في مصر.

ولقد أكدت جل المصادر علىٰ أن الجار كانت ميناء ومدينة آهلة وعاملة بمختلف

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص ٣٩؛ الأدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الثقافة الدينية بمصر ١٩٧٠/ ١٩٧١م، ١٤٤/٢.

(٢) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٥٣.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٨٣؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان، بيروت، ١٩٦٩م، ٣٩٨/٢.

(٤) الاصطخري: المسالك، ص٢٣.

(٥) عبد القدوس الأنصاري: رحلة إلىٰ الجار (مجلة المنهل، ج٥، السنة ٣٧، المجلد ٣٢، السنة ١٣٩١هـ/ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م)، ص٤٦٨؛ ضيف الله بن يحيىٰ الزهراني: الجار ميناء ومدينة، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٤هـ، ٦-٨ نوفمبر ١٩٩٣م، (الحضارة الإسلامية وعالم البحار، بحوث ودراسات)، ص٢٤٣- ٢٤٤.

(٦) ضيف الله الزهراني: الجار ميناء ومدينة، ص ٢٤٥.

التجارات، تغص بالأسواق والمحلات التجارية، وكان يباع بها القمح بكثرة حتىٰ نسب إليها "القمح الجاري"[(١)] مع إنها لم تكن بلدة زراعية ولكن الغلال التي كانت ترد إليها من الديار المصرية وخلافها زادتها شهرة ورواجاً، وهي كما قال المقدسي "خزانة المدينة ومدنها"[(٢)] وبذلك أصبحت الجار الفرضة الرئيسية للمدنية[(٣)] والدليل علىٰ ذلك ما حصل في عام الرمادة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب عندما أرسل إلىٰ واليه علىٰ مصر عمرو بن العاص أن يرسل القمح إلىٰ المدينة عن طريق ميناء الجار[(٤)].

وتوسعت علاقة هذا الميناء حتىٰ أصبح يقصده التجار اليهود من أوربا من مقاطعة [بروفانس] بفرنسا، الذين يطلق عليهم المسلمين [تجار البحر] وكانوا يسمون بالتجارة [الراذانية] الذين قال عنهم ابن خرداذبة: إنهم يتكلمون العربية والرومية و الفارسية، والافرنجية والأندلسية والصقلية وإنهم يسافرون من المشرق إلىٰ المغرب وبالعكس براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج. ويركبون من فرنجة في البحر العربي فيخرجون بالفرما (شرق بورسعيد الحالية) ويحملون تجارتهم علىٰ ظهور الإبل والجمال إلىٰ القلزم ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلىٰ الجار وجدة ثم يمضون إلىٰ السند والصين، ثم يعودوا من الطريق نفسه[(٥)]، فهي كما قال المقدسي "مجمع الطريق"[(٦)].

وكان لميناء الجار علاقة مع الموانئ الداخلية والواقعة علىٰ الساحل الشرقي للبحر الأحمر مثل ميناء مكة المكرمة "الشعيبة" وميناء "جدة" وميناء "ينبع"[(٧)]، فكانت هذه الموانئ تكمل بعضها البعض في خدمة الأراضي الحجازية فكان لها نشاط تجاري كبير نظراً لأهميتها العالمية.

أما عن واردات ذلك الميناء فكانت غالبيتها من المواد التي لا تتوفر في إقليم الحجاز والمناطق المجاورة له، ولعل مادة القمح تأتي في مقدمة الموارد المستوردة إضافة إلىٰ التوابل، والدار صيني (القرفة) والقرنفل والمسك والعود والكافور[(٨)]، وحب

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٠. ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩م، ٣٩٨/٢؛ ضيف الله الزهراني: المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، طبعة ليدن، ١٩٠٦م، ص٨٣.

(٣) حمد الجاسر: بلاد ينبع، دار اليمامة، الرياض، ص٤٨.

(٤) ابن شبه، أبو زيد عمر: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم شلتوت، دار الأصفهاني، جدة، ٧٤٤/٢؛ ٧٤٤/٢؛ ضيف الله الزهراني: المرجع السابق، ص٢٤٧.

(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٨٨٩م، ص١٥٣- ١٥٤؛ أحمد مختار العبادي، والسيد والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة الحديثة العربية، بيروت، ١٩٨١م، ص١٦٦.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبعة ليدن، ١٩٠٦م، ص٩١-٩٢.

(٧) الإدريسي: نزهة المشتاق، ١٤٤/١.

(٨) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ص ١٥٣-١٥٤.

وحب الهال والزعفران وخشب الصندل، واللادن والمصطكىٰ والعاج والحرير والأحجار الكريمة[١].

وكان يصدر عن طريق ميناء الجار التمور وماء الورد والسمن والعسل والصوف وبعض الأسلحة، والخيل العربية الأصيلة...إلخ[٢].

٤- ميناء السرين:

وأيضاً من أهم الموانئ الحجازية، ميناء السرين، وهو ما يسميها الأهالي المصنع والمصنعة، أو قرية بني كبرى[٣].

ومن خلال إشارات الجغرافيين المسلمين أمثال ابن خرداذبه إلىٰ هذا الميناء المهم فقد وصفه عند حديثه عن مراحل طريق الحج الساحلي بين عمان ومكة حلي من الشمال وأعيار[٤] من الجنوب[٥] في حين أن صاحب كتاب الخراج[٦] أوردها علىٰ نحو نحو مشابه لما ذكره ابن خرداذبه، أما الهمذاني فضمنها لبلد حرام بن كنانة، وأنها من ساحل كنانة[٧]، أما الاصطخري فذكر أن السرين يفصل بين اليمن والحجاز[٨]، غير أن ميناء السرين ليس الحد الفاصل بين اليمن والحجاز بل جزء من مكة ومخاليفها التي تشمل في ذلك العصر بلاد عك في اليمن ونجران وظهران الجنوب[٩]، ولذلك كانت آراء الجغرافيين المسلمين في تحديد حدود السرين وامتداده مختلفة أمثال ابن حوقل الذي تأثر بالاصطخري ونقل عبارته في تحديده لليمن[١٠]، أما المقدسي فقد ذكر المسافة بين مكة والسرين بثلاث مراحل وبينها وبين جدة بأربع مراحل[١١].

في حين أن بعض المصادر حددت المسافة بين السرين ومكة بأربعة أيام أو

---

(١) حسنين ربيع: بحر الحجاز في العصور الوسطىٰ، جامعة الإمام محمد بن سعود، كلية العلوم الاجتماعية، الرياض، العدد الأول، السنة ١٣٩٧هـ، ٤١٦.
(٢) ضيف الله الزهراني: الجار ميناء ومدينة، ص٢٥٠.
(٣) أحمد بن عمر الزيلعي: ميناء السرين، منشورات اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٤هـ، ٨/٦ نوفمبر ١٩٩٣م (الحضارة الإسلامية وعالم البحار) بحوث ودراسات، ص١٧٥.
(٤) أعيار هضبات في بلاد ضبه (ضباء) وأعيار أيضاً جبل في بلاد غطفان. انظر: البلادي: معجم معالم معالم الحجاز، ١٢٤/١.
(٥) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م، ص١٤٧-١٤٨.
(٦) قدامة بن جعفر: الخراج وصنعة الكتابة، ط٢، ليدن مطبعة بريل ١٩٦٦م، ص١٩٢.
(٧) الهمداني: صفة جزيرة العرب، تحقيق الأكوع، الرياض، دار اليمامة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ص٢٥٩. ص٢٥٩.
(٨) الأصطخري: المسالك والممالك، دي خوية، ط٢، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٧م، ص١٤.
(٩) اليعقوبي: البلدان، ليدن، بريل، ١٨٩٢م، ص١٣٢.
(١٠) ابن حوقل: صورة الأرض، بيروت، دار الحياة، ١٩٩٢م، ص٢٩.
(١١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ط٢، ليدن، مطبعة بريل ١٩٠٤م، ص١٠٧.

خمسة[١]، وهذا التحديد يتضح من تحديد الجغرافيين المسلمين والرحالة لموقع السرين بأنها تقع جنوب مكة المكرمة، وهو أمر أقرب يتفق مع موقع العالم التي تدل علىٰ مدينة السرين، وأيضاً بينها وبين حلي من الجنوب الذي حدد بخمسة أيام[٢].

وتقع السرين ضمن الإقليم المعروف عند الهمداني بأنه ساحل كنانة[٣]، كما يذكر ياقوت الحموي بأن وادي حلية أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة[٤].

فهنا يتضح أن سكان السرين كانوا في الغالب من قبيلة كنانة العربية المشهورة فكانت التجارة تمثل النشاط الأساسي التي يشتغل بها أهالي السرين فكان سوقها يمثل تجارة واسعة محلية متمثلة فيما يرد إليها من المدن والقرىٰ التي تحيط بها وأهمها واردات السروات الكثيرة[٥]، وتمثل إيراداتها الخارجية فيما يرد إلىٰ مينائها من المنتجات والرقيق من اليمن والحبشة[٦].

ويتضح مما تقدم أن أهالي السرين من فئات مختلفة من قبيلة كنانة وقبائل هذيل التي تقطن أعالي الأودية من مدينة السرين ومينائها في الشمال لهذه المدينة والميناء المهم، وكذلك الفئات الحجازية بصورة عامة وأهالي مكة بصورة خاصة وهي تمثل السواد الأعظم لارتباط أهالي مكة بالميناء الذي يتوافر فيه مصادر رزقهم ولأنهم يمثلون حكام مكة ومن ينبع يخضع لسلطتهم[٧].

النشاط التجاري:

أما النشاط التجاري عموماً، فقد توسع حجم التجارة مع امتداد أطراف الدولة الإسلامية التي تربط الحجاز مع الأقاليم الإسلامية الأخرىٰ.

وقصد الحجاز كثير من المسلمين[٨]. وكذلك بعض التجار من أهل الذمة الذين كانوا واسطة بين التجار المسلمين والدولة البيزنطية وسبب هذه الواسطة القطيعة التي كانت بين المسلمين والبيزنطيين وإتقان بعض التجار من أهل الذمة لعدة لغات مما

(١) نجم الدين عمارة بن علي الحكمي: تاريخ اليمن، تحقيق: الأكوع، ط٢، صنعاء، المكتبة اليمنية، ١٩٨٥م، ٧٢ – ٧٣؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، ١٣٧٦هـ، ٢١٩/٣.
(٢) أحمد الزيلعي: ميناء السرين، ص١٨١.
(٣) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٩.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٢٩٧/٢.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص١٠٤؛ أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٨٦.
(٦) الإدريسي: نزهة المشتاق، ١٣٨/١.
(٧) أحمد الزيلعي: ميناء السرين، ص١٩٥.
(٨) الأصفهاني: مقائل الطالبيين، تحقيق: السيد أحمد صقر، القاهرة، ١٣٦٨هـ، ص٦٠٦.

سهل عليهم عمليات التبادل التجاري[١]، واستقر بعض هؤلاء التجار في الحجاز وكانوا بمثابة الوكلاء للتجار المتجولين ويركز هؤلاء علىٰ الاشتغال بالصيرفة إلىٰ جانب قربهم من الأسواق ومعرفتهم باحتياجاتها[٢].

فكان السوق يتكون من عدة حوانيت متقاربة، وكانت حوانيت أصحاب كل مهنة متجاورة، فمثلاً الجزارين كانت لهم في العادة حوانيت متقاربة فكان يوضع أمام كل حانوت وضم وهو الذي يضع عليه الجزار اللحم ويقطعه أمام المشتري[٣]، وفي حال كثرة أعداد الحوانيت في السوق يقوم أصحاب التجارة والصناعة بتكوين سوقٍ أخرىٰ يسمىٰ باسم البضاعة التي تعرض[٤].

أما بالنسبة للحوانيت وملكيتها فقد كانت سوق المدينة أرضاً يأتي إليها التجار ويعرضون بضائعهم ولا يدفعون رسوماً عليها، إلىٰ أن جاء المهدي فوضع الخراج عليه[٥].

وأشار بعض الرحالة إلىٰ الأسواق المنتشرة في مكة وخاصة التي تحيط بالمسجد الحرام بقوله[٦]: و"إليه الأسواق من الشرق والجنوب" وتأكيداً لما ذكره الرحالة بأن الأسواق كانت تحيط بالمسجد الحرام عندما تطرق إلىٰ ذكر أسماء أبواب المسجد الحرام بقوله: باب الزياتين، وباب البزازين، حيث حدد موقع هذين السوقين في الجهة الشرقية من المسجد الحرام عند ذكر مسميات الأبواب الشرقية للمسجد الحرام، أما مسميات الأبواب الجنوبية للمسجد الحرام فذكرها بقوله: باب الدقاقيق وباب النجارين وباب زقاق الشطوي[٧]، فبذكرهم هذه المسميات لأبواب المسجد الحرام دلالة دلالة واضحة لوجود أسواق حول المسجد الحرام[٨].

كما أشار المقدسي وهو يتحدث عن المشاهد بمكة إلىٰ أبرز سوقين شرق المسجد الحرام، وهما سوق البزازين وسوق العطارين، فقال "ودار الأربعين بالزازين، ودار خديجة خلف العطارين"، كما ألمح أيضاً إلىٰ هذين السوقين دون أن

---

(١) محمد يوسف: علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلىٰ القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج(١٥)، ١٩٠٣م، ص٢٥.

(٢) مالك، أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر التميمي الأصبحي الحميري: المدونة، الطبعة الطبعة السادسة، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٢٣هـ، ٢٧٠/٤-٢٧١.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٦٦/١٠.

(٤) المصدر السابق، ٢٣٥/١٠- ٢٣٨.

(٥) صالح العلي: إدارة الحجاز في العصور الإسلامية الأولىٰ، مجلة الأبحاث، مج (٢١) ج (٢-٣-٤)، ٤)، سنة ١٩٦٨م، ص٣٢-٣٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٧٦.

(٧) نفس المصدر السابق: ص٧٦

(٨) نفس المصدر السابق: ص ٩٦.

يصرح باسمها وذلك عندما قال[1]: "ويقع المسعىٰ بين الصفا والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلىٰ باب بني هاشم وثم[2] أميال خضر، وخلف هذين هذين السوقين آخران إلىٰ آخر المعلاة بينهما منافذ"[3] أما السوقان الآخران اللذان أشار أشار إليهما المقدسي في النص فقد وضح أن أحدهما هو سوق رأس الردم[4] والآخر سوق الليل، وذلك من خلال قوله: "فمن دخل من العراق وأراد باب بني شيبة فليتيامن وليسلك سوق رأس الردم ولا يسلك سوق الليل"[5].

إن هذه المعلومات تؤكد انتشار الأسواق بشكل واسع حول المسجد الحرام، كما تفيدنا في الوصول إلىٰ طبيعة مبيعاتها، فهناك المتخصص منها، كسوق العطارين وسوق البزارين، وسوق الزياتين، وسوق الدقاقين، وسوق التمارين، وسوق الأقمشة والملابس [الشطويين]، ومنها ما هو عام كسوق الردم وسوق الليل.

وأشار الرحالة إلىٰ أهم سوق موسمي كان يعقد في كل موسم وهو سوق منىٰ، وبيَّن أن هذا السوق أضخم أسواق الجزيرة العربية وأبرزها[6]، وبيَّن أن في منىٰ قياسر[7] وحوانيت حسنة البناء[8].

وعلىٰ ذكر الأسواق بمكة فقد ذكر الرحالة السلع والبضائع التي كانت تروج في هذه الأسواق فأشار إلىٰ شهرة مكة بإنتاج السنا[9] والفواكه التي كانت تجلب إلىٰ

---

(١) المصدر نفسه: ص ٧٦.

(٢) قال ابن منظور، ثم في المكان إشارة إلىٰ مكان منزاح عنك، وثم بمعنىٰ هناك للبعيد بمنزلة هنا للتقريب، انظر: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ٥٠٨/١.

(٣) يقول ابن جبير موضحاً الأسواق في المسجد الحرام: "وما بين الصفا والمروة مسيل و اليوم سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب وسائر المبيعات الطعامية والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلد وسوق منتظمة سواها إلا البزارين والعطارين فهم عند باب بني شيبة تحت السوق المذكورة وبمقربة تكاد تتصل بها"، انظر: رحلة ابن جبير، بيروت، ١٣٩٩هـ، ص٨٥.

(٤) الردم هو ما وضع لصرف السيول عن بعض الأماكن، وقد وضع في مكة في عصري الخلفاء الراشدين والأمويين أكثر من ردم، انظر: الفاكهي، أخبار مكة، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، ١١٢/٣-١١٤ (رغم أن المقدسي لم يوضح اسم الردم الذي فيه السوق المذكور إلا سياق الكلام يبين أن المقصود ردم عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي تقع في المنطقة التي أشار إليها المقدسي).

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٦) نفس المصدر ، ص٩١.

(٧) وهي عبارة عن أسواق مغلقة تقفل مداخلها خلال الليل وتحفظ فيها البضائع الثمينة، انظر: عدي يوسف مخلص: المقدسي البشاري، ص١٨٩.

(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٨-٧٩.

(٩) المقدسي: المصدر السابق: ص٩٣؛ وقد ذكر البكري أن السنا الحرمي يصدر من مكة إلىٰ الآفاق الأخرىٰ، المسالك والممالك، تحقيق: الدريان فان، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م، ٣٦٢/١.

أسواق مكة من الطائف[١]، والملابس والثياب التي تحلب إلىٰ مكة وأهم الثياب الشطوية الشطوية التي تجلب للحجاز من مدينة شطا في مصر و التي كان لها سوق خاص بمكة المكرمة[٢].

كذلك ما يجلب من إقليم الديلم من البضائع حيث قال: "ومن طبرستان الأكيسة التي تفضل علىٰ الفارسية، وطيالسة، وثياب الخيش المحمولة إلىٰ الآفاق ويباع منها بمكة شيء كثير صغار الدراهم، وكبار تسمىٰ بالغرب المكية واللفائف"[٣].

من جانب آخر بيَّن المقدسي أن مصر كانت تمد بلاد الحجاز ببعض المواد الغذائية، فقال عن مدينة المشتول المصرية[٤] "التي تكثر بها الطواحين ومنها يحمل أكثر ميرة الحجاز من الدقيق والكعك، وأحصيت في وقت من السنة فإذا هو يبلغ ثلاثة آلاف حمل جمل في كل أسبوع، كلها حبوب ودقيق"، كما قال مشيداً إلىٰ أهمية مصر الاقتصادية لبلاد الحجاز[٥]: "وبخيراته تعمر الحجاز وبأهله يبهج موسم الحاج".

ومن ناحية أخرىٰ فقد أفاد المقدسي حين نسب بعض أبواب المسجد الحرام للسلع الموجودة حولها في الوصول للكثير من البضائع الاستهلاكية المتوفرة في أسواق مكة ومنها علىٰ سبيل المثال التمور والتوابل والزيوت والبز والأقمشة والملابس وأدوات العطارة وغيرها.

والجدير بالذكر أن المقدسي قد أكد أن ميناء جدة الذي ازدهر بشتىٰ التجارات آنذاك، كان بمثابة المصدر الرئيسي لتمويل الأسواق المكية بما يرد إليه عن طريق البحر من بضائع مختلفة من عدد من الأقاليم والأمصار، حتىٰ أنه وصف جدة بخزانة مكة المكرمة[٦].

أما الطائف فيوجد به عدة أسواق أحدها يسمىٰ المشرق[٧]. وتعكس الأسواق صورة النشاط الاقتصادي فنلاحظ أن بعض التجار وأصحاب الصناعات يحتلون منطقة واسعة من السوق مثل الجزارين والخياطين والبزازين وباعة التمر[٨]، ولعل ذلك يدل علىٰ كثرة الطلب علىٰ مثل تلك المتاجر أو الصناعات أو قد يكون ذلك راجعاً

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٠.
(٢) المصدر السابق، ص٧٦-٩٨.
(٣) المصدر السابق، ص٢٨٢.
(٤) المصدر السابق، ص١٦٦.
(٥) المصدر السابق: ص١٦٥.
(٦) المصدر السابق: ص٨١.
(٧) السكري: أبو سعيد الحسن بن الحسين: شرح أشعار الهذليين، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة مطبعة المدني، القاهرة، [د.ت]، ١٠/١، وذكر البكري المشقَّر ووصفه بسوق الطائف: معجم ما استعجم، ١٢٤٤/٢؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ٧/٨-١٦٨.
(٨) الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق: رشدي ملحس، ١٣٨٥هـ، ٢٢٢/٢-٢٣٢.

لوفرة كميات كبيرة من تلك الصناعات أو التجارة.

أيضاً تعدد الأسواق هو دليل علىٰ اتساع النشاط التجاري فقد توفر في المدن الحجازية الأسواق المتعددة والمتخصصة[١] واختلفت البضائع التي تعرض بتلك الأسواق بعضها من الإنتاج المحلي مثل التمور[٢] والألبان[٣] والمنسوجات التي تصنع تصنع في الحجاز[٤] كذلك يتوفر في الأسواق كثير من المنتجات الزراعية التي تصدرها الطائف إلىٰ مدن الحجاز[٥] أيضاً من أهم المنتجات المحلية المعروضة في الأسواق الجلود التي يقبل علىٰ شراءها كثير من الحجاج[٦]، وهناك أدوات مصنعة محلياً مثل الأقداح الخشبية[٧] والأدوات المعدنية والخزفية[٨].

(١) الطبري: تاريخ الرسل والمملوك، ٢٦٨/١٠.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢٣٩/٢.
(٣) الأبشيهي، شهاب الدين أحمد بن الفتح: المستطرف في كل فن مستطرف، دار الفكر، بيروت، [د.ت]، [د.ت]، ص٩٥.
(٤) الأصفهاني: مقائل الطالبيين، ص٣٢١.
(٥) الحميري: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥م، ص٣٨٠.
(٦) ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري: الطبقات الكبرىٰ، دار صادر، ١٣٧٦هـ/ ١٩٧٥م، بيروت، بيروت، ٥٠٠/٥.
(٧) الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، ١٣٦٧هـ، القاهرة، ١٧٠/٦.
(٨) الفاسي: العقد الثمين، القاهرة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ١١٩/٣.

المطلب الثــالث

الصنــاعات والحرف

لقد قامت في الحجاز كثير من الحرف اليدوية والتي كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتنوع التركيبة السكانية له، لاسيما إذا عرفنا أن الصناعات الحرفية من الأعمال التي يستنكفها أبناء قبائل الحجاز ويعتبرونها من المهن الوضيعة.

ولعل من أهم الصناعات والحرف التي عرفت في مكة هي صناعة السكاكين والدروع وصناعة الفخار والأثاث المنزلي إلىٰ جانب ما عرف من أعمال النجارة[1].

ففي الطائف مثلاً اشتهرت صناعة الزبيب بعد تجفيفه، حيث ذكر الاصطخري: "والطائف مدينة صغيرة نحو وادي القرىٰ، إلا أن أكثر ثمارها الزبيب"[2]. وكذلك صناعة الجلود ودبغها، واستخدموا العديد من الأعشاب التي تنمو في محيطها لاستخدامها في دباغة الجلود[3]، ولعل الطائف اختلفت عن غيرها من مدن الحجاز في ميل أهلها للحرف اليدوية[4]، مثل الدباغ والنجارة والحدادة، كما اشتهرت الطائف بصناعة العطور لكثرة ما تنبت في بساتينها من الأزهار والورود التي تصدر إلىٰ مكة[5].

ومن أهم الصناعات المنتشرة في المدينة المنورة:

١- **صناعة الحلي**: فقد قامت بالمدينة هذه الصناعة اليدوية التي دلت علىٰ المهارة الفنية التي كان يتصف أهل المدينة المنورة، وربما يعود ذلك إلىٰ وجود خام الحديد بجوار المدينة، وقد تفنن المهرة في صناعة الخلاخل والأسوار والخواتم التي كانت تلقىٰ قبولاً من النساء كما مهر الحرفيون بتزيين مقابض السيوف من الذهب والفضة، مما يكسبها رواجاً خاصاً[6]، ولأن المدينة المنورة مدينة زراعية فقد احتاج أهلها إلىٰ الآلات الزراعية لاستخدامها للفلاحة فظهرت صناعة المحراث والمنجل وغيرها من الصناعات المتعلقة بالزراعة، وقد استفادوا من جذوع الأشجار في صناعة تلك الآلات والأسلحة وغيرها.

---

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ العرب قبل الإسلام، الإسكندرية [د.ت]، ٣١٣/١.
(٢) الاصطخري: المسالك، ص٢٤، المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٨.
(٣) نادية حسن صقر: الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، ط١، القاهرة، ١٩٨١م/ ١٤٠١هـ، ص٤٤.
(٤) نجلة قاسم الصباغ: بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٦٩م، ص٨٣.
(٥) السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ٣٢٥/١.
(٦) نجلة الصباغ: بلاد الحجاز، ص٨٤؛ نورة آل الشيخ: الحياة الاجتماعية، ص١٣٥.

٢- **النجارة**: حيث اقترنت هذه الحرف بالمحاصيل الزراعية وهي من أهم الصناعات التي كانت تصنع في المدينة، وكان أصحاب هذه الحرفة يتفننون في صناعة الأبواب وصناعة الآلات الزراعية من المحراث والمساحة والمنجل، واستخدم أهل المدينة جذوع الأشجار في هذه الحرفة(١)، كذلك قاموا بصناعة الأسلحة من دروع وسيوف ونبال(٢)، وعندما تتوفر المواد الخام لأي صناعة معينة يعمد الحجازيون بأن تكون الصناعة في نفس المكان أي في منطقة الإنتاج لتقل تكاليف الإنتاج(٣) بينما يضطرون أحياناً لنقل هذه الصناعة إلىٰ مكان آخر لوفرة العمال المتخصصين لأن تكاليف نقل الأيدي العاملة تزيد علىٰ تكاليف نقل المواد مثل صناعة النسيج(٤).

حيث قال الاصطخري: "المدينة أقل من نصف مكة وهي في حرة سبخة الأرض ولها نخيل كثيرة ومياه نخيلهم وزروعهم من الآبار..."(٥). هذه دلالة على أن أهالي المدينة يستخدمون جذوع النخل في هذه الحرفة لوفرتها.

كذلك كانت صناعة النجارة فقد توفرت في الحجاز المواد الخام لها، وكذلك عن طريق الاستيراد أو الإنتاج الزراعي الذي كانت أخشابه مثل الأثل والدوم والعرعر تستعمل في صنع الأدوات المنزلية أو الزراعية وغيرها الرخيصة الثمن(٦).

أما ما يستورده الحجازيون لصناعة النجارة خشب الساج لتزيين بيوت الأغنياء من الحجازيين وكذلك استخدام الساج في جزء من طاقات المسجد النبوي الشريف(٧)، حيث استقدم الحجازيون النجارين المهرة من العراق لابتكار التصاميم الجديدة(٨) التي لم تعرف في بلاد الحجاز، غير أن قلة الطلب علىٰ هذه التصاميم المعقدة والغالية الثمن جعل النجارين يسيرون علىٰ النمط التقليدي المعروف لديهم وهذا ما يشجعهم علىٰ الاستقرار في الحجاز(٩).

ومن أهم الصناعات القائمة علىٰ حرفة النجارة في بلاد الحجاز:

- الكراسي الخشبية المطلية بالأصباغ المتعددة الألوان.
- الصناديق الخشبية لحفظ الكتب والتي كانت تزخرف وينقش عليها النقوش

---

(١) عائشة عبد الله باقاسي: مكة والمدينة، ص٢١٧- ٢١٨.
(٢) نورة آل الشيخ: الحياة الاجتماعية، ص١٣٩.
(٣) الأصفهاني: بلاد العرب، تحقيق: حمد الجاسر و صالح العلي، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، ص٣٠.
(٤) الفيروز أبادي: المغانم المطابة، دار اليمامة، ص١٢٩.
(٥) الاصطخري: المسالك، ص٢٥.
(٦) الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج، ص٥١٢.
(٧) الحربي: المصدر السابق، ص٣٨٩.
(٨) الأزرقي: المصدر السابق، ٢/ ٦٠.
(٩) الحربي: المصدر السابق، ص٥٢١.

الجميلة[١].

- الأدوات المنزلية من الأخشاب مثل الأقداح[٢].

٣- **صناعة النسيج وصباغته:**

كان النسيج في المدينة المنورة يصنع تصنيعاً بسيطاً في المنازل ويقوم به النساء أو الموالي[٣]، وما زاد يباع في الأسواق[٤]، وكما يقوم بعض الأغنياء بتخصيص الأيدي العاملة من الموالي في صناعة النسيج[٥]، كما تذكر لنا بعض المصادر أنه كان في المدينة المنورة معمل لصناعة القز يملكه أحد الأغنياء ويقوم غلمانه بتشغيله[٦] حيث هناك أدوات خاصة بالنسيج مثل الملاء والمنوال والمنسج الذي يطلق عليه الحف[٧].

وكانت صناعة النسيج مرتبطة بعملية القصارة وهي دق القماش وتبييضه[٨]، وذلك عن طريق استخدام الأخشاب لأنها لا تقدح ناراً عندما يقوم القصار بدق القماش[٩]، وبعد هذه العملية تأتي عملية الصباغة وهي متعددة الأنواع حيث استخدم الحجازيون العصفر والزعفران والمشق للحصول علىٰ اللون الأصفر[١٠]، والإيداع للون الأحمر الأرجواني[١١] أما الأحمر فأخذوه من الفوه[١٢] واللون الأزرق أخذوه من النيل[١٣].

فقد ذكر بعض الرحالة المشارقة أن من أهم المدن الحجازية المشهورة بالدباغ

---

(١) الأنصاري، عبد القدوس: بين التاريخ والآثار، بيروت، ١٩٦٩م، ص٣٠.
(٢) أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، ط٣، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ١٥٢/٣.
(٣) مالك: المدونة، ١٢٨/٢.
(٤) ابن سعد: الطبقات، ٤٣٧/٥.
(٥) الأصفهاني: الأغاني، تصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، القاهرة، [د.ت]، ١٧٢/٤.
(٦) الحربي: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، ص٣٣٥.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ١٧٢/٤.
(٨) ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م، ٩٢/١.
(٩) الزمخشري: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، ص١٧٦.
(١٠) ابن سيده: المصدر السابق، ٢٠٩/٣.
(١١) عرام بن الأصبع السلمي: أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ١٩٧٣م، ص١١-١٢، والإيداع نبات ينمو بالقرب من المدينة.
(١٢) ابن المجاور، جمال الدين ابن الفتح يوسف بن يعقوب: تاريخ المستبصر، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م، ١٤٤/١. الفوه: عروق نبات يسمو دقيقاً في رأسه حب أحمر شديد الحمرة.
(١٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٠٠/٢.

مدينة الطائف[١] (الطائف مدينة قديمة جاهلية وهي بلد الدَّباغ يدبغ بها الأهب[٢] الطائفية المعروكة).

٤- **صناعة الحبال "أو مهنة الخزامة"**:

حيث كانت هذه الصناعة منتشرة في المدينة المنورة، وكانت الحبال تصنع من الخزم الذي هو من لحاء الشجر، ووجد في المدينة سوقاً خاصاً لهذه الصناعة عرف بسوق الخزامين لكثرة أعداد هذه المهنة وكثرة الطلب علىٰ هذه الصناعة بسبب اتساع النشاط الزراعي في المدينة، وكانت الأيدي العاملة من الرقيق الذين يسكنون الصهوة وهي بنواحي المدينة جنوب بئر الماشي[٣].

كما أن صناعة الحبال لم تكن قاصرة علىٰ الخزم بل كانت تصنع الحبال أيضاً من ليف النخيل لأن النخيل متوفر بكثرة في المدينة المنورة[٤].

٥- **صناعة الجلود**:

تعتبر هذه الصناعة من الصناعات القديمة في الحجاز وهي منتشرة بكثرة بسبب توفر المناخ المناسب والأيدي العاملة لها وتوفر المواد الخام، حيث كان الحجازيون يتنقلون بين المدن الحجازية وخارجها ليشترون الأنواع المختلفة من الجلود[٥].

٦- **الحدادة:**

وتعتبر هذه الحرفة من الحرف المميزة في الحجاز لاشتهار بعض القرىٰ الحجازية بصناعة الأدوات الحربية مثل صناعة السهم الرقميات[٦] نسبة الرقم وهي جبال دون مكة بديار غطفان وكذلك السهام اليثربية نسبة إلىٰ يثرب[٧].

وكذلك من الصناعات المرتبطة بالحدادة صناعة الأدوات المنزلية من الحديد والنحاس مثل القدور[٨].

٧- **صناعة الزجاج**:

---

(١) الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص٢٦٠.
(٢) الأهب، والإهاب: الجلد من البقر والغنم والوحش ما لم يدبغ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١٨٥/١.
(٣) البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٧٤/٥. بئر الماشي/ منسوبة لمن يسير على قدميه وهي محيطة على على ضفة وادي العقيق الغربية على بعد ٣٨ كيلاً شمال المدينة، عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٦٥/١.
(٤) ابتسام آل سويلم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص٧١.
(٥) الهمداني: صفة جزيرة العرب، منشورات دار اليمامة، ١٣٩٤هـ، ص٣٦٢.
(٦) الفيروز أبادي: المغانم المطابة، ص١٥٨- ١٥٩؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ٦٦/٤.
(٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤٣١/٥.
(٨) الجاحظ: البيان والتبيين، القاهرة، ١٩٧٥م، ١٩/١.

كانت هذه الصناعة منتشرة بالحجاز، فقد عثر علىٰ مصانع للزجاج في مكة والجار[١]، حيث استعمل الزجاج في صناعات مختلفة مثل المصابيح[٢] لتزين بها جدران المنازل، والأواني الزجاجية مثل القوارير التي تملأ بالماء وترسل إلىٰ بعض نواحي المدن والأطباق[٣].

ومن المدن التي قامت بها عدد مختلف من الصناعات مدينة ينبع، حيث كان يصنع بها الحلي والمجوهرات الذهبية المطعمة باللؤلؤ المستخرج من الأصداف البحرية، وكذلك الصناعات القائمة علىٰ خدمة حرفة الصيد مثل الفخاخ والشباك[٤] والمهالك[٥].

٨- صناعة السفن:

وهي علىٰ أنواع بأشكال مختلفة حيث تجلب أخشابها من منطقة بواط[٦] والأجرد[٧] منها يستخدم لنقل الأمتعة ومنها ما يستخدمه الصيادون للصيد ومنها في الشحن في الموانئ القريبة والبعيدة[٨].

وقد عرف أهل ينبع صناعة الجلاب وهي سفن خاصة بالإبحار في البحر الأحمر تتوافق مع طبيعته ومع قوة رياحه.

وقد تنبه أحد الرحالة الجغرافيون إلىٰ تلك الصناعة الدقيقة وقال: "أن مراكب البحر الرومي والعربي كلها ذات مسامير، أما المراكب المخيطة بليف النارجيل فلا تكون إلا في البحر الحبشي (يقصد البحر الأحمر) ومراكب البحر الحبشي لا يثبت فيها الحديد، لأن ماء البحر يذيب الحديد فترق المسامير في البحر وتضعف فاتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً منها وطليت بالشحوم والنورة"[٩].

---

(١) الأنصار: بين التاريخ والآثار، ص٢٩.
(٢) ابن سعد: الطبقات، ١٣٧/٥.
(٣) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٤٤٤.
(٤) أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ﷺ ، ص٢٧٨.
(٥) المهلك هو عبارة عن قفص دائري من السلك، أو خوص النخيل وتكون ذات ثقوب متعددة. انظر: الخطيب عبد الكريم محمود: تاريخ ينبع، ص١٢٩.
(٦) بواط واديان أحدهما يدفع في وادي إضم والثاني في ينبع، ويتقاسمان الماء من ريع بواط الذي يفصل يفصل بين سلسلتي الأشعر والأجرد، وهو علىٰ بعد (٧٠) كيلاً تقريباً غرب المدينة المنورة. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢٥٦/١.
(٧) الأجرد: جبل ضخم غرب المدينة يحيط به أضم من الشرق والشمال ويبعد عن المدينة قرابة (٧٥) كيلاً. انظر: البلادي: المرجع السابق، ٥١/١.
(٨) الخطيب: تاريخ ينبع، ص ١٣٠.
(٩) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ١٦٣/١.

المطلب الرابع

المعاملات المالية

لا شك أن ما تمتعت به الحجاز من نشاط زراعي وتجاري وصناعي أدىٰ إلىٰ نوع من الحركة التجارية بينها وبين باقي أقاليم الجزيرة العربية، وغيرها من أقاليم الدولة الإسلامية، فقد أشار إلىٰ ذلك اليعقوبي بقوله: "وأكثر أموال أهلها النخيل ومنه معاشهم وخراجها من أعشار النخيل والصدقات"[١]. وذكر أيضاً: "وخراجها من أعشار وصدقات والميرة تحمل إليها من مصر إلىٰ ساحلها وهو جدة"[٢]. وهذه إشارة واضحة إلىٰ وجود تعامل مالي، وكذلك لَعِبَ الحج دوراً أساسياً في تنشيط الحركة التجارية في الحجاز بصفة عامة والمدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة بصفة خاصة[٣]، لذلك شهدت تنوعاً في العملات النقدية وتبادلها بين التجار، ولعل من أشهر هذه العملات الدينار الذهبي والدرهم الفضي وأجزائهما الدانق والقيراط.

ونظراً للتأثير الفاطمي علىٰ الحجاز خلال هذه الفترة فقد سادت العملات النقدية المستخدمة في الديار المصرية والشامية علىٰ غيرها من العملات، حيث كان التعامل بالدنانير والدراهم النقرة[٤]، وقد عمد الفاطميون إلىٰ مقاطعة الدينار العباسي كنوع من الصراع علىٰ بلاد الحرمين[٥]، وقد نجح الفاطميون في السيطرة علىٰ سوق الحرمين وسادت العملة الفاطمية في المناطق خارج مكة المكرمة ولم يقو الدينار العباسي علىٰ المنافسة[٦].

العمـــــلات:

تختلف العملات في الجزيرة العربية من منطقة إلىٰ أخرىٰ فكان لأهل مكة[٧]

(١) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٣.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٣١٧.
(٣) نجلة الصباغ: بلاد الحجاز، ص٩٠.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٢٧٥/٤، والنقرة هي الفضة الخالصة، انظر ابن منظور: لسان العرب، ط٤، ٢٠٠٥م، دار صادر، ٣٣٦/١٤.
(٥) علي بن حسين السليمان: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية أواخر العصور الوسطىٰ، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٢٦٦.
(٦) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٦١.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٩٤.

المطوقة والعثرية[١].

ومن هنا يتضح أن أهل الحجاز عامة ومكة خاصة كان تعاملهم في البيع والشراء عن طريق عدة عملات حيث تطرق إليها بعض الرحالة المشارقة لذلك كانت المعاملات المالية علىٰ أنواع مختلفة منها:

١- النقود:

حيث ذكر سابقاً أن لأهل مكة المطوقة والعثرية فذكر أحد الرحالة المشارقة عن الدراهم المتداولة في مكة قوله[٢]: "والدراهم المستعملة في الإقليم تسمىٰ بمكة المكرمة المحمدية[٣]، ولأهل مكة – أيضاً – المزبقة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمي تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلىٰ آخر الموسم"، ويتضح من قول الرحالة أن هناك عملات متداولة في مكة يكون تداولها في فترة قصيرة، أي بمعنىٰ أنها موسمية، ويتضح أن رغبة أهل مكة في التعامل مع بعض العملات التي تأتي عن طريق الحجاج القادمين[٤] دون النقص في عملتهم والمحافظة عليها من التسرب ونزول قيمتها كان سبباً في التعامل مع العملات الخارجية[٥].

وقد عرفت الدولة الإسلامية في القرن الرابع الهجري وسيلة من وسائل المعاملات المالية، وهي السفاتج ومفردها سفتجهة، وهي كلمة فارسية، ومعناها ورقة مالية أو خطاب ضمان[٦].

وكان البيع بالبيعة من أنواع التعامل الذي كان سائداً في مكة، فكانت الأدم تباع بالبيعة، ولعل البيعة شبيهة بالكورجة، التي تباع بها الجلود في الوقت الحاضر، وكان نظام المقايضة أيضاً سائداً بين تجار مكة وروادها من السرو[٧].

٢- المكاييل والموازين:

---

(١) وهي نسبة لمدينة عثر، انظر: محمد أحمد العقيلي: تاريخ المخلاف السليماني مراجعة، حمد الجاسر، ط٢، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٦٨.

(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص٩٤.

(٣) لم يتبين لنا في المصادر عن هذه التسمية والظاهر أنها نسبة إلىٰ محمد بن سليمان الذي ثار بمكة سنة سنة ٣٠١هـ، فلعلها أن تكون قد سكت في عهده أو أن تكون قد ضربت في عهد الأمراء الموسويين الذين جاءوا بعده وسميت المحمدية تيمناً باسمه، انظر: الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص ١٦١.

(٤) عبد العزيز السنيدي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه، كتابه، ص٨٤.

(٥) الزيلعي: المرجع السابق: ص ١٦١؛ عدي يوسف مخلص: البشاري المقدسي: ص٢٧٥.

(٦) علي حسين السليماني: النشاط التجاري، ص ٢٦٦.

(٧) أحمد الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ١٦٣-١٦٤. والسرو جبل أسمر يقابل بردا من الجنوب بينهما وادي المخاضة جنوب الطائف على بعد ٢١ كيلاً. البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٩٦/٤.

فكانت من أهم معاملات البيع والشراء في الحجاز، فقد ذكر لنا المقدسي المكاييل والموازين التي كانت منتشرة في الجزيرة العربية عامة والحجاز خاصة بقوله[١]: "ومكاييل هذا الإقليم الصاع والمد والمكوك، فالمد ربع الصاع والصاع ثلث المكوك، هذا بالحجاز وهي مختلفة، والمستعمل منها يزن خمسة أرطال وثلثاً"، فقد بيَّن المقدسي اختلاف الناس في مقادير هذه المكاييل بين إقليم وآخر، حيث وضح أن الصاع عند أهل الحجاز يزن خمسة أرطال وثلثاً[٢].

أما بالنسبة إلىٰ الأوزان في إقليم الحجاز وخاصة مكة فقد ذكر الرحالة قوله[٣]: "وأرطالهم بمكة هو المن المعروف في جميع بلاد الإسلام، غير أنهم يسمونه رطلاً"[٤].

والمن يزن مائتان وستين درهماً وأواقيه عشرة كل أوقية عشر دراهم، وأما من ناحية الكيل فكانوا يكيلون بالفرارة ويقيسون القماش بالذراع المصري[٥].

فكانت من الأشياء التي كانوا يكيلونها المحصولات الزراعية خاصة في المدينة المنورة أكثر استعمالاً من الأوزان، لهذا قالوا عنها: إن المكيال مكيال أهل المدينة والوزن وزن أهل مكة[٦].

فجاءت المكاييل أنواع:

= المد وهو أربع حفنات بحفنة الرجل الأوسط[٧]، وهو ربع الصاع[٨].

= والصاع مكيال قدره أمداد وهو خمسة أرطال، والصاع ثلاث المكوك[٩].

= الوسق يساوي حمل بعير ويساوي ستين صاعاً أو ثلاثمائة وعشرين رطلاً[١٠].

أما الأوزان التي كانت مستخدمة في الحجاز عامة والمدينة خاصة فهي: المن

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٣.
(٢) سامح عبد الرحمن فهمي: المكاييل في صدر الإسلام، ص٢٦.
(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص٩٤.
(٤) قال ابن المجاور عن الرطل "والرطل مائة وثلاثون درهماً وهو ستة أواق يحسب كل أوقية أحد وعشرون درهماً وثلث، وبه يباع جميع الحوائج والعطر"، انظر: ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمىٰ "تاريخ المستبصر" تحقيق: أوسكار لوفغرين، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٣٦م، ص١٢.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٢٧٦/٤.
(٦) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤.
(٧) القلقشندي: المصدر السابق، ٣٠٢/٤.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٨.
(٩) نفس المصدر السابق، ص٩٨.
(١٠) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤؛ نورة آل الشيخ: الحياة الاجتماعية، ص ١٥١.

الذي يزن مائتان وستين درهماً، والدرهم، والمثقال، والدانق، والقيراط، والرطل، والقنطار، ونصف الدانق[١].

علماً أن وزن الدرهم ستة دوانق وكل عشرة دوانق تساوي سبعة مثاقيل، والأوقية تساوي وزن نواة التمر والقنطار يساوي مائة رطل[٢].

٣- المكوس والضرائب:

وهي التي تفرض علىٰ البضائع القادمة إلىٰ مكة، حيث ذكر اليعقوبي: "وخراجها من أعشار وصدقات"[٣]، ويطلق المكس علىٰ الجباية كما يطلق علىٰ ما يأخذه العشار[٤]، حيث وصف أحد الرحالة مقدار ما يؤخذ من التجار من الواردات التي ترد إلىٰ ميناء جدة بقوله[٥]: "والضرائب والمكوس يؤخذ بجدة من كل حمل حنطة نصف دينار وكيل من فرد الزاملة وعلىٰ سفط الثياب الشطوي ثلاث دنانير ومن سفط الديبقي ديناران وحمل الصوف ديناران".

وهذا ما ينطبق علىٰ ميناء السرين من فرض المكوس والضرائب علىٰ البضائع القادمة إليها[٦]، وكذلك ذكر الرحالة موضعان بمكة تؤخذ علىٰ التجارات الداخلة عبرها عبرها الأول القرين وهو موضع بين مكة وجدة، وكانت تعرف بالمحطة لأنها وسط بين مكة وجدة ويطلق عليها الآن بحرة والمعبر الثاني في بطن مرّ[٧]، وأن ما يؤخذ من من بلاد الحرمين مائة ألف دينار سنوياً وأن هذه الأموال عشرية وليست خراجية[٨].

والجدير بالذكر أن المكوس وهي الضرائب لم يرد ذكرها في الشريعة، وبذلك كانت كثيرة في مكة والمدينة المنورة خاصة في ظل حكم العباسيين والفاطميين لبلاد الحجاز، ولكن الإسلام أبطل المكس بأنواعه وفرض الزكاة علىٰ الناس في أموالهم[٩]، ولكن الخلفاء توارثوا فرضها من عصور سابقة، حيث لم يكن الأمر قاصراً علىٰ

(١) القلقشندي: المصدر السابق، ٣٠٢/٤.
(٢) أحمد الشريف: مكة والمدينة، ص٣٧٤.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٣.
(٤) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، القاهرة، ١٩٢٥م، ١٩٢٥م، ٦٩/١؛ علي بن حسين السليمان: علاقة مصر بالحجاز زمن السلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص١٦٠.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٨.
(٦) المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٧) المصدر السابق والصفحة نفسها. سبق التعريف ببطن مرّ في ص٣٠٥.
(٨) المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٩) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، ٦٩/١.

تحصيل الزكاة من التجار المسلمين بل فرض عليهم ضرائب عرفت باسم المكوس(١)، حيث بالغ الفاطميون في فرض المكوس علىٰ التجارة وأنواع الصناعات، ونجد أن المكوس في هذه الفترة التاريخية خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين كثرت منذ ضعف حكم الخلفاء العباسيين علىٰ الحجاز، وسيطرة الأشراف في القرن الرابع الهجري الذين يرون أن لهم حق مطلق في فرض المكوس علىٰ الحجاج والتجار(٢)، حتىٰ يسددوا ما عليهم من التزامات مالية ويظنون أن هذه المكوس سوف تحول دون خضوعهم لأي من العباسيين أو الفاطميين(٣).

حيث كان ولاة مكة يتقاضون المكوس في جدة من الحجاج حيث ذكرت بعض المصادر التاريخية(٤) أن مقدار المكس الذي كان يجبىٰ في عيذاب من الحاج في عهد الدولة الفاطمية سبعة دنانير ونصف من الدنانير المصرية، وأن هذا المكس إذا لم يدفعه الحاج في عيذاب قام بأدائه في جدة(٥)، أما من لم يؤده فكان يمنع من الحج والتجارة، ويعذب بشتىٰ أنواع العذاب(٦)، وأصبحت المكوس من أهم الموارد المالية التي اعتمدت اعتمدت عليها الدولة الفاطمية وكان عمالهم في المواني يعاملون التجار والحجاج القادمين إلىٰ البلاد والخارجين منها معاملة سيئة، ومن المؤسف أن المصادر المتداولة لا تمدنا بمقدار المكس المقرر علىٰ أي سلعة من سلع التجار الذين كانوا يعرفون بتجار الكارمية في أي ميناء من موانئ البحر الأحمر بما في ذلك ميناء جدة والجار والسرين(٧).

٤- الصرافة:

لقد برزت حركة الصرافة بشكل واسع نتيجة تنوع العملات خاصة في موسم الحج لكثرة الحجاج والتجار، فقد ذكر المقدسي أن المزبقة وهي عملة معروفة بمكة تساوي عشرون من المطوقة، بقوله: "المزبقة أربعة وعشرون بمطوق ضعف أختمي تبطل يوم السادس من ذي الحجة إلىٰ آخر الموسم"(٨)، فهذه إشارة إلىٰ وجود حركة صرافة في مكة بين الحجاج، حيث نجد أن الصيارفة من أهل مكة نظموا جداول

---

(١) حسنين محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٥.
(٢) عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٢٣٢-٢٣٣.
(٣) ابن دحلان: خلاصة الكلام، ص٢١.
(٤) ابن جبير: الرحلة، ص ٤٨-٤٩.
(٥) نفس المصدر السابق، ص٢٨-٢٩.
(٦) باقاسي: مكة والمدينة، ص٢٠٤.
(٧) عطية القوصي: المصدر السابق، ص٢٣٤- ٢٣٥.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٩.

بأسعار صرف العملات قد تكون شبه يومياً، ويكون التداول بشراء الدينار عندما يكون منخفض مثلاً ويبيعونه عندما يرتفع، إذن لابد أن يكون له مؤثرات وهذه المؤثرات مثل ارتفاع الذهب والفضة وكذلك ارتفاع العملة نفسها وكذلك هناك مؤثرات أخرىٰ مثل الحروب والجفاف(١).

والجدير بالذكر أن قيمة الدينار في الحجاز مختلف عن قيمته في الأقاليم الإسلامية(٢).

ولمعرفة قيمة العملات عند الصيارفة فإنهم يعتمدون علىٰ الوزن فنلاحظ أن الخلافة العباسية تسمح لبعض الأقاليم في سك العملة وبالتالي ينتج عن هذا اختلاف في وزن العملة وأيضاً في الجودة ونلاحظ أن مكة يأتيها الحجاج من أقطار العالم الإسلامي فلابد أن الصيارفة لديهم خبرة بجميع العملات التي ترد من الأقاليم الإسلامية من ناحية وزن وجودة العملة(٣).

٥- العشور:

تعتبر من المعاملات المالية الشرعية(٤) ، حيث ذكر اليعقوبي ذلك بقوله: "وخراجها من أعشار وصدقات"(٥)، وهي من المعاملات التي كان أهالي الحجاز يعتمدونها بسبب بسبب وجود التجارة الواسعة النطاق والمتبادلة بين الحجاز والأقاليم الإسلامية وبسبب وجود التبادل التجاري بين المسلمين وغير المسلمين من اليهود والنصارىٰ والمجوس وممن توجب عليهم دفع العشور(٦).

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، طبعة ١٣٨٥هـ، ١١١/٢.
(٢) عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٥٠.
(٣) مالك: الموطأ، رواية يحيىٰ الليثي، شرح وتعليق أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م، ص١٦٤-٤٦٤.
(٤) مالك: نفس المصدر ، ص٢٢٦-٢٢٧.
(٥) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٧.
(٦) مالك: نفس المصدر ، ص١٨٩؛ المدونة، ٢٧٠/٤ – وهؤلاء التجار كانوا يأتون لمنطقة الحجاز عدا عدا مكة.

المبحث الثالث

الجانب الاجتماعي

- المطلب الأول: عناصر السكان.
- المطلب الثاني: الحياة العامة في الحجاز.
- المطلب الثالث: الكوارث والأوبئة.

المطلب الأول

عـــنـــاصر الســـكان

لا شك أن الموقع الديني للحجاز لاسيما المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة قد جعلها موئلاً للعديد من الأجناس البشرية التي وفدت إليه من الأقاليم الإسلامية المجاورة رغبة في المجاورة لبيت الله وتلقي العلم من علماء المسلمين الذي يجتمعون كل عام علىٰ أرضها، وأصبح المجتمع الحجازي نتيجة لذلك مجتمعاً إنسانياً عالمياً، حيث امتزج هؤلاء مع السكان الأصليين عن طريق التزاوج، ويمكننا طبقاً لذلك أن نقسم المجتمع الحجازي إلىٰ الأقسام التالية:

أ) الطبقة الحاكمة: وهي الأسرة الهاشمية، حيث ذكر المقدسي وهو يتحدث عن يثرب فقال: "أكثرهم من بنو الحسين بن علي بن أبي طالب"(١)، التي حكمت الحجاز في القرنين الرابع والخامس الهجريين، وهم من بني أبي هاشم محمد الأمير بن الحسين الأمير بن محمد الثائر بن موسىٰ الثاني بن عبدالله الرضا بن موسىٰ الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنىٰ بن الحسن السبط بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأول من تولىٰ إمرة مكة المكرمة منهم أبو هاشم الأصغر محمد بن عبدالله بن أبي هاشم محمد الأمير بن الحسين الأمير(٢).

ب) القبائل العربية: ومن أهمها:

١- **قبيلة قريش:** وهم السكان الأصليون، فقد ذكر اليعقوبي أن أهلها المهاجرين أي المدينة وهم من قبيلة قريش وقد سكنوا المدينة بعد هجرتهم(٣)، وقد خرج الأوائل من القرشيين من مكة مع الفتوحات الإسلامية للشام والعراق واستقروا في هذه الأمصار، ولم يبق من القرشيين الأصليين في مكة إلا العدد القليل أضف إلىٰ ذلك بعض العائلات القرشية التي سكنت بوادي مكة والطائف حيث كانوا يشتغلون بالزراعة وبخاصة في وادي الوهط بالطائف(٤).

٢- **بنو هاشم:** وهي الأسرة النبوية التي تنسب إلىٰ قريش، ويفتخر بنو هاشم بقرابتهم من الرسول ﷺ ونسبهم القرشي، وكان العباسيين يعينون نقباء للعباسيين في المدن الكبرى(٥)، فمن المحتمل أن يكون لهم نقابة في الحجاز، ذلك

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٨.
(٢) الشريف إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير: تحقيق منية الطالب في معرفة الأشراف الهواشم الأمراء، ط١، ١٤١٩هـ، مؤسسة الريان، بيروت، ص٢٣.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٢.
(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ٢/٢٢٠.
(٥) مليحة رحمه الله: الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، بغداد، ١٩٧٠م، ص٣٢.

ذلك أن للطالبيين والعباسيين نقيباً يختار من أجلهم بيتاً وأكثرهم فضلاً[1]، وكان ضمن مهام النقيب رعاية شؤونهم والسعي في قضاء حوائجهم ومعاقبة المعتدي منهم[2]، فكان الهاشميون يتصدرون المجالس العلمية والأدبية والدينية في المدن الحجازية، ويحظون بالاحترام والتقدير من المجتمع[3]، ويحرصون علىٰ التقيد ببعض التقاليد المتبعة عند قدوم الخليفة إلىٰ الحجاز فيأتون للسلام عليه والترحيب به ويمكثون لديه من أول النهار حتىٰ الزوال[4] ويهتم الخلفاء بهم والسماع لأخبارهم ومعرفة أحوالهم[5].

٣- **الأنصار**: فهم قبائل الأوس والخزرج العربية وكانوا أول من آمن بالرسول ﷺ من أهل المدينة، فذكر اليعقوبي "أن أهلها المهاجرين والأنصار والتابعين"[6].

وللأنصار مجلس معين معروف بالمدينة المنورة وفي هذا المجلس تجتمع الأنصار وتتشاور في أمورها وفيه تعرض بعض المسائل التي تحتاج إلىٰ حل جماعي[7].

ولهم بيوت خاصة في قباء يجتمعون فيها[8]، ولهم منزلة حسنة في قلوب الناس فهم محبوبون وعندما يخطب أحد من الأنصار من أحد الناس ولا يرغب الأخير في تزويج ابنته من الأنصاري فإنه يتحرج من الرفض لأن الأنصار عادة لا يردون إلا رداً طيباً[9].

وأيضاً ذكر المقدسي أن أكثرهم في [يثرب] بنو الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[10].

٤- **قبيلة هذيل**: وقد توزعت مساكنها بين جبال السروات وحول مكة والطائف[11]، فقد ذكر الاصطخري: "وأما نواحي مكة فإن الغالب علىٰ نواحيها مما يلي المشرق بنو هلال وبنو سعد في قبائل هذيل"[12]. وذكر ابن حوقل: "وبغزوان

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، القاهرة ١٩٧٨م، ص١٠٨.
(٢) ابتسام آل سويلم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص١١٢.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٠/٤٥١- ٤٥٢.
(٥) نفس المصدر السابق، ١١/٧٤٤.
(٦) اليعقوبي: البلدان، ص ٣١٦- ٣١٧، طبعة ليدن، ١٨٩١.
(٧) التنوخي: المستجاد من فعلات الأجواد، دمشق، ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م، ص١٢٩- ١٣٠.
(٨) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢/١٤٣.
(٩) التنوخي: المصدر السابق، ص١٢٩- ١٣٠.
(١٠) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥ – ٧٦.
(١١) الأصفهاني: بلاد العرب، ص٢٠-٢١-٢٢.
(١٢) الاصطخري: المسالك، ص٢٥.

ديار بني سعد وسائر قبائل هذيل"[١]. واشتهرت هذيل بكثرة الشعراء وكانت ديارهم مقصداً لمن يريد أن يأخذ أصول اللغة العربية حيث يرسل سكان مكة أبناءهم إليهم ليتعلموا منهم[٢].

كذلك من القبائل المشهورة في الحجاز قبيلة بني سليم من القبائل التي انتشرت في منطقة واسعة من نجد والحجاز وخاصة حول المدينة المنورة[٣] وقد اشتهرت بلادهم بالمعادن التي أكسبتهم ثروات كبيرة، هذا أدىٰ بدوره إلىٰ تفوق حضاري نسبي علىٰ القبائل المجاورة وتمثل ذلك في بنائهم الحصون لحماية أموالهم[٤]، حيث ذكر الاصطخري: "ثم إذا جزت المعدن عن يسار المدينة فأنت في سليم وإذا جزته عن يمين المدينة فأنت في جهينة"[٥].

ولقد سكن ينبع والمناطق التابعة لها من القرىٰ والأودية والشعاب قبائل متعددة أهمها وأكبرها قبيلة جهينة وهي كثيرة العدد شملت مضاربها أكبر رقعة في تلك المنطقة وكان يشاركها بنو ضمرة.

وسكن ينبع أيضاً الحسنيون أحفاد علي بن أبي طالب ﵁ [٦] وأن ينبع سكنها الأنصار وجهينة وليث.

كذلك من القبائل التي سكنت ينبع نهد[٧] وهي تقطن المناطق الجبلية العالية مع جهينة[٨] وليث[٩] وكذلك قبيلة بني ضمرة[١٠] وهم قوم عزة كثير[١١].

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٩.

(٢) ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأندلسي: جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص١٩٨.

(٣) الأصفهاني: بلاد العرب، ص٧٩-١٧٤؛ القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق: تحقيق: إبراهيم الأبياري، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م، ص٢٩٤.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٣٣٧/١٣.

(٥) الاصطخري: المسالك، ص٢٥.

(٦) عبد الكريم محمود الخطيب: تاريخ ينبع [د.ط.ت.ن] ، ص١٣٩.

(٧) نهد من قضاعة وهم بنو نهد بن زيد بن ليث بن سود بن أسلم بن الحافي بن قضاعة كانت منازلهم باليمن ومنهم بالشام، ويبدو أن من نهد من انضم إلى أخواته من جهينة حيث نجد لهم ذكراً في صدر الإسلام وفي وادي الصفراء وما حوله، البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص٥٣٥-٥٣٦.

(٨) جهينة: حي عظيم من قضاعة وهم بنو جهينة بن زيد بن ليث بن سواد بن أسم بن الحافي بن فضاعة، فضاعة، كانت منازلهم بين ينبع، والمدينة إلىٰ وادي الصفراء جنوباً والعيص وديار يلي شمالاً علىٰ الصفة الشرقية للبحر الأحمر، وانتشروا إلىٰ الجبهة الغربية من البحر، ووصلوا إلىٰ صعيد مصر، والحبشة، انظر: القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٣١٦/١.

(٩) ليث: هم بطن من كنانة خزيمة وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناف بن كنانة كانوا بأسفل مر الظهران، الظهران، وحول ودان ثم نزل حي منهم المدينة المنورة ومنهم من نزل صعيد مصر، انظر: عاتق بن غيث البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص٤٥٧.

(١٠) ضمرة: هي بطن من كنانة، ومنازلهم بين بدر إلىٰ الجار من الساحل وقيل هم ضره بن بكر بن ليث بكر بن عبدمناف بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر، انظر: البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص٢٧٥.

(١١) كثير عزة: هو أبو صخر كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة الأسود بن عامر بن عويمر الخزاعي الشاعر المشهور وأحد عشاق العرب المعدودين هكذاروىٰ ابن الكلبي في جمهرة أنساب

ومن القبائل التي سكنت الحجاز قبيلة مزينة، واستقروا بين المدينة ووادي القرىٰ وسكنوا جبال رضوى[1]، وتعد جهينة كما سبق من القبائل الكبيرة التي استوطنت في عدة مناطق منها الأشعر ورضوىٰ والعيص وينبع[2].

ومن القبائل المستقرة بالحجاز غطفان التي من بطونها أشجع[3] والتي استقرت حول المدينة[4] وربيعة والتي من بطونها بنو كلاب الذين استوطنوا ضربة وحمىٰ الربذة[5] وفدك[6]، وثقيف وهوازن في الطائف[7]، واستوطنت قبيلة بني شبابة بن فهم بن مالك من الأزد بالقرب من الطائف[8].

<u>جـ) المجاورون بمكة:</u> وهم من سكن أرض الحرمين من غير أهلها حيث أنهم قد وفدوا إليها من مختلف الأقاليم الإسلامية[9] من أجل الحج ومن ثم جاوروا بها رغبة في مجاورة بيت الله ومسجد رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم ثم اشتغل هؤلاء فيما بعد بالعلم [10]، بينما انصرف آخرون إلىٰ احتراف التجارة[11].

<u>د) الموالي:</u> والموالي إما موالي العتاقة أو موالي من المسلمين الأحرار الذين حالفوا القبائل العربية فأصبحوا موالي لها[12]. وقد اتجه كثير من الموالي في العصر العباسي إلىٰ دراسة الحديث والفقه وبرز منهم عدد كبير من العلماء المحدثين في العصر

العرب سلسلة نسبه وزاد عليه=

= ابن مخلد، يقال أنه هوىٰ امرأة عرف بها يقال لها عزة بنت جميل بن حفص من بني ضمرة من سكان ينبع النخل، وكان كثير المتشيعين لعلي وآل بيته تشيعاً قبيحاً، ثم أن عزه أجبرها أهلها أن تتزوج بغيره فبقيا علىٰ حبهما الأول لم يتغيرا وتوفي كثير سنة ١٠٥هـ. انظر: محمد فريد وجدي: <u>دائرة معارف القرن العشرين</u>، ٩٧/٨-١٠١.

(١) البكري: <u>معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع</u>، تحقيق: مصطفىٰ السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م، ٨٨/٢، القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٣٤٨/١.

(٢) الهمداني: <u>صفة جزيرة العرب</u> ، ت: الأكوع، ص ٢٧٣.

(٣) أشجع/ من أشهر بطون غطفان وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان بن سعود بن قيس بن عيلان، كانت أشجع من بوادي المدينة إلى الشمال، ثم هاجر كثيرون منهم في هجرة بني هلال في القرن الخامس الهجري فاستوطنوا المغرب، البلادي: <u>معجم قبائل الحجاز</u> ، ص٢١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشىٰ، ٣٤٤/١.

(٥) الربذة من قرى المدينة على ثلاثة أيام، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز، ياقوت الحموي: <u>معجم البلدان</u>، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، ٢٧/٣.

(٦) المصدر السابق، ٣٤٠/١.

(٧) الهمداني: المصدر السابق، ص٢٦٠؛ القلقشندي: <u>نهاية الأرب</u>، ص١٩٨.

(٨) البكري: المصدر السابق، ٤٢٨/٢.

(٩) الفاسي: <u>شفاء الغرام</u>، ٥/١-١٠٢

(١٠) نفس المصدر السابق، ١٠٢/١.

(١١) أحمد الزيلعي: <u>مكة وعلاقاتها الخارجية</u>، ص١٥٠-١٥١.

(١٢) عبد الله محمد السيف: <u>الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي</u>، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٢٤١.

الأموي والعباسي[1]، واشتغل بعضهم في التجارة والصناعة وبرزوا فيها وكونوا لهم ثروات كبيرة[2]، ويبدو أن عدد الموالي كبير لأنه عندما فرض العطاء لوجوه الموالي بالمدينة المنورة فرض لخمسمائة مولىً منهم ونجد أن بعضهم فرض له في شرف العطاء[3].

(١) ابن سعد: الطبقات، ٤٢٤/٥.
(٢) المصدر السابق: ٤٣٧/٥.
(٣) الأصفهاني: الأغاني، ٩٩/٢١.

المطلب الثـانـي

الحـياة العامة في الحجـاز

لقد تميزت الحياة السياسية في المجتمع الإسلامي بالأحداث المتلاحقة، وكان تأثيرها واضحاً علىٰ المجتمع الإسلامي وتوجهاته.. لذلك كان جل اهتمام المؤرخين بالجانب السياسي، ومتابعة تطوراته وتأثير أحداثه ومتغيراته، فأسهب المؤرخون في التفصيل في هذا الجانب، بينما ضنوا عن الجانب الاجتماعي فلم يعيروه ما يستحقه من اهتمام فجاءت مصادرنا الإسلامية حافلة بالأخبار السياسية مقلة عن العادات والتقاليد والحياة الاجتماعية بتفاصيلها[١].

فمن أهم مظاهر الحياة العامة في الحجاز:

١- **المرافق العامة والمنازل الخاصة:**

فنلاحظ أن بكل مدينة دار رئيسية تكون مقراً للوالي، ففي مكة دار الندوة وهي الدار الرئيسية والتي ينزلها الخلفاء العباسيون عند قدومهم للحج[٢] ، وتقع هذه الدار في غرب المسجد كما ذكر ذلك الاصطخري بقوله: "ودار الندوة من المسجد الحرام في غربيه وهي خلف دار الإمارة مشرعة إلىٰ المسجد"[٣]، وبالمدينة دار مروان، وهي مقر للوالي وتتميز تلك الدار بقيمة كبيرة[٤].

أما المنازل والدور التي امتلكها الخلفاء العباسيون والحجازيون فقد اهتم الخلفاء وذوي المناصب العليا في الدولة العباسية ببناء أو امتلاك دور في الحجاز وخاصة في مكة والمدينة، حيث تميزت هذه المباني الخاصة بالخلفاء بالقوة وجمال الهندسة المعمارية[٥].

وقد قام بعض الخلفاء والأغنياء بتزيين منازلهم من الخارج بالفسيفساء والرخام ويفضل بعض هؤلاء الأغنياء بناء منازلهم بالحجر المنقوش والساج[٦]، حيث تكون هذه المنازل باهظة الثمن بسبب غلاء مواد بنائها[٧]. حيث وصف هذه المباني بعض

(١) عائشة باقاسي: مكة والمدينة، ص٢٣٢.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٣٧/٢.
(٣) الاصطخري: المسالك، ص٢١.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٠/١٥٤-١٥٥-١٦٣.
(٥) ناصر علوي خسرو القاباديـاني: سفر نامة، ترجمة يحيىٰ الخشاب، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧٠م، ص١٢٣.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ٢٥٠/٢، الحربي: المناسك، ص٤٨.
(٧) الأزرقي: المصدر السابق، ٢٤٣/٢- ٣٠٠.

المؤرخين بأنها من الحجارة المنقوش أسفلها وفي أ علاها الآجر الملبس بالرخام، حيث وضعت عليه قباب ثلاثة ملبسة بالفسيفساء(١)، وهناك تنافس بين أهالي الحجاز في تزيين منازلهم الملفتة للنظر(٢).

أما ما بداخل هذه المنازل من أثاث فنجد البسط والحصير والمخاد المحشوة بالريش والكراسي(٣)، أما الإضاءة ليلاً فكان السائد لديهم السراج ويستعمل الأغنياء منهم الشموع(٤) وتوضع الستور علىٰ الأبواب والنوافذ، وهذه الستور مصنوعة من الصوف(٥).

٢- الأطعمة والأشربة:

أما من ناحية معيشة الناس في أهل مكة فقد تحدث المقدسي عن طبيعتها في الجزيرة العربية، عندما ذكر أن الناس فيها يتقوتون باليسير من الطعام، وأن معيشتهم تعتمد بشكل رئيسي علىٰ التمر(٦)، ومن ناحية أخرىٰ بيَّن المقدسي اعتماد أهل مكة علىٰ علىٰ اللحوم المجففة من ذبائح أيام النحر كنوع من الغذاء في فترة زمنية محددة(٧)، كذلك الفواكه التي اقتضىٰ توفرها في الأسواق المكية علىٰ فصل الصيف، في حين خلت منها هذه الأسواق علىٰ حدّ قول المقدسي في فصل الشتاء(٨).

فنلاحظ مما ذكره المقدسي تنوع المآكل في العصر العباسي في الحجاز وذلك نتيجة لاختلاط العرب بعناصر مختلفة، فاتجه الناس إلىٰ تذوق بعض المآكل الجديدة وفضلوا بعضاً منها، فهناك طعام يسمىٰ (أفروشة) وهو مكون من الدقيق والسمن من مدينة بيار إلىٰ الحجاز(٩)، كذلك (الثريدة) وهي مكونة من خبز مهشم مبلول بماء

---

(١) نفس المصدر السابق، ١٠٦/٢.

(٢) الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ٣٧٩/٦.

(٣) الجاحظ: الحيوان، ١٧١/٢؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٥٤/١٠- ١٥٥.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ١٨٧/٢؛ الطبري: المصدر السابق، ١٥٥/١٠.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٣/١٠.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٩٩.

(٧) المصدر السابق: ص٩٠.

(٨) المصدر السابق: ص٩٠، وقال الزهري، محمد بن أبي بكر، عن المعيشة في مكة: "فأما ما يأكلون يأكلون فأكثر طعامهم الفطاني، والقمح عندهم قليل وكذلك الشعير، وأكثر عيشهم اللبن والتمر ولحوم الإبل والحواميس، وكذلك فواكههم الموز وقليل من العنب، وأكثر ثمارهم النخل": كتاب الجغرافية، تحقيق: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد [د.ت]، ص٣٦.

(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم، ليدن، ١٩٠٩م، ص٣٧٠، بيار بالقرب من طبرستان، المقدسي: المصدر المصدر السابق، ص٣٦٥.

اللحم، وهناك أنواع من الثريد منها المبلق[١] والصفراء[٢].

وهناك أنواع من اللحوم التي تؤكل في الحجاز، لحوم الشياه والوعول البرية والجدي ومن أنواع المآكل أيضاً الهريسة[٣]، والعصيدة[٤] والأرز[٥]، والخبز بجميع بجميع أنواعه ويبدو أن أرغفة الخبز مع الزيت هي طعام الفقراء[٦] ويقدم للأغنياء وجبات من الأرغفة وهي عبارة عن رغيف محشو بالسمك[٧].

وهناك في الحجاز الخبيص من الحلويات المشهورة في ذلك الإقليم وخاصة بمكة المكرمة وهو مكون من التمر والسمن يخلط ويخبص حتىٰ ينضج[٨]، وكذلك التمر فيعتبر من الأطعمة الرئيسية في المدينة المنورة ومكة المكرمة بل في الحجاز عامة حيث يؤكل منفرداً أو مع اللبن[٩] أو الأقط[١٠]، والتمور في الحجاز علىٰ أنواعها منها علىٰ سبيل المثال القسب[١١] وعجوة المدينة حيث ذكر الاصطخري ذلك بقوله: "والعشيرة حصن صغير بين ينبع والمروة، تفضل تمورها علىٰ سائر تمور الحجاز عدا الصحاني بخيبر والبردي والعجوة بالمدينة"[١٢]. ويستخرج من التمر الدبس الذي يعرف باسم الصقر[١٣].

وكانت الأطعمة في بلاد الحجاز تحفظ في سلال خاصة بحفظ الأطعمة مثل حفظ الحلوىٰ من الخبيص وحفظ الدجاج والتمر والأقط[١٤].

ومن الأشربة في الحجاز:

أ- السويق المصنوعة من الحنط والشعير والسكر[١٥].

---

(١) الأصبهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ٣٧٣/٦.
(٢) التوحيدي، أبو حيان: الأمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، ٢٣/٣.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير، القاهرة، ١٣٦٧هـ، ١٦٨/٦.
(٤) ابن بكار: جمهرة، ص٣٠٦، والعصيدة [دقيق يعصد بأدام].
(٥) الأصبهاني: المصدر السابق، ٥٩/٧.
(٦) الذهبي: المصدر السابق، ٣٨٢/٦.
(٧) الإبشيهي: المستطرف في كل فن مستطرفي، ص١٨١.
(٨) الأصبهاني: حلية الأولياء، ٧٦/٧.
(٩) ابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد: ثمرات الأوراق في المحاضرات، دار أحياء أحياء التراث، بيروت، ٢٣٨/١.
(١٠) ابن الجوزي: صفة الصفوة، حيدر آباد، ١٣٥٨هـ، ٢٦٤/٢.
(١١) الأصفهاني: الأغاني، ١٥٣/١.
(١٢) الاصطخري: المسالك، ص٢٥.
(١٣) القالي: إسماعيل القاسم القالي البغدادي: الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت [د.ت]، ٥٨/٢.
(١٤) الأصفهاني: الأغاني ١٠٢/١٧.
(١٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٣٢/١٠.

ب- الزبيب لوفرته في الحجاز[١].

ج- نبيذ التمر المصنوع من التمر[٢].

٣- الألبسة والزينة:

وكذلك ما كان يلبس للرجال في بلاد الحجاز القلنسوة[٣] وهي علىٰ عدة أنواع:

أ- القلنسوة المصرية وهي صفراء اللون[٤].

ب- القلنسوة الهاشمية وهي سوداء اللون[٥].

ج- القلنسوة الشاشية وهي التي تصنع من القماش الخفيف[٦].

د- القلنسوة الطويلة والقصيرة[٧].

أيضاً مما يلبسه الرجال في الحجاز الجبة وهي مفصلة ومخيطة من الخز وتأتي بلونين الأسود والأبيض، كذلك من أنواع الألبسة في الحجاز عامة ومكة خاصة ما ذكر لنا الرحالة المقدسي خلال رحلته لهذا الإقليم حيث قال[٨]: "والرسوم في هذا الإقليم لبس الوزر والأزر بلا قميص إلا القليل" ويبدو أن المقدسي في إشارته لهذا النوع دون غيره من الألبسة المعروفة آنذاك قد اقتصر علىٰ ما هو سائد ومشهور منها وهو الأزار[٩] من جانب آخر فقد ذكر المقدسي أن الثياب المنتشرة في مكة كانت من النوع القطني[١٠] وفي إشارته لتوريد الثياب الشطوية إلىٰ ميناء جدة[١١] وكذلك وجود سوق

(١) مالك: المدونة، ٢٦٢/٦.
(٢) المصدر السابق، ٢٦٣/٦.
(٣) القلنسوة هي من ملابس الرؤوس، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ط٤، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٥م، ١٧٥/١٢.
(٤) الأصفهاني: مقائل الطالبيين، ص٢٦٣.
(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨٦٢/١١- ٩٩٣.
(٦) الأصبهاني: حلية الأولياء، ٣٧/٧.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٦٦/٦.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٤.
(٩) وكان هذا النوع من الألبسة هو السائد والمشهور في مكة لدىٰ كثير من الرجال في الحاضرة والبادية والبادية منذ عصور الإسلام الأولىٰ، إلهام أحمد البابطين: الحياة الاجتماعية بمكة منذ ظهور الإسلام حتىٰ نهاية العصر الأموي، ط١، الرياض، ١٤١٩هـ، ص٣٢١- ٣٢٥.
(١٠) أحسن التقاسيم: ص٩٠.
(١١) المصدر السابق: ص ٩٨.

لها في مكة[1] دليل على سعة انتشارها آنذاك في أوساط المجتمع المكي.

كذلك من الألبسة القميص وهو لباس رقيق ويستخدم أحياناً لباساً داخلياً وخارجياً[2] أيضاً وهي قمصان عدنية رقيقة[3]، كذلك الإزار ويلتحف الحجازيون بالأزار في منازلهم فوق القميص[4]، ويلبس بعض الرجال الثياب الملونة و تكون طويلة بحيث تجر من خلفهم وهي منهي عنها وداخله في الإسبال في اللباس، ويلبس بعض كبار السن الملابس الموردة أو الممصرة أي المصبوغة بالمصر وهو تراب أحمر[5]، وكذلك فيما يخص زينة الرجال السلاح من أهم زينتهم فنجد أن بعضهم يعلقه في المنطقة وأحياناً ينتكب بعض الرجال الأقواس العربية[6]، ويستعمل الرجال نوعاً من الطيب يسمى الغالية أسود اللون[7] وعادة تحفظ الغالية فيما يسمى المنجفة وهي وعاء أو قارورة خاصة لحفظها وكذلك المسك في الزينة[8].

٤- **وسائل التسلية:**

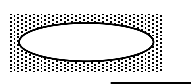
أما التسلية التي كانت معروفة لدى الحجازيين وكان البعض منها منهي عنها مثل:

أ- المهارشة والمقامرة بالديوك والكلاب[9]، فكان يأخذ أصحاب هذه الهواية إذن الخليفة العباسي في ممارستها فكان يعطيهم إياها في بعض الأحيان[10].

ب- اللعب بالحمام، حيث كان يجمع في أقفاص أو تربيطه إلى ساعات معينة لتحديد عملية تطييره في الهواء، مما يؤدي بصاحبه إلى اجتياز أسطح المنازل وكشفها[11].

---

(١) المصدر السابق: ص ٧٦.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٧٥/١٠.
(٣) ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد: كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق: محمد الأحمري، دار التراث، القاهرة، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ٩٢/١.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ١٧٥/١٠.
(٥) الأصفهاني: الأغاني، ١١١/٢.
(٦) ابن بكار: الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، بغداد، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ص٧٣.
(٧) الأصفهاني: الأغاني، ٩٤/٤.
(٨) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ١٧٢/٢.
(٩) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب: الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون [د. ت]، ٢٩٥/١- ٢٩٥/١- ٢٩٦.
(١٠) الأصفهاني: الأغاني، ٧٢/٦.
(١١) ابتسام آل سويلم: الحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص١٨٠.



ج- الشطرنج التي يطلق عليها أهل الحجاز الأشترنج[1].

د- النرد[2]، من الوسائل المسلية التي كانت منتشرة في الحجاز.

٥- **الأعيـــاد والاحتفالات:**

أ- عيد الفطر:

فقد أشار المقدسي إلىٰ بعض العادات والتقاليد المنتشرة في مكة فقال عن طريقتهم في الاحتفال بعيد الفطر[3]: "وبمكة تنصب القباب ليلة الفطر ويزين السوق بين الصفا والمروة ويضربون الدباب[4] إلىٰ الصباح وإذا صلوا الغداة أقبلن الولائد مزينات بيدهن المراوح يطفن بالبيت".

كما أعجب المقدسي يتأنق المكيين وجمال زيهم وطريقة خروجهم للحج وشبههم في ذلك بالعراقيين[5]، فقال: "ولا يرىٰ أحسن من مزي أهل مكة في خروجهم إلىٰ الحج الحج في أن أحدهم ينوبه في ذلك ما ينوب العراقي".

ب- عيد ختم القرآن:

وهو من الأعياد التي يحتفل بها المكيون، حيث يحتفلون بأولادهم احتفالاً كبيراً لختمهم القرآن الكريم ويسيرون بهم بموكب عظيم [6].

ج- المولد النبوي:

وكما كان أهل مكة يحتفلون بتاريخ مولد النبي عليه الصلاة والسلام في شهر ربيع الأول، ويحتفلون بتاريخ مولد السيدة ميمونة زوج النبي ﷺ في منتصف صفر، ويعبرون عن الاحتفال بكلمة الحول فيقولون حول ميمونة وحول النبي[7] عليه الصلاة والسلام وقد عمل البويهيون الشيعة الذين سيطروا علىٰ بغداد في القرن

---

(١) الجاحظ: البيان، ١٨/١ – ١٩.
(٢) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم: تحريم النرد والشطرنج، تحقيق: محمد حسين حسين العقبي، الرياض، ١٤٠٠هـ، ص٥ - ٧ - ٣٥.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم ، ١٤٠٨هـ، ص٩٥.
(٤) الدبادب: الكثير الصياح والجلبية، والدبداب: الطبل، انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، المعارف، القاهرة، ١٣١٥/٣.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٥.
(٦) عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص٨٥.
(٧) نفس المرجع السابق، ص٨٥.

الرابع الهجري علىٰ إبراز هذه الاحتفالات ثم نشروها وثبتوها حتىٰ صارت تقليداً متبعاً في العالم الإسلامي كله لفترة تاريخية ليست قصيرة(١).

د- مطالع الشهور:

ومن الاحتفالات والأعياد عند أهل الحجاز وخاصة مكة المكرمة احتفالهم باستهلال الشهور الهجرية وعادتهم في ذلك أن يأتي أمير مكة في أول يوم من أيام الشهر يحف به كبار رجاله وهو يرتدي الملابس البيضاء ويتقلد سيفه، وعليه السكينة والوقار، فيصلي عند مقام إبراهيم ركعتين ثم يُقَبِّل الحجر الأسود، ويطوف حول الكعبة سبعة أشواط(٢).

هـ- الاحتفال بشهر رجب:

كذلك احتفالهم ببدء هلال شهر رجب احتفالاً يختلف عن بقية الشهور العربية، لأنهم يعتبرونه بدء موسم عظيم، حيث إن شهر رجب هو بدء الأشهر الحرم ويتوسط العام الهجري(٣).

و- الاحتفال بشهر رمضان:

واحتفالهم إذا أهلَّ هلال شهر رمضان حيث كانت الطبول والدباب تضرب عند أمير مكة، وهنا يبدأ الاستعداد للاحتفال في المسجد الحرام، فمن تجديد الحصر وتكثير الشمع والمشاعل وغير ذلك من الآلات، حتىٰ يتلألأ الحرم نوراً ويسطع ضياء(٤).

---

(١) علي بن الحسين السليماني: علاقة مصر بالحجاز، ص٢١٢- ٢١٣، والاحتفال بالمولد النبوي بدعة كانت منتشرة في هذه الفترة.
(٢) سليمان مالكي: بلاد الحجاز، ص١١٨.
(٣) نفس المرجع السابق، ص ١١٨.
(٤) نفس المرجع السابق، ص١١٨؛ عائشة باقاسي: بلاد الحجاز، ص٨٢.

المطلب الثـالـث

الكــوارث والأوبــئة

من أهم الظواهر الطبيعية لإقليم الحجاز هي الجبال والأودية، وقد اتسمت هذه الجبال بعدة سمات منها: أنها ليست عالية كما وأنها تختلف في أشكالها، بعضها يأخذ شكلاً متسلسلاً، بينما الآخر يأخذ شكلاً دائرياً[1].

ومكة المكرمة بصفة خاصة والتي تقع في وسط إقليم الحجاز المشهور بتنوع ظواهره الطبيعية فإنها وكما أشار إليها القرآن الكريم أنها تقع في وادٍ غير ذي زرع والمعني بذلك هو وادي إبراهيم عليه السلام، الذي ينحدر من شمالها إلىٰ جنوبها وينحدر سيل وادي إبراهيم بقوته وعنفوانه لأنه ينحدر من جبالها الشاهقة والتي تمثل ضفتي الوادي، ومن أشهر هذه الجبال جبال طاد، وكنثيل، والطارقي، وستار، وجبل حراء، وثبير، ثم كداء والخندمة، ويخترق سيل هذا الوادي المدينة المقدسة، حتىٰ أنه يمر من وسط المسجد الحرام[2].

ومن أهم هذه السيول والتي رصدتها كتب الرحالة:

١- سيل ابن حنظلة:

الذي داهم المسجد الحرام سنة ٢٠٢هـ، خلال خلافة الخليفة العباسي المأمون[3]، حيث يذكر أن السيل قد أحاط بالكعبة المشرفة وخيف علىٰ المقام أن يجرفه السيل فرفع من مكانه وتسبب هذا السيل في هدم العديد من الدور والأسواق وأعقبه دمار شديد عانىٰ منه المكيون أشد العناء[4].

٢- سيل عام ٢٠٨هـ:

وكان هذا السيل في عهد الخليفة المأمون ويصفه المؤرخون بأنه كان أقوىٰ من سابقه حيث امتلأ السد الذي يقع بالثقبة بين جبل حراء وجبل ثبير حتىٰ انكسر[5]، وجرىٰ بقوة

---

(١) فهد علي ختيم العميري: الأنماط المكانية لتوزيع السكان دراسة تطبيقية علىٰ مدينة مكة، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز، ١٤٢٥هـ، ص٢٠.

(٢) رقية نجيم: البيئة الطبيعية لمكة، ص٦٢-٦٣.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الثقافة بمكة، ١٧٠/٢؛ السنجاري: منائح الكرم، ١٤٩/٢- ١٤٠.

(٤) رقية نجيم: المرجع السابق، ص١٠٠.

(٥) الثقبة هي بالتحريك، ويلفظها المكيون اليوم بالتاء المثناة المفتوحة، "هي جبل بين حراء وثبير بمكة وتحته مزارع". الأزرقي: أخبار مكة، ط٧، ١٤٢١هـ، ١٠٧/٢ في الهامش رقم "٢".

في اتجاه وادي إبراهيم التقىٰ بما جاء من سيول أخرىٰ، لاسيما ما جاء من جهة منىٰ فأقتحم السيل المسجد الحرام وبلغ حتىٰ وصل إلىٰ الحجر الأسود، وقد نتج عنه أنه حمل الطين والبطحاء وملأ بها ساحات الحرم المكي، وتسبب في هدم العديد من الدور والمساجد ورمىٰ بأغراض الناس وبضائعهم إلىٰ أسفل مكة، ولقد امتلأت مكة بالمعتمرين من خارجها، فلما رأوا ما يعانيه المسجد من الطين والتراب واجتمع الناس فكانوا يعملون بأيديهم ويستأجرون من أموالهم حتىٰ كانت النساء بالليل والعواتق يخرجن فينقلن التراب التماس الأجر والبركة، حتىٰ رفع من المسجد الحرام ونقل ما فيه فرفع ذلك إلىٰ المأمون فأرسل بمال عظيم فأمر أن يعمل به المسجد ويبطح، ويعزق وادي مكة حتىٰ كانت سنة سبع وثلاثين ومائتين، فأمرت أم أمير المؤمنين جعفر المتوكل علىٰ الله باثني عشر ألف دينار لعزقه، فعزق بها عزقاً مستوعباً[(١)].

٣- سيل عام ٢٤٠هـ:

حدث هذا السيل في عهد الخليفة العباسي المتوكل علىٰ الله عندما رفعت إليه رسائل من قبل الولاة علىٰ مكة يشكون فيها الأضرار البالغة التي ألحقت بالمسجد الحرام وغيرها من الأضرار التي لحقت بالمساجد والمنازل جراء أمطار الخريف المتزايدة[(٢)].

حيث أمر الخليفة أحد الصنَّاع وهو إسحاق بن سلمة الصايغ[(٣)] المدني الذي كان مشهوراً بمعرفته وإتقانه لمختلف فنون الهندسة المعمارية بأن يتوجه هو ومن معه من الصناع الذين اختارهم إسحاق إلىٰ مكة وزودهم بالمواد الأساسية التي يحتاجها في إ صلاح ما أحدثه السيل من أضرار[(٤)].

٣- سيل عام ٢٥٣هـ:

حدث هذا السيل في سنة ٢٥٣هـ حيث دخل المسجد الحرام[(٥)]. وبلغ الركن الأسود (الحجر) ورمىٰ بالدور بأسفل مكة وذهب بأمتعة الناس وخرب منازلهم وملأ المسجد غثاء وتراب حتىٰ جرَّ ما في المسجد من التراب بالعجل، هذا صادف فتنة العلوي سنة ٢٥٢هـ علىٰ حد قول ابن رسته فكانت هذه الفتنة مأساوية في الحجاز فقد

---

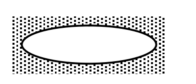
(١) الأزرقي: المصدر السابق، ١٧١/٢؛ الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط٢، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦، ٢٠٥/١-٢٠٦.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ط١، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٧٠/١؛ السمهودي: وفاء الوفاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد المجيد، ٥٧٣/٢.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، ١٤٠٣هـ، رشيد ملحس، ٢٩٨/١- ٣٠١.

(٤) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٣٥.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، ٢٤١/٢.



أفرزت نتائجها إلىٰ التأثير السلبي علىٰ جميع جوانب الحياة في الحجاز السياسية والاقتصادية والعلمية وألحقت الضرر الكبير في تلك الفترة بكل ما يخص أهل الحجاز[1].

٤- سيل عام ٢٦٢هـ:

حيث داهم المسجد الحرام سيل عظيم ذهب بحصا المسجد الحرام حتىٰ عرا منها، وهذا السيل صادف أيضاً قتال شديد بين فئتين من فئات المجتمع المكي داخل مكة نفسها وهي فئة الجزارين والخياطين، ووقع ذلك القتال قبل يوم التروية بيوم واحد فقط حتىٰ خاف الناس أن يبطل الحج في تلك السنة ثم تحاجزوا إلىٰ أن ينتهي الناس من حجهم بعد أن حصر عدد القتلىٰ في تلك الواقعة بأكثر من خمسة عشر رجلاً[2].

٥- سيل عام ٢٦٣هـ:

داهم هذا السيل المسجد الحرام سنة ٢٦٣هـ وذلك أن مكة أمطرت مطراً شديداً حتىٰ سال الوادي ودخل السيل في أبواب المسجد الحرام فامتلأ المسجد وبلغ الماء قريباً من الحجر الأسود ورفع المقام من موضعه وأدخل الكعبة للخوف عليه من السيل[3]، فهنا تسقط أغلب أمطار مكة المكرمة نتيجة قلة الأمطار الساقطة بشكل عام طوال السنة وتذبذب كمية سقوطها من وقت إلىٰ آخر إذ أنها قد تتركز أحياناً في بضعة أيام أو في يوم واحد أو عدة ساعات من اليوم وقد تكون كمية هطول الأمطار في عدة ساعات أكثر مما يهطل في عام كامل، الأمر الذي يشير إلىٰ الكثافة العالية لسقوط الأمطار في مكة في بعض الأحيان، وكذلك تذبذب موسم الأمطار من موسم إلىٰ آخر وإن غلب عليها فصل الشتاء أي قد تسقط في فصول أخرىٰ، مما ينتج عن تلك الأمطار السيول التي لا رابط لها ولا ضابط في وقت سقوطها[4].

٦- سيل عام ٢٩٧هـ:

وعندما ذكر الرحالة المسعودي في تاريخه في أخبار سنة ٢٩٧هـ بقوله: "وجاء الخبر إلىٰ مدينة السلام (بغداد) بأن أركان البيت الحرام الأربعة غرقت حتىٰ جرىٰ

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٣٦-٣٧.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل، [د.ط.ت]، ٥٢٦/٩- ٥٢٧؛ الفاسي: شفاء الغرام، ٤٢٢/٢.
(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ٤٢٢/٢.
(٤) هشام فوزي: السيول في مكة بين عامي (٩٢٣ – ١٠٩٩هـ)، الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادي والعشرون، ١٤٢٨هـ، ص٣٨-٣٩.

الغرق في الطواف وفاضت بئر زمزم وأن ذلك لم يعهد فيما سلف من الزمان"(١).

حيث ذكر الفاسي قوله: "في تلك السنة كثر ماء زمزم وارتفع حتىٰ كان قارب رأسها فلم يكن بينه وبين شفتها العليا إلا سبع أذرع أو نحوها وما رأيتها قط كذلك ولا سمعت من يذكر أنه رآها كذلك وعذبت حداً حتىٰ كان ماؤها أعذب من مياه مكة التي يُسر بها أهلها"(٢).

٧- سيل عام ٢٨١هـ:

وقد رأينا ذلك في سنة ٢٨١هـ ذلك أنه أصاب مكة أمطار كثيرة وسال واديها بأسبال عظام(٣).

وكما ذكر سابقاً فإن أهم هذه الأودية وادي إبراهيم ووادي فخ ووادي منىٰ ووادي محسر ووادي عرنة ووادي نعمان فهذه الأودية كلها من أهم أودية مكة المكرمة.

٨- سيل عام ٣٤٩هـ:

وكذلك سيل عام ٣٤٩هـ لما برز الحج قافلاً، ونزل الحجاج وادياً جاءهم سيل فأخذهم عن آخرهم(٤).

وتركت السيول التي تعرضت لها الحجاز عامة ومكة والمدينة المنورة خاصة آثاراً سلبية علىٰ المدينة تمثلت في الموتىٰ وهدم البيوت والمساجد بعامة والمسجد الحرام بخاصة، وضياع الأموال والأضرار بالأسواق وبالمنشآت المائية إضافة إلىٰ الأضرار النفسية التي خلفتها تلك السيول(٥).

ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال، أن آثار السيول كانت سلبية برمتها، بل كانت لها بعض الإيجابيات والتي تمثلت في توفير مياه الشرب في الخزانات والبرك، وانخفاض أسعار المواد الغذائية، وري المزروعات(٦).

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرىٰ، القاهرة، ٣٠٧/٤؛ الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ، ١٥/٢، الفاسي: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المكرمة، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، مكتبة الباز، مكة المكرمة، ص٢١٩، الفاسي: شفاء الغرام، ٤٢٢/٢.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ٤٢٢/٢.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٣١٣/٢ – ٣١٤.

(٤) الأزرقي: المصدر السابق، ٣١٥/٢.

(٥) هشام فوزي: السيول في مكة المكرمة، ص٦٧.

(٦) نفس المرجع السابق، ص٦٧.

وهذا ناتج عن قوة السيل وكثرة الأمطار التي تسقط علىٰ الحجاز، ولعل ذلك يرجع إلىٰ عدة عوامل منها(١):

- الطبيعية الجغرافية لمكة خاصة والحجاز عامة والذي تتجسد في كون الحجاز يقع في منطقة منخفضة خلاف المدينة المنورة والذي يحيط معظم مناطقه بالجبال والأودية من جميع الجهات، وعليه فإن مجاري تلك الأودية تتميز بميول شديد الانحدار مع قلة تخزين محدود للمياه في هذه الأودية، وتأسيساً علىٰ ذلك فإن الطبيعة الجغرافية تجعل للسيول آثاراً سلبية علىٰ المدن الحجازية(٢).
- قلة المسطحات الزراعية في الحجاز عامة ومكة(٣) خاصة الأمر الذي يزيد من آثار السيول السلبية علىٰ المدينة، فلو كانت هناك مسطحات خضراء مناسبة لقلت من تلك الأخطار(٤).
- ومن العوامل الأخرىٰ التي تلعب دوراً هاماً في تأثير السيول هي التي تعود إلىٰ السيول نفسها من حيث مدة جريانها إذ أنها تلعب دوراً مهماً في تأثير السيول وقوتها، فمستوىٰ الضرر يرتبط بها غالباً وبسرعة جريانها، فكلما زادت فإنها تمنح للجريان قوة وضغط تكون لهما أخطار كبيرة علىٰ السكان والمساكن، وكلما قلت السرعة كانت الأضرار أخف، يضاف إلىٰ ذلك تكرار حدوث العواصف المطرية، فإذا كثرت فإن أضرارها تكون كبيرة، وإذا قلت فإن أضرارها تكون أخف(٥).

ولقد ترتب علىٰ السيول التي حدثت في مكة أضرار سلبية علىٰ السكان وعلىٰ منازلهم وأموالهم ومزارعهم، إضافة إلىٰ الأضرار الجسيمة التي لحقت بالمسجد الحرام فنتج عنها آثار نفسية سلبية علىٰ السكان حيث نشرت الخوف والفزع والذعر والرعب بين الناس وبخاصة في السيول التي كانت أضرارها بالغة(٦).

الأوبئة:

من الأوبئة التي حلت في الحجاز [الأمراض] وكثيراً ما كانت الأوبئة والأمراض تتفشىٰ عقب السيول المخربة، فقد أصيب أهل الحجاز وخاصة في مكة

---

(١) نفس المرجع السابق، ص٦٧.
(٢) نفس المرجع السابق، ص٦٧-٦٨.
(٣) صالح الشمراني: المساحات الخضراء بمدينة مكة المكرمة، رسائل جغرافية العدد (١١٩)، قسم الجغرافية بجامعة الكويت، ربيع الأول ١٤٠٩هـ، نوفمبر ١٩٨٨م، ص١٩- ٢٤.
(٤) عوض عادل: الكوارث في العالم العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١٩٩٩م، ص١٠٠.
(٥) عوض عادل: الكوارث في العالم العربي، ص١٠٥- ١٠٦.
(٦) هشام فوزي: السيول في مكة المكرمة، ص٨٤.

بمرض شديد في أجسادهم وألسنتهم أصابهم منه شبه الخبل عقب السيول، كما أصيبوا بمرض شديد ووباء وموت فاش عقب سيل ابن حنظلة الذي حدث في سنة ٢٠٢هـ في خلافة المأمون(١).

ولم تكن هذه الأوبئة تقتصر فقط علىٰ مواسم السيول، بل كانت تعقب مواسم الحج بسبب الحرارة الشديدة التي تؤذي العيون وكثرة الذباب(٢)، ويفسر هذا كثرة العميان في مكة، وإلىٰ جانب ما كانت تسببه الحرارة الشديدة من أمراض للعيون فقد كان الجدب يسود البلاد في السنين الشهباء حيث لا تجد الماشية ما يشبعها من العشب فلا تدر ألباناً، ويضطر القوم إلىٰ النزوح إلىٰ مواطن الكلأ والعشب،وقد تسبب كل ذلك في كثرة الأمراض وانتشار الأوبئة(٣).

وذكر المقدسي أنه لم ير مجذوماً في مكة وأشار إلىٰ أن الله سبحانه وتعالىٰ قد حفظ المكيين من هذا المرض حيث نقل عن تفسير ابن عباس بقوله تعالىٰ: ﮋ ﭣ ﭤ ﮊ (٤)، أنه خوف الجذام(٥)، وذكر أن من أهم مسببات الأمراض في الحجاز عامة ومكة ومكة خاصة أكل [الباذنجان] حيث أشار إلىٰ المضار بإقليم الجزيرة العربية فقال عن الموجود منها بمكة: "بمكة باذنجان يمرض"(٦). هذا علىٰ حدّ قول المقدسي.

وعن أوصاف أجسامهم قال المقدسي(٧): "وبه برص وسودان كثير عامتهم سمر والغالب عليهم الدقة والهزل" وكما أشار إلىٰ نحافة أجسامهم(٨) وعن أخلاقهم فقال(٩) "وفي المكيين جفاء".

وكذلك في سنة ٢٢٨هـ أصاب الناس في الموقف حرّ شديد ثم أصابهم مطر فيه

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ٤١٨/٢- ٤١٩.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، طبعة ليدن، ص٩٥.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٢٢٤.

(٤) سورة قريش: آية (٤).

(٥) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص٩٠- حيث قال النسفي، عبد الله بن أحمد: تفسير النسفي، دار الكتاب العربي، بيروت، [د.ط.ت]، ٣٧٨/٤. (وآمنهم من خوف عظيم وهو خوف أصحاب الفيل، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم،وقيل كانوا قد أصابتهم شدة حتىٰ أكلوا الجيف والعظام المحرقة، وآمنهم من خوف الجذام فلا يصيبهم ببلدهم، وقيل ذلك بدعاء إبراهيم عليه السلام).

(٦) المقدسي: المصدر السابق: ص٩٦.

(٧) المصدر السابق: ص٩٠.

(٨) المصدر السابق: ص٩٩؛ وقال ابن المجاور عن أهل مكة: "وهم رجال سمر لأن جله مناكحهم الجوار السود من الحبش والنوبة طوال الجثث صحيحين اللغة قليلين المال كثيرين العشائر والقبائل ذوو قناعة.. وكان أحدهم يبقىٰ علىٰ قرص وقليل سمن ثلاثة أيام بلياليها؛ ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز [تاريخ المستبصر]، ص٥.

(٩) أحسن التقاسيم: ص ٩٧.

برد وأشد وأبر عليهم ساعة من ذلك الحر وسقط قطعة من الجبل عند جمهرة العقبة فقتلت جماعة من الحجاج(١).

ومن الأمراض التي ترافق السيول التي تعرضت لها مكة ظهور الأوبئة والجراد الذي يكثر في مكة والحجاز، وكذلك من الأمراض الوباء والطاعون (٢).

غلاء الأسعار:

لقد تعرض الحجاز لموجات من الغلاء في المواد الغذائية، وكانت هذه الموجات متفاوتة ما بين حقيقة إلىٰ حادة لا يطاق معها البقاء في الحجاز عامة ومكة والمدينة المنورة خاصة وكانت حالة الغلاء هي المسيطرة تقريباً علىٰ حالة الأسعار فمن ذلك:

أن أصبح الخبز ثلاثة واق بمبلغ درهم وبلغ سعر اللحم الرطل بأربعة دراهم وشربة الماء بثلاثة دراهم.

وغلاء سعر الماء أمر قد لا يكون غريباً في مكة المكرمة نظراً لقلة العيون والآبار فيها وندرة الأمطار وتزداد أسعار المياه ارتفاعاً في مواسم الحج حيث تبلغ الراوية عشرة دراهم وأكثر، فبلغ ذلك زبيدة بنت أبي الفضل، أم جعفر فأمرت بعمل بركتها التي بمكة فأجرت لها عيناً من الحل إلىٰ الحرم (٣).

ولعل الفتن والحروب التي كانت تقع في الحجاز وفي مكة علىٰ وجه الخصوص السبب الرئيسي لارتفاع الأسعار فيها، ومن ذلك ما قام به إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب حيث قتل الجند وجماعة من أهل مكة وأخذ ما كان في الكعبة من الذهب وما في خزائنها وذهب إلىٰ المدينة المنورة وفعل فيها مثلما فعل بمكة ثم رجع إلىٰ مكة(٤)، فهذا كان سبب في ارتفاع الأسعار في الحجاز عامة و مكة خاصة(٥).

وكذلك جرىٰ في مكة المكرمة والحجاز في سنة ٢٦١هـ(٦) غلاء علىٰ وجه الخصوص حتىٰ أجلي عن مكة من كان مجاوراً بها، بل رحل عنها العامل الذي كان

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٤٤/٢ ـ ٣٤٥.

(٢) الطبري، علي بن عبد القادر: الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء، تحقيق: اشرف أحمد الجمال، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٠٨؛ هشام فوزي: السيول في مكة المكرمة، ص٨٠، واختلف في الوباء هل هو الطاعون بعينه أو هو أعم وهو الصحيح، فقد صرح قوم من المتكلمين وشراح البخاري كابن حجر وشراح مسلم وغيره أن الوباء اسم لكل مرض عام وأن كل طاعون وباء وليس كل وباء طاعون. الصباغ: تحصيل المرام، ٨٨٦/٢.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٤٥/٢.

(٤) المصنف: الحياة العلمية في الحجاز، ص٢٣٦.

(٥) ضيف الله الزهراني: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨ـ ٩٢٣هـ)، ١٤١١هـ/ ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، جامعة أم القرىٰ، مركز البحوث، ص٩٢.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، تحقيق: عادل العدوي، ٢٩٨/٢.

بها بسبب ذلك وهو إبراهيم الملقب بـ (ريَّه) [1]، فكان ذلك بسبب الحالة المأساوية في الحجاز نتيجة الأعمال المشينة التي قام بها بعض الثوار السياسيين من أجل السلطة، وكان ذلك واضحاً في المدينة المنورة عندما لجأ إليها الكثير من أهل مكة والمناطق المجاورة للمدينة[2].

وكذلك حصل غلاء شديد في الحجاز سنة ٢٦٦هـ وكان امتداده من العراق والموصل والجزيرة والشام وغير ذلك إلا أنه لم يبلغ الشدة إلىٰ المدينة المنورة[3].

وفي سنة ٢٦٨هـ صار الخبز بمكة أوقيتين بدرهم وسبب ذلك أن المغيرة المخزومي سار إلىٰ مكة فجمع عاملها جمعاً احتمىٰ بهم فسار أبو المغيرة المخزومي إلىٰ المشاش عين بمكة فغورها وإلىٰ جدة فنهب الطعام وأحرق بيت أهلها، وكان عامل مكة في ذلك الوقت هارون بن محمد الهاشمي[4].

فلقد عاشت الحجاز متغيرات اقتصادية كبيرة جداً وتأتي هذه المتغيرات علىٰ اعتبار النشاط التجاري المحور الرئيسي في حياة سكان مكة والمدينة المنورة وبقية مدن الحجاز، فقد كان الحجاج يقومون بالدور الأكبر في ذلك النشاط بما يجلبونه معهم من متاجر متنوعة كما كان لموقع المدن الحجازية المميز دور واضح في أهمية الحياة الاقتصادية تلك المكانة الاقتصادية المميزة كانت المبرر القوي لمحاولة الكشف عن أسعار ذلك النشاط التجاري الذي ساد في فترة زمنية محدودة تعتبر من أهم التاريخ السياسي والاقتصادي لمكة والحجاز[5]، فكانت الكوارث والأوبئة والمتمثلة في الغلاء والرخص ترجع إلىٰ أسباب منها:

١) الأمور السياسية التي حدثت في الحجاز سواء كانت داخلية أو خارجية.
٢) تنافس العباسيين والفاطميين خلال القرن الرابع علىٰ الحجاز وتغيير مسار السلطة المتمثلة في ولاة مكة والمدينة المنورة.
٣) ثقل المكوس علىٰ التجار كان له تأثيراً بالغاً في غلاء الأسعار في الحجاز.
٤) وأخيراً كثرة الحجاج في الموسم أدىٰ إلىٰ ارتفاع الأسعار[6].

أما من ناحية الزلازل والبراكين والعواصف الترابية الشديدة، فقد ظهرت تبديلات كبيرة في الطقس في عام ٢٥٩هـ، فحدثت بعض الزلازل والعواصف الترابية الشديدة فأخربت بريف المدينة وباديتها وبخاصة بني سليم وبني هلال فهربوا إلىٰ المدينة ومكة وأحضروا بعضاً من متاع الحجاج الذين قطعوا عليهم الطريق وذكروا أنه هلك منهم خلق عظيم في البادية[7].

---

(١) نفس المصدر السابق: ٢٩٨/٢- ٢٩٩.
(٢) عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، ط١، ١٤١٤هـ، ١١٧/٢.
(٣) شفاء الغرام: ٢٩٨/٢.
(٤) نفس المصدر السابق: ٢٩٨/٢ – ٢٩٩.
(٥) ضيف الله الزهراني: أسعار المواد الغذائية، ص٧٢.
(٦) نفس المرجع السابق: ص ١٠١- ١٠٣- ١٠٤.
(٧) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ط٢، ١٤٢٣هـ، ٣٥٩/٢. عبد الباسط بدر: التاريخ الشامل للمدنية المنورة، المنورة، ١١٧/٢.



الفصل

النواحي العمرانية للحجاز من خلال كتب الرحالة المشارقة

- المبحث الأول: العمارة الدينية.
- المبحث الثاني: العمارة العسكرية.
- المبحث الثالث: العمارة المدنية.
- المبحث الرابع: الطرق والمسالك.

المبحث الأول

العمـــارة الدينيـة

عمارة المسجد الحرام:

لقد حفلت كتب الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين بمعلومات وافرة ومتنوعة عن المسجد الحرام، وجاءت أغلب هذه المعلومات مركزة علىٰ جوانب عمرانية وإنشائية، فكان مما تحدثت عنه هذه الكتب في هذا الجانب عمارة المسجد الحرام، حيث ذكروا عمارة الخليفة العباسي المنصور للمسجد الحرام التي ابتدأت سنة ١٣٧هـ وانتهت سنة ١٤٠هـ[(١)]، فنجد أن أحد هؤلاء الرحالة بيَّن من خلال رواية أوردها عن بعض مشايخ القيروان الذين قابلهم في مكة، كما يبدو سبب توسعة المنصور للمسجد واعتراض أصحاب الدور المحيطة به ثم تدخل الإمام أبي حنيفة وإقناعهم بالتوسعة، حيث يقول الرحالة موضحاً ذلك[(٢)]: "سمعت بعض مشائخ القيروان يقول: حج المنصور فرأىٰ صغر المسجد الحرام وشعثه وقلة معرفتهم بحرمته، ورأىٰ الأعرابي يطوف بالبيت علىٰ بعيره وبجاويه[(٣)]، فساءه ذلك وعزم علىٰ علىٰ شراء ما حوله من الدور وزيادتها فيه، وتفخيمه وتجصيصه، فجمع أصحابها ورغبهم في الأموال الجمَّة، فأبوا بيعها وظلوا بجوار بيت الله الحرام فاهتم لذلك ولم يجز أن يغصبها عليهم، ولم يظهر للناس ثلاثة أيام، وتحدث الناس بذلك، وأبو حنيفة في تلك السنة حاج، وليس له بعدُ ذكر ولا ظهر الناس علىٰ فقهه، وصائب رأيه، قال: فقصد خيامه وكانت بالأبطح، فسأل عن أمير المؤمنين وما الذي غيب شخصه، فذكرت له القصة: فقال: هذا باب هيِّن لو لقيته عرضته عليه، فأنهي ذلك إليه، فأمر بإحضاره، فلما سأله عن ذلك قال أبو حنيفة: يحضرهم أمير المؤمنين فيسألهم أهذه الكعبة نزلت عليكم أم نزلتم عليها، فإن قالوا نزلت علينا كذبوا، لأن منها دحيت الأرض، وإن قالوا نحن نزلنا عليها[(٤)]، فجوابه لهم أنه قد كثر زوَّارها وضاقت ساحتها، فهي أحق بفنائها، بفنائها، ففرغوه لها، فلما جمعهم وسألهم قال سفيرهم، وكان رجلاً هاشمياً، نحن نزلنا عليها، قال ردوا فناءها فقد كثر زوارها واحتاجت إليه، فبهتوا ورضوا بالبيع"، ولم يذكر الرحالة الجوانب المعمارية المتعلقة بهذه التوسعة ومقدارها، وإنما اكتفىٰ بالمعلومات المذكورة فقط. بينما تشير المصادر إلىٰ أن الذي أقنع أصحاب الدور بهذه الحجة هو الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أثناء توسعته للمسجد سنة ١٧هـ. كما أن بعض المصادر لم تشر عن توسعة الخليفة المنصور للمسجد ودور أبي

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، تحقيق: رشدي ملحس، دار الثقافة، مكة، ١٤٠٣هـ، ٧٤/٢؛ إسحاق بن الحسين: آكام المرجان في ذكر المدن المشهورة في كل زمان، ط١، عالم الكتب ، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٢٧؛ عبد العزيز السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٤-٥٥.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٧٧-٧٨.

(٣) جاويه: نوع من النوق ينسب إلىٰ بلاد بجاوة من أرض النوبة وكانوا يطاردون عليها كما يطارد علىٰ علىٰ الخيل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، [د.ت]، ٢١٤/١.

(٤) انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ٩/٢، ٧٢-٧٤.

حنيفة[١]. ويبدو أن المقدسي كان يميل للمذهب الحنفي وتفقه فيه، كما ذكرنا سابقاً قد شجعه لتضمين هذه الرواية التي ترفع من قدر الإمام أبي حنيفة – رحمة الله عليه – في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.

من جهة أخرىٰ سلط بعض الرحالة المشارقة الضوء علىٰ البناء الذي رأىٰ عليه المسجد الحرام عند زيارته لمكة، فقال[٢] "وأدير علىٰ صحنه أروقة[٣] ثلاثة علىٰ أعمدة رخام، حملها المهدي من الإسكندرية في البحر إلىٰ جدة، والمسجد من بنائه، قد ألبست حيطان الأروقة من الظاهر بالفسيفساء[٤]، حمل إليها صناع الشام ومصر، ألا ترىٰ أسماءهم عليه". فقد أبان المقدسي من خلال حديثه هذا أن المسجد الحرام لازال حتىٰ أواخر القرن الرابع الهجري علىٰ بناء الخليفة العباسي المهدي، والذي تم خلال العقد السابع من القرن الثاني الهجري، كما أوقفنا علىٰ أجزاء من عمارة الخليفة المهدي فبيَّن أن عدد أروقة المسجد ثلاثة، تدور علىٰ جنبات الصحن الأربع، وتقوم علىٰ أعمدة من الرخام الذي جلب إلىٰ مكة من مصر.

وأشار إلىٰ أن جدران المسجد من الداخل قد زينت بالفسيفساء[٥] ووضح الرحالة أن إنجاز هذه الأعمال كان بواسطة عمال مهرة جلبوا لهذا الغرض من بلاد الشام ومصر، ثم انفرد ذلك الرحالة بمعلومة غاية في الأهمية عندما بيَّن لنا أن الصناع الذين قاموا بأعمال البناء في المسجد الحرام آنذاك قد نقشوا أسماءهم علىٰ أعمالهم العمرانية، وأنه رأىٰ ذلك بعينه باقياً خلال تواجده بمكة [٦].

وعن طول المسجد الحرام فقد تفاوت وصف الرحالة المشارقة في مقياس طول المسجد الحرام فنجد رحالة في القرن الثالث الهجري يذكر أن طول المسجد الحرام

---

(١) للمزيد من المعلومات عن توسعة الخليفة العباسي المنصور، انظر: الأزرقي: المصدر السابق، ٧٢/٢-٧٤؛ الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق: عبد الملك بن دهيش، ط ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، مكة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م، ١٦٢/٢-١٦٥؛ لأن هذه التوسعة خارج إطار الدراسة.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٣) الرواق: وهو سقف في مقدمة البيت وهو ستر يمد دون السقف، انظر: ابن منظور: لسان العرب، ٢٠٠٥م، دار صادر، ٢٦٦/٦.

(٤) أشار إلىٰ ذلك ابن عبد ربه، فقال "وسور المسجد كله من داخله مزخرف بالفسيفساء، انظر: ابن عبد ربه، أحمد بن محمد الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق: مفيد محمد قميعة، وعبد المجيد الترحيني، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ٢٨٣/٧.

(٥) الفسيفساء: ألوان تؤلف من الخرز فتوضع في الحيطان يؤلف بعضه علىٰ بعض وتركب في حيطان البيوت من داخل كأنه نقش مصور، انظر: ابن منظور: المصدر السابق، ١٨١/١١.

(٦) لمزيد من المعلومات عن توسعات الخليفة المهدي، انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ٧٤/٢-٨١؛ الفاكهي: الفاكهي: أخبار مكة، ١٧٤/٢ (لأنها خارج نطاق الدراسة).

"وذرع المسجد اليوم مائة ألف ذراع[١] وعشرون ألف ذراع مكسر وعرضه من باب الندوة إلىٰ الجدار الذي يلي الوادي[٢] عند باب الصفاء ثلثمائة ذراع وأربعة أذرع، وعرض المسجد من المنارة التي عند المسعىٰ إلىٰ المنارة التي عند باب بني شيبة الكبير مائتا ذراع وثمانية وسبعون ذراعاً" [٣].

وذكر رحالة آخر "أن طول المسجد الحرام ثلثمائة وسبعون ذراعاً وعرضه ثلثمائة وخمسون ذراعاً"[٤].

وفي القرن الرابع الهجري وصف رحالة آخر طول المسجد بقوله أن طوله يبلغ ثلاثمائة وسبعون ذراعاً[٥]، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً. ويرىٰ بعض الباحثين أن فيما أورده عن طول المسجد الحرام وعرضه نظر، فبالرغم من أن المسجد الحرام لم يحصل له توسعة تذكر بعد عمارة الخليفة المهدي سوىٰ إدخال الخليفة المعتضد العباسي سنة ٢٨٤هـ ما تبقىٰ من دار الندوة ضمن الجهة الشمالية من المسجد[٦].

حيث وقف الخليفة المعتضد علىٰ وضع الحرم، وعظمت رغبته في عمارته وإصلاح ما خرب أو تهدم، فأمر كاتبه عبيد الله بن سليمان بن وهب وغلامه بدراً، بأن يقومان بمباشرة ذلك، وأخرج له الأموال العظيمة، وأمر القاضي ببغداد يوسف بن يعقوب، وحمل المال إليه فأنفذ بعضه سفاتج[٧]، وبعضه في أيام الحج مع ابنه الأكبر أبي بكر عبد الله بن يوسف، فنفذ العمل حيث حفر الوادي حتىٰ ظهر من درج أبواب المسجد الحرام الشارعة علىٰ الوادي اثنتا عشر درجة، بعد أن كان ظاهراً منها خمس درجات فقط، ثم أخرج القمام من دار الندوة وهدمها وأنشأها من أساسها وجعلها مسجداً بأساطين وطاقات وأروقة مسقفة بالساج المذهب المزخرف، وفتح لها جدار المسجد

---

(١) الذراع هو ما بين طرف المرفق إلىٰ طرف الإصبع الوسطىٰ، انظر: ابن منظور: المصدر السابق، ٢٦/٦.

(٢) يقصد به وادي إبراهيم عليه السلام، والذي يخترق منطقة المسجد الحرام وما حوله من الأحياء، ويبدأ من الشمال الشرقي حتىٰ الجنوب الغربي، حيث يأخذ مياهه من جبل الطارقي ثم يسير في الشرائع، ثم الأبطح فالمعابدة، فالمعلاة، إلىٰ أن يصل المسجد الحرام، فإذا تجاوزه سمي بالمسفلة وهي أخفض مناطق مكة، ثم يسير بعد ذلك لتصب مياهه في وادي عرنة، انظر: عادل محمد غباشي: المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، رسالة دكتوراه، ١٤١٠هـ، جامعة أم القرىٰ، ص١٧.

(٣) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٧٧-٧٨.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ص١٣٢-١٣٣.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٦) عبد العزيز السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٧.

(٧) سفاتج: جمع سفتجة، أن يعطىٰ آخر مالاً وللآخر مال في بلد المعطىٰ، فيوفيه إياه هناك، فيستفيد أمن الطريق، انظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، استانبول، المكتبة الإسلامية [د.ت]، ٤٣٢/١.

الكبير اثني عشر باباً، ستة كبار سعة الباب منها خمسة أذرع وارتفاعه إحدىٰ عشرة ذراعاً[1]، وستة صغار تقع بين الأبواب الكبار سعة الباب منها ذراعاً ونصف، وارتفاعه ثماني أذرع وثلثا ذراع وجعل لها أبواباً ثلاثة شارعة في الطريق، كما جعل لها منارة[2] وخزانة في زاويتي مؤخرتها[3]، ويشير المقدسي إلىٰ الفراغ من زيادة دار دار الندوة سنة ٢٨٤هـ أي بعد ثلاث سنوات من العمل، فصلىٰ الناس فيها واتسعوا بها، وكان ذرعها من جدار المسجد الكبير إلىٰ مؤخرتها طولاً، أربعة وثمانين ذراعاً، وعرضها ستة وسبعون ذراعاً وسعة صحنها تسعة وأربعين ذراعاً في سبعة وأربعين ذراعاً، وعدد الأساطين عدا ما علىٰ الأبواب سبعة وستون اسطوانة وعلىٰ الأبواب اثنتان وعدد الطاقات سوىٰ الأبواب واحد وسبعون طاقة، وعلىٰ الأبواب خمس طاقات، وعدد الشرف التي تلي بطن المسجد ثمانية وستون شرفة وعدد سلاسل القناديل سبعة وستون سلسلة فيها قناديل[4].

هذا ما ذكره الرحالة خلال القرن الرابع الهجري، مما تبقىٰ من دار الندوة ضمن الجهة الشمالية من المسجد، أما زيادة الخليفة المقتدر العباسي سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م للمسجد عند باب إبراهيم من الجهة الغربية [5] إلا أن بعض الرحالة ذكر أن مقدار طول المسجد ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعاً، كما بيَّنا في حين أكدت الكثير من المصادر أن طوله من أربعمائة ذراعاً، وفي الوقت نفسه فقد زاد الرحالة[6] في ذرع عرض المسجد عن ما جاء في المصادر عندما جعل عرضه ثلاثمائة ذراع وخمسة عشرة ذراعاً. حيث اتفقت مجموعة من المصادر أن طول المسجد في عرضه (٤٠٤× ٣٠٤) [7] إلا أنها ذكرت أن عرضه مع أطرافه يبلغ ٢٧٨ ذراعاً[1]، في حين

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، تحقيق: عادل عبد الحميد العدوي، مكتبة مصطفىٰ الباز، مكة المكرمة، ٤١٢/١-٤١٣.

(٢) المنارة: الشمعة ذات السراج. إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ٩٦٢/٢، [مادة نار].

(٣) الفاسي: المصدر السابق، ٤١٣/١.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، تحقيق: رشد ملحس، طبعة مدريد، أسبانيا، ١١٠/٢-١١٤؛ الفاسي: العقد الثمين الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد فقي، طبعة القاهرة، مطبعة السنة المحمدية، ١٣٧٨هـ، ٨٤/١؛ النجم محمد بن محمد بن فهد المشهور بعمر: إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ، ط١، جامعة أم القرىٰ، ٣٤٨/٢-٣٥٢؛= = عبد الكريم بن محب الدين القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ط١، ١٤٠٣هـ، دار الرفاعي، الرياض، ص٨٥-٨٨. المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، تدمري، ٣٦٢/١-٣٦٩؛ النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد: الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، المكتبة التجارية، مكة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٨-١٨٢-١٩٢-١٩٣.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥-٧٦.

(٧) الأزرقي: أخبار مكة، ٨٢/٢.

جاء طوله وعرضه في مصادر أخرىٰ (٤٠٧× ٢٨٠) [٢] ذراعاً، كما ذكرت مصادر أخرى أنه (٤٠٠×٣٠٠) ذراعاً[٣].

ويبدوا أن المقدسي لم يقم بنفسه في أخذ مقاس طول المسجد الحرام وعرضه، وإنما اعتمد في ذلك علىٰ ما أورده ابن خرداذبة[٤]، ولعل معرفة المقدسي ويقينه بأنه لم يطرأ علىٰ المسجد الحرام أي تغيير فيما يعد ابن خرداذبة قد دفعه للاعتماد علىٰ معلوماته دون تمحيص أو تطبيق[٥].

أما الزيادة الثانية أو التوسعة الثانية فكانت في أيام المقتدر بالله في سنة ٣٠٦هـ، حيث كان قاضي مكة أيام المقتدر بالله سنة ٢٩٥هـ هو محمد بن موسىٰ والذي قام في سنة ٣٠٦هـ بتغيير طاقات وأبواب زيادة دار الندوة وجعلها واسعة متساوية بحيث صار كل من في هذه الزيادة يمكنه مشاهدة البيت الشريف كما جعل أساطينها حجراً مدوراً منحوتاً، وركب عليها سقوفاً من الخشب الساج المنقوش المزخرف وعقوداً [٦]، مبنية بالآجر[٧] والجص، ووصل هذه الزيادة بالمسجد الكبير وصولاً حسناً[٨]، وتعتبر هذه الزيادة الثانية وسميت بزيادة إبراهيم[٩] في الجانب الغربي من المسجد الحرام، وكان قبل هذه باب متصل بأروقة المسجد الحرام بقرب الحزورة ويقال له باب

---

(١) اليعقوبي: البلدان، ليدن، ١٨٩١م، ص١٥٣؛ ابن رسته: الأعلاق النفيسة، تحقيق: خليل منصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٤٦؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٨٢/٧؛ البكري، أبو عبيد الله بن عبد العزيز: المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، ١٩٩٢م، ٣٩١/١-٣٩٢.

(٢) التلمساني، محمد بن أبي بكر: وصف مكة ووصف المدينة ووصف بيت المقدسي، تحقيق: حمد الجاسر، مجلة العرب، السنة الثامنة، ١٣٩٣هـ، ص٣٤٣؛ مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، [د.ت]، ص٢٣-٢٤.

(٣) إسحاق بن الحسين: آكام المرجان، ص٢٧.

(٤) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٩٩٨م، ص١٣٢.

(٥) الجدير بالذكر أن الفاسي أشار إلىٰ أن رواية ابن خرداذبة في ذرع المسجد طولاً وعرضاً رواية غريبة، انظر: شفاء الغرام، ٣٧٠/١.

(٦) العقود: العقد في اصطلاح البنائين السقف من الحجارة المعقودة بعضها ببعض، انظر: المعلم بطرس البستاني: محيط المحيط، طبعة بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٣م، [مادة عقد]، ص٦١٨.

(٧) الآجر: هو تراب يُحكم عجنه وتقريصه ثم يحرق ليُبنىٰ ، البستاني، المصدر السابق، [مادة أجر]، ص٤.

(٨) النجم محمد بن محمد بن فهد: إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ: ٣٦٦/٢؛ القطبي: إعلام العلماء ببناء المسجد الحرام، ص٨٨؛ إبراهيم باشا: مرآة الحرمين الشريفين والرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ط١، ١٣٤٤هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ٢٣٩/١.

(٩) ليس المراد به إبراهيم عليه السلام، بل إبراهيم هذا خياطاً يجلس عند هذا الباب، فعرف به، انظر: النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد: الأعلام بأعلام بيت الله الحرام، المطبعة العثمانية، مصر، ١٣٠٥هـ، ص١٠٦.

الخياطين ويقع بقربه باب ثان يقال له باب بني جمح وخارجهما ساحة بين دارين لزبيدة زوج هارون الرشيد فأدخلت هذه الساحة في المسجد الحرام وأبطل البابان، وجعل عرضهما باباً واحداً كبيراً، وهو المسمىٰ باب إبراهيم غربي هذه الزيادة. ومن حيث طول هذه الزيادة فقد بلغ طول هذه الزيادة من الأساطين التي في إزاء جدار المسجد الكبير إلىٰ القبة التي عليها باب إبراهيم (٧٥) ذراعاً إلا (سدس) ذراع وعرضها من جانبها الشامي إلىٰ جانبها اليماني، أي من رباط الخوزي إلىٰ رباط رامشت[١] (٥٢¼) (٥٢¼) ذراع، وفي الجانب الشرقي من هذه الزيادة المتصل بالمسجد الكبير صفان من الرواق علىٰ أساطين منحوتة من الحجارة كما أن في جانبها اليماني سبيل ماء وسط رواقيه وذُكر أن فيها منارة [٢].

فتعتبر هاتين الزيادتين السابعة والثامنة في تاريخ عمارة المسجد الحرام والتي هدمت فيها دار الندوة وأدخل فيها من أبواب المسجد الكبير ستة أبواب وأصبحت رواقاً من أروقة المسجد الحرام، وأقيمت فيه الأعمدة وسقف بخشب الساج، كما جعل لها اثنتي عشر باباً من الداخل، وثلاثة أبواب من الخارج واستغرقت هذه الزيادة ثلاث سنوات وتمت في سنة ٢٨٤هـ[٣]، وزيادة باب إبراهيم الخياط في سنة ٣٠٦هـ حيث شملت دارين للسيدة زبيدة، فأدخلت مساحتها في المسجد الحرام، وجعل لها باب كبير هو باب إبراهيم، ووافق عليها المقتدر العباسي[٤] وبهذه الزيادتين انتهىٰ دور العباسيين العباسيين في توسعة المسجد الحرام.

ومضت ستمائة وثمان وثلاثون سنة علىٰ عمارة المهدي ولم يحدث لها سوىٰ بعض الترميمات، وظلت حتىٰ سنة ٨٠٣هـ عندما شب حريق بالمسجد الحرام، في القسم الغربي منه، وامتد إلىٰ القسم الشمالي فأجريت له عمارة لترميم ما أتلف وهكذا نصل إلىٰ عصر آخر وهو عصر المماليك الذي هو خارج إطار الدراسة[٥].

الأساطين:

أما عن عدد الأساطين وعدد الأبواب في المسجد الحرام زمن الرحالة المشارقة

---

(١) وهو الشيخ أبو القاسم إبراهيم بن الحسين الفارسي، أوقف هذا الرباط علىٰ رجال الصوفية سنة ٥٢٩هـ، انظر: العصامي، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك المكي: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، [د.ت]، ٣٣/٤.

(٢) محمد بن سالم بن شديد العوفي: تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، الإدارة العامة للثقافة و النشر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٥٠-٥١.

(٣) جمال الدين محمد جار الله محمد.. بن ظهيرة القرني: الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، ط٤، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، المكتبة الشعبية، بيروت، ص١٢٦.

(٤) باسلامة، حسين عبد الله: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ط٢، دار مصر للطباعة، مصر، ص٧٨.

(٥) سيد عبد المجيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، دار القبلة، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٢٠/١-٢١.

في القرنين الثالث والرابع الهجريين، فقد ذكر الرحالة بقوله: "وفيه من الأساطين أربع مائة وخمس وستون اسطوانة طول كل اسطوانة عشرة أذرع وتدويرها ثلاثة أذرع وعدد أبواب المسجد في الشق الشرقي خمسة أبواب وفي الغربي ستة أبواب وفي اليماني سبعة أبواب وفي الشق الشامي ستة أبواب"[1].

ومما يؤكد ما جاء في النص الذي ذكره ابن الفقيه، ما ذكره مؤرخ[2] مكة المكرمة أن عدد الأساطين التي بجوانب المسجد الحرام وأبوابه أربعمائة اسطوانة وأربعة وثمانون اسطوانة[3] منها علىٰ الأبواب عشرون اسطوانة، وذكر أحد المؤرخين[4] أن وصف جميع هذه الأساطين التي هي الآن في جوانب المسجد الحرام وأبوابه علىٰ غير ما ذكره في العدد والصفة الآن، لأن في الجوانب الأربعة من المسجد الحرام غير الزيادتين أربعمائة اسطوانة وتسعة وستين اسطوانة وعلىٰ أبواب المسجد من داخله وخارجه سبعة وعشرون اسطوانة، فتصير جملة الأساطين بجوانب المسجد الحرام وما علىٰ أبوابه أربعمائة اسطوانة وستة وتسعين اسطوانة، غير ما في الزيادتين وذلك علىٰ ما ذكره الأزرقي عشرة أساطين[5].

وجملة الأساطين التي بالجانب الشرقي ثمانية وثمانون اسطوانة، كلها رخام خلا واحدة في الصف الأوسط عند باب عليٍّ، فإنها آجر مجصص، وجملة الأساطين التي في هذا الجانب الشمالي، ويقال له الشامي، الذي يلي دار الندوة ودار العجلة، مائة اسطوانة وأربعة أساطين، منها الاسطوانة الحمراء، وهي الثانية والعشرون من عدد الصف المقدم من هذا الجانب، وجميع الأساطين التي في هذا الجانب رخام، خلا الأربعة عشر اسطوانة من آخر الصف الأوسط مما يلي دار العجلة وباب السدرة، فإنها حجارة منحوتة[6].

والذي يهمنا في هذا هو ما حدث خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين من عمارة وتوسعة، وكما ذكر سابقاً في الزيادتين في دار الندوة وزيادة باب إبراهيم، فإن عدد أساطين هذه الزيادة ستة وستون اسطوانة في جميع جوانبها الأربعة منها في الجهة الشرقية اثنتا عشرة، ومنها في الجهة الشامية عشرون، ومنها في الجهة الغربية إحدىٰ عشرة، ومنها في الجهة الجنوبية ثلاث وعشرون هذه بالنسبة لزيادة دار الندوة، أما عدد أساطين زيادة باب إبراهيم فكان عدد أساطين هذه الزيادة سبع وعشرون اسطوانة حجارة منحوتة، منها في الرواق الشرقي الذي يلي المسجد الكبير سبعة عشر في صفين، وأربعة من هذه الأساطين السبعة عشر لاصقة بجدار رباط الخوزي، ورباط

---

(١) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٨١.
(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، ٣٧٥/١.
(٣) كان عددها عام ٩٨٤هـ: ٤٩٦ اسطوانة، انظر: باسلامة: عمارة المسجد الحرام، ص١٠١.
(٤) الأزرقي: أخبار مكة، طبعة دار الأندلس، ١٤٠٣هـ، بيروت، ٨٢/٢.
(٥) الفاسي: المصدر السابق، ٣٧٥/١.
(٦) نفس المصدر السابق، ٣٧٥/١ – ٣٧٦.

رامشت بكل رباط اثنتان، وفي الجانب الشمالي ستة أساطين، واحدة منها لاصقة بجدار الإيوان[1] الغربي وفي الجانب الجنوبي ستة أساطين، واحدة منها لاصقة بالمنارة التي كانت بهذه الزيادة[2].

ومما قال ابن رسته في ذكر عدد أساطين المسجد الحرام "وعدد أساطين المسجد الحرام من شقه الشرقي مائة وثلاث اسطوانات ومن شقه الغربي مائة وخمس اسطوانات ومن شقه الشامي مائة وخمس وثلاثون اسطوانة من شقه اليماني مائة وإحدىٰ وأربعون اسطوانة فجميع ما فيه من الأساطين أربع مائة وأربع وثمانون طول كل اسطوانة عشر أذرع وتدويرها ثلاث أذرع"[3].

ونلاحظ أن ابن الفقيه الهمذاني يقلل عدد الأساطين علىٰ ما ذكره ابن رسته حيث ذكر ابن الفقيه الهمذاني بقوله "وفيه من الأساطين أربع مائة وخمس وستون اسطوانة"[4].

وربما يرجع ذلك التفاوت لدىٰ الرحالة في ذكر عدد الأساطين، لأن ابن رسته ضمَّن عدد هذه الأساطين في مشاهداته للمسجد الحرام بعد الزيادة التي زيدت في سنة ٣٠٦هـ في باب إبراهيم، بينما ابن الفقيه لم يشهد هذه الزيادة، حيث كانت وفاته في سنة ٢٩٠هـ.

ولكن الأزرقي أكد ما كان في نص ابن رسته حيث بقي عدد الأساطين ٤٨٤ اسطوانة فاتفق مع ابن رسته وخالفا ابن الفقيه في ذكر عدد الأساطين جميعها أنها ٤٦٥ اسطوانة، فهذا يجعلنا نؤكد أن عدد الأساطين في المسجد الحرام ٤٨٤ اسطوانة منذ القرن الثالث الهجري قبل زيادة المماليك[5]. وأخذ بقوله الفاسي الذي جاء في القرن الثامن الهجري[6].

---

(١) الإيوان وهو من المميزات المعمارية البارزة في البيت العربي أو المسكن الإسلامي، ويطل الإيوان علىٰ الصحن، وهو بناء له ثلاثة جدران، يعلوه طاق كبير عال وسقف يكون مكشوفاً من واجهته الأمامية والإيوان يمثل= =المساحة المسقوفة التي تمثل محطة انتقال بين الغرف الجانبية إلىٰ فضاء عائلي خاص، وبين الفناء الوسطي كفضاء عائلي عام، ويكون الإيوان عادة مربع الشكل وعقدته بيضوية وواجهته علىٰ شكل قوس مدبب، ويبطَّن عادة بالمرمىٰ إلىٰ ارتفاع ثلاثة أمتار ويكون علىٰ شكل مساحات مزخرفة، و بأشكال هندسية أو نباتية أو مجردة، والقسم العلوي مزين بزخارف وكتابات جبصية بارزة لغرض المحافظة علىٰ انسجام الشبابيك والأبواب، فإن بقية الجوانب وصدره تستكمل بإيجاد فجوات غائرة علىٰ شكل مشكاوات مزخرفة، وهو من المستلزمات الضرورية للبيت. انظر: محمد حسين الجودي، العمارة العربية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار المسيرة، عمَّان، ص٦٣-٦٤.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٧٦/١-٣٧٧.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٤٤.

(٤) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٨١.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، طبعة ١٤٢١هـ، ٨٣/٢.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ٣٧٥/١.

أما صفة الأساطين عند الرحالة المشارقة، فقد وصفها ابن رسته أن بعضها "علىٰ رؤوسها ذهب وتبلغ ثلثمائة وإحدىٰ وعشرون منها في الظلال التي تلي دار الندوة (١٣٣) وفي الظلال التي تلي باب جمح (٥٤) وفي الظلال التي تلي الوادي (٤٢) و (٩٢) في الظلال التي تلي المسعىٰ، وثلاث أساطين من العدد كراسيها حمر وهي في الشق الذي يلي الوادي"[١].

فمن الملاحظ تشابه عدد الأساطين في المصادر التاريخية مما يجعلنا نميل إلىٰ أن ابن رسته في النص السابق اعتمد علىٰ كتاب الأزرقي في وصفه للأساطين الموجودة في المسجد الحرام، بل أن ابن رسته نقل ذلك الوصف حرفياً[٢]، وعلىٰ أي حال فكانت هذه الأساطين مذهبة ومنقوشة ومزخرفة ومعمولة بالرخام، ومطلية بالجص[٣].

الأبواب:

أما عن أبواب المسجد فقد ذكر ابن الفقيه "وعدد أبواب المسجد الحرام في الشق الشرقي خمسة أبواب وفي الغربي ستة أبواب وفي اليماني سبعة أبواب وفي الشق الشامي ستة أبواب"[٤].

أما ابن رسته فقد أجمعها بقوله "وفي المسجد الحرام من الأبواب ثلاثة وعشرون باباً"[٥]، ولكن ابن رسته أسهب في وصفها خلافاً لابن الفقيه الهمداني الذي حددها حسب الجهات الأصلية من المسجد الحرام.

فقد ذكر ابن رسته في وصف هذه الأبواب بقوله "فيها أربعون طاقاً – أي في الثلاثة والعشرون - منها في الشق الذي يلي المسعىٰ وهو الشرقي خمسة أبواب وهي أحد عشرة طاقة من ذلك الباب الأول وهو الباب الكبير الذي يقال له اليوم باب بني شيبة وهو باب بني عبد شمس بن عبد مناف وعلىٰ هذا الباب روشن ساج منقوش مزخرف بالذهب حيث لبَّسا رخاماً أبيض وأحمر، والباب الثاني طاق طوله عشر أذرع وعرضه سبع أذرع في موضع دار القوارير وهو باب دار القوارير. والباب الثالث طاق واحد طوله عشر أذرع وعرضه سبع أذرع وهو باب النبي ﷺ في زقاق العطارين – ويشرف علىٰ مسجد خديجة - والباب الرابع عليه روشن وساج

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٤٥، طبعة ليدن، ١٨٩١م.
(٢) لقراءة نص الأزرقي في وصفه للأساطين الموجودة في الحرم، انظر: أخبار مكة، للأزرقي، ٨٣/٢-٨٤.
(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٤٥-٤٦؛ الأزرقي: أخبار مكة، ٨٤/٢.
(٤) ابن الفقيه الهمداني: البلدان، ص٨١.
(٥) ابن رسته: الأعلاق، ص٤٨.

منقوش بالزخرف والذهب علىٰ طاقاته واسطوانتيه طوله ست وعشرون ذراعاً وعرضه ثلاث أذرع واثنتا عشرة إصبعاً وما بين جداري الباب إحدىٰ وعشرون ذراعاً ورخاماً مموهاً منقوشاً بالذهب وهو باب العباس بن عبد المطلب، أما الباب الخامس وهو باب سوق الليل وسعته ما بين جداري الباب إحدىٰ وعشرون ذراعاً وفيه اسطوانتان عليهما ثلاث طاقات وعارض الباب ملبس بصفائح رخام أبيض وأحمر وأخضر[1]. أما في الشق اليماني من المسجد الحرام فقد ذكر ابن رسته أن به "سبعة أبواب وسبع عشرة طاقاً، الباب الأول يبلغ طوله في السماء ثلاث عشر ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً وما بين جداري الباب أربع عشرة ذراعاً وثمان عشر أصبعاً ويقال له باب بني عائذ، والباب الثاني فيه اسطوانة عليها طاقان وهو باب بني سفيان بن عبد الأسد، والثالث من الأبواب وهو باب الصفا فيه أربع أساطين عليها خمسة طاقات منقوشة بالفسيفساء ويزعمون أن هذا الباب يقال له باب بني عدي ابن كعب، والباب الرابع فيه اسطوانة عليها طاقان طول كل طاق ثلاث عشر ذراعاً، ويقال له باب بني مخزوم، والباب الخامس فيه اسطوانة عليها طاقان طول كل طاق ثلاث عشرة ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً وهذا الباب أيضاً – يعتبر من أبواب بني مخزوم -، أما الباب السادس فيه اسطوانة عليها طاقان طول كل طاق في السماء ثلاث عشرة ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً ويقال لهذا الباب باب بني تميم بن مرة وكان بحذاء دار عبد الله بن جدعان ودار عبيد الله بن معمر بن عثمان فكانت تلك الدارين يقبلونها إلىٰ اليوم ولم يزل بأيديهم حتىٰ كانت سنة ٢٤٩هـ[2]. فاشتراها والي مكة محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم[3]، فصارت له ثم صارت لأبي القاسم بن بزداذ مولىٰ أمير المؤمنين.

أما الباب السابع والأخير من الشق اليماني فذكر ابن رسته أن فيه بقوله "فيه اسطوانة عليها طاقان طول كل طاق ثلاث عشرة ذراعاً واثنتا عشر أصبعاً وهذا الباب مما يلي دور بني عبد شمس وبني مخزوم كان يقال له باب أم هاني بنت أبي

---

(١) نفس المصدر السابق، ص٤٨-٤٩.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٥٠-٥١.

(٣) هناك خلاف فيما ولي مكة في سنة ٢٤٩هـ حيث ذكر الفاسي نقلاً عن المسعودي أن والي مكة في خلافة المستعين وابنه العباس، لأن المسعودي ذكر في أخبار سنة تسع وأربعين ومائتين، أن المستعين عقد لابنه العباس علىٰ مكة والمدينة والبصرة والكوفة وعزم علىٰ البيعة له، فأخرها لصغر سنه، غير أن الفاسي ذكر والياً آخر ربما يكون هو محمد بن سليمان حيث ذكر نصياً في شفاء الغرام "وولي مكة في خلافة المستعين أيضاً محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين" ولكن خالفه ابن الأثير حيث ذكر في أخبار سنة ثمان وأربعين أن المستعين عقد لمحمد بن عبد الله بن طاهر علىٰ العراق، وجعل إليه الحرمين والشرطة ومعادن السوداء وأفرده، انظر: الفاسي: شفاء الغرام، طبعة ١٤٠٥هـ، ٢٩٥/٢؛ المسعودي: مروج الذهب، القاهرة، ١٩٦٤م، ١٥٤/٤؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٦٥م، ١١٨/٧.

طالب وعلىٰ الأساطين التي علىٰ الأبواب كراسي مما يلي الوادي وباب بني سهم وباب بن جمح ساج منقوش بالزخرف والذهب[١].

وفي الشق الذي يلي باب جمح ستة أبواب وعشر طاقات الباب الأول وهو الذي يلي المنارة التي تلي أجياد الكبير فيه اسطوانة ويقال له باب حكيم بن حزام وبني الزبير بن العوام والغالب عليه اليوم باب الحزامية، والباب الثاني فيه اسطوانتان ويقال له باب الحناطين، والباب الثالث فيه اسطوانة عليها طاقات وهو باب بني جمح، والباب الرابع طاق طولهن في السماء عشرة أذرع وعرضه خمس أذرع ويقال له باب البختري بن هاشم الأسدي، والباب الخامس طاق طوله عشرة أذرع وعرضه أربع أذرع واثنتا عشرة أصبعاً، وهو الباب الذي يصعد منه إلىٰ دار زبيدة، والباب السادس والأخير من الشق الذي يلي باب جمح طاق طوله عشر أذرع وعرضه سبع أذرع واثنتا عشرة أصبعاً وهو باب بني سهم[٢].

وفي الشق الذي يلي دار الندوة وهو الشق الشامي ستة أبواب، الأول يلي المنارة التي تلي باب بني سهم، طاق طوله عشر أذرع وعرضه أربع أذرع وهو باب دار عمرو بن العاص، والباب الثاني قد سد موضعه بيِّن، والباب الثالث هو باب دار العجلة والباب الرابع وهو باب قعيقعان طاق طوله عشر أذرع وعرضه سبع أذرع وست أصابع ويقال له باب حجير بن أبي طالب، والباب الخامس وهو باب دار الندوة، والباب السادس طوله تسع أذرع وعرضه خمس أذرع ويقال له باب دار شيبة بن عثمان يصعد بها إلىٰ دار الإمارة[٣].

هذا بالنسبة لما وصف ابن الفقيه الهمذاني وابن رسته خلال القرن الثالث الهجري أما في القرن الرابع الهجري فنلاحظ أن من الرحالة المشارقة قاموا بوصف المسجد الحرام ولكن بشيء من الاختصار أمثال المقدسي البشاري الذي تناول الحديث عن أبواب المسجد الحرام فقال [٤]" وله تسعة عشر باباً: باب بني شيبة، وباب النبيﷺ، وباب بني هاشم، وباب الزياتين، وباب البزارين، وباب الدقاقين[٥]، وباب بني مخزوم، وباب الصفاء، وباب زقاق الشطوي، وباب التمارين، وباب دار الوزير، وباب جياد، وباب الحزورة، وباب إبراهيم، وباب بني سهم، وباب بني جمح، وباب العجلة، وباب

---

(١) ابن رسته: الأعلاق، ص٥١.
(٢) نفس المصدر السابق، ص٥١-٥٢.
(٣) ابن رسته: الأعلاق، ص٥٣.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق: محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٧٦.
(٥) قال ابن منظور: الدق كل شيء دق وصغر، والدقيق: الطحين، وأهل مكة يسمون توابل القدر كلها دقة، والدقة: التوابل وما خلط بها من الأبزار، انظر: لسان العرب، طبعة دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٢/٣، فقد أراد المقدسي بذلك باعة التوابل وما شابهها، خصوصاً وقد كانت هذه السلع منتشرة بكثرة في مكة آنذاك.

الندوة، وباب البشارة".

فمن الملاحظ من نص المقدسي في بعض الأبواب التي ذكرها أن هناك دلالة واضحة في وجود أسواق لأن بعض الأبواب من أسمائها توحي أنها تطل علىٰ سوق مثلاً من خلال النص السابق باب التمارين والدقاقين والشطوي[١] إلىٰ آخره. أيضاً كما يلاحظ فإن المقدسي اقتصر علىٰ ذلك عدد أبواب المسجد وقد اتضح بعد تتبع ما جاء عنها في عدد من المصادر أن المقدسي بدأ بسرد أسمائها مبتدئاً من الجهة الشرقية، متجهاً من الشمال إلىٰ الجنوب وكان مما رآه في هذا الجانب خمسة أبواب هي باب بني شيبة، وباب النبي ﷺ ، وباب بني هاشم، وباب الزياتين، وباب البزازين، ثم أعقب ذلك بأبواب الشق الجنوبي من المسجد مبتدئاً من الشرق ومنتهياً بالغرب[٢]، وفيه أورد سبعة أبواب هي: باب الدقاقين، باب بني مخزوم، وباب الصفا، وباب زقاق الشطوي، وباب التمارين،وباب دار الوزير، وباب أجياد، وانتقل بعد ذلك إلىٰ الجانب الغربي من المسجد فذكر الأبواب الموجودة فيه من الجنوب إلى الشمال وعددها ثلاثة أبواب وهي: باب الحزورة، وباب إبراهيم، وباب بني سهم، ثم ختم كلامه بأبواب الشق الشمالي من المسجد وذكر منها أربعة أبواب وهي من الغرب إلىٰ الشرق باب بني جمح، وباب العجلة،وباب الندوة، وباب البشارة[٣].

ولقد تبين في بعض المصادر علىٰ ما جاء حول هذا الجانب إبان العصور الإسلامية المختلفة نلحظ تبايناً واضحاً في أسماء أبواب المسجد الحرام وعددها، ويبدو أن ذلك قد تحكمت فيه اجتهادات المؤلفين، سيما في تسمية الأبواب غير المشهورة[٤]. كما أن إدراج بعض الأبواب اللافظة علىٰ البيوت المجاورة للحرم مباشرة ضمن أبواب الحرم في بعض المصنفات واقتصارها عند آخرين علىٰ ما يفتح علىٰ أزقة أو أسواق قد أدىٰ إلىٰ التفاوت الواضح في تعدادها بين المصادر[٥].

ونلاحظ أن المقدسي قد اجتهد كثيراً في تسمية بعض الأبواب وذلك حسب ما رآه منتشراً من باعة وأسواق وبضائع لفتت انتباهه حول هذه الأبواب سيما في الجانبين

---

(١) هي الثياب التي تجلب إلىٰ الحجاز من مدينة شطا في مصر والتي كان لها سوق خاص بمكة. انظر: المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦ – ٩٨.

(٢) عبد العزيز راشد السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٩.

(٣) عبد العزيز السنيدي: المرجع السابق، ص٦٠.

(٤) فمن جاء بعد رحالة القرنين الثالث والرابع الهجريين أمثال ابن جبير الذي قال موضحاً ذلك بعد أن ذكر أبواب المسجد الحرام: "والروايات فيها تختلف لكنا اجتهدنا في إثبات الأقرب من أسمائها إلىٰ الصحة، والله المستعان لا رب سواه" انظر: الرحلة (تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار)، بيروت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٨٣.

(٥) وعن عدد أبواب المسجد الحرام وأسمائها والاختلاف في ذلك؛ انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، دار دار الثقافة، ١٤٠٣هـ ٨٧/٢-٩٥؛ الفاكهي: أخبار مكة، ط١، ١٤٠٧هـ، ١٨٨/٢-١٩٨.

الشرقي والجنوبي[(١)]، وما أملاه عليه حسه التجاري الذي غير به، فأطلق عليها أسماء الباعة أو مبيعاتهم دون أن يرجع لمن سبقه ممن تحدثوا عن ذلك في كتبهم[(٢)]. ولهذا فإننا نرىٰ أن مسميات المقدسي لهذه الأبواب والتي ترتبط كما يلاحظ بالتغيرات الزمانية والمكانية كانت سبباً في عدم استمرار هذه المسميات التي أطلقها، أو ذكرها في المصادر التي تناولها سواء قبل المقدسي أو بعده[(٣)].

ومن جانب آخر فإن المقدسي ومن خلال تعداده لأبواب المسجد الحرام قد راعىٰ فيما يبدو الأفضلية خلاف ما ذكره بعض الرحالة[(٤)]، فبدأ بذكر باب بني شيبة لأن المستحب للمعتمر والحاج الدخول للمسجد الحرام من هذا الباب[(٥)] وهذا فيه خلاف خلاف عند بعض المشائخ والفقهاء.

جدار المسجد:

أما جدار المسجد الحرام فقد أتحفنا الرحالة المشارقة بمعلومات دقيقة وقيمة عن جدار المسجد الحرام فقد ذكره ابن الفقيه الهمذاني بقوله عن جدار المسجد الحرام "والأساس اليوم معمول بالحجارة[(٦)] والجدران بالحجارة المطابقة وعمد المسجد من حجارة وحشوها عمد الحديد والرصاص وكان طوله مائتي ذراع وعرضه مائتي ذراع وهو معنق ومعنق سقف دون سقف والمحراب والمقصورة من ساج"[(٧)].

ويتضح من النص السابق أن جدار المسجد الحرام كان من الحجارة المصفوفة وكانت الأعمدة ملتصقة أو مثبتة هذه الحجارة وكانت معمولة من الحديد والرصاص ومرتفعة في السماء والمحراب والمقصورة معمولة من الساج.

أما ابن رسته فقد ذكر تفصيلاً عن جدار المسجد الحرام أكثر من جميع الجهات التي تحيط بالمسجد الحرام. حيث ذكر[(٨)] "وذرع جدار المسجد الحرام الذي يلي

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٨٧/٢-٩٥؛ الفاكهي: أخبار مكة، ١٨٨/٢-١٩٨.
(٣) عبد العزيز السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٦١.
(٤) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٨١؛ ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٤٨.
(٥) يقول ابن جبير: "وكل وافد إلىٰ مكة شرفها الله يدخلها بعمرة فيستحب له الدخول علىٰ باب بني شيبة"، انظر: الرحلة، ص٨٣؛ وهو المعروف الآن بباب السلام، الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، ٣٨١/١.
(٦) هناك نص يكتنفه الغموض حول أن حجارة البيت من قعيقعان هذا ما ذكره ابن حوقل عندما قال أن أن حجارة البيت من قعيقعان فيقصد بذلك جدران المسجد الحرام أم جدارات الكعبة الشريفة، انظر: ابن حوقل: صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ص٣٥-٣٦.
(٧) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٨١.
(٨) ابن رسته: الأعلاق، ص٥٣.

المسعىٰ وهو الشرقي ثمان عشرة ذراعاً وطول الجدار الذي يلي الوادي وهو في الشق اليماني اثنتان وعشرون ذراعاً وطول الجدار الذي يلي باب بني جمح وهو الغربي اثنتان وعشرون ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً وطول الجدار الذي يلي دار الندوة وهو الشق الشامي سبع عشرة ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً".

هذا ما ذكره ابن رسته عن جدار المسجد الحرام من مقاييس فكان وصفه مطابقاً لوصف الأزرقي(١) الذي زاد في وصف المسجد الحرام من جداراته من الخارج، حيث ذكر بقوله "وفي جدران المسجد من خارج روازن منقوشة بالجص وطاقات نافذة إلىٰ المسجد ووجهها منقوش بالجص، وعلىٰ طاقات شباك حديد ووجوه طاقات الأبواب ووجوه الشرف منقوش بالجص، وسيل سطح المسجد من الشق الذي يلي المسعىٰ والشق الذي يلي دار الندوة، يجري سيله في سربين محفورين علىٰ جدران المسجد ثم يسيل في اسطوانة مبنية علىٰ باب بني شيبة الكبير ثم يصير إلىٰ سقاية مدبولة علىٰ باب المسجد بين يدي دار القوارير عليها شباك وباب يغلق، وسيل شق الوادي وشق بني جمح، ويسيل في سرب قد جعل في الجدار، كان يسيل في سقاية عند الخياطين، مدبولة كانت الخيزران أم الخليفتين موسىٰ وهارون قد حفرتها هناك في موضع الرحبة التي استقطعها جعفر بن يحيىٰ، فبنىٰ فيها الدار التي علىٰ البقالين والخياطين، ثم صارت بعد لزبيدة، فلما بنيت هذه الدار صرف سيل المسجد، فصار يجري في سرب عظيم وهو ميزاب من ساج يسكب علىٰ البير التي علىٰ باب البقالين التي حفرها المهدي عوضاً من بئر قصي بن كلاب التي يقال لها: العجول، دخلت في المسجد الحرام حين وسعه المهدي"(٢).

وهذه مقارنة بين نص ابن رسته ونص الأزرقي حول جدران المسجد الحرام خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين حيث أسهب الأزرقي في ذكره بجدران المسجد الحرام مبيِّن كيفية عمله، وأسطح المسجد الحرام وفيما من سرابيب واتجاهات هذه السرابيب وأين تسيل، أما من ناحية العمد أو الأعمدة الصفر بالمسجد الحرام فقد قال الأزرقي "أخبرني الثقة أن هذه الأعمدة الصفر كانت في قصر بابك الخرمي بناحية أرمينية كانت في صحن داره يستصبح فيها فلما خذله الله وقتل بابك وأتي برأسه إلىٰ سامراء وطيف به في البلدان وكان قد قتل خلقاً عظيماً من المسلمين وأراح الله منه، هدمت داره وأخذت هذه الأعمدة التي حول البيت الحرام في الصف الأول، ومنها في دار الخلافة أربعة أعمدة وبعث بهذه الأعمدة المعتصم بالله أمير المؤمنين في سنة مائتين ونيف وثلاثين، فهذا خبر الأعمدة الصفر التي حول الكعبة وهي عشرة أساطين وكانت أربع عشرة اسطوانة فأربع في دار الخلافة بسامراء"(٣).

وذكر رحالة آخر غير رحالة القرنين الثالث والرابع الهجريين أي في القرن

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ، ٩٦/٢.
(٢) الأزرقي: المصدر السابق، ٩٦/٢.
(٣) نفس المصدر السابق، ط٤، دار الثقافة، مكة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢٨٦/١.

الخامس[١] "أنه يحيط بالكعبة من جميع جهاتها أساطين ويربط كل عمودين غطاء خشبي في الأعلىٰ مزين بنقوش وتهاويل كثيرة ويتدلىٰ من ذلك الغطاء سلاسل وحلقات يعلق عليها الشمع والمصابيح ليلاً وتسمىٰ بسكة المشاعل، والمسافة بين هذه المشاعل والكعبة نحواً من مائة وعشرين شبراً، وهي موضوعه بحيث لا تعيق الطائفين بالبيت".

وهذا النص قريب من أقوال الرحالة المشارقة في القرن الرابع الهجري وبخاصة من أقوال وأوصاف المقدسي الذي يعتبر آخر رحالة القرن الرابع الهجري الذي وصف المسجد الحرام من جميع النواحي. فنلاحظ أن بداخل جدارات المسجد الحرام المطاف أي بمعنىٰ آخر – أرضه وإنارته – فقد أتحفنا المقدسي بمعلومات دقيقة وقيمة عن المطاف حول الكعبة فذكر لنا أن مكان الطواف مفروش بالرمل، أما بقية أرضية المسجد الحرام فهي مغطاة بالحصى[٢]، ويقول "وقد فرش الطواف بالرمل، والمسجد بالحصى"[٣]، كما شرح طريقة إنارة المطاف فقال[٤] "وقد أحاط بالطواف أميال من الصفر وخشبات فيها قناديل معلقة ويجعل فوقها الشمع لملوك مصر واليمن والشار صاحب غرجستان"، كما أشار إلىٰ أن هذه القناديل كانت تعلق بالسلاسل فقال – وهو يتحدث عن بعض العادات السائدة في بلاد الشام[٥]: "ورسومهم أنهم يقدون القناديل في مساجدهم علىٰ الدوام يعلقونها بالسلاسل مثل مكة"، وقد وضح المقدسي من خلال ذلك كيفية إنارة المطاف، بعد أن بين أن هناك أعمدة أطلق عليها اسم الأميال، مصنوعة من حديد الصفر، وتصل بينها أخشاب تعلق فيها القناديل بالسلاسل، وفي هذه القناديل كانت توضع الشموع[٦].

زمزم:

أما عن قبة زمزم وقبة الشراب، فقد ذكر بعض الرحالة أن قبة زمزم وقبة

---

(١) خسرو، ناصر علوي خسرو القبادياني: سفر نامه (رحلة ناصر خسرو القبادياني) ترجمة: أحمد خالد البدلي، ط١، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٥٢.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٣) جاء في كتاب الاستبصار ما نصه: "وأرض المسجد الحرام ومكة في قوام السميد"، انظر: مؤلف مجهول: كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد [د.ت]، ص٢٩؛ أما ابن جبير فقال: "وموضع الطواف مفروش بحجارة مبسوطة كأنه الرخام حسناً، منها سود وسمر وبيض قد ألصق بعضها إلىٰ بعض، واتسعت عن البيت بمقدار تسع خُطا إلا في الجهة التي تقابل المقام، فإنها امتدت إليه حتىٰ أحاطت به، وسائر الحرم مع البلاطات كلها مفروش برمل أبيض" انظر: رحلة ابن جبير، ص٦٣.

(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

(٥) نفس المصدر السابق، ص١٥٦.

(٦) الأزرقي: أخبار مكة، الطبعة الرابعة، ٢٨٦/١.

الشراب بينهما المطاف حيث قال الرحالة المشارقة: "وأرض البيت مرتفعة عن الأرض مع الباب، والباب بحذاء قبة زمزم والمقام بقرب زمزم علىٰ خط محاذي للباب"[١].

وذكر المقدسي بجانب ابن حوقل والأصطخري – وهو يتحدث عن ما رآه داخل المسجد الحرام – ذكر بئر زمزم فقال عنها[٢]: "وقبة زمزم تقابل الباب بينهما" وقد يتضح من خلال ما أورده الرحالة في النصين السابقين أن موقع بئر زمزم مقابل الكعبة ولكن لم يذكروا بُعدها عنه، كما أشاروا إلىٰ أن عليه قبة دون أن يصفوا لنا حال زمزم في وقته وما عليها من بنايات أخرىٰ، وغور مائها وأطوالها أو حتىٰ كيفية وضع هذه القبة العمرانية ورغم إشارة المقدسي إلىٰ أن الطواف يقع فيما بين بئر زمزم والكعبة وكذلك ابن حوقل والأصطخري ولكنهم لم يذكروا المسافة بينهما[٣].

فقد ذكرت بعض المصادر التاريخية [٤] في القرن الرابع الهجري التي وصفت بئر زمزم بأن "غور بئر زمزم من أعلاها إلىٰ قاعها اثنان وسبعون ذراعاً، من وجه الماء إلىٰ أعلىٰ البئر أربعة وثلاثون ذراعاً ومن وجه الماء إلىٰ قاع البئر ثمانية وثلاثون ذراعاً، لا يزيد ولا ينقص.. ودور سعة البئر ثمانية عشر ذراعاً وذرع ضوئها ستة أذرع وعليها قبة مربعة علىٰ ست عشر سارية منقوشة كلها، وأربعة أركان مغلقة كلها بشراجب الحديد، وترجع إلىٰ بُويب لطيف من ناحية سقاية زبيدة، قاعها مبسوط بالرخام، وسقفها مكنَّس منقش من داخله في الساج معمول من خارجه بالفسيفساء من أعلاه قبيبة سُوسنة من نحاس يوقد علىٰ جميعها الشمع ليلة الختمة، وقبة زمزم هذه تقابل من الكعبة الملتزم، ما بين الركن الأسود وباب الكعبة ويخرج ركن القبة عن ركن الكعبة"[٥].

فيما أشارت بعض المصادر[٦] إلىٰ موقع زمزم "وزمزم بشرقي الركن الأسود بينهما مثلا الثلاثين ذراعاً، وهي بئر واسعة، تُنورها من حجر مطوق أعلاه بالخشب وسقفها قبو مزخرف بالفسيفساء علىٰ أربعة أركان تحت كل ركن منها عمودان من رخام متلاصقان وقد سدَّ ما بين كل ركنين منهما بشرجب خشب ورده إلىٰ باب من جهة المشرق، وحول القبو كله مثل البرطلة".

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، دار القلم، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، تحقيق: محمد شفيق غربال، ص٢١-٢٢؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٥-٣٦.
(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٥.
(٣) التلمساني، محمد بن أبي بكر: وصف مكة ووصف المدينة وبيت المقدس، تحقيق: حمد الجاسر، مجلة العرب، السنة الثامنة، المجلد الأول، ص٣٤٣.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٣٤٣- ٣٤٤.
(٥) التلمساني: وصف مكة ووصف المدينة، ص٣٤٤- ٣٤٥.
(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٨٦/٧.

ومن ناحية أخرىٰ أشار بعض الرحالة المشارقة [1] إلىٰ موقع آخر مجاور لزمزم مشابه لها وهو قبة الشراب – المعروفة بسقاية العباس وصفة زمزم أيضاً [2] -. فقال بعد أن ذكر قبة زمزم [3]: "ومن ورائها قبة الشراب فيها حوض كان يسقىٰ فيه السويق والسكر في القديم" وبهذا فإن نفس الرحالة قد أكد من خلال ذلك أن بيت الشراب يقع خلف زمزم، وأن عليه بناء تغطيه قبة، وفيه بقايا حوض السقاية الحجاج، كما أفادنا من خلال حديثه السابق أيضاً أن هذه السقاية كانت متوقفة في العهد الذي زار فيه مكة وهو في الوقت ذاته يؤكد وبطريق غير مباشر أن بيت الشراب كان يستعمل خلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري وهي فترة تواجده في مكة كمخزن لحفظ أوقاف الحرم، وإن لم يصرح بذلك وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية[4].

وأكد استمراره حتىٰ أواخر القرن السادس الهجري بعض الرحالة في ذلك القرن بقوله [5]" وتلي قبة زمزم من ورائها قبة الشراب وهي المنسوبة للعباس ﵁ ، وتلي هذه القبة العباسية علىٰ انحراف عنها قبة تنسب لليهودية، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار شمع وغير ذلك، والقبة العباسية لم تخل من نسبتها الشرابية لأنها كانت سقاية الحجاج، وهي حتىٰ الآن يبرد فيها ماء زمزم.

من جانب آخر فإن رحالة القرن الرابع الهجري [6] لم يتطرقوا إلىٰ بيت اليهودية واقتصارهم علىٰ ذكر قبة زمزم وقبة الشراب فقط كأبرز بنايتين داخل المسجد ليؤكد أن هذا البيت كان خرباً آنذاك، وهذا ما حدث به بعض المصادر التاريخية[7] التي التي أشارت إلىٰ أنه ليس في المسجد غير ذلك إلا أثر قبة اليهودية وهو دور من رخام أسود بإزاء قبة الشراب ارتفاع من الأرض قدر البئر.

ويبدو أن بناءها قد أعيد فيما بعد حيث أنها كانت ضمن مخازن أوقاف الحرم عندما زارها بعض الرحالة المتأخرين[8].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٤-٧٥.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، ١٤٠٣هـ، دار الثقافة، مكة، ١٠٤/٢- ١٠٦؛ الفاكهي: أخبار مكة، ط١، تحقيق: بن دهيش، ٨٣/٢-٨٥.
(٣) المقدسي: نفس المصدر السابق، ص٧٥.
(٤) التلمساني: المصدر السابق، ص٣٤٣.
(٥) ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي: رحلة ابن جبير، ١٣٩٩هـ، ص٦٦.
(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥-٣٦؛ الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢٢؛ المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.
(٧) التلمساني: وصف مكة ووصف المدينة، ص٣٤٤- ٣٤٥.
(٨) ابن جبير: الرحلة، ص ٦٦-٦٧.

مقام إبراهيم:

ومن أهم المعالم المعمارية التي كانت وما زالت موجودة إلىٰ عصرنا الحالي "مقام إبراهيم".

ولقد أتحفنا بعض الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع بمعلومات في غاية الدقة والأهمية عن مقام إبراهيم عليه السلام الموجود بصحن المسجد الحرام حالياً. فقد ذكر ابن رسته الذي أسهب بمعلومات مهمة عن عمارة المسجد الحرام حيث قال[1]:"عندما حدث عن سعيد بن جبير[2] أنه قال كان المقام في وجه الكعبة وإنما قام عليه إبراهيم حين ارتفع البنيان فأراد أن يشرف علىٰ البناء فلما كثر الناس خشي عمر بن الخطاب عليه أن يطؤه بأقدامهم فأخرجه إلىٰ موضعه هذا الذي هو به اليوم".

وذكر أيضاً الأصطخري أن موضع المقام بالقرب من زمزم حيث قال: "والمقام بقرب زمزم علىٰ خط محاذي للباب".

فمن الملاحظ أن وصف الرحالة المشارقة من خلال النصين السابقين يكتنفه بعض الغموض من الناحية الوصفية ولكن نجد أن المصادر التي تتحدث عن البيت العتيق تصف المقام وصفاً أكثر وضوحاً من الرحالة حيث ذكرت بعض المصادر أن مسافة المقام[3] "وذرع ما بين الركن الأسود إلىٰ المقام تسعة وعشرون ذراعاً وتسعة أصابع، وذرع ما بين جدار الكعبة من وسطها إلىٰ المقام سبع وعشرون ذراعاً، وذرع ما بين شاذروان[4] الكعبة إلىٰ المقام ست وعشرون ذراعاً ونصف، ومن الركن الشامي الشامي إلىٰ المقام ثمانية وعشرون ذراعاً وسبع عشرة أصبعاً، ثم قال: ومن المقام إلىٰ صِرف بئر زمزم أربع وعشرون ذراعاً وعشرون إصبعاً[5].

ونجد أن رحالة آخر توسع قليلاً في الحديث عن المقام، فأتحفنا خلال ذلك

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، طبعة ليدن، ١٨٩١م، ص ٥٤.

(٢) هو ابن هشام الحافظ المقري، المفسر، الشهيد، أبو عمر ويقال أبو عبد الله الأسدي الوالبي، مولاهم، مولاهم، الكوفي أحد الأعلام روي عن ابن عباس، وكان من كبار العلماء وكان جهبذ العلماء، انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط١، ١٤٢٥هـ، ٤/٤٩٥.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، طبعة دار الأندلس، بيروت، ١٤٠٣هـ، ٢/٨٥. الفاسي: شفاء الغرام، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ، ١/٣٣١.

(٤) الشاذروان: شاذروان الكعبة، بناء لطيف جداً ملصق بحائط الكعبة وارتفاعه عن الأرض في بعض بعض المواضع نحو شبرين وفي بعضها نحو شبر ونصف وعرضها في بعضها نحو شبر ونصف وفي بعضها شبرين ونصف، انظر: النووي، يحيىٰ بن شرف: تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت [د.ت]، ٣/١٧١-١٧٢. وقال الفاسي: أما شاذروان الكعبة فهو الأحجار الملاصقة بالكعبة التي عليها البناء المسنم المرخّم في جوانبها الثلاثة الشرقي والغربي واليماني وبعض حجارة الجانب الشرقي لا بناء عليه، وهو شاذروان أيضاً، أما الحجارة الملاصقة بجدار الكعبة الذي يلي الحجر فليست شاذرواناً، لأن موضعها بالكعبة بلا ريب،= =والشاذروان هو ما نقصته قريش من عرض جدار أساس الكعبة حتىٰ ظهر علىٰ الأرض كما هو عادة الناس في الأبنية: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، ١/١٨٣.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، ١/٣٣١.

بمعلومات غاية في الأهمية حيث قال[(١)]: "والمقام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلىٰ البيت من زمزم يدخل في الطواف أيام الموسم" وبهذا النص بيَّن لنا الرحالة موضع المقام بالنسبة للبيت الحرام، ووضح أنه أقرب إليه من بئر زمزم، كما أشار إلىٰ وجوده ضمن نطاق المطاف، ومع تكاثر الناس أيام الحج وازديادهم يطوف بعض الناس من ورائه.

ثم وصف لنا الوضع الذي رأىٰ عليه المقام ولونه وحجمه فقال[(٢)]: "ويكب عليه صندوق حديد عظيم راسخ في الأرض طوله أكثر من قامة، وله كسوة، ويرفع المقام في كل موسم إلىٰ البيت فإذا رد جعل عليه صندوق خشب له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلم الإمام استلمه ثم أغلق الباب وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام، مخالفة، وهو أسود وأكبر من الحجر".

ويفهم من هذا النص السابق، رغم عدم إسهابه في بعض الجوانب بمعلومات ثرية وغنية عن بعض الجوانب والتنظيمات المتعلقة بالمقام آنذاك فوضح أن هناك صندوقين خصصا لتغطيته حسب الظروف والمناسبات إحداهما مصنوع من الحديد والآخر من الخشب[(٣)]، كما أشار إلىٰ أن المقام مرفوع عن مستوىٰ الأرض بما يعادل قامة إنسان، وبين أنه رأىٰ علىٰ المقام كسوة[(٤)]، إضافة إلىٰ ذلك فقد وضح الرحالة أن المقام غير ثابت في مكانه طوال السنة.

حيث ذكر أنه يُنقل إلىٰ داخل البيت الحرام في المواسم، فضلاً عن ذلك أكد أن لصندوقه الخشبي باب يفتح للإمام عند أداء الصلاة، فإذا انتهىٰ الإمام من أداء الفرض استلمه ثم يغلق هذا الباب بعد ذلك[(٥)] وقد رأىٰ الرحالة داخل الصندوق أثر قدم إبراهيم عليه السلام بشكل متخالف[(٦)] أما عن لون حجر المقام وحجمه فقد قارنهما بالحجر الأسود، وأكد من خلال ذلك أنه أسود منه في اللون وأكبر في الحجم[(٧)].

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٦.

(٢) نفس المصدر السابق، ص٧٦.

(٣) ذكر ابن جبير أن صندوق الحديد يوضع علىٰ المقام أثناء الموسم ليتحمل الزحام أما في الأيام العادية فيوضع عليه صندوق من خشب، انظر: الرحالة، ص ٦٣.

(٤) لقد ذكر المقدسي هذه الكسوة التي توضع علىٰ المقام، لم أجد فيما يتوفر لدي من مصادر تشير إلىٰ هذه الكسوة، ولكن باسلامه ذكر أن في عهد العثمانيين كانوا يكسون المقام مثل كسوتهم الكعبة، تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٦٢.

(٥) ذكر ابن جبير أن ذلك كان معمول به وسائداً أثناء زيارة مكة في أواخر القرن السادس الهجري: انظر: الرحلة، ص١٠٩.

(٦) لم تذكر المصادر التاريخية التي كتبت عن مكة أمثال الأزرقي والفاكهي والفاسي شيئاً من ذلك (أن (أن أثر القدمين متخالف).

(٧) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، دار الثقافة، مكة، ٣٩/٢؛ الفاكهي: أخبار مكة، ط١، تحقيق: عبد الملك بن بن دهيش، ٤٨١/١-٤٨٣؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٨٥/٧-٢٨٦.

المسعى:

أما المسعىٰ (الصفاء والمروة) فقد ذكر لنا الرحالة المشارقة معلومات في غاية الأهمية عن المسعىٰ حيث ذكر الأصطخري في كتابه أوصاف المسعىٰ بقوله [١]:

"والصفاء مكان مرتفع من جبل أبي قبيس[٢] وبينها وبين المسجد الحرام عرض الوادي الذي هو طريق وسوق، ومن وقف علىٰ الصفا كان بحذاء الحجر الأسود، والمسعىٰ ما بين الصفا والمروة، والمروة حجر من جبل قعيقعان[٣]، ومن وقف عليها كان بحذاء الركن العراقي إلا أن الأبنية قد سترت ذلك الركن عن الرؤية وأبو قبيس هو الجبل المشرف علىٰ الكعبة من شرقها، وقعيقعان هو الجبل الذي من غربي الكعبة وأبو قبيس أعلىٰ وأكبر منه ويقال أن حجارة البيت من قعيقعان".

من خلال النص السابق تتضح معالم المسعىٰ وهو ما بين الصفاء والمروة وما بين جبل أبي قبيس وجبل قعيقعان وأوضح أن ما بين الصفاء والمروة مكان مرتفع عن أرض المسجد الحرام "المطاف" وأن المسعىٰ كان محاطاً بسوق وأبنية لأهل مكة التي كانت تغطي الركن العراقي عن الرؤية، والجدير بالذكر أن قعيقعان قد ذكر أنه في الأخشبين[٤].

وكان مما تحدث عن المسعىٰ من الرحالة المقدسي، فقال[٥]: "ويقع المسعىٰ بين بين الصفاء والمروة في السوق الشرقي، والعدو من قرنة المسجد إلىٰ باب بني هاشم وثم أميال خضر" وقد بيَّن من خلال ذلك أن الساعي بين الصفاء والمروة لابد أن

---

(١) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢١-٢٢.

(٢) أبو قبيس: هو الجبل المشرف علىٰ الكعبة المشرفة من مطلع الشمس وكان يزحم السيل فيدفعه إلىٰ المسجد الحرام فنحت منه الكثير وشق بينه وبين المسجد الحرام طريق للسيل وطريقاً للسيارات، وهو مكسو بالبنيان، وفي رأسه مسجد صغير يسمىٰ مسجد بلال وليس منسوباً إلىٰ بلال الصحابي رضي الله عنه، إنما هو اسم علىٰ = =اسم، وعلىٰ أبي قبيس الطرفة القائلة: الواقف علىٰ أبي قبيس يرىٰ الطائف! فيتبادر للذهن أن المقصود مدينة الطائف بالكعبة، انظر: عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، ط٢، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، دار مكة للنشر، مكة المكرمة، ٨٩/٧.

(٣) هو الجبل الضخم المشرف علىٰ المسجد الحرام من الشمال والشمال الغربي، ممتداً بين ثنيتي كداء، كداء، وكدي، مشرفاً علىٰ وادي طوىٰ غرباً، ولا يعرف اليوم اسم قعيقعان، ويسمىٰ بأسماء كثيرة، طرفة الشمالي الغربي يسمىٰ جبل العبادي والشرقي المشرف علىٰ ثنية كداء ومقبرة المعلاة يسمىٰ جبل السليمانية أما الجزء الأكبر منه في الجنوب فيسمىٰ جبل هندي، وشرقه المتصل بريع الفلق إلىٰ جوفه غيلم ، فيسمىٰ جبل الفلق، ويسمىٰ طرفه المشرف علىٰ حارة الباب (جبل المطابخ) وطرفة المشرف علىٰ ثنية كدي (ربع الرسام) يسمىٰ قرناً، وسمعت أيضاً أن طرفة الغربي مما يلي بئر طوىٰ يسمىٰ جبل السودان، ومنه أيضاً جبل فلفلة، وجبل النقا، وجبل القرارة، كلها أحياء من مكة، وسمي بذلك لأن قطوراء وجرهم لما تحاربوا قعقعت الأسلحة فيه، انظر: عاتق البلادي: المرجع السابق، ١٤٦/٧.

(٤) عاتق البلادي: المرجع السابق: ١٤٦/٧.

(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

يجتاز السوق الشرقي المجاور للمسجد الحرام، كما أشار إلىٰ مواقع الأميال التي يرمل فيما بينها الحاج والمعتمر أثناء سعيه، فذكر أنها فيما بين زاوية المسجد الجنوبية الشرقية حتىٰ باب بني هاشم، ووضح أن هذه الأميال قد طليت باللون الأخضر[١]. وقد عبر عنه الآن بالضوء الأخضر في جانبي المسعىٰ.

وقد أوضح المقدسي ما يقتضي التصاق الصفاء بجبل أبي قبيس وذلك عندما أشار إلىٰ إطلالة هذا الجبل علىٰ المسجد الحرام، ووجود درج في الصفا يصعد منها إليه، فقال[٢]: "وأبو قبيس مطل علىٰ المسجد يصعد غليه من الصفا علىٰ درج". والواقع أن الصفا جزء من جبل أبي قبيس، كما أن المروة امتداد إلىٰ جبل قعيقعان.

ومما يؤكد ذلك أن بعض المصادر التاريخية ذكرت أن الصفاء حجر أزرق عظيم قد كسي بالدرج ومن عليها يصعد إلىٰ أبي قبيس، عدد درجها ثلاثون درجة إلىٰ موضع الوقوف منها ثماني عشرة درجة[٣].

عمارة الكعبة المشرفة:

لقد وصف الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع من الهجرة، الكعبة المشرفة فمنهم من وصفها بشكل مقتضب فلم يدخل في التفاصيل الجزئية لمكوناتها أو يتطرق إلىٰ وصفها من الداخل أمثال الأصطخري وابن حوقل والمقدسي ومنهم من أعطا وصفاً دقيقاً وكاملاً عن الكعبة المشرفة من الداخل والخارج أمثال ابن رسته الذي أسهب في وصفها.

فقد ذكر ابن رسته وصفها من الداخل وقال[٤]: "ذرع طول الكعبة في السماء من داخل إلىٰ السقف الأسفل فيما يلي باب الكعبة ثماني عشرة ذراعاً واثنتا عشرة أصبعاً وذرع طول الكعبة إلىٰ السقف الأعلىٰ عشرون ذراعاً وفي سقفي الكعبة أربع روازن نافذة من السقف الأعلىٰ إلىٰ السقف الأسفل للضوء وعلىٰ الروازن رخام. وصفه هذه الروازن التي في سقف البيت أربع روازن منها روزنة حيال الركن الغربي والثانية حيال الركن اليماني والثالثة حيال الركن الأسود والرابعة حيال الاسطوانة الوسطىٰ وهي التي تلي الجدار الذي بين الركن الأسود والركن اليماني والروازن مربعة في أعلاها رخام يماني يدخل منه الضوء إلىٰ بطن الكعبة[٥].

وذكر ابن رسته أن بداخل الكعبة إزار، بقوله: "وبطن الكعبة مؤزر مداره من داخلها برخام أبيض وأحمر وأخضر وألواح ملبسة ذهباً وفضة وهما إزاران، إزار

---

(١) المصدر السابق: ص٧٦.
(٢) المصدر السابق، ص٧٦.
(٣) التلمساني: وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ص ٣٤٥.
(٤) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٣٠-٣١.
(٥) نفس المصدر السابق: ص٣٢.

أسفل فيه ثمانية وثلاثون لوحاً طول كل لوح ذراعاً وثماني أصابع"[١].

أما ابن حوقل والأصطخري فقد وصفوا البيت من الخارج حيث ذكر الأصطخري أن أرض البيت مرتفعة نحو قامه وهو مصراع واحد وأرض البيت مرتفعة عن الأرض مع الباب والباب بحذاء قبة زمزم والمقام بقرب زمزم علىٰ خط محاذي للباب[٢].

أما ابن حوقل فكان وصفه قريب من وصف الأصطخري حيث قال: "وباب الكعبة مرتفع من الأرض نحو قامة تجاه الشرق وهو مصراعان، وأرض البيت مرتفعة عن الأرض مع الباب ويحاذيه قبة زمزم ومقام إبراهيم عليه السلام بقرب من زمزم بخطوات"[٣]. هذا بالنسبة لوصف ابن حوقل والأصطخري فكانا وصفهما من الخارج وما كان يحيط بالكعبة من المقام وقبة زمزم وحتىٰ ارتفاع البيت مع باب الكعبة وصفوه في ارتفاعه بارتفاع قامة، ومما ذكره ابن حوقل عند مشاهدته فيما حول الكعبة المشرفة حيث قال: "والطواف يحيط به والبيت، وأحد الركنين الذي يحاد الحجر يعرف بالعراقي والآخر بالشامي والركنان الآخران أحدهما عند الباب والحجر الأسود فيه مركب علىٰ نحو قامة إنسان والركن الآخر يعرف باليماني، وسقاية الحاج المعروفة بسقاية العباس علىٰ ظهر زمزم، وزمزم فيما بينه وبين البيت، ودار الندوة من المسجد الحرام في غربيه[٤]"،ثم ذكر ابن حوقل " أن حجارة البيت من قعيقعان"[٥].

أما المقدسي الذي كان وصفه من الخارج وبشكل أيضاً مقتضب فلم يدخل في التفاصيل الجزئية لمكوناتها أو يتطرق لوصف محتوياتها الداخلية، وكان أبرز ما تناوله في هذا الجانب باب الكعبة، فبين أن ارتفاعه عن مستوىٰ الأرض يقارب طول قامة رجل[٦] كما أشار إلىٰ أنه عبارة عن مصراعين[٧] ملبسين بصفائح الفضة التي طليت بالذهب[٨]، فضلاً عن ذلك فقد أكد وجوده في جدارها الشرقي[٩].

أما عن ذرع الكعبة فقد ذكر أن طول الكعبة "أربعة وعشرون ذراعاً وشبر في

---

(١) نفس المصدر السابق: ص٣٣ – ٣٥.
(٢) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢١-٢٢.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥.
(٤) نفس المصدر السابق: ص٣٦.
(٥) نفس المصدر السابق: ص٣٦.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٤٤.
(٧) وخالف الأصطخري الكثير ممن تحدثوا عن باب الكعبة نذكر أنه مصراع واحد فقط، انظر الأصطخري: المصدر السابق، ص٢١-٢٢.
(٨) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٥؛ وأول من ضرب علىٰ باب الكعبة صفائح الذهب الوليد بن عبد عبد الملك؛ انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، دار الثقافة، ٢١٠/١-٢١١.
(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٥، وأن أصل باب الكعبة من عمل الحجاج بن يوسف الثقفي عندما عندما بنىٰ الكعبة سنة ٧٣، انظر: البكري: المسالك والممالك، تحقيق: أدريان فان ليوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب والمؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق، تونس، ١٩٩٢م، ٣٩٠/١.

ثلاثة وعشرون ذراعاً وسبعة أذرع[١]" من هذا النص أكد المقدسي أن الكعبة عبارة عن مستطيل متساوي الأضلاع، رغم تفاوت أقوال من سبقوا المقدسي أو جاءوا بعد في مقدار ذراع طول الكعبة وعرضها، والذي يرجع في الغالب إلىٰ اختلاف مقياس الذراع[٢]، وكذلك ميل بعضهم إلىٰ عدم تساوي أضلاعها المتقابلة إلا أن المقدسي أكد ذلك، ويبدو أن سبب الاختلاف بين المصادر في تحديد أطوال الكعبة بالإضافة لما ذكر من التفاوت في مقدار طول الذراع، زيادة الشاذروان وأخذ بعضهم المقاس من أسفلها، وبعضهم ربما أخذ المقاس من فوق الشاذروان، ولذا فقد تفاوتت بين المصادر، وقد توافق مقاس المقدسي بدقة مع ابن خرداذبة[٣]، وكما وافقه علىٰ تساوي أضلاعها المتناظرة رغم الاختلاف في مقدار الذراع[٤] وإن شك في طول الضلع الشرقي[٥].

أما ارتفاع الكعبة والذي توافق فيه كلامه مع عدد كبير ممن أشاروا إليه[٦] فبلغ علىٰ حدَّ قوله سبعة وعشرون ذراعاً[٧]، رغم أن المقدسي لم يحدد نقاط قياسه، هل هذا المقياس كان من خارج الكعبة أم من داخلها؟ وهل أدخل الشاذروان فيه أم لا[٨]؟

إلا أن الذي يتضح أن هذا المقاس كان من خارج الكعبة، كما أنه لا يشمل الشاذروان ويؤكد ما ذهبت إليه بعض المصادر[٩]: "ذرع الكعبة من خارجها في السماء من البلاط المفروش حولها تسعة وعشرون ذراعاً وست عشر أصبعاً، وطولها من الشاذروان سبعة وعشرون ذراعاً" ومما يؤكد ذلك أيضاً في مصادر أخرىٰ: "وارتفاع البيت في الهواء خارج الأرض إلىٰ أعلىٰ البيت ثلاثون ذراعاً، طول جدار البيت منها سبعة وعشرون ذراعاً وعليه طرابزين، تعلق منه الكسوة، وقد استعلت عليه ذراعين فكمل بذلك ارتفاع البيت مع الكسوة والطرابزين ثلاثون ذراعاً هذا ارتفاع البيت من الخارج"[١٠].

وقد أتحفنا المقدسي وهو يتحدث عن الكعبة بمسافة الطواف حولها،فأثار إليه

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٥.
(٢) هناك أذرع معروفة في الأوساط الإسلامية، منها، ذراع العمل، والذراع الزيادي، والذراع الهاشمي، الهاشمي، وغيرها، انظر: القلقشندي: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ٥١٣/٣-٥١٤.
(٣) المسالك والممالك، ليدن، ١٨٨٩م، ص١٣٢-١٣٣.
(٤) الحربي: المناسك، ص ٤٩٦-٤٩٧.
(٥) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ليدن، ١٣٠٢هـ، ص٢٠.
(٦) الحربي: المصدر السابق، ص ٤٩٦.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٥.
(٨) عبد العزيز راشد السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص ٤٧-٤٨.
(٩) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، دار الثقافة، مكة، ٣٠٨/١.
(١٠) التلمساني: وصف مكة والمدينة وبيت المقدس، ٣٣٨.

قائلاً: "وذرع الطواف مائة ذراع وسبعة أذرع"[١] ويبدو أن اختلافه في مقدار طول الطواف مع عدد من المصادر ناتج عن الاختلاف في التحديد الدقيق لمقدار وحدة القياس آنذاك وهي الذرع[٢]. وأكد ذلك ابن الفقيه عندما أشار إلىٰ أن المطاف حول الكعبة يبلغ (١٥٠) ذراعاً[٣]، وكذلك ابن خرداذبة الذي وافق المقدسي في ذرعه للطواف[٤] وهذا مما يدل علىٰ أن المقدسي قد نقل جميع المقاسات التي أوردها في كتابه كتابه أحسن التقاسيم من ابن خرداذبة.

الحجر الأسود:

لقد تناول الرحالة المشارقة وصف الحجر الأسود وذرّعوه فجاءت أقوالهم متقاربة، ومن ذلك ما ذكره ابن رسته "والركن ذراع وأربع أصابع وذرع ما بين الحجر الأسود إلىٰ الأرض ذراعان وثلثاً وذراع وذرع ما بين الركن والمقام ثمان وعشرون ذراعاً وحول الحجر الأسود طوق من فضة مفرغ وهو يلي الجدار، ودخول الحجر الأسود في الجدار عن وجه الكعبة حذاء الجدر أصبعان ونصف، الملتزم ما بين الركن والباب"[٥].

ثم يذكر ابن رسته أن الحجر الأسود في الركن الشرقي، ثم حدد المسافة بين المقام والحجر الأسود، أما ما يدور علىٰ الحجر الأسود من فضة فقد ذكر ابن رسته قوله " قيل تصدع الحجر بثلاث فرق وكان منكراً حتىٰ شده ابن الزبير فكان ابن الزبير أول من ربط الحجر الأسود فيما زعموا لـمّا أصابه من الحريق ما أصابه ثم كانت الفضة قد رقت وتزعزعت وقلقت حول الحجر الأسود حتىٰ خافوا علىٰ الركن أن ينقض فلما اعتمر الرشيد عمره في سنة ١٨٩هـ أمر بالحجارة التي يليها الحجر الأسود فثقبت بالماس من فوقها وتحتها ثم أفرغ فيها الفضة وهي الفضة التي عليها إلىٰ اليوم"[٦].

ومن ذلك يتضح أن وصف ابن رسته في النص أن الحجر أصابه تصدع أثر حصار ابن الزبير وقام ابن الزبير بإصلاحه وتزعزع الفضة أثر الحريق، وقام الرشيد عندما قدم إلىٰ العمرة بإصلاحه وثقبها بالماس وصب عليها من الفضة التي شاهدها ابن رسته أثناء زيارته للمسجد الحرام. أما وصفه لذرع الحجر الأسود في النص الأول فقد يتضح أنه يرتفع عن الأرض من قامة الرجل بحيث ينحني الرجل إليه.

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٥.
(٢) ابن الفقيه الهمذاني: مختصر كتاب البلدان، ص٢١.
(٣) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة ليدن، ١٨٨٩م، ص١٣٣.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ٧٥.
(٥) ابن رسته: الأعلاق، ص٣٩.
(٦) نفس المصدر السابق، ص٣٦.

أما وصف المقدسي للحجر الأسود من حيث موقعه في الكعبة وارتفاعه عن مستوىٰ الأرض فقال[1]: "والحجر الأسود علىٰ الركن الشرقي عند الباب علىٰ لسان الزاوية مثل رأس الإنسان ينحني إليه من قبله يسيراً" فكان وصفه قريب من وصف ابن رسته حيث ذكر أن ارتفاعه قريب من قامة الإنسان وهذا ما أشار إليه بالفعل كل من الأصطخري[2] وابن حوقل[3] وكان المتوقع من المقدسي وهو قريب من أحداث هجوم القرامطة علىٰ مكة سنة ٣١٧هـ وانتزاعهم الحجر الأسود[4]، وهذا ما يوحي لنا ميل المقدسي للاختصار، فضلاً عن رغبته في عدم الدخول في أمور سياسية وعقدية قد تسبب له المشاكل في وقت كان للحركة القرمطية شأنها السياسي في الجزيرة العربية، مما جعله يعرض عن ذكر هجومهم علىٰ مكة أو حتىٰ الحديث عن ما رآه في الحجر الأسود رغم أهمية ذلك[5].

حجر إسماعيل:

أما حِجْر إسماعيل عليه السلام، فعندما تطرق الرحالة المشارقة إلىٰ الكعبة المشرفة ووصفوها وسجلوا مشاهداتهم في كتبهم تطرقوا إلىٰ حِجْر إسماعيل حيث ذكر الأصطخري عندما وصف طول الكعبة والباب، بقوله: "وبين يدي الكعبة مما يلي المغرب حائط مبني مدور وهو من البيت إلا أنه لم يدخل فيه وهو الحِجْر والطواف يحيط به وبالبيت[6]" حيث وضح الأصطخري أن حِجْر إسماعيل يقع في جهة المغرب المغرب وهو حائط مدور بالكعبة – نصف دائرة – وأوضح أنه من البيت أي من الكعبة حيث لا تجوز صلاة الفرض بداخل هذا الحِجْر والذي يحيط به الطواف، من الرحالة أيضاً الذين وصفوا حِجْر إسماعيل ابن حوقل فكان وصفه قريب من وصف الأصطخري حيث ذكر "وبين يدي الكعبة مما يلي المغرب حصار مبني مدور له بابان مع ركني البيت إلا أنه لم يدخل فيه ويعرف بالحِجْر"[7].

أما المقدسي فقد تحدث عن إدخال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما الحِجْر ضمن الكعبة عندما أعاد بناءها خلال حركته التي قام بها في الحجاز ضد الأمويين، كما ذكر موقف الحجاج بن يوسف من ذلك بعد قضائه علىٰ حركة ابن الزبير سنة

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٧٥.
(٢) الأصطخري: المسالك والممالك، ص ١٦.
(٣) ابن حوقل: صورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٣٦.
(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ١٤٠٥هـ، ٣١٢/١-٣١٤؛ نجم الدين بن فهد: إتحاف الورىٰ، محمد شلتوت، ط١، مركز البحث العلمي، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، ٣٧٤/٢-٣٨٠-٣٩٤-٣٩٦.
(٥) عبد العزيز راشد السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٠.
(٦) الأصطخري: المسالك والممالك، ص٢١-٢٢.
(٧) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥-٣٦.

٧٣هـ، فقال المقدسي: " ويقال أن ابن الزبير أدخل عشرة من مشايخ الصحابة حتىٰ سمعوا ذلك منها[١]، ثم أمر بهدم الكعبة فاجتمع إليه الناس وأبوا ذلك، فأبىٰ إلا هدمها، فخرج الناس إلىٰ فرسخ خوفاً من نزول عذاب وعظم ذلك عليهم ولم يكن إلا الخير، وبناها علىٰ ما حكت عائشة – رضي الله عنهما – وتراجع الناس، فما قدم الحجاج تحرم ابن الزبير بالكعبة، فأمر بوضع المنجنيق علىٰ أبي قبيس وقال: ارموا الزيادة التي ابتدعها هذا المكلف، فرموا موضع الحطيم، وأخرج ابن الزبير وصلبه، ورد الحائط كما كان في القديم، وأخذ بقية الأحجار فسد منها الباب الغربي، ورصف بقيتها في البيت كيلا تضيع"[٢] .

فمن هذا النص يتضح أن المقدسي قد أتىٰ في حديثه عن ذرع تدوير الحجر بمقياس أقل بكثير عن ما جاء في المصادر التي تحدثت عن هذا الجانب، فذكر أن تدويره خمسة وعشرون ذراعاً[٣]، ومن خلال الإطلاع والتأمل مع النظر في ما ورد في المصادر فقد تبين لنا أن المقدسي – رغم أنه لم يفصح عن ذلك – قد أخذ مقاسه المذكور من داخل الحجر، كما أنه بدأ مع بداية الجدار الموضوع علىٰ الحجر، ولم يبدأ بركن الكعبة المحاذي للجدار، ولعل في ما أوردت بعض المصادر تبيان لذلك وتوضيح له عن مقاس تدوير الحجر من الداخل والخارج حيث ذكرت هذه المصادر[٤]: "وذرع تدوير الحجر من داخله ثمانية وثلاثون ذراعاً وذرع تدوير الحجر من خارج أربعون ذراعاً وست أصابع".

وأيضاً ذكرت المصادر ذرع باب الحجر [٥] "ذرع باب الحجر الذي يلي المشرق مما يلي المقام خمسة أذرع وثلاثة أصابع.. وذرع باب الحجر الذي يلي المغرب سبعة أذرع" وذكرت مصادر أخرى[٦] " وذرع تدوير الحجر من داخل ثلاث ثلاث وثلاثون ذراعاً، وذرع تدوير الحجر أيضاً من خارج تسع وثلاثون ذراعاً وشبر، وذرع باب الحجر الشرقي ما يلي وجه الكعبة أربع أذرع وشبر، وذرع باب الحجر

---

(١) المراد منها عائشة رضي الله عنها، حيث ورد ف الصحيحين أنها قالت: "قال رسول الله ﷺ: يا عائشة لولا أن قومك حديثي عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزمتها بالأرض ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر وأن قريشاً استقصرتها حين بنت الكعبة فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريباً من سبعة أذرع. انظر: فواز الدهاس: المسجد الحرام المكان والمكانة، ط١، دار القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٩.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٧. وحول بناء الزبير للكعبة سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وموقف الحجاج بن يوسف الثقفي من بنائه بعد مقتل ابن الزبير سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م، انظر: الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، دار الثقافة، مكة، ٢٠٠/١-٢١٩؛ الحربي: المناسك، ص٤٨٨-٤٩٦، الفاسي: شفاء الغرام، ط١، ١٤٠٥هـ، ١٥٧/١-١٦١؛ باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها) ط٢، دار تهامة، جدة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٦٧-٩٢.

(٣) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٥.

(٤) الأزرقي: المصدر السابق، ٣١٨/١.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ٣١٨/١-٣١٩.

(٦) الحربي: المناسك، ص٤٩٩.

الغربي ست أذرع إلا أربع أصابع"، ومن خلال النصين السابقين يتضح أن المقاسات المذكورة للحجر قد ضما إلىٰ تدوير مقاسه أطوال الأبواب المطلة عليه[1].

ومن ناحية أخرىٰ وصف المقدسي موقع الحجر وشكله فقال[2]: "والحجر من قبل الشام فيه يقلب الميزاب شبه أندر[3] قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه[4] ارتفاعها حَقْو[5] ويسمونه الحطيم[6] والطواف من ورائه"، ورغم اختصار المقدسي المقدسي في وصف الحجر إلا أنه أمدنا بمعلومات طيبة عن موقع الحجر بالنسبة للكعبة عندما أشار إلىٰ وجوده جهة الركن الشامي وبيَّن أن ميزاب الكعبة يصب فيه، كما زودنا بمعلومات أخرىٰ حين أكد أن جميع حيطانه وأرضه قد ألبست بالرخام، وأن ارتفاع جداره عن مستوىٰ الأرض يقارب المتر[7]. ووصفت لنا المصادر التاريخية مقاس الحجر بأن عرضه من جدر الكعبة من تحت الميزاب إلىٰ جدر الحجر سبعة عشرة ذراعاً وثمان أصابع ومن بابي الحجر عشرون ذراعاً وعرضه اثنان وعشرون ذراعاً، وعرض ذرع الجدر من داخله في السماء ذراع وأربعة عشر إصبعاً، وذرعه مما يلي الباب الذي يلي المقام ذراع وعشر أصابع وذرع جدر الحجر الغربي في السماء ذراع وعشرون إصبعاً، وذرع طول جدر الحجر من الخارج مما يلي الركن الشامي ذراع وستة عشر إصبعاً وطوله من وسطه في السماء ذراعان وثلاث أصابع[8].

المسجد النبوي:

أما مسجد رسول الله ﷺ ، فقد أتحفنا الرحالة المشارقة بمعلومات كانت في غاية

---

(١) عبد العزيز السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٢.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.
(٣) جاء عند ياقوت الحموي الذي نقل المعلومة عن المقدسي: شبه الأندر (معجم البلدان)، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ٢٦٤/٤، والأندر: هو البيدر، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام، وقيل: الكدس من القمح خاصة، ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة [د.ت]، ٢٢٩/١، ٤٣٨٢/٧.
(٤) ذكر الأزرقي، عن الرخام الموضوع علىٰ جدران الحجر وأرضه بعد أن ذكر أن أبا جعفر المنصور المنصور قد كسا جدرانه بالرخام ثم فرش المهدي أرضيته بالرخام، أخبار مكة، ٣١٢/١-٣١٥.
(٥) الحقو، الخضر، ومشد الإزار من الجنب، انظر: ابن منظور، المصدر السابق، ٩٤٨/٢.
(٦) اختلف حول تحديد مكان الحطيم، فقيل أنه ما بين الحجر الأسود ومقام إبراهيم وزمزم وحِجْر إسماعيل، وقيل الموضع الذي فيه ميزان الكعبة، وقيل جدار الحجر وقيل الشاذروان، انظر: الفاسي: شفاء الغرام، ٣١٨/١، وذكر حسين باسلامة بعد أن ذكر الاختلافات حول تحديد مكان الحطيم بين المصادر: "فعلم مما تقدم أن الحجر يُعرف أيضاً بالحطيم قديماً وحديثاً، كما أن الملتزم يعرف بالحطيم أيضاً، وما بين زمزم والمقام والكعبة يسمىٰ الحطيم"، انظر: تاريخ الكعبة المعظمة، ص١٦٥.
(٧) عبد العزيز السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٥٤.
(٨) الأزرقي: أخبار مكة، ٢١٧/١.

الدقة والأهمية، فهذا ابن رسته ذكر بقوله: "أما مسجد رسول الله ﷺ أمر بعمارته أبو العباس المعتضد بالله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه في سنة ٢٨٢هـ"(١).

من خلال النص السابق الذي ذكر فيه ابن رسته عمارة أبو العباس المعتضد بالله سنة ٢٨٢هـ والذي حكم بين عامي ٢٧٩-٢٨٩هـ، فقد تبين من خلال المصادر التاريخية(٢) أنها بعض الإصلاحات في الواجهة الشرقية المطلة علىٰ الصحن المكشوف وليست بالعمارة التي حدثت في زمن المهدي.

وذكر ابن رسته أن علامة مسجد الرسول ﷺ بقوله: "وعلامة مسجد رسول الله ﷺ مما يلي الصحن في الشق الغربي أربع طاقات معمولات بالفسيفساء خضر كلهن وطاقات مسجد رسول الله ﷺ مما يلي القبلة أعلاهنَّ مشدود بالساج"(٣).

هنا لنا وقفة مع النص السابق حيث يستدل من هذا النص أن ابن رسته ذكر أن المسجد النبوي كانت بدايته من الصحن في الشق الغربي من المسجد حيث عملت أربع طاقات مزينة بالفسيفساء وكان أعلاهنَّ مشدود بالساج حيث خالفت بعض المصادر التاريخية قول ابن رسته في أن أعلىٰ الطاقات كانت مشدودة بالساج، فقد ذكر ابن عبدربه عند زيارته للمسجد النبوي التي كانت قبل عام ٣٠٠هـ(٤) بقوله: "وحنايا – أي أي العقود والطاقات أو الأقواس – المسجد كلها مما يلي الصحن – أي المطلة علىٰ الصحن – مشدودة من جهاتها الأربع إلىٰ مناكب العمد – أي حتىٰ بداية العقود أو أرجلها – من داخله مزخرفة بخشب منقش"(٥) فمن خلال هذا النص يتبين أنه كان يغشىٰ داخل هذه العقود أحجبة أو ستائر خشبية ذات زخارف محفورة، وقد كانت هذه الأحجبة من خشب الساج كما ورد في المصادر سواء قبل ابن عبد ربه أو بعده، ولعل ما ذكر ابن عبد ربه يتناقض مع ما أشار إليه ابن رسته من أن عقود بائكة مقدمة

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٧٤.

(٢) محمد السيد الوكيل: المسجد النبوي عبر التاريخ، ط١، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، دار المجتمع، جدة، ص١٣٨.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٤ – ٧٥.

(٤) مما يؤكد أن زيارة ابن عبد ربه (هو أبو عمر شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب بن بن جدير بن سالم القرطبي ولد في قرطبة سنة ٢٤٦هـ) عند وصف الحجر الأسود بأن فيه صدوع وفي جانبه صفحة فضة وصخر الركن الأسود أحرش، حيث يدل هذا الوصف علىٰ أن ابن عبد ربه كان شاهد عيان إذ وصف ما رآه وصفاً أميناً صادقاً، بل وقارن بين صخر الركن الأسود والصخر الموجود في بلاده أي قرطبة ونستطيع أن نحدد بداية تاريخ هذه الزيارة وذلك الوصف بأنه قبل عام ٣١٧هـ حيث أن الحجر الأسود في هذا العام قد قلعه القرامطة من موضعه وأخذوه معهم إلىٰ بلادهم واستمر نحو اثنين وعشرين عاماً. انظر: محمد حمزة إسماعيل الحداد: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصرين الأموي والعباسي، ط٢، ٢٠٠٤هـ مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص١٧.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٦٢/٦، هذا ولم ترد عبارة (من داخله مزخرفة) في النسخ الأخرىٰ المحققة، حيث ورد بها النص علىٰ النحو التالي "وحنايا المسجد كلها مما يلي الصحن مشدودة من جهاتها الأربع إلىٰ مناكب العمد بخشب منقش" الجزء السابع تحقيق العريان، ص٢٥٤؛ الجزء السابع تحقيق الترحيني، ص ٢٩٠.

المسجد التي كانت مشدودة بالساج فحسب[١]، ويؤكد ذلك أيضاً أن المصادر المتأخرة قد أيدت ما ذكره ابن عبد ربه فمن ذلك ما ذكره ابن النجار بقوله: "ورؤوس الطاقات – أي العقود أو الأقواس – مسدودة بشبابيك من الخشب"[٢]، وأيضاً صاحب كتاب الاستبصار حيث ذكر بقوله: "وتلك الأقواس التي إلىٰ صحن المسجد مغلقة بشراجيب-أحجبة أو ستائر مركبة من قطع أو أعواد صغيرة متداخلة – الساج"[٣].

مساحة المسجد النبوي:

أما عن مساحة المسجد النبوي فقد ذكر ابن رسته بقوله: "ذرع مسجد رسول الله ﷺ من القبلة إلىٰ حده الشامي أربع وخمسون ذراعاً وثلث ذراع وحده من المشرق إلىٰ المغرب ثلاث وستون ذراعاً"[٤] وبهذا تكون المساحة الإجمالية للمسجد النبوي كما ذكر ابن رسته بقوله: "يكون مكسراً ثلاثة آلاف ذراع وأربع مائة وأربعون ذراعاً"[٥].

ذراعاً"[٥].

أساطين المسجد النبوي:

أما عن ما ذكره ابن رسته من الرخام المفروش والأساطين التي من جهة القبلة والتي يكون فيها المنبر وأهم الأساطين المشهورة والتي ذكرت بعض المراجع أسمائها فقد قال: "والمفروش حده الاسطوانتان اللتان في القبلة قبلة المنبر إلىٰ الاسطوانتين اللتين يليانهما مما يلي الشام مفروش بالرخام بين ست أساطين والمنبر فوق منبر وسط هذا الرخام الذي حدَّ ست أساطين"[٦].

فمن الملاحظ من نص ابن رسته أنه ذكر أن بين الأساطين رخاماً مفروشاً أثناء زيارته للمسجد النبوي وذكر أهم الأساطين المشهورة في مقدمة المسجد دون التطرق إلىٰ ذكر أسماءها، والتي هي:

١- الاسطوانة المخلقة وهي الملاصقة للمحراب في الناحية اليمنىٰ وسميت بذلك لأنه يوضع عليها الخلوق أي الطيب. وقد كانت تخلق إكراماً لكونها علماً لمصلىٰ الرسول ﷺ ويقال أول من خلقها الخيزران زوج الخليفة المهدي

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، دار إحياء التراث العربي ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٧٦.

(٢) ابن النجار، الحافظ محمد بن محمود: أخبار مدينة الرسول (الدرة الثمينة)، تحقيق: صالح محمد جمال، مكة المكرمة، مطبعة الرسالة، ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، ص٨٩.

(٣) مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ص٣٧.

(٤) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٥.

(٥) المرجع السابق، ص٧٥.

(٦) المرجع السابق، ص٧٥.

العباسي وأم هارون الرشيد حيث أمرت بذلك مع بعض الاسطوانات الأخرى[(١)].

٢- اسطوانة عائشة رضي الله عنها وهي من الأساطين المشهورة في المسجد النبوي والتي أشار إليها ابن رسته دون ذكر اسمها. وتعرف أيضاً باسطوانة المهاجرين وهي الثالثة من المنبر والثالثة من القبر والثالثة من القبلة وقد سميت بذلك لأن عائشة رضي الله عنها أخبرت عبد الله بن الزبير بفضل تلك الاسطوانة فقام فصلىٰ عندها فظن الناس أن عائشة أخبرته بها فسميت بذلك. أما تسميتها باسطوانة المهاجرين فلأن المهاجرين من قريش كانوا يجتمعون عندها وكان يسمىٰ المجلس مجلس المهاجرين ويقال أن الدعاء عندها مستجاب والله أعلم[(٢)].

٣- اسطوانة التوبة وهي من الأساطين المعروفة والمشهورة وتسمىٰ باسطوانة أبي لبابة وهو رعافة بن المنذر أخو بني عمرو ابن عوف الأوسي وهو أحد النقباء وسميت بذلك للقصة المعروفة عن أبي لبابة رضي الله عنه [(٣)].

٤- اسطوانة السرير التي تقع شرقي اسطوانة التوبة وتلتصق بشباك الحجرة المطل علىٰ الروضة الشريفة وهي محل اعتكاف النبي ﷺ فقد كان له ﷺ سرير من جريد وكان يوضع له عند هذه السارية كما كانت له وسادة تطرح له فكان ﷺ يضطجع علىٰ سريره عند هذه الاسطوانة[(٤)].

٥- اسطوانة الحرس وتسمىٰ باسطوانة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وتقع خلف اسطوانة السرير من جهة الشمال ومقابل الخوجة التي كان يخرج منها الرسول ﷺ إذا كان في بيت عائشة إلىٰ الروضة الشريفة للصلاة وسميت باسطوانة الحرس لأن علي بن أبي طالب كان يجلس عندها يحرس النبي ﷺ.

٦- اسطوانة الوفود وتقع خلف اسطوانة الحرس من جهة الشمال وكان النبي ﷺ يجلس إليها ليقابل وفود العرب القادمين عليه.

٧- اسطوانة التهجد من الأساطين المشهورة في المسجد النبوي وتقع وراء بيت السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ من جهة الشمال وعندها محراب صغير إذا توجه الواقف إليه تكون السارية عن يساره باتجاه باب جبريل وسميت بذلك لأن النبي كان يتهجد عندها.

٨- اسطوانة مربعة القبر وتسمىٰ باسطوانة مقام جبريل عليه السلام وبها باب بيت فاطمة الذي كان يدخل منه علي بن أبي طالب، وتقع في حايز عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عند منحرف الجدار الغربي منه إلىٰ الشمال في صف اسطوانة

---

(١) ياسين أحمد الخياري: صور من الحياة الاجتماعية بالمدينة المنورة منذ بداية القرن الرابع الهجري وحتىٰ العقد الثامن منه، ط٢، دار العلم بجدة، ١٤١٥هـ، ص١٠١.
(٢) ياسين الخياري: المرجع السابق، ص١٠٤.
(٣) انظر تفاصيل الفضة، ياسين الخياري: المرجع السابق، ص١٠٤- ١٠٥.
(٤) نفس المرجع السابق، ص١٠٥.

الوفود وهي تقع داخل الجدار المحيط بالقبر الشريف ولا يمكن رؤيتها من الخارج لإحاطة الشباك والله أعلم[١].

هذا بالنسبة للأساطين المشهورة في المسجد النبوي وهي كثيرة حيث أحصاها ابن رسته بقوله: "وفي المسجد من الأساطين مائتان وست وتسعون اسطوانة وفي جدار القبلة من ذلك ثلاث أساطين"[٢].

وبهذا نجد أن المصادر التاريخية[٣] أكدت ما ذكره ابن رسته في أن عدد الأساطين في المسجد النبوي (٢٩٦) اسطوانة فقد ذكر ابن عبد ربه أن في المقدمة خمسة وثمانين اسطوانة وفي المؤخر أيضاً خمسة وثمانين اسطوانة وفي المجنبة الغربية اثنان وسبعون اسطوانة وفي المجنبة الشرقية أربع وخمسون اسطوانة[٤].

منائر المسجد النبوي:

من ناحية أخرىٰ ذكر ابن رسته في كتابه وصفاً للمنارات الموجودة في المسجد النبوي بقوله: "طول المنارة الشرقية اليمانية في السماء خمسون ذراعاً وطول المنارة الشرقية الشامية خمس وخمسون ذراعاً وطول المنارة الشامية الغربية ثلاث وخمسون ذراعاً، وعرض المنارات ثمان – ثلاث – أذرع في ثمان أذرع"[٥].

فمن الملاحظ في هذا النص أن المسجد النبوي الشريف يحتوي علىٰ ثلاث منارات اثنتان في الجوف وواحدة في الشرق كما أيدت بعض المصادر التاريخية[٦] ما ما ذكره ابن رسته في هذا العدد، وأن المنارة الرابعة التي أحدثها عمر بن عبد العزيز في المسجد عقب عمارته له في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك قد هدمت بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك حيث أنها كانت مطلة علىٰ دار مروان، فلما حج سليمان أذن المؤذن فأطل عليه ومن ثم أمر بهدمها وكان بابها علىٰ باب المسجد مما يلي دار مروان[٧] أي في الركن الغربي للمسجد.

شرفات المسجد:

---

(١) الخياري: المرجع السابق، ص١٠٦ – ١٠٧.
(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٦.
(٣) السمهودي: وفاء الوفاء، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، ط٤، ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٦٧٣/٢؛ الحربي: المناسك، ص٣٨٣.
(٤) الحداد: عمارة المسجد النبوي، ص٥٩.
(٥) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٦.
(٦) السمهودي: وفاء الوفاء، ٦٧٣/٢؛ وذكر الحربي أنها (٦٩٧): المناسك، ص٣٨٣.
(٧) الحربي: المناسك، ص٣٦٨؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ٥٢٦/٢.

أما عن شرفات المسجد النبوي الشريف فقد حددها ابن رسته بقوله: "وعدد شرف المسجد مما يلي القبلة ثنتان وعشرون شرفة ومما يلي الشام ثمان وعشرون شرفة ومما يلي المشرق ثمان وأربعون شرفة ومما يلي المغرب خمس وأربعون شرفة"[1].

وبتحديد عدد شرفات المسجد الحرام التي حددها ابن رسته يكون عدد شرفات المسجد النبوي مائة وثلاثة وأربعون شرفة كانت محاطة بالمسجد النبوي الشريف.

المنبر:

أما منبر الرسول عليه الصلاة والسلام فقد ذكر ابن رسته معلومات عنه في غاية الأهمية بقوله: "وطول منبر رسول الله ﷺ ثلاث أذرع ونصف مرتفع في السماء مع الخشب الذي عمل مروان وطول منبر الرسول ﷺ خالصة ذراعان في السماء وعرضه ذراع في ذراع تربيعه سواء"[2].

من نص ابن رسته يمكن لنا أن نستنبط دقته في تحديد منبر المسجد النبوي إذ حرره بالوضع الذي كان عليه في عهد النبي ، وكذلك بعد الزيادة التي أدخلها عليه الخليفة الأموي مروان بن الحكم.

ومن الأوصاف التي ذكرها ابن رسته في وصف المنبر عدد درج المنبر مع عمل مروان تسع درجات وبدون عمل مروان ثلاثة درجات بالمقعد وكان يلي ظهر النبي ﷺ إذا قعد ثلاثة أعواد مذهبة أحدهن وانقلع أحدهنَّ في سنة ١٩٨هـ وأمر به داود ابن عيسىٰ فأعيد، وعمل مروان في حائط المنبر الخشب عشرة أعواد لا يتحركنَّ، وكذلك من أوصاف منبره ﷺ أن من أسفله إلىٰ أعلاه كواءٌ[3]. مستديرة من جوانبه الثلاث وفي الخشب الذي عمل مروان قبل المشرق ثمان عشرة كوه مستديرة شبه المربعة ومن المغرب ثمان عشرة كوة مربعة مستديرة شبه المربعة[4].

هذا المنبر الأول في الإسلام، ويتكون من ثلاث درجات، القاعدة ودرجتين وكان النبي ﷺ قبل ذلك يخطب يوم الجمعة مستنداً إلىٰ جذع نخلة، وظل هذا المنبر في عهد الخلفاء الراشدين عليهم رضوان الله، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقف علىٰ الدرجة الثالثة، فلما ولي أبو بكر رضي الله عنه كان يقف في خطبته علىٰ الدرجة الثانية،

---

(١) المشرفة: ما يوضع علىٰ أعالي القصور والمدن والجمع شرف، وشرَّف الحائط: جعل له شرفة، انظر ابن منظور: لسان العرب، ط٤، ٢٠٠٥م، دار صادر، بيروت، ٦٢/٨.

(٢) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٦.

(٣) المرجع السابق، ص٧٦.

(٤) كواءٌ أو الكوه وهي صغيرة فقد استخدمت في أعالي البيوت للحرص علىٰ حرمة الناس داخل بيوتهم بيوتهم وتعددت أشكالها انظر: محمد حسين الجودي: العمارة العربية الإسلامية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار المسيرة عمَّان، ص٦٨.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقف في خطبته علىٰ الدرجة السفلىٰ وهكذا فعل عثمان ﷺ ، ولما آلت الخلافة إلىٰ معاوية بن أبي سفيان ﷺ زاد في منبر الرسول عليه الصلاة والسلام فأصبح المنبر تسع درجات[١].

وذكر ابن رسته المسافة ما بين المنبر والقبر بقوله: "وذرع ما بين القبر والمنبر ثلاث وخمسون ذراعاً"[٢]. وكذلك المسافة فيما بين المنبر والمقام حيث ذكر بقوله: "وما بين المنبر ومقام النبي ﷺ الذي كان يصلي فيه حتىٰ توفي، أربع عشرة ذراعاً وشبر"[٣].

والمتمعن في النص الأول يلاحظ أن ابن رسته ذكر المسافة بين القبر والمنبر لأن ما بين القبر والمنبر روضة من رياض الجنة، كما صح عن أنس بن مالك حيث قال: "ما بين حجرتي ومصلاي روضة من رياض الجنة"[٤].

أما طول المنبر فقد ذكر ابن رسته "وذرع طول المنبر اليوم أربع أذرع وعرضه ذراع وشبر وشيء يسير وما بين الرمانة الموخرة والرمانة التي كانت في منبر الرسول ﷺ ذراع وشبر"[٥]. ورجع ابن رسته إلىٰ وصف المنبر من أسفل عتبته إلىٰ مؤخرها وكذلك طوله في الأرض إلىٰ مؤخرة بقوله "وطول المنبر اليوم من أسفل عتبته إلىٰ مؤخرها سبع أذرع وطوله في الأرض إلىٰ مؤخره ست أذرع وطول المجلس وعرضه شبران وأربع أصابع في مثل ذلك مربع وما بين أسفل قوائم منبر النبي ﷺ الأول إلىٰ رمانته خمسة أشبار وشيء وعرض درج منبر النبي ﷺ شبران وطوله شبر وعرض المرمر الذي حول المنبر ثمان أذرع وطوله ثمان عشرة ذراعاً وعرض ما بين مصلىٰ النبي ﷺ من مسجده الأول وبين اسطوانة التوبة تسع عشرة ذراعاً وما بين جدار القبلة اليوم وبين اسطوانة التوبة عشرون ذراعاً"[٦].

ومن خلال النص السابق يتضح أن ابن رسته حدَّد مقاسات المنبر في أثناء زيارته للمسجد النبوي وعدد درجات المنبر والرمانة الموجودة في مؤخرة المنبر وكذلك وصفه في النص السابق عرض ما بين مصلىٰ النبي ﷺ وبين اسطوانة التوبة وجدار القبلة هذا ما اتفق وصفه مع بعض المصادر التاريخية في موضع المنبر أنه عن يمين المحراب أي علىٰ يمين الواقف تجاه المحراب في أول البلاط – الرواق – الثالث

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٦.
(٢) سيد عبد المجيد بكر: أشهر المساجد في الإسلام، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، دار القبلة، ص٢٢٣.
(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص٧٧.
(٥) الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الأوسط، تحقيق: محمد حسين الشافعي، دار الفكر، ط١، ١٤٢٠هـ، عمَّان، الأردن، ١١١/٦ ، حديث رقم ٥٢٢٧.
(٦) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٧ – ٧٨.

من المحراب أي ما يلي جدار القبلة في روضة مفروشة بالرخام محجور حولها به[١] وله درج وسمر في أعلاه لوح لئلا يجلس أحد علىٰ الدرجة التي كان رسول الله ﷺ يجلس عليها، وهو مختصر ليس فيه من النقوش ودقة العمل ما في منابر زماننا الآن والجذع أمام المنبر وبشرقي المنبر تابوت يستر به مقعد رسول الله ﷺ[٢].

قناديل المسجد النبوي:

وأخذ ابن رسته يصف ما بداخل المسجد النبوي من قناديل بقوله: "وعدد قناديل مسجد رسول الله ﷺ ثمانية وثمانون قنديلاً مع ثريا القبلة وعدد قناديله مما يلي الشام خمسة وثمانون قنديلاً ومما يلي المشرق خمس وأربعون قنديلاً ومما يلي المغرب اثنان وسبعون قنديلاً فذلك مائتان وتسعون قنديلاً"[٣].

ونلاحظ أن هذه المصابيح أو القناديل كانت موجودة منذ زمن الرسول ﷺ وأول من علق المصابيح بالمسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما جمع الناس في التراويح علىٰ إمام واحد[٤].

وروىٰ عن أبي هند قال: حمل تميم الداري من الشام إلىٰ المدينة قناديل وزيتاً ومقطاً، فلما انتهىٰ إلىٰ المدينة وافق ذلك ليلة الجمعة، فأمر غلاماً يقال له أبو البراد فقام فبسط المقط، وعلق القناديل، وصب فيها الماء والزيت وجعل فيها الفتل، فلما غربت الشمس أمر أبا البراد فأسرجها، وخرج رسول الله ﷺ إلىٰ المسجد، فإذا هو بها تزهر فقال: "من فعل هذا"؟ قالوا: تميم الداري يا رسول الله، فقال: "نورت الإسلام للحديث"[٥].

وعلىٰ أي حال فإن ابن رسته ذكر تلك القناديل التي كانت بداخل المسجد النبوي من جهة القبلة ومن جهة الشام ومما يلي المشرق والمغرب ثم حصرها بـ (٢٩٠) قنديلاً هنا تتضح دقة ملاحظة ابن رسته في مشاهداته والوصف الدقيق فيما ينقل عنه.

أما طاقات المسجد النبوي فقد ذكر ابن رسته أن عددها بقوله: "وعدد طاقات مسجد رسول الله ﷺ مما يلي القبلة اثنا عشر طاقاً ومما يلي الشام اثنا عشر ومما يلي المشرق تسعة عشرة فذلك اثنان وستون طاقاً"[٦].

أبواب المسجد النبوي:

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٦ / ٢٦١ ، تحقيق: أحمد أمين.
(٢) المصدر السابق، ٦/ ٢٦٢.
(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص ٧٦.
(٤) السمهودي: خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، ٢ / ٢٠٣.
(٥) السمهودي: المصدر السابق، ٢/ ٢٠٣ – ٢٠٤.
(٦) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٧.

أما عن أبواب المسجد النبوي فقد ذكر ابن رسته بقوله: "وفي المسجد – النبوي- أربعة وعشرون باباً من ناحية السوق منها ثمانية"[١].

ولكن نجد أن بعض المصادر التاريخية تذكر أن عدد أبواب المسجد النبوي ثمانية عشرة باباً[٢]. وبمقارنة هذا العدد بما ورد في المصادر التاريخية نجد أن الأبواب الشرقية والغربية كانت ستة عشر باباً بواقع ثمانية أبواب بكل جانب[٣]، هذا وقد أكد بعض الباحثين علىٰ ما ذكره ابن رسته[٤] في عدد الأبواب في قوله: "وللمسجد "وللمسجد النبوي أربعة وعشرين باباً، ثمانية منها بالحائط الغربي ناحية السوق، وثمانية أخرىٰ بالحائط الشرقي وأربعة بالحائط الشمالي وأخرىٰ بالحائط الجنوبي وهي باب يدخل منه الأمراء ناحية دار مروان وباب يسار القبلة يدخل منه إلىٰ المقصورة وباب يمنىٰ القبلة وباب بيت القناديل وباب في قبلة المسجد يخرج منه السلطان إلىٰ المقصورة"[٥].

قبر النبي :

أما قبر النبي ﷺ فقد ذكر ابن حوقل أنه من المسجد بقوله "وقبر النبي عليه الصلاة والسلام من المسجد في شرقيه قريباً من القبلة قريباً من الجدار الشرقي في بيت مرتفع، بين سقفه وسقف المسجد فرجة ولا باب له، وله زاويتان"[٦]. فنلاحظ من كلام ابن حوقل عن القبر والذي يمثل في الحجرة النبوية الشريفة وما بها من المقابر أنه يصف القبر ويحدد مكانه من المسجد حيث ذكر أنه يقع في شرق المسجد النبوي من جهة القبلة حيث ذكر بعض الباحثين أن الحجرة من جهة الشمال موجود بها قبران كتب علىٰ أحدهما أبو بكر الصديق والآخر عمر بن الخطاب وكان يعلو الحجرة قبة وبجهتها الغربية يوجد شباك حديدي[٧].

وذكرت بعض المصادر التاريخية أن القبر النبوي قد لُبس بإزار رخام أكثر من قامة وما فوق الرخام مخلق بالخلوق[٨] ويستدل من ذلك أن جدار حجرة القبر

---

(١) ابن رسته: المصدر السابق، ص٧٧.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢٦٢/٦.
(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٧ ؛ الحربي: المناسك، ص ٣٨٤.
(٤) ابن رسته: المصدر السابق، ص٧٧.
(٥) صالح لمعي مصطفىٰ: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة، بيروت ١٩٨١م، ص٧٦ – ٧٧؛ عبد العزيز بن عبد الرحمن بن إبراهيم كعكي: معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ، ط١، ١٤١٩هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢/ ١٣٩.
(٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ٣٥ – ٣٦.
(٧) أحمد رجب محمد علي: المسجد النبوي، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، دار المصرية اللبنانية، القاهرة، القاهرة، ص ٨٦.
(٨) ابن عبد ربه: العقد الفريد، تحقيق: أحمد أمين ٢٦٢/٦، وتحقيق: العريان، ٧/ ٢٥٣.

الشريف كانت مكسوة بإزار رخامي يبدأ من مستوىٰ أرضية الحجرة ويرتفع إلىٰ أكثر من قامة الرجل ومن المرجح أن هذه الكسوة الرخامية قد حدثت في أواخر خلافة المتوكل علىٰ الله وبالتحديد بين عامي ٢٤٦ – ٢٤٧هـ(١).

أما أهم المساجد فى المشاعر المقدسة والتى تطرق إليها الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين:

أ) **مسجد الخيف**: ويقع بمنىٰ علىٰ المنحدر الشمالي من سفح جبل الصايح وعلىٰ مقربة من الجمرة الصغرىٰ ويقع علىٰ يمين الذاهب إلىٰ عرفة وعلىٰ يسار الذاهب إلىٰ مكة المكرمة، فقد كان من أوائل مساجد الإسلام في منى(٢). ومع كثرة المصادر التاريخية التي كتبت عن تاريخ مكة وعمارة الكعبة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة إلا أنها لم تذكر تاريخ إنشاء مسجد الخيف والذي تم إنشاؤه في العصر العباسي الثاني في عهد المعتمد سنة ٢٥٦هـ، ومن الرحالة المشارقة الذين وصفوا هذا المسجد ابن رسته بقوله: "وذرع مسجد منىٰ مسجد الخيف من حده الذي يلي دار الإمارة إلىٰ حده الذي يلي عرفه مائتا ذراع وثلاث وتسعون ذراعاً واثنتا عشرة اصبعاً ومن حدّه الذي حدَّ الطريق الأسفل في عرضه إلىٰ حده الذي يلي الجبل مائتا ذراع وأربع أذرع واثنتا عشرة اصبعاً وطوله مما يلي الجبل من حدَّه الأسفل إلىٰ حده الذي يلي دار الإمارة مائتا ذراع وأربع وستون ذراعاً وثمان عشرة اصبعاً وعرضه مما يلي دار الإمارة مائتا ذراع"(٣).

فنلاحظ من خلال النص السابق لابن رسته أنه كان مطابقاً لوصف الأزرقي الذي كان صاحب السبق في وصفه الدقيق وأن من جاء بعد الأزرقي أخذ عنه.

ونرىٰ أن ابن رسته قد ذرع المسجد من جهة في طوله ومن حده الذي يلي دار الإمارة إلىٰ حده الذي يلي عرفة مائتا ذراع – الذراع هو ذراع اليد – وثلاثة وتسعون ذراعاً واثنتا عشرة اصبعاً، ومن حده الذي يلي الطريق الأسفل في عرضه إلىٰ حده الذي يلي الجبل مائتا ذراع وأربعة أذرع واثنتا عشرة إصبعاً، وطوله مما يلي الجبل من حده الأسفل إلىٰ حده الذي يلي دار الإمارة مائتا ذراع وأربعة وستون ذراعاً وثمان عشرة اصبعاً وعرضه مما يلي دار الإمارة مائتا ذراع، وهكذا تكون مساحة المسجد الإجمالية في بداية القرن الثالث الهجري حوالي عشر ألفاً وخمسمائة متر تقريباً(٤).

ومن ناحية أخرىٰ وصف لنا ابن رسته ظلال وأساطين المسجد بقوله: "وفي

---

(١) محمد حمزه إسماعيل الحداد: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصر الأموي والعباسي في ضوء مشاهدات ابن عبد ربه القرطبي، ط١، ٢٠٠٤م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة ص٦٩.

(٢) ناصر عبد الله البركاتي ومحمد نيسان سليمان مناع: دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة، مسجد مسجد الخيف ومسجد البيعة بمنىٰ، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار المدني، جدة، ص٥٦.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٥٥.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ط٢، ١٩٨٥م، دار الثقافة، مكة، ٢/ ١٨٤.

قبلة المسجد مما يلي دار الإمارة ثلاث ظلال كان زوقها الصائغ إسحاق بن سلمه وعملها وفيه من الأساطين مائة وثمان وستون اسطوانة منها في القبلة ثمان وسبعون مما يلي بطن المسجد أربع وعشرون وفي شقه الأيمن أربع وثلاثون وفي أسفله الذي يلي عرفات خمس وعشرون وفي شقه الأيسر الذي يلي الجبل إحدىٰ وثلاثون"[١].

ذكر ابن رسته الظلال الموجودة في المسجد وحدَّد أماكن هذه الظلال من المسجد وذكر مقاييس هذه الظلال ثم تطرق بعد ذلك إلىٰ الأساطين وذكر عددها وأماكن تواجدها بدقة وكان الأزرقي قد سبقه إلىٰ ذلك[٢].

أما أبواب المسجد فقد حددها ابن رسته بقوله: "وعلىٰ مسجد الخيف عشرون باباً متفرقة علىٰ جوانبه"[٣]. غير أن ابن رسته لم يصف لنا هذه الأبواب التي في مسجد الخيف واكتفىٰ بذكر عددها غير أن صاحب كتاب أخبار مكة قد فصل لنا هذه الأبواب من ناحية مقياس كل باب وأماكن تواجدها في المسجد بقوله "في مسجد الخيف عشرون باباً، منها في الجدر الذي يلي الطريق تسعة أبواب شارعة في الرحبة علىٰ السوق، كل باب فيها ثمانية أذرع واثنتا عشرة اصبعاً وعرض كل باب خمسة أذرع وبعضها يزيد أو ينقص في العرض، ومنها في الجدر الذي يلي عرفات خمسة، طول كل باب منها ثمانية أذرع واثنتا عشرة أصبعاً وعرض كل باب خمسة أذرع وبعضها يزيد أو ينقص في العرض ومنها الجدر الذي يلي الجبل أربعة أبواب، منها ثلاثة أبواب طول كل باب منها ثمانية أذرع، وعرض الباب الأول منها خمسة أذرع وعرض الثاني أربعة أذرع وأربع أصابع وعرض الثالث ثلاثة أذرع وثمان عشرة إصبعاً والباب الرابع طوله سبعة أذرع وعرضه ثلاثة أذرع، وفي قبلة المسجد بابا في دار الإمارة الباب الأول منهما طوله ستة أذرع واثنتا عشرة إصبعاً وعرضه ذراعان والباب الثاني طوله أربعة أذرع وست أصابع وعرضه ذراعان"[٤].

هذا بالنسبة لوصف الأزرقي لأبواب مسجد الخيف فقد أحسن الوصف حيث ذكر جميع الأبواب من جميع الاتجاهات عكس الرحالة ابن رسته الذي أهمل أجزاء هامة في المسجد مثل المنارة الذي أبدع في وصفها الأزرقي وكذلك السقاية التي كانت موجودة بداخل المسجد وكذلك المحراب رغم أنه ذكر القبلة عندما تطرق إلىٰ ظلال المسجد وذكر المحراب أمر هام ولابد لوجوده في المسجد كذلك إهمال ابن رسته لوصف القناديل، مما امتاز به الأزرقي في وصفه لعمارة مسجد الخيف وصفه للقناديل التي كانت منتشرة في أنحاء المسجد كوسيلة من وسائل الإضاءة وخاصة في أيام الحج والذي بلغ عددها إلىٰ إحدىٰ وسبعون قنديلاً وكذلك لم يذكر ابن رسته المنبر الموجود في مسجد الخيف.

---

(١) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٥٥.
(٢) الأزرقي: المصدر السابق، ٢/ ١٨٤.
(٣) ابن رسته: المصدر السابق، ص٥٥.
(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ٢ / ١٨٤ – ١٨٥.

ب) **مسجد المزدلفة**: فقد أمدنا المقدسي بشكل مختصر عن المزدلفة بمعلومات جيدة، حيث حدد لنا أنها تبعد عن منىٰ فرسخ[1]. كما ذكر ما فيها من منشآت لخدمة الحجاج، ومنها مصلىٰ أشار إلىٰ وجود منارة فيه فقط دون أن يبين لنا نوعية عمارته ووصفها أو أطواله ومسافاته[2]. وبالرجوع إلىٰ المصادر التاريخية القديمة[3] فقد تبين لنا وجود مسجد في مزدلفة قد أشار إليه الأزرقي في كتابه بقوله: "ومن حد مؤخر مسجد منىٰ إلىٰ مسجد مزدلفة ميلان" هنا دلالة واضحة لوجود مسجد بمزدلفة عند ذكر الأزرقي المسافة بين مسجد منىٰ ومسجد المزدلفة بعد ذلك تطرق الأزرقي إلىٰ وصف مسجد المزدلفة بقوله: "وذرع مسجد المزدلفة تسعة وخمسون ذراعاً وشبراً في مثله ويكون مكسراً ثلاثة آلاف ذراع وخمسمائة ذراع وإحدىٰ وأربعون ذراعاً والمسجد يدور حوله جدار ليس بمظلل، وذرع طول جدر القبلة في السماء سبعة أذرع وثمان عشرة إصبعاً معطوفاً في الشق الأيمن عشرة أذرع وفي الشق الأيسر مثله وبقية الجدرين الأيمن والأيسر ومؤخر المسجد ثلاثة أذرع في السماء وفيه من الأبواب ستة: باب في القبلة، وبابان في الجدر الأيمن، وبابان في الجدر الأيسر، وباب في مؤخر المسجد سعته ستة وأربعون ذراعاً، وعلىٰ الجدرات من الشرف سبع وخمسون شرافة منها علىٰ جدار القبلة ست عشرة، ومنها علىٰ الجدر الأيمن تسع عشرة ومنها علىٰ الجدر الأيسر ثمان عشرة شرافة وذرع ما بين مؤخر مسجد المزدلفة من شقه الأيسر إلىٰ قزح أربعمائة ذراع وعشرة أذرع"[4].

ومن الرحالة المشارقة الذين ذكروا مسجد المزدلفة ابن رسته ولكنه لم يفصل لنا أبعاد هذا المسجد ولكنه ذكر ذرع هذا المسجد بقوله: "وذرعه تسع وخمسون ذراعاً وشبراً في مثله يكون مكسراً ثلاثة آلاف ذراع وخمس مائة ذراع وإحدىٰ وأربعون ذراعاً"[5].

د) مسجد عرفة: وهذا المسجد في بداية عرفة للقادم من المزدلفة فأطلق عليه لفظ مصلىٰ عند المقدسي فقال عن موقعه: " والمصلىٰ علىٰ حافة وادي عُرنة علىٰ تخوم عرفة"[6]. كما أشار المقدسي إلىٰ وجود منبر في مسجد عرفة بني من مادة الآجر، وكذلك حوض لحفظ الماء بالقرب من المسجد وصفه بالكبر، فقال: "وفي المصلىٰ منبر من الآجر، وخلفه حوض كبير"[7]، ولكن المقدسي أهمل بعض الجوانب المعمارية لمسجد عرفة حيث لم يذكر اتساع هذا المسجد وأبعاده وما يحتويه من مباني ومنشآت،

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.
(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١٨٧؛ الحربي: المناسك، ص٥٠٨؛ ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢/٢٨٧.
(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١٨٧.
(٥) ابن رسته: الأعلاق، ص٥٥.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.
(٧) نفس المصدر السابق: ص٧٩.

ويرجع ذلك الإهمال إلىٰ تعرض المسجد وقت زيارة المقدسي للخراب حيث كانت مبانيه مهدمة بعد أن كانت قائمة في أواخر القرن الثالث الهجري، وتأكيداً علىٰ ذلك ما ذكره الحربي عند وصفه لمسجد عرفه بقوله: "وذرع طول مسجد عرفات من مقدمه إلىٰ مؤخره مائة وثلاثة وستون ذراعاً، ومن جانبه الأيمن إلىٰ جانبه الأيسر مائتان وثلاثة عشر ذراعاً، وله من الأبواب تسعة، منها في القبلة باب عليه طاق وفي الجانب الأيمن أربعة وفي الأيسر أربعة، ومن مؤخر المسجد مكان مربع طوله في السماء سبعة أذرع وسعة أعلاه سبع أذرع في ست أذرع، وربما أذَّن عليه"(١).

كما أسهب الأزرقي في وصف مسجد عرفة وذكر طريقة بنائه واتساعه وعدد أبوابه وشرفات المسجد وكل ما يتعلق به(٢).

---

(١) الحربي: المناسك، ط٢، دار اليمامة، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٧م، ص٥٠٩ ـ ٥١٠. ولقد أتينا بوصف الحربي هنا لأنه الأقرب إلىٰ عصر المقدسي.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، تحقيق: رشدي ملحس، دار الثقافة، ١٨٨/٢ـ ١٨٩.



المبحث الثاني

العمارة العسكرية

تعتبر العمارة العسكرية من أهم النواحي الحضارية التي تميز بها إقليم الحجاز حيث تضم العمارة العسكرية مجموعة من المنشآت الدفاعية التي ظهرت خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين مثل القلاع والأبراج والحصون والتي انتشرت في كثير من المدن الحجازية، وقد اهتم بها الحكام والسلاطين وتسابقوا في تشييدها وعمارتها حتىٰ غدت من المعالم الأثرية البارزة للحضارة الإسلامية في عصور القوة ولتشهد علىٰ ما وصلت إليه العمارة الدفاعية خلال العصور السابقة من تقدم وشموخ وازدهار.

ومن خلال ما تطرق إليه الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، أن مكة المكرمة أثناء زيارة المقدسي كانت محصنة بالأسوار كما بين أن الدخول إليها يتأتىٰ عبر أربعة أبواب مصنوعة من الحديد اثنين منها في الجهة الشرقية من السور حيث يدخل القادمون من العراق والثالث في الجهة الشمالية ومنه يدخل القادمون من جهة التنعيم[1]. أما الرابع ففي الجهة الجنوبية وعبره يجتاز إلىٰ داخل مكة الوافدون من اليمن[2].

ويقول المقدسي مبيناً ذلك "ويدخل إليها من ثلاثة وجوه، أبواب منىٰ نحو العراق دربان ثم درب العمرة ثم درب اليمن بالمسفلة[3]. والجميع مصفحة بالحديد"[4].

ومن خلال النص السابق للمقدسي والذي أورد فيه أن مكة المكرمة كان يوجد بها سور بل وأنه مصفح بالحديد من جميع جهات فلو نظرنا إلىٰ المصادر التاريخية التي كتبت عن مكة المكرمة لوجدنا أن بعضها ذكرت أن مكة كانت محاطة بسور فقد ذكر النجم ابن فهد ما نصه (فخندق علىٰ قلة وشبكها بالبنيان من أنقابها) [5]. فذلك العمل قام به يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي في سنة ٢٠٢هـ فكانت هذه الأسوار تصل بين الجبال ولم يكن السور محدق بمكة من جميع جهاتها.

وتأكيداً لما جاء به الرحالة المقدسي في أن بمكة سور أورد الفاسي نصاً بقوله (ورأيت في بعض ما يقتضي أنه كان لمكة سور في زمن المقتدر بالله العباسي، وما

---

(١) التنعيم هي المنطقة التي يقع فيها مسجد عائشة رضي الله عنها ويمثل الحد الشمالي لمكة، ومن التنعيم يحرم من أراد العمرة، وهو الذي أمر رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن أبي بكر يعمر منه عائشة: وإنما سمىٰ التنعيم لأن الجبل الذي عن يمينه يقال له نعيم والذي عن يساره يقال له ناعم، والوادي نعمان؛ انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ط١، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، دار مكة، ٤٤/٢.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق محمد مخزوم، دار إحياء التراث، ص٧٦.

(٣) المسفلة، من السفل كان يطلق علىٰ كل ما انحدر عن المسجد الحرام غير أنه اليوم علم علىٰ حيّ من مكة يمتد من المسجد الحرام جنوباً غربياً إلىٰ ما وراء بركة ماجل ينحدر فيها سيل وادي إبراهيم ويعتبر بعضهم قوز المكاسة من السفلة، البلادي: معجم معالم الحجاز، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٥٤/٨.

(٤) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٦؛ مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد (د،ت) ص٦-٧.

(٥) النجم بن فهد: اتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ، تحقيق فهيم شلتوت، ط١، (د.ت) مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرىٰ، ٥٢٥/٢.

عرفت هل هو هذا السور من أعلىٰ مكة وأسفلها أو من إحدىٰ الجهتين؟ والله أعلم[١].

من هنا يلاحظ أن السور الذي كان زمن الخليفة المقتدر العباسي هو نفس السور الذي بناه والي مكة يزيد المخزومي، وربما زاد عليه أو أصلحه المقتدر العباسي وعلىٰ هذا لم تذكر المصادر التاريخية أن المقتدر العباسي بنىٰ سوراً علىٰ مكة ولكن من النص الذي ذكره الفاسي يدل علىٰ أن بمكة سور زمن الخليفة المقتدر العباسي وهذا لا يعني أن المقتدر هو الذي بناه أو أمر ببنائه.

وقد ذكر الفاسي [٢] موقع هذا السور بقوله (أنه كان بمكة سور من أعلاها دون سورها اليوم قريباً من المسجد المعروف بمسجد الرايه)[٣]، وأن التحصين بهذا السور لا يكون هكذا... ويقال الآن لموضع باب السور المشار إليه، الدرب الدارس [٤].

فقد استمر وجود هذه السور من نهاية القرن الثالث الهجري إلىٰ نهاية القرن السادس الهجري، وقد أطلق علىٰ هذه الأسوار الحصون وهي من أكبر الاستحكامات الحربية وهو كل بناء يحيط بمساحة من الأرض يحميها ويحصنها ضد أي اعتداء من داخل البلاد أو خارجها ومن ثم فإن أسوار المدن كانت تعرف في العصور الوسطىٰ باسم الحصون مثل أسوار بغداد والمدينة المنورة وغيرها كثير[٥].

ولكن المصادر التاريخية التي تطرقت إلىٰ تاريخ مكة المكرمة وغيرها من المصادر الأخرىٰ لم تذكر لنا صفة هذا السور الذي كان موجود في مكة المكرمة من حيث طوله وعرضه والفن المعماري الذي قام عليه هذا السور ولعل ذلك يرجع إلىٰ الصراع السياسي الذي حدث خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين بين الدول التي كانت تتنافس حول السلطة التشريعية في الحجاز بصفة عامة والحرمين الشريفين بصفة خاصة، لذا كانت هذه الدول لا ترغب في إقامة سور حول مكة المكرمة لأن ذلك يعطي مكة المكرمة قوة في التحصينات الحربية، كذلك يصعب علىٰ هذه الدول فرض سيطرتها مرة أخرىٰ علىٰ مكة، لذا أرىٰ أن هذا هو سبب إهمال الجانب الحضاري وبالأخص الجانب المعماري لمكة في الاستحكامات أو التحصينات العسكرية، في حين أن الإسلام اعتبر بناء السور من الوسائل التي تساعد علىٰ حفظ النفس والمال والعرض لاسيما إذا كانت الحاجة ملحة لاستخدامها في الدفاع عن حرمات المسلمين، وحكم الفقهاء بإلزام العامة بالمشاركة في بنائها ما دامت تتحقق مصلحتهم بإنشائها وخصوصاً

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/١٣-١٤.

(٢) الفاسي: المصدر السابق، ١/١١-١٢.

(٣) مسجد الراية، سمي بذلك لأن النبي ﷺ ركز الراية في هذا الموضع يوم فتح مكة وهو بأعلىٰ مكة عند الردم عند بير جبير بن مطعم يقال: أن النبي ﷺ صلىٰ فيه وقد بناه عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس يسقي فيه الماء،انظر الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ، ٢/٢٠١

(٤) هشام العجيمي: التحصينات الحربية لمكة المكرمة حتىٰ نهاية العصر المملوكي، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد (٦)، ١٩٩٢م/١٤١٢هـ، ص٩ – ١٠.

(٥) سعاد ماهر محمد: العمارة الإسلامية علىٰ مر العصور، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، دار البيان العربي، العربي، جدة، ٢/٣٢٣.

إذا دعت الظروف إلىٰ ذلك، واحتاجت السلطة إلىٰ مثل هذا العون، ودعت هذه الأحكام أيضاً إلىٰ المحافظة عليها وعدم هدمها وإزالتها حتىٰ لو انتفت الحاجة الملحة إليها في وقت لاحق، ونظمت هذه الأحكام كل ما يتعلق بالأسوار سواء كانت مستقلة أو كانت تشكل أجزاء من حوائط البيوت المتصلة بها من حيث وجوب الاهتمام بها وعمارتها لأن ذلك يحقق الهدف الأصلي من وراء بنائها وأي خلل في عمارتها يمنع تحقيق هذا الهدف[1]. كما أنها نظمت قواعد التعاون بين العامة لإحاطة محلاتهم السكنية بالأسوار والدروب الخاصة التي تكفل حمايتهم[2].

هذا بالنسبة إلىٰ السور الذي كان موجود في مكة أما القلاع فهي من الناحية المعمارية فإنها تطلق علىٰ الحصن الذي يتميز بوسائل دفاعية ذاتية[3]. وهي تحتوي علىٰ مجموعة من المباني الحربية التي يشغلها العسكر وما يحتاجون إليه من الآلات الحربية اللازمة للدفاع عنها أثناء الحصار[4]، أما من الناحية الحربية فأنها قاصرة علىٰ المراقبة والدفاع ضد الاعتداء الخارجي وحفظ بعض المعابر المهمة لذا فلابد أن يكون الموقع المشيد عليه موقعاً استراتيجياً[5]. وهي بذلك تتوافق مع ما جاء في معناها معناها اللغوي "وقيل القلعة بسكون اللام، حصن مُشْرِفٌ وجمع قلوع"[6]، فقد حرص المسلمون قبل تشييد أي قلعة أن يختاروا لها موقعاً استراتيجياً ذا صفة حربية، وغالباً ما يخضع اختيار موقع القلعة إلىٰ طبيعة تضاريس المنطقة التي تشيد فيها القلعة[7] والذي يمكن من خلاله الدفاع عن المدينة والسيطرة علىٰ الطرق والممرات التي يأتي منها العدو سواء كانت برية أم بحرية[8].

فمن خلال هذا الحديث عن القلاع فقد أشارت بعض المصادر التاريخية التي تحدثت عن تاريخ مكة المكرمة إلىٰ وجود قلعة فوق جبل أبي قبيس المشرف علىٰ

---

(١) محمد عبد الستار عثمان: المدينة الإسلامية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص١٣٥-١٣٦.
(٢) نفس المرجع السابق، ص١٣٦.
(٣) صالح مجدي أفندي: ميادين الحصون والقلاع والقنابر باليد والمقلاع، دار الطباعة المصرية، القاهرة، ١٢٧٥هـ. ص١٩؛ محفوظ بن سعيد بن مسفر الزهراني: تحصينات مدينة أبها، ط١، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م، وزارة التربية والتعليم، وكالة الآثار والمتاحف، ص٢٩.
(٤) سعاد ماهر: الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان، منشورات الدارة، العدد الثالث ربيع الثاني ١٤٠٢هـ، الرياض، ص٢٠١.
(٥) نفس المرجع السابق، ص٢٠١.
(٦) ابن منظور: لسان العرب، ٢٩٠/٨.
(٧) فريد محمود شافعي: العمارة العربية والإسلامية، عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٢هـ، ص١١
(٨) عبد الرحمن زكي: قلعة صلاح الدين وقلاع إسلامية معاصرة، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م، ص١٥٠؛ محفوظ سعيد الزهراني: تحصينات مدينة أبها، ص٣٠.

المسجد الحرام، والواقع أن ذكر هذه القلعة جاء صدفة أو عرضاً في سياق تعداد المنارات التي علىٰ رؤوس الجبال بمكة المكرمة حيث ذكر الفاكهي[١]. بقوله "فلعبد الله بن مالك الخزاعي[٢]. علىٰ جبل أبي قبيس المشرف علىٰ الحرم منارة علىٰ القلعة بعينها.."

فلم يشير ولم ينص أحد من مؤرخي مكة علىٰ زمن إنشائها وسبب الإنشاء ونسبتها إلىٰ العصر العباسي أقرب لكثرة أعمال العباسيين المعمارية في مكة في كثير من المجالات، وكذلك الفن المعماري التي تتكون منه هذه القلعة ولكن الرحالة المشارقة ذكروا عند زيارتهم لمكة أن أبنيتها من حجارة فهذا أقرب إلىٰ أن تكون القلاع مبنية بالحجارة كالأبنية الموجودة حول المسجد الحرام كما ذكر لنا الأصطخري[٣] وابن حوقل[٤] بقوليهما: (وأبنيتها حجارة والمسجد في نحو الوسط منها).

أما بالنسبة إلىٰ الخندق الذي أمر بحفره محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بأعلىٰ مكة سنة ٢٠٠هـ عندما خرج عن طاعة الخليفة العباسي المأمون لم تشير المصادر التاريخية إلىٰ موقعه بالتحديد وكيفية حفره وهل هناك فن معماري في إنشائه بل أشارت المصادر التاريخية إلىٰ أنه بأعلىٰ مكة فقط[٥].

كذلك الخندق الذي أمر يزيد بن محمد بن حنظلة المخزومي[٦]. بحفره سنة ٢٠٢هـ ليتحصن من إبراهيم بن موسىٰ الكاظم العلوي الذي قدم من اليمن يريد مكة[٧]، مكة[٧]، ولم يحدد موضع الخندق كذلك ، ويبدو أن موضعه هو نفس موضع الخندق الذي حفر سنة ٢٠٠هـ نظراً لتقارب الفترة الزمنية بينهما.

أما مدينة رسول الله ﷺ فقد بنىٰ سوراً حولها، حيث أكد ذلك ابن حوقل أثناء زيارته للمدينة قبل عام ٣٦٧هـ حيث ذكر بقوله "وعليها سور والمسجد في نحو وسطها"[٨]. وتأكيداً لقول ابن حوقل فقد ذكرت المصادر التاريخية [١] أن إسحاق بن

---

(١) الفاكهي: أخبار مكة، ط١، ١٤٠٧هـ، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة النهضة الحديثة، ٨٧/٣.

(٢) كان عبد الله بن مالك الخزاعي علىٰ دار هارون الرشيد وشرطته سنة ١٧٩هـ، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ط١، ١٤١٧هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٥٥/٣.

(٣) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢١.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٥.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ١٩١/٤-١٩٢؛ النجم بن فهد: إتحاف الورىٰ، ٢٦٨/٢؛ ابن فهد، عز الدين عبدالعزيز عمر بن محمد الهاشمي القرشي: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ط١، ١٤٠٦هـ، تحقيق فهيم شلتوت، دار المدني، جدة، ٣٩١/١.

(٦) يزيد بن حنظلة المخزومي، ناب عن حمدويه بن علي بن عيسىٰ بن ماهان علىٰ مكة انظر، زامباور: زامباور: معجم الأنساب والأشراف الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي حسين بك وآخرون، دار الرائد العربي، د.ت، بيروت، ص٢٩.

(٧) النجم بن فهد: إتحاف الورىٰ، ٢٧٨/٢.

(٨) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٧.

محمد الجعدي [٢] بنىٰ سور المدينة المعروف عليها اليوم، أي: في زمنه سنة ثلاثة وستين ومائتين، لها أربعة أبواب: باب في المشرق يخرج منه إلىٰ بقيع الغرقد[٣]، وباب في المغرب يخرج منه إلىٰ العقيق[٤] وإلىٰ قباء، وداخل هذا الباب في حوزة السور المصلىٰ الذي كان ﷺ يصلي به العيد، وباب ما بين الشمال إلىٰ المغرب،وباب آخر يخرج منه إلىٰ قبور الشهداء بأحد[٥].

ولعل المنسوب لابن بويه: إنما هو تجديده أو سور غيره[٦]. بينما جاء في المصادر التاريخية التي تحدثت عن المدينة المنورة مخالفاً لما تقدم في أن اسحاق بن محمد الجعدي هو أول من بنىٰ سوراً للمدينة حيث ذكر صاحب كتاب خلاصة الوفاء وما نصه "أما سور المدينة: فلم يكن لها في الزمن القديم سور، ومن تأمل ما ذكرناه في الأصل من منازل القبائل من المهاجرين مع منازل قبائل الأنصار علم عظيم سعتها، واتصال قراها بعضها ببعض؛ ولذا لم تقم الجمعة في قراها مع كثرتهم بها واستيطانهم، وسيأتي أن قباء كانت مدينة عظيمة متصلة بالمدينة... وأول من بنىٰ بالمدينة المنورة الشريفة سوراً بعد خراب أطرافها عضد الدولة ابن بويه، بعد الستين وثلاثمائة في خلافة الطائع لله بن المطيع لله. ثم تهدم علىٰ طول الزمان وتخرب بخراب المدينة ولم يبق إلا آثاره ورسمه"[٧].

أن ما تقدم ذكره جاء تأكيداً لما ذكره ابن حوقل سواءاً اختلفت الروايات في أول من بنىٰ هذا السور أو اتفقت فالذي يهمنا من ذلك أن السور كان موجوداً في أواخر القرن الرابع الهجري ولكن تهدم علىٰ طول الزمان ولم يبق إلا آثاره ورسومه ولا يدري موضع سور الجعدي والعكس، أما الذي بناه أو جدَّد وبناؤه عضد الدولة البويهي وزير الطائع لله بن المطيع[٨]. ومن جهة أخرىٰ لم تذكر لنا المصادر التاريخية النمط

---

(١) الحميري: الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص٤٠١-٤٠٢.

(٢) إسحاق بن محمد الجعدي، أحد ولاة المدينة المنورة، زمن المعتمد علىٰ الله، انظر الحميري: الروض المعطار في أخبار الأقطار، ص٤٠١- ٤٠٢.

(٣) بقيع الغرقد: بالغين المعجمة – كبار العوسج، كان نابتاً به، فقطع واتخذ مقبرة لأهل المدينة وهي داخل المدينة، انظر، عاتق بن غيث البلادي: معجم معالم الحجاز، ط١، دار مكة، ١٣٩٨هـ، ٢٤٤/١.

(٤) العقيق، عقيق المدينة ينسب إلىٰ محمد بن جعفر بن علي بن عبد الله بن الحسين الأصفر ابن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالعقيقي، والعقيق وادٍ عليه أموال أهل المدينة وهو علىٰ ثلاثة أميال أو ميلين، وقيل ستة وقيل سبعة، وهي أعقة أحدهما عقيق المدينة، عقعن حرتها أي قطع، وهذا العقيق الأصفر وفيه بئر رومة، والعقيق الأكبر بعد هذا فيه بئر عروة وعقيق آخر أكبر من هذين وفيه بئر علي، وهو من بلاد مزينة، انظر، البلادي، المرجع السابق، ١٣٥/٦-١٣٦.

(٥) الحميري: الروض المعطار، ص٤٠٢.

(٦) الحميري: المصدر السابق، ص٤٠٢.

(٧) السمهودي: خلاصة الوفاء، ٢٤٧/٢.

(٨) سعاد ماهر: العمارة الإسلامية، ٣٢٩/٢.

المعماري لهذا السور خلال القرن الرابع الهجري، حتىٰ أن ابن حوقل ذكر فقط أن عليها سور ولم يذكر لنا معلومات دقيقة عن هذا السور، ولكن ذكرت لنا المصادر التاريخية أن الغرض من بنائه صد هجمات الأعراب وغزوات البدو عن المدينة المنورة[(١)]. ومن المعلوم أنه لم يكن للمدينة المنورة في القرنين الأول والثاني الهجريين سور فكان بناء السور كان في القرن الثالث الهجري عندما تعرضت المدينة إلىٰ الهجوم من قبل البدو كما ذكر آنفاً وآخر هذا الهجوم علىٰ المدينة من بني كلاب حيث جاء الصريخ سنة ٢٦٣هـ إلىٰ بغداد فجمعت الأموال من التجار وأرسلت إلىٰ المدينة فقام أميرها محمد بن إسحاق الجعدي ببناء سور من الطوب واللبن[(٢)].

والجدير بالذكر أن عضد الدولة البويهي عندما جدد هذا السور كما ذكر ابن الإثير[(٣)] جعل له أربعة أبواب وصفها المقدسي[(٤)] بقوله "والمدينة هائلة الأبواب ولها أربعة باب البقيع وباب الثنية[(٥)]. وباب جهينة وباب الخندق"، ومن حديث المقدسي أنه أفاد بوجود السور وحدَّد عدد أبوابه في إبان النصف الثاني من القرن الرابع الهجري بهذا تكون أن جميع المصادر التاريخية أجمعت أنه خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين وجد سور للمدينة خاصة في سنة ٢٦٣هـ عندما كان إسحاق بن محمد يوسف الجعدي أمير المدينة في أثناء فترة خلافة الخليفة العباسي المعتمد علىٰ الله أحمد بن جعفر المتوكل الذي حكم بين عامي (٢٥٦- ٢٧٩هـ) وكذلك ما بعد سنة ٣٦٢ حيث كان علىٰ بن عضد الدولة ابن بويه أثناء خلافة الطائع بن عبد الكريم بن الفضل المطيع الذي حكم بن عامي (٣٦٢-٣٨١هـ) [(٦)]. كما ذكر آنفاً.

ومن التحصينات العسكرية في المدينة المنورة الخندق فقد أشار إليه المقدسي بقوله "والخندق من نحو مكة عامرة الحصن مشرفة البقيع شرقي المدينة مليحة التربة فيه قبر إبراهيم بن النبي ﷺ والحسن وعدة من الصحابة وقبر عثمان في أقصاه"[(٧)].

ومن خلال النص السابق يتضح أن الخندق يقع في جهة مكة ومشرف علىٰ البقيع في شرق المدينة المنورة ولكن يصعب علىٰ القارئ أن يحدد موقع الخندق من

---

(١) إبراهيم رفعت باشا: مرآة الحرمين، ط١، دار الكتب المصرية، ١٣٤٤هـ، ٤١٠/١.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ط٦، دار الكتاب العربي، ١٤٠٦هـ، ١١٤/٧.
(٣) نفس المصدر السابق، ١١٤/٧.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٠.
(٥) الثنية، ربما ثنية الوداع وهي مشرفة علىٰ المدينة يطؤها من يريد مكة واختلف في تسميتها بذلك، فقيل فقيل لأنها موضع وداع المسافرين من المدينة إلىٰ مكة،وقيل أن بنات الأنصار خرجن يوم قدوم النبي (ص) مهاجراً وهنَّ يغنين: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع، وهي ثنية من سَلع، علىٰ طرفه الشرقي الشمالي، منها الطريق إلىٰ العيون (الغابة) وسلطانه، ومنها الطريق إلىٰ المار بوادي الحمض، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ٩٣/٢.
(٦) عبد العزيز عبد الرحمن كعكي: معالم المدينة بين العمارة والتاريخ، ١٤٤/٢.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٩٠.

خلال قراءته لنص المقدسي، ولكن بعض الباحثين[١]. قام بدراسة حول الخندق فبدأ ذلك بمقياس طوله فذكر بداية الخندق أنه من سفح ذباب [٢] إلىٰ جبل بني عبيد[٣] كيلان كيلان ونصف تقريباً وهذا يعادل خمس وثمانين وأربعة آلاف ذراع، أما بالنسبة إلىٰ عرض الخندق فيبلغ ثمانية أذرع إلىٰ تسعة وهذا يعادل خمسة أمتار ونصف متر وعمقه خمسة أذرع وهذا يعادل ثلاثة أمتار تقريباً، أما اليوم لا يوجد أي دليل يرشد السائلين إلىٰ معالم الخندق، بل حتىٰ الباحث الذي يعرف تحديده يصعب عليه تطبيقه علىٰ الطبيعة لأنّ تفشي العمران مع إهمال المعالم التاريخية جعل ذلك في غاية من الصعوبة[٤].

فمن هنا تأتي أهمية الخندق للمدينة المنورة من الناحية العسكرية إذ يتحصن أهالي المدينة في مدينتهم بحيث يتم إغلاق المدخل الرئيسي والوحيد للمدينة بالخندق ويعسكر جيش المدينة علىٰ منازل الخندق حيث يفصل الخندق بينهم وبين عدوهم وخاصة غزوات البدو وبعض القبائل ولا أدل علىٰ ذلك حينما تعرضت المدينة المنورة لهجوم قبيلة بني هلال[٥] عندما تسببت في خراب كثير من مبانيها وذلك أثناء خلافة الواثق هارون بن محمد الذي حكم بن عامي ٢٢٧-٢٣٢[٦].

ومن أهم التحصينات العسكرية التي وصفها الرحالة المشارقة في مدن الحجاز ما وصفه البشاري المقدسي لمدينة ينبع عندما ذكر بقوله "ينبع كبيرة جلية، حصينة الجدار، غزيرة الماء، أعمر من يثرب..." [٧].

فيستدل من كلام المقدسي أن ينبع كان بها الحصون والقلاع التي تستخدم كمعسكرات للحاميات التي ترسل إلىٰ ينبع لحماية المنطقة من غارات البدو وصد أي هجوم خارجي علىٰ المدينة وكانت الحصون تبنىٰ بواسطة البنائين المهرة الذين يستقدمهم أهالي ينبع حيث تبنىٰ هذه الأسوار بإحكام وبارتفاع عالي حتىٰ تحمي القوات المرابطة بها ولقد وجد الكثير من الأبراج والقلاع في مدينة ينبع ولكنها بنيت في زمن

---

(١) أبي مجاهد عبد العزيز بن عبد الفتاح القاري: من معالم المدينة النبوية الخندق، جريدة المدينة المنورة، العدد ٨٧٤٢، الاثنين الثامن من شوال لعام ١٤١١هـ، ص ١١

(٢) وهو جبل بالمدينة، أسفل من ثنية المدينة وله ذكر في المغازي والأخبار. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٣/٣.

(٣) ذكره البلادي جبل بني عبيدة وهو جبل بالمدينة غرب جبل سلع غير بعيد، بينهما أثر الخندق، انظر: انظر: معجم معالم الحجاز، ١١٦/٢.

(٤) أبي مجاهد: من معالم المدينة المنورة، جريدة المدينة، العدد ٨٧٤٢.

(٥) قبيلة بني هلال: بطن من الحوازم من حرب، يسكن آلاب بوادي الصفراء انظر، البلادي: معجم قبائل الحجاز، ط٢، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، دار مكة، ص٥٥٣.

(٦) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ط٣، ١٤١١هـ، المكتب الإسلامي، ٢٢٩/٢.

(٧) العِيْص، بالكسر ثم السكون، وآخره صاد مهملة وهو موضع في بلاد بني سليم به ماء يقال له ذنبان ذنبان العيص، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢٠٠/٦.

الأيوبيين والمماليك[١].

كذلك أشار الأصطخري[٢] إلىٰ العيص[٣]. وذكر أنه حصن صغير يقع بين ينبع ينبع والمروة[٤] وكذلك العشيرة[٥] وذكر أنها حصن صغير بين ينبع والمروة، وكان الغرض الأساسي لبناء هذه الحصون الدفاع عن المدينة والميناء.

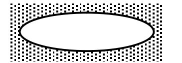
أما مدينة جدة فقد ذكر المقدسي عنها بقوله (جدة مدينة علىٰ البحر منه اشتق اسمها محصنة عامرة...) [٦] فعند زيارة المقدسي لمدينة جدة خلال النصف الثاني من القرن الثالث وجدها محصنة، ولكن السؤال هنا ما هو نمط هذا التحصين؟ وهل هو من ثلاثة جهات والرابع من جهة البحر في حين ذكرت بعض المصادر التاريخية أن الفرس عندما بنيت مدينة جدة حفروا حولها خندقاً من وراء سورها إمعاناً في الحيطة والحذر في أي هجوم عدائي علىٰ المدينة ويُذكر أن الخندق كان مملوءً بماء البحر.. وهناك خندقاً آخر يابساً ليس به ماء من وراء السور بقصد زيادة الدفاع عن البلدة[٧].

وتأكيداً لما ذكره المقدسي فقد ذكر لنا الرحالة ابن جبير أن جدة بأكواخها المصنوعة من القصب وخاناتها المبنية بالحجر وأثار أسوارها، هنا الشاهد حيث يبدو من ذلك أن الأسوار كانت موجودة خلال القرن الرابع والخامس والسادس من الهجرة فكانت زيارة ابن جبير لجدة ٥٧٩هـ [٨].

---

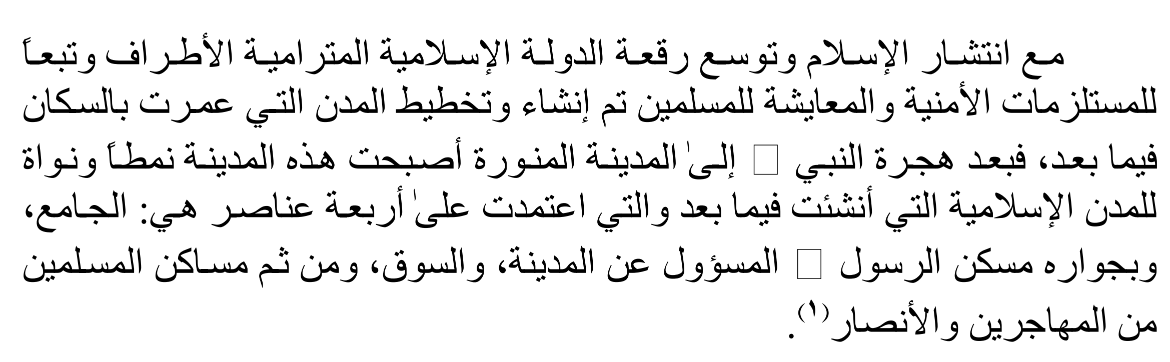
(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٣.
(٢) الاصطخري: المسالك والممالك، دار العلم، ١٣٨١هـ/١٩٦١م، تحقيق محمد شفيق، ص٢٥.
(٣) من أمثلة ذلك قلعة مدسوس وبرج الحميمة وقلعة الفرع بإمارة العيص، انظر، تقرير اللجنة الأثرية الأثرية لمعاينة آثار ينبع والتي شكلت بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ، إصدار الجمعية الجغرافية بالمنطقة، ص١٣.
(٤) المروره: من أعمال المدينة: قرىٰ واسعة وهي لجهينة كان بها سبرة بن معبد الجهني صاحب رسول رسول الله ﷺ وولده إلىٰ اليوم فيها، بينها وبين المدينة ثمانية برد، والحزواء، من وراء ذي المروة علىٰ ليلتين، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ١١٥/٨.
(٥) العُشيرة: ضم أول وفتح ثانية،بعدها الباء أخت الواو والراء مهملة علىٰ لفظ التصغير، موضع تنسب تنسب غزوة النبي ﷺ التي وادع فيه بني مدلج وبني ضمره، وهي أول قرىٰ ينبع النخل مما يلي ينبع البحر، البلادي، معجم معالم الحجاز، ١١٠/٦-١١١.
(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٨.
(٧) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة (تأريخ المستبصر)، مراجعة ممدوح حسن محمد، ١٩٩٦م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٥٦/١-٥٧.
(٨) ابن جبير، محمد بن أحمد أبو الحسن: رحلة ابن جبير، دار الكتاب اللبناني والمصري، بيروت والقاهرة، ص٦٨.





المبحث الثالث

العمارة المدنية



مع انتشار الإسلام وتوسع رقعة الدولة الإسلامية المترامية الأطراف وتبعاً للمستلزمات الأمنية والمعايشة للمسلمين تم إنشاء وتخطيط المدن التي عمرت بالسكان فيما بعد، فبعد هجرة النبي □ إلىٰ المدينة المنورة أصبحت هذه المدينة نمطاً ونواة للمدن الإسلامية التي أنشئت فيما بعد والتي اعتمدت علىٰ أربعة عناصر هي: الجامع، وبجواره مسكن الرسول □ المسؤول عن المدينة، والسوق، ومن ثم مساكن المسلمين من المهاجرين والأنصار(١).

فعند زيارة الرحالة المشارقة للحجاز ذكروا المساكن والأبنية من الحجارة والمسجد في الوسط منها(٢)، فهذا عن مكة وأكد ذلك المقدسي عندما وصف دور مكة وبنائها والمواد المستخدمة في ذلك، وأكد أن منازلها علىٰ شكل طبقات تبنىٰ من الحجارة المختلفة الألوان والآجر وتسقف بخشب الساج، فقال عنها المقدسي: "بناؤها حجارة سود ملس وبيض أيضاً وعلوها الآجر كثيرة الآجر من خشب الساج وهي طبقات مبيضة نظيفة حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب قد رفع الله عنهم مؤونة الدفء وأراحهم من كلف الاصطلاء(٣).

وتأكيداً لما ذكره الرحالة المشارقة نجد أن بعض المنازل والدور التي امتلكها الخلفاء والحجازيون أنها امتازت بالقوة والجمال الهندسي وذلك لأنهم كانوا يجلبون لها العمال من أنحاء الدولة الإسلامية، إلا أنهم اعتمدوا علىٰ بعض الأشخاص الحجازيين الذين عرفوا بالفن المعماري(٤).

وذكر مؤرخو مكة أن المنازل في مكة بنيت للخلفاء من الخارج بالفسيفساء والرخام والميناء الأصفر والأحمر، ويفضل أغنياء مكة البناء بالحجر المنقوش والساج وتكون تلك المنازل مرتفعة الثمن لغلاء مواد بنائها(٥).

إذن كانت الأبنية في الحجاز عامة ومكة خاصة تبنىٰ بالحجارة وهذا ما وصفه لنا الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجري، كما ذكر لنا مؤرخ مكة بقوله عندما وصف أحد المباني: "أن أسفله بالحجارة بيض فوق البناء قباب صغار ملبسة بالفسيفساء"(٦).

لذا نرىٰ اهتمام الحجازيين بتزيين المباني حيث كان هناك تنافس بينهم في عمل البيوت الجميلة التي تلفت انتباه المارة، فنجد أن بعض البيوت تزين بصغائر من اللبن

---

(١) حنان قرقوتي: تخطيط المدن: العمارة والزخرفة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، مؤسسة المسجد، بيروت، ص١٣.
(٢) الإصطخري: المسالك والممالك، ص٢١، ٢٢؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٥ – ٣٦.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٥.
(٤) الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج، تحقيق حمد الجاسر، مطبعة المتنبي، بيروت، ص ٨٩ – ٩٠ – ٩١.
(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ٢٤٣/٢، ٣٠٠.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، طبعة دار الأندلس، ١٣٨٥هـ، ١٠٦/٢.

المطبوخ، ولكن هذا النوع من اللبن سرعان ما يتلف، فنرىٰ بعض الحجازيين يفضل تزيين المنزل بالحجارة المطابقة[(١)] ويقوم بطلي المنزل من الخارج بالنورة أو بالجص الصنعاني[(٢)] ويقوم بتغطية السطح بالمرمر المطبوخ وأيضاً بالجص[(٣)]، ويقوم بعض الحجازيين بعمل المداخل الجميلة لمنازلهم بوضع الأبواب التي يكتب عليها بعض الآيات القرآنية[(٤)] وعند بعض مداخل البيوت يوجد ما يسمىٰ بالدكان وهو مكان للجلوس يحرص صاحب الدار أن يرشه بالماء ويبسط عليه الحصير حيث يتم استقبال الضيوف فيه[(٥)].

هذا بالنسبة إلىٰ وصف المنازل أو الأبنية من الخارج في الحجاز أما التصميم الداخلي للمنازل في الحجاز فلم يتطرق إليها الرحالة المشارقة عند مشاهداتهم أثناء زيارتهم لإقليم الحجاز، لكن المصادر التاريخية المعاصرة لهؤلاء الرحالة أشارت إلىٰ بعض التصميمات الداخلية لبعض المنازل الحجازية، فمن ذلك تكوين المنازل من طابقين يسمىٰ الجزء العلوي من الدار العُلية ويستعمل هذا الجزء العلوي للنوم والراحة[(٦)].

أما الجزء السفلي فيحتوي علىٰ بعض الغرف لاستقبال الضيوف ويلحق به في بعض المنازل أفنية واسعة حيث تختلف سعة هذه الأفنية من منزل لآخر[(٧)]، وأيضاً من من الأقسام الداخلية بالمنزل الجناح وتحتوي المنازل الكبيرة علىٰ عدة أجنحة وتكون هذه الأجنحة في الجزء العلوي من الدار[(٨)].

وتزين جدار بعض البيوت من الداخل بالزجاج ولهم بعض الطرق المعينة في تثبيت الزجاج علىٰ الجدران[(٩)] ولم تكن هذه المنازل متساوية الارتفاع بل كانت هناك المنازل ذات الدور الواحد وأخرىٰ ذات الدورين[(١٠)] ويتصل بالمنزل ما يسمىٰ

---

(١) الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م، ص٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) الأزرقي: المصدر السابق، ٢٦٣/١، ٨١/٢ ـ ١٢ ـ ٣٣٣.

(٣) المصدر السابق، ٢٩١/١ ـ ٣٠٤، ابن رسته: الأعلاق النفيسة، لندن، ١٣٩١هـ، ص٣١.

(٤) ابن الجوزي: صفة الصفوة، ٢٦٠/٢.

(٥) الجاحظ: الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون، (د ـ ت)، ١٧١/٢.

(٦) الأزرقي: المصدر السابق، ٨١/٢.

(٧) ابن بكار: جمهرة، نسب قريش وأخبارها، تحقيق محمود شاكر، بيروت، ١٣٨١هـ ص١٥٨ ـ ١٥٩. ١٥٩.

(٨) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعمي، مطبعة مطبعة العاني، بغداد، ص٦٤٦.

(٩) الأزرقي: أخبار مكة، ١٤١/٢.

(١٠) عبدالعزيز عبدالرحمن كعكي: معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ، ٥٦/٢.

الأرباض وهي تكون حول المنزل ويسكنها الخدم والحشم[١] وللبيوت عادة باب واحد وعندما تكون الدار كبيرة يجعل لها بابان[٢].

ويطلق الناس كلمة الدور علىٰ المنازل الكبيرة والبيوت علىٰ المنازل الصغيرة[٣]، وفي بعض مناطق المدينة المنورة تكون البيوت متلاصقة ومتداخلة حتىٰ أن بعض البيوت لا تصل إليها إضاءة كافية إلا عن طريق فتح كوة بعد موافقة جاره[٤].

جاره[٤].

ويبدو أن في بعض الأبواب فتحات يوضع عليها ستور لتستر ما بداخل المنزل من عيون المارة أو لتعطي عتمة داخل البيت[٥] وتستخدم الستور أيضاً علىٰ نوافذ المنازل وتكون تلك الستور من الصوف[٦].

أيضاً ما شاهده الرحالة المشارقة من عمران في منىٰ فقد كانت آنذاك تقسم خلال موسم الحج بين أهل الأمصار الإسلامية فذكر أحد الرحالة مبيناً ذلك: "وقل بلد مذكور في الإسلام إلا ولأهله به مضرب"[٧]. وهو يشير بذلك إلىٰ وجود منازل معمورة وقائمة وقائمة في منىٰ، يقطن فيها حجاج كل بلد مستقلين عن غيرهم خلال أيام الحج، وأكد ذلك بعض الرحالة الذين سجلوا مشاهداتهم علىٰ المنازل الموجودة في منىٰ بقولهم: "وبها أبنية كثيرة لأهل كل بلد من بلدان الإسلام – وذكروا – أن أبنيتها كالقصور لأهل كل بلد من بلدان الإسلام"[٨].

وأن هذه المنشآت الموجودة في منىٰ تحتاج للحفظ والصيانة فقد أكد المقدسي علىٰ وجود فئات من الناس تقيم بصفة دائمة فيها، بعد أن أوكل لهم حفظها بعد انتهاء الموسم، فقال موضحاً هذا الأمر: "وتعمر أيام الموسم وتخلوا بقية السنة إلا ممن يحفظها"[٩] وبين أن عدد الذين عهد إليهم بحفظها يتراوح ما بين العشرين إلىٰ الثلاثين رجلاً"[١٠].

---

(١) وهو الفضاء حول المنزل. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ١٥٢/٧.الفيروز آبادي: المغانم المطابة، ص٣٤٦.
(٢) الأزرقي: المصدر السابق، ٢٥٠/٢ – ٢٥١.
(٣) ابن شبه: تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم محمود شلتوت، جدة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ٢٥٧/١ – ٢٥٨ – ٢٥٩.
(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ، دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٧٥م، ٤١٩/٥.
(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٥٣/١٠.
(٦) نفس المصدر السابق، ١٧٥/١٠.
(٧) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، ص٨٧. مكان معلوم لضرب الخيام.
(٨) الاصطخري: المسالك والممالك، ص١٦، ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٦.
(٩) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٨.
(١٠) نفس المصدر السابق، ص٧٨.

ففي هذا الجانب لم يقدم الرحالة المشارقة الذين زاروا الحجاز من التفاصيل الدقيقة ما يساعدنا علىٰ معرفة النمط المعماري لهذا النوع من المباني أو أشكال واجهاتها الخارجية والداخلية، وإنما اندرجت إشاراتهم إما في إطار تسجيل تاريخ الإنشاء لهذه القصور والمنازل والبيوت والدور، أو في سياق مشاهدتهم للتهدم الظاهر في المباني السكنية نتيجة للحروب التي شهدها إقليم الحجاز وقراه.

هذا بالنسبة إلىٰ المنازل وما تطرق إليها الرحالة المشارقة من وصفها ومن أهم النواحي العمرانية المدنية، العمارة التي تهتم بالأسواق وكيفية بناؤها وتخطيطها. فقد ذكر الرحالة المشارقة عن المواد المستخدمة في بناء الأسواق في منىٰ بالحجر وخشب الساج[١]، فضلاً عن ذلك فقد أكد المقدسي وهو يتحدث عن منىٰ – توفير المياه والآبار والمصانع المعدة لحفظ المياه فيها[٢].

إذن كانت الأسواق في مكة مبنية بالحجر وخشب الساج، وكذلك لإعطاء صورة تقريبية لبعض أسواق الحجاز فمثلاً سوق المدينة الذي كان يتكون من عدة حوانيت متقاربة والعمد بينها وتكون حوانيت أصحاب كل مهنة متجاورة فمثلاً الجزارين لهم عدة حوانيت متقاربة وفي واجهة كل حانوت وضم، ولعل هذا الوضم هو ما يوضع عليه اللحم ويقطع أمام الشاري، وفي حال كون عدد الحوانيت كبيراً فإن أصحاب التجارة أو الصناعة يكونون سوقاً فرعياً يسمىٰ باسم البضاعة التي تعرض للبيع[٣].

ومن أهم نواحي العمارة المدنية بناء القبور فقد ذكر لنا المقدسي أماكن قبور بعض المشهورين ممن دفن في مكة فقال[٤]: "وبالحرم قبر ميمونة[٥] علىٰ طريق جدة وفي الثنية قبر الفضل[٦] وسفيان بن عيينة[٧] ووهب بن الورد[٨]".

غير أن المقدسي لم يذكر النمط المعماري لهذه المقبرة التي ذكرها باسم الثنية

---

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٨.
(٢) السنيدي: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع، ص٩٦.
(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٢٣٥/١٠ – ٢٣٨ – ٢٦٦ – ٢٦٨.
(٤) المقدسي: المصدر السابق، ص٩٦.
(٥) وهذا خطأ من المقدسي فقبر ميمونة معروف مكانه اليوم وهو بوادي سرف ويبعد عن حد الحرم بأكثر من ثلاثة أكيال. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٩٤/٤. وهي ميمونة بنت الحارث الهلالية رضي الله عنها = =زوج النبي ﷺ توفيت سنة ٦٣هـ. انظر الفاسي، العقد الثمين، تحقيق فؤاد سيد، ط٢، ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، ٢١٩/٨ – ٣٢٠.
(٦) هو الفضل بن عياض، أحد الأئمة الزهاد والعلماء المبرزين ولد بسمرقند، استقر بمكة وهو أحد الثقات الثقات والفقهاء والمجتهدين، توفي سنة ١٨٧هـ. انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ط٧، مؤسسة الرسالة، ١٤١٠هـ، ٤٢١/٨ – ٤٤٢.
(٧) سفيان بن عيينة الهلالي أحد الأئمة الحفاظ وشيخ الإسلام، ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، وانتقل إلىٰ مكة فاستقر بها وتتلمذ علىٰ يد الزهري وعمرو بن دينار، توفي ١٩٨هـ. انظر الذهبي: المصدر السابق، ٤٥٤/٨.
(٨) هو من عباد المكيين أدرك جماعة من التابعين وروىٰ عن عطاء بن رباح، توفي سنة ١٥٣هـ. القاسمي: العقد الثمين، ٤١٧/٧–٤٢٢.

ويقصد بها ثنية كداء وفيها مقبرة المعلاة الشهيرة والتي تقع علىٰ يمين ويسار الصاعد إلىٰ الحجون باتجاه العتيبية وهذه المقبرة دفن بها كثير من الصحابة والمشايخ والعلماء والأخيار وقد تم أثناء عمليات التوسعة التي أجريت في هذه المقبرة العثور علىٰ ما يزيد علىٰ ألف شاهد قبر يرجع تاريخها لفترات إسلامية متنوعة بدءاً من فجر الإسلام حتىٰ نهاية العصر العثماني ولا تزال كثير من الشواهد مثبتة في جدران القبور في هذه المقبرة التاريخية(١).

كذلك من المقابر المشهورة في المدينة مقبرة البقيع فذكر الاصطخري أنها خارج المدينة بقوله: "وبقيع الغرقد خارج باب البقيع في شرقي المدينة..." (٢).

وأن أصل البقيع هو الموضع الذي فيه أورم الشجر من ضروب شتىٰ وبه سمي بقيع الغرقد والغرقد كبار العوسج(٣) فلابد أن تكون هذه المقبرة محاطة بسور مبني بالحجارة.

أما بالنسبة للمنشآت المائية فهي تعتبر من العمارة المدنية التي اهتم بها الخلفاء خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين والتي كانت تغذي أهم مدينتين في الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة والمشاعر المقدسة فقد ذكر الرحالة المشارقة "أن مكة كان أهلها يشربون من آبار مالحة ومن قنوات حفرتها أم جعفر بنت جعفر أمير المؤمنين المنصور في خلافة الرشيد أمير المؤمنين من موضع المشاش(٤) في قنوات رصاص وبينهما اثنا عشر ميلاً فشرب أهل مكة والحجاج من بركة أم جعفر"(٥). وأكد علىٰ ذلك ذلك المقدسي أثناء زيارته لمكة المكرمة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري عندما وصف أنواع متعددة وأشكال مختلفة من مصادر المياه التي كانت تغذي مكة والمشاعر المقدسة، فقد وصف لنا بقوله ثلاث برك للماء في مكة تأكيداً لما ذكره اليعقوبي فقال: "بمكة ثلاث برك تملأ من قناة شقتها زبيدة(٦) من بستان بني عامر"(١)،

---

(١) ناصر بن علي الحارثي: المعجم الأثري لمنطقة مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، دار الحارثي للطباعة والنشر، ص١٩٣ – ١٩٤.

(٢) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢٣.

(٣) عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢٤٤/١.

(٤) المشاش: عين حنين جاء أنه أعاد إصلاحها سليمان باشا ثم انقطعت بعد ذلك، وتسمىٰ اليوم عين الشرائع، وهي لا تسير إلىٰ مكة بل عليها زراعة هناك ونخل، وكانت عين المشاش قد أجريت إلىٰ مكة لسقي أهلها ولكنها ظلت تتعثر فتنقطع باستمرار، وفي حوادث سنة ٢٦٨هـ صار أبو المغيرة إلىٰ مكة وعاملها هارون بن محمد الهاشمي، فجمع هارون جمعاً احتمىٰ بهم، فصار المخزومي إلىٰ مشاش فغور ماءها، حتىٰ تركت مكانها، وهي عين دبجة لا تصلح للشرب، وأول من مدرها زبيدة زوج هارون الرشيد ثم استغنىٰ عنها بعين نعمان المعروفة اليوم بعين زبيدة. انظر عاتق البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٦٣/٨.

(٥) اليعقوبي: البلدان، طبعة ليدن ١٨٩١م، ٣١٢ – ٣١٣.

(٦) هي أم جعفر بنت جعفر بن أبي المنصور المعروفة بزبيدة زوجة هارون الرشيد وأم ولده الأمين، كانت معروفة بالبذل علىٰ أهل العلم، والبر للفقراء والمساكين، ولها آثار خيرية كثيرة علىٰ طرق الحج

عامر"[١]، ولكن المقدسي لم يحدد مكانها بل اكتفىٰ بذكر هذه البرك، بذلك يعطينا المقدسي معلومات بأن مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري تفتقد لمجموعة من خدمات البرك المعدة لحفظ المياه في عدد من أحياء مكة المكرمة[٢].

ومن المعلوم أن زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور قد وضعت في سنة ١٩٤هـ بركة ضخمة في المعلاة، بعد أن جلبت لها المياه من خارج مكة عبر قنوات خصصت لهذا الشأن، كما أن الخلفية العباسي المأمون وعن طريق واليه علىٰ مكة صالح بن العباس قد أنشأ سنة ٢١٠هـ خمس برك أخرىٰ في أحياء مكة تم تغذيتها بالماء من بركة زبيدة بالمعلاة[٣].

وأن نص المقدسي السابق ليؤكد استمرار عمل القناة التي شقتها زبيدة، إلا أن اقتصاره علىٰ ذكر بستان بني عامر كمصدر تأتي منه مياه مكة، ويقصد بذلك العين المعروفة بالمشاش التي بجهة عرفة حيث بستان ابن عامر وبذلك يكون هناك خلاف بين الرحالة في تحديد المشاش هل هي بحنين أم بعرفة؟ وأن هذه العين خربت سنة ٢٦٨هـ من قبل عيسىٰ بن محمد المخزومي الذي أرسله صاحب الزنج للسيطرة علىٰ مكة آنذاك[٤]. وخراب بعض البرك في مكة أكده ابن حوقل عندما قال – وهو يتحدث عن المياه فيها –: "وكانت أكثر مياههم من السماء إلىٰ مواجن وبرك كانت بها عامرة، فخربت باستيلاء المتوالين علىٰ أموال أوقافها واستئثارهم بها"[٥].

وعلىٰ أية حال فإن العيون إبان وجود المقدسي بمكة كانت معطلة[٦] سوىٰ المشروع الخيري الذي قامت به زبيدة التي أجريت عين المشاش لمكة من بتسان بني عامر، غير أن إجماع كثير من المصادر علىٰ عدم صلاحية مياه آبار مكة للشرب وصعوبة استساغتها حيث ذكر لنا اليعقوبي ذلك بقوله: "وشرب أهل مكة من آبار ملحة، ومن القنوات التي حفرتها أم جعفر بنت جعفر بن أمير المؤمنين المنصور"[٧]، غير أن المقدسي كان مخالفاً لليعقوبي حيث أشار إلىٰ وجود عدد من الآبار العذبة فيها دون أن يحدد عددها أو مواقعها[٨]، حيث كانت هناك بئر عذبة زمن وجود المقدسي

العراقية، وكذلك بمكة والمدينة، توفيت سنة ٢١٠هـ. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، ٤٣٣/١٤.

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.
(٢) السنيدي: مكة كما وصفها المقدسي، ص٧٢.
(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦؛ السنيدي: المرجع السابق، ص٧٢.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورىٰ، طبعة ١٤٠٤هـ، جامعة أم القرىٰ، ٣٤٢/٢ – ٣٤٣.
(٥) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٧.
(٦) العصامي، عبدالملك بن حسين: سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالين المطبعة السلفية، القاهرة، (د.ت)، ٩٦/٤.
(٧) اليعقوبي: البلدان، ص١٥٤.
(٨) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٦.

تكفل بحفرها الوزير العباسي علي بن عيسى[١] عند الحناطين[٢] والتي وسعت علىٰ أهل مكة والوافدين إليها وخففت عنهم مشقة الحصول علىٰ الماء آنذاك، وتقع هذه البئر التي عند الخياطين عند سوق الحروزة شمال المسجد الحرام[٣]، وسماها الوزير علي بن عيسىٰ الجراحية[٤]، وتعتبر هذه الأعمال التي يقوم بها الخلفاء وغيرهم من الوزراء الوزراء من أهم الأعمال الخيرية أو ما يسميها بعض المؤرخين أو الباحثين باسم السبيل أو الأسبلة وهي التي ارتبطت بالعديد من أوجه الأنشطة الخيرية ولم تقتصر علىٰ السقاية فقط بل علىٰ أنشطة خيرية من بينها علىٰ سبيل المثال وليس الحصر المصاحف المسبلة والتوابيت المسبلة وغير ذلك مما ورد في وثائق الوقف والمصادر التاريخية المختلفة[٥]، وتتصدر سقاية العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قائمة السبل المكية وكانت تقع في المسافة بين زمزم من جهة المشرق والكعبة، وقد عمرت في خلافة المهدي العباسي سنة ١٥٨ – ١٦٩هـ ثم جرت عليها مراحل من الإصلاح والتجديد والصيانة والتغيير ومنها ما حدث في سنة ٢٠٠هـ بأمر حسين بن حسن العلوي وفي سنة ٢٢٩هـ بأمر الخليفة العباسي الواثق بالله ٢٢٧هـ - ٢٣٢هـ[٦]، ووصف الأزرقي هذه السقاية بقوله: "... وكان في السقاية بابان: باب حيال الكعبة وفيه مصراعان طولهما أربعة أذرع وعشرون أصبعاً وعرضها ثلاثة أذرع وعشرون أصبعاً وعرضه ذراع ونصف الجدر الذي يلي الوادي طوله ثلاثة أذرع وأربعة أصابع وعرضه ذراع ونصف وكان في السقاية ستة أحواض منها ثلاثة طول كل حوض منها خمسة أذرع ونصف وعرض كل حوض منها ذراعان وطول كل حوض منها في السماء ثلاثة أذرع ونصف وثلاثة أحواض طول كل حوض منها ذراع ونصف في السماء... ويصف في الحياض ما يجري في قناة من رصاص والقناة في حجرة زمزم أربعة أذرع وطول قصبة الرصاص من بطن السقاية إلىٰ أعلىٰ الحوض ثلاثة أذرع واثنا عشر أصبعاً"[٧]. وعلىٰ ذلك فإن هذه السقاية بتخطيطها المستطيل وما يحويه هذا

---

(١) هو علي بن عيسىٰ بن داود بن الجراح، ولد سنة ٢٤٥، تربىٰ تربية صالحة في أسرة علمية، تولىٰ عدة مناصب في الدولة العباسية أبرزها الوزارة التي تولها أكثر من مرة كان أولها سنة ٣٠١هـ، توفي سنة ٣٣٤هـ. انظر الصابي، هلال بن الحسين: تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق خليل المنصور، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ص٢٠٧ – ٢٦٥؛ وهناك كتاب خاص عن الوزير علي بن عيسىٰ بن داود بن الجراح، إصلاحاته الاقتصادية والإدارية، للدكتور ضيف الله الزهراني، ط١، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٢) الصابي: تحفة الأمراء، ص٢١١.

(٣) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ٢٧٦/٢.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، ١٤٠٣هـ، ٢٩٤/٢.

(٥) محمد حمزة الحداد: الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، ط١، ٢٠٠٤م، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ص٧ – ٨.

(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ط٩، ١٤٢١هـ، ١٠٤/٢ – ١٠٥.

(٧) نفس المصدر السابق، ١٠٥/٢.

التخطيط من المفردات كالأبواب والأساطين والألواح والأحواض الستة وقناة الرصاص التي كان يجري منها الماء إلىٰ هذه الأحواض من حجرة زمزم فضلاً عن الشرافات التي تعلو الواجهات الأربع كانت نموذجاً فريداً للسقايات لم يتكرر في ضوء المعطيات المتوافرة حتىٰ الآن سواء من المصادر التاريخية أو من النماذج الأثرية الباقية في الأقطار العربية والإسلامية[١] وقد أجريت لها بضعة تغييرات فضلاً عن هدم الشرافات بأمر حسين بن حسن العلوي سنة ٢٠٠هـ[٢].

أما زمزم فذكر بعض الرحالة المشارقة أمثال الأصطخري[٣] وابن حوقل[٤] والمقدسي[٥] أنه وجد الماء فيها كريهاً حيث ذكر ذلك المقدسي أثناء حجه سنة ٣٥٦هـ وطيباً خلال حجته الثانية التي أداها بها سنة ٣٦٧هـ، ولعل ذلك متات من تفاوت كمية الماء في البئر بين موسم الجفاف وموسم الأمطار وتأثير ذلك علىٰ تركيز المواد المعدنية في مياه البئر[٦]. وقد جدد ما علىٰ البئر من أبنية، في خلافة المعتصم بالله سنة سنة ٢٢٠هـ وسقفت بخشب الساج المذهب[٧].

وقد قلت مياه بئر زمزم بشكل كبير في سنة ٢٢٣هـ وسنة ٢٢٤هـ حيث وصف لنا الأزرقي بقوله: "ثم كان قد قل ماؤها جداً حتىٰ كانت تجم في ثلاث وعشرين وأربع وعشرين ومائتين... حتىٰ كان رجل يقال له محمد بن مشير من أهل الطائف يعمل فيها فقال: أنا صليت في قعرها". الأمر الذي دفع محمد بن الضحاك خليفة عمر بن فرج الرجحي الذي كان علىٰ بريد مكة بحفرها تسعة أذرع في دائر أجزاء البئر، ولكن المياه لم تكثر إلا بعد أن أذن الله سبحانه بهطول الأمطار التي أكثرت من مياه السيول سنة ٢٢٥هـ[٨].

أما من حيث المنشآت المائية في المدينة فكانت أحسن حالاً من المنشآت المائية في مكة وذلك لكثرة آبارها وعيونها، وقد حظيت الآبار والعيون والبرك بالمدينة المنورة في العصور الإسلامية بالكثير من العناية علىٰ يد الخلفاء والسلاطين وأعيان

(١) الحداد: الأسبلة في العمارة الإسلامية، ص٣٩.
(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ١٠٥/٢.
(٣) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢٢ – ٢٣.
(٤) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٧.
(٥) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٨.
(٦) عدي مخلص: البشاري المقدسي حياته، ص٤٥.
(٧) الفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهش، ط١، ١٤٠٧هـ، مكتبة النهضة النهضة الحديثة، مكة، ٧٤/٢ – ٧٥.
(٨) المصدر السابق، ٧٤/٢ – ٧٥.

المسلمين[١]، حيث لا يصيب الحجاج أي عناء في سبيل الحصول علىٰ الماء وهم في المدينة حيث ذكر ابن الفقيه الهمذاني أن بالعقيق عدة آبار وعيون وأن أعذب ماء هو ماء رومة بالعقيق[٢] حيث أن المدينة تقع في منطقة كثيرة الماء كما أن بيوتها تشتهر بوجود الآبار داخلها[٣] ومن الجدير بالذكر أن المدينة المنورة خلال القرن الثالث والرابع الهجريين لم تتعرض لأية أزمة في المياه كما لم يحدث أي خراب لعيونها أو آبارها لبعد موقعها عن مجاري الأودية التي تجري فيها السيول، وعن بئر رومة فإنها تقع في عرضة العقيق الكبرىٰ بالمدينة المنورة بقرب مجمع الأسيال شمالي غربي المدينة المنورة، حيث يبلغ طولها ثمانية عشر ذراعاً، منها ذراعان ماء وباقيها مطموم بالرمل، وعرضها ثمانية أذرع، وماؤها صاف[٤]، وقد تهدمت مع مرور الزمن، وعند وعند البئر بناء عال شبه حصن متهدم يقال إنه كان بئراً لليهود، وفي أ طراف هذه البئر آباراً كثيرة أخرىٰ ومزارع[٥].

كذلك من المنشآت المائية في المدينة عين الزرقاء وتقع جنوب غرب المدينة المنورة وتستمد ماءها من عين تسمىٰ الجعفرية[٦]، ولكي يصل ماؤها إلىٰ المدينة أوصلت بمياه آبار عديدة بواسطة قنوات صنعت لتصل هذه الآبار ببعض وتلتقي بعين الزرقاء في مجرىٰ واحد ينقسم في داخل المدينة إلىٰ ثلاث قنوات تسكب ماؤها في ثلاث بازنات بداخل المدينة من أجل سقي أهل المدينة والحجاج في فترة الزيارة[٧].

والجدير بالذكر أن الذي أمر بعمارة هذه العين هو الخليفة معاوية بن أبي سفيان سنة ٥٠هـ بعد أن رأىٰ الراحة التي يتمتع بها أهالي الشام في حصولهم علىٰ المياه من الأنهار الجارية في بلادهم وكان هدف معاوية من إجراء هذه العين واهتمامه بها من أجل استمالة أهل المدينة إليه[٨].

---

(١) آمنة حسين محمد علي جلال: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، (رسالة دكتوراه) جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، الأمانة العامة لمكة المكرمة عاصمة الثقافة الإسلامية، مطابع جامعة الملك عبدالعزيز، ط١، ١٤٢٦هـ، مكة عاصمة الثقافة، ص٣٣٨.

(٢) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ط١، ١٤١٦هـ، ص٨٣.

(٣) سليمان عبدالغني مالكي: مرافق الحج والخدمات المدنية للحجاج في الأراضي المقدسة منذ السنة الثامنة من الهجرة حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز (٣٨)، الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص١٢٨.

(٤) السمهودي: وفاء الوفاء، طبعة ١٣٧٤هـ، ٩٧١/٣.

(٥) الفاسي: العقد الثمين: طبعة ١٣٨٦هـ، ١٦٣/٣.

(٦) الجعفرية: بئر دائرية الفوهة بالجحفة غير بعيدة عن المسجد شرقاً، يقول أهل تلك النواحي: إن سقيا الجحفة كانت منها، انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٥٢/٢.

(٧) عبدالقدوس الأنصاري: آثار المدينة المنورة، ١٩٧٣م، بيروت، ص١٠٧.

(٨) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية في القرن الأول والثاني الهجريين، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٧٠.

ومن الملاحظ أن سبب تسمية هذه العين بالزرقاء نسبة إلى مروان بن الحكم والي المدينة حيث أنه كان أزرق العيين[1]، ويقال إنها سميت الزرقاء لأنها تستقي ماءها من بئر الأزرق الذي يقع بجوار عين جعرانة[2].

ولاستمرار هذه العين من أجل سقي أهل المدينة وتوفير المياه لهم قام الخلفاء بعمل عدة إصلاحات بها خلال القرنين الثالث والرابع من الهجرة، ففي سنة ٢١٠هـ عندما علم المأمون بأمر خراباً حدث ببعض قنواتها أمر واليه على المدينة المنورة بإصلاح هذه القنوات التي تصدعت[3].

---

(١) السمهودي: وفاء الوفاء، طبعة بيروت ١٩٦٨م، ١٠٠٦/٣.
(٢) ابن النجار: الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٨.
(٣) عبدالقدوس الأنصاري، المرجع السابق، ص١٠٤.

المبحث الرابع

الطرق والمسالك

لقد ارتبطت الحجاز منذ فجر الإسلام بطرق ومسالك الحج فنجد أن قوافل الحج تسلك هذه الطرق من مصر والمغرب والأندلس والشام والعراق وشبه الجزيرة العربية، ومن ثمار هذه الطرق والمسالك التي تؤدي إلىٰ المشاعر المقدسة تأتي بمنافع حضارية عديدةمنها هذا اللقاء بالبيت الحرام والمشاعر المقدسة التي تضم المسلمين من كل لون ومن كل جنس في أيام معدودات، وتشييد المساجد والمنازل والقصور والخانات والقلاع وآبار المياه والبرك وفي المناطق الرئيسية عبر هذه الدروب كما أقيمت الأسواق التجارية لتفي بحاجة المارين بهذه الطرق سواء من الحجاج أو القوافل التجارية.

ولهذا تطرق الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين في كتبهم ومؤلفاتهم إلىٰ العناية الخاصة بالتعرف علىٰ الطرقات بين الحجاز والمدن الإسلامية الأخرىٰ وكذلك المسالك بين جميع هذه المدن وفي ذلك يقول ابن خرداذبه: "فهمت الذي سألت من رسم إيضاح مسالك الأرض وممالكها وصفتها وبعدها وقربها وعامرها ومفاوزها ورسوم طرقها وطقوسها علىٰ ما رسمه المتقدمون منها، فوجدت بطليموس قد أبان الحددود وأوضح الحجة بلغة أعجمية فنقلتها عن لغته باللغة الصحيحة"[١].

وأن المتمعن فيما ذكره ابن خرداذبه يلاحظ الأهمية الكبرىٰ للطرق والمسالك المؤدية إلىٰ الحجاز وخاصة دروب الحج فقد اهتم كثير من علماء المسلمين مشارقة ومغاربة ممن رافقوا مواكب الحجيج وأدوا الفريضة بوصف هذه الدروب فتركوا لنا تراثاً جغرافياً وتاريخياً ضخماً تمثل فيما سجلوه من وصف مراحل هذه الدروب ومنازلها ومناهلها، وما أقيم علىٰ امتدادها من منشآت ومرافق لخدمة الحجيج حتىٰ يتيسر لهم قطعها والتغلب علىٰ مشاق الرحلة إلىٰ الديار المقدسة[٢] فكانت طرق الحج منذ فجر الإسلام موضع العناية من قبل خلفاء المسلمين وأمراءهم والأثرياء والتجار لتوفير سبل الراحة للحجاج أو التجار سواء بتوفير الأمن أو بإقامة المنازل والمنشآت والمرافق المختلفة.

فإذا رجعنا إلىٰ ما كتبه الرحالة المشارقة عن الطرق والمسالك في إقليم الحجاز لوجدنا الكم الهائل من المعلومات التي تتحدث عن هذا الجانب فذكر أحد الرحالة المشارقة: "أن من المدينة إلىٰ مكة عشر مراحل عامرة آهلة فأولها ذو الحليفة..."[٣]. وذهب في مقطع آخر فذكر أن من المدينة إلىٰ مكة مائتان وخمسة وعشرون ميلا[٤] فحددها مرة بالمرحلة ومرة بالميل ثم ذكر ميقات ذو الحليفة في أول المدينة وهو ميقات أهل المدينة[٥]

---

(١) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٣.
(٢) آمنة جلال: طرق الحج ومرافقه، ص٤.
(٣) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٣.
(٤) نفس المصدر السابق، ص٣١٤.
(٥) البلادي: معجم معالم الحجاز، ٤٨/٣.

وقد حددها اليعقوبي علىٰ أربعة أميال من المدينة[١] وحددها ياقوت الحموي علىٰ ستة أو سبعة أميال من المدينة[٢] بعد ذلك مروراً بالحفيرة[٣] وهي منازل بني فهر[٤] من قريش وإلىٰ ملل[٥] وهي في هذا الوقت منازل قوم ولد جعفر بن أبي طالب ثم ذكر اليعقوبي أيضاً أيضاً وهو يحدد الطريق بين مكة والمدينة المنورة بقوله[٦]: "وإلىٰ الروحاء[٧] وهي منازل مزينة وإلىٰ الرويثة[٨] وبها قوم من ولد عثمان بن عفان وغيرهم من العرب وإلىٰ العرج[٩] وهي أيضاً منازل مزينة وإلىٰ سقيا بني غفار[١٠] وهي منازل بني كنانة كنانة وإلىٰ الأبواء[١١] وهي منازل أسلم وإلىٰ الجحفة[١٢] وبها قوم من بني سليم وغدير خُم من الجحفة علىٰ ميلين عادل عن الطريق وبها قدير[١٣] وبها منازل خزاعة وإلىٰ

(١) اليعقوبي: المصدر السابق، ص٣١٣.
(٢) البلادي: نقلاً عن الحموي، انظر البلادي: المرجع السابق، ٤٨/٣.
(٣) هي منزل بين ذي الحليفة وملل يسلكه الحاج، انظر البلادي: المرجع السابق، ٣٦/٣.
(٤) بني فهر: بطن من قريش بن كنانة، وهم بنو فهر بن مالك بن النصر بن كنانة ابن خزيمة من العدنانية وكل قريش تنسب إلىٰ فهر. انظر: البلادي: معجم قبائل الحجاز، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار مكة للنشر، مكة، ص٤٠٦.
(٥) ملل: وهو منزل علىٰ طريق المدينة إلىٰ مكة علىٰ ثمانية وعشرين ميلاً بين المدينة وهو وادٍ ينحدر من من ورقان جبل مزينة حتىٰ يصب في الفرش فرش سويقه ويصب في إضم وادٍ يسيل حتىٰ يفرغ في البحر، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢٦١/٨.
(٦) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٣ – ٣١٤.
(٧) الروحاء: قرية صغيرة علىٰ (٧٣ كيلاً) من المدينة علىٰ طريق مكة، ظلت محطة للجمال فلما جاءت السيارات تأخر وقل نزلها. انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ٨٥/٤.
(٨) الرويثة: بينهما وبين المدينة سبعة عشر فرسخاً ومن الرويثة إلىٰ السقيا عشرة فراسخ وعقبة العرج علىٰ أحد عشر ميلاً من الرويثة وبينهما وبين العرج ثلاثة أميال، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٠٢/٤.
(٩) العرج: وهي من بلاد جهينة، وبها آبار كثيرة انظر: الحربي: المناسك، ص٤٤٨؛ وذكر البلادي أن العرج عقبة بين مكة والمدينة علىٰ جادة الحاج وبينها وبين الرويثة أربعة عشر ميلاً، معجم معالم الحجاز، ٦٠/٦.
(١٠) السقيا: قرية جامعة من عمل الفرع بينهما مما يلي الجحفة تسعة عشر ليلاً انظر البلادي: المرجع السابق، ٢٠٩/٤.
(١١) الأبواء: قرية من أعمال الفرع من المدينة بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، وبها دفن عبدالله بن عبدالمطلب والد رسول الله ﷺ ووالدة الرسول ﷺ. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٣٦/١ – ٣٧.
(١٢) الجحفة هي قرية ذات منبر علىٰ طريق المدينة من مكة أربع مراحل وهي ميقات أهل مصر والشام إن لم يمروا علىٰ المدينة. انظر: البلادي: المرجع السابق، ١٢٢/٢.
(١٣) قدير: وادٍ من أودية الحجاز، خصيب كثير العيون والمزارع فيه ٢٥ عيناً اندثر بعض، يأخذ أعلىٰ مساقط مياهه من حرة ذرة وهي جزء من حرة الحجاز العظيمة التي تكون بُس طرفها الجنوبي وحرة واقم طرفها الشمالي. البلادي: المرجع السابق، ٩٦/٧.

عسفان[١] وإلىٰ مر الظهران[٢] وهي منازل كنانة وإلىٰ مكة". فنجد أن اليعقوبي قد ذكر ذكر هذه الأماكن خلال زيارته إلىٰ الحجاز فكان وصفه دقيق لهذه المناطق التي زارها وتعرف علىٰ القبائل التي تقطن هذه الهجر والقرىٰ، حتىٰ في ذكر المسافة بين قرية وقرية ومدينة ومدينة، ثم ذكر اليعقوبي الجار بقوله: "واليه ترسىٰ مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام من مصر"[٣]. فمن المعلوم أن هذا الميناء التاريخي يعتبر يعتبر مدينة يقع علىٰ ساحل بحر القلزم، بينها وبين المدينة يوم وليلة، وإلىٰ ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل، وهي فرضه ترفأ إليها السفن من أرض الحبشة ومصر وعدن والصين وسائر بلاد الهند ونصف الجار في جزيرة في البحر ونصفها علىٰ الساحل، وبحذاء الجار جزيرة في البحر تكون ميلاً في ميل، ولا يعبر إليها إلا بالسفن وهي مرسىٰ الحبشة الخاصة، وتبعد عن المدينة المنورة (٢٠٠) كلم، وعلىٰ حساب القوافل القديمة خمس مراحل هي من المدينة إلىٰ الفريش أو السيالة – متقاربتان – ثم الروحاء أو المنصرف لقربهما من بعض، ثم الحمراء، ثم بدر، ثم البربكة التي هي الجار[٤].

هذا بالنسبة إلىٰ تحديد المسافات والطرق ومعرفة المسالك بين المدينة ومكة وما أفادنا به اليعقوبي خلال القرن الثالث الهجري، فإذا نظرنا إلىٰ تحديد الحرم المكي الشريف فقد ذكر لنا الرحالة المشارقة معلومات عن حدود الحرم، فمن ذلك ما ذكره ابن الفقيه الهمذاني بقوله: "وحدود الحرم من طريق المدينة علىٰ ثلاث أميال، ومن طريق جدة علىٰ عشرة أميال، ومن طريق اليمن علىٰ سبعة أميال، ومن طريق الطائف علىٰ أحد عشر ميلاً، ومن طريق العراق تسعة أميال"[٥]. فنلاحظ أن ابن الفقيه الهمذاني أخذ بوصف حدود الحرم من جميع الجهات الأربع، فذكرت لنا بعض المصادر التاريخية أن الحرم المكي قد أحيط بأعلام طليت باللون الأبيض توضح حد الحرم من الحل، فقال المقدسي: "ويحدق بالحرم أعلام بيض"[٦]، وحيث أن الراضي

(١) عسفان: منهله من مناهل الطريق بين الجحفة ومكة وعسفان بين المسجدين وهي من مكة علىٰ مرحلتين، وقيل عسفان قرية جامعة بها منبر ونخيل ومزارع علىٰ ستة وثلاثين ميلاً من مكة وهي حد تهامة؛ البلادي: المرجع السابق، ١٠٠/٦.

(٢) مر الظهران: وادٍ فحل من أكبر أودية الحجاز حيث يوجد فيه أكثر من أربعين قرية وطوله يبلغ قرابة قرابة مائتين وثمانية كيلاً بقياس أطول روافده وهي نخلة الشامية، علىٰ مرحلة من مكة قصيرة شمالاً وأربعة وعشرين كيلاً علىٰ جادة المدينة المنورة وصار اليوم بعض أهل مكة يختط فيه ويسكنه، انظر البلادي، المرجع السابق، ١٠٠/٨ – ١٠١ – ١٠٢.

(٣) اليعقوبي: البلدان، ص٣١٣.

(٤) البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٠٤/٢ – ١٠٥؛ ضيف الله الزهراني: ميناء الجار، ص٢٤٢ – ٢٤٣. ٢٤٣.

(٥) ابن الفقيه الهمذاني: البلدان، ص٧٨.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، تحقيق مخزوم، ١٤٠٨هـ، دار إحياء التراث، ص٧٩.

العباسي[(١)]، أمر بعمارة العلمين الكبيرين اللذين بالتنعيم في سنة ٣٢٥هـ، واسمه مكتوب عليهما[(٢)]، كما تناول المقدسي الحديث عن أبعاد أرض الحرم عن الكعبة متخذاً – كغيره ممن اهتم بهذا الجانب – من الرحالة المشارقة أمثال ابن الفقيه، كما جاء في النص السابق والذي ذكر لنا فيه الأعلام والحدود التي كانت تحدِّد أرض الحرم، فذكر المقدسي نصاً مشابهاً للنص الذي ذكره ابن الفقيه الهمذاني، حيث ذكر بقوله: "وهو من طريق الغرب التنعيم ثلاث أميال، ومن طريق العراق تسعة أميال، ومن طريق اليمن سبعة أميال، ومن طريق الطائف أحد عشر ميلاً، ومن طريق الجادة عشرة أميال"[(٣)].

فنلاحظ أن ابن الفقيه الهمذاني والمقدسي لم يبينا ما إذا كان أخذا هذه المقاسات والتي تتشابه إلىٰ حد كبير مع بعض ما جاء في عدد من المصادر[(٤)]، أم أنهما استسقيا معلوماتهما ممن سبقوهما في هذا المجال. من ناحية أخرىٰ ذكر المقدسي أن أهل مكة يحرمون منها كما أشار إلىٰ موضعين خارج حدود الحرم يخرج إليهما الناس من مكة للإحرام، وهما الجعرانة التنعيم، فأفادنا ببعض المعلومات عنهما[(٥)]، حيث يقول عن الجعرانة: "علىٰ مرحلة من مكة – يخرج الناس إليها في الإحرام بالعمرة"[(٦)]. كما بين أن التنعيم عبارة عن موضع علىٰ الطريق المؤدي إلىٰ المدينة، وذكر أن فيه مجموعة من المساجد بالإضافة للمسجد المعروف فيه وهو مسجد عائشة كما أكد وجود بعض السقايات في هذا المكان وأشار إلىٰ كثرة إحرام المكيين منه للعمرة[(٧)].

وفي ظل أهم الدراسات التي تطرقت إلىٰ حدود الحرم المكي الشريف ذكر أحد الباحثين حدود الحرم المكي وأفرد له دراسة خاصة ولكن الذي يهمنا في ذلك ما كان معروفاً من حدود زمن وقت زيارة الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع من الهجرة ولعل أقرب فترة لهؤلاء الرحالة هو ما تطرق إليه الأزرقي والفاكهي وكلا المؤرخين عاشا في قرن واحد إلا أن الفاكهي تأخرت وفاته عن الأزرقي ما يقارب

---

(١) محمد بن المقتدر بالله جعفر بن المعتضد بالله أحمر، أبو العباس، الراضي بالله: خليفة عباسي، كانت أيام خلافته أيام ضعف، وحاول إصلاح ذلك فعجز، ولد سنة ٢٩٧هـ، وتولىٰ الخلافة سنة ٣٢٢هـ، وتوفي سنة ٣٢٩هـ. المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٢، ١٣٦٧هـ، تحقيق: محمد محيي الدين، ٤٠٤/٢ – ٤١٢.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، طبعة ١٩٥٦م، ٥/١.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٩.

(٤) علىٰ سبيل المثال، الأزرقي: أخبار مكة، ط٤، ١٤٠٣هـ، ١٣١/٢ – ١٣٢، والفاكهي: أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، ٣٢٨/٤.

(٥) عبدالعزيز السندي: مكة كما وصفها المقدسي، ص١٠٤.

(٦) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٨٠.

(٧) نفس المصدر السابق، ص٨٠ – ٨١.

العشرين عاماً[1]، أما المواضع التي ذكرها في حدود الحرم المكي وأشار إليها بعض الرحالة مثال ذلك جبل نمرة[2] وهو الجبل الذي عليه أنصاب الحرم علىٰ يمينك إذا خرجت من مأزمي[3] عرفة تريد الموقف[4] وهي ذات السليم[5] حيث أشار المقدسي المقدسي وهو يتحدث عن عرفة إلىٰ حدود أعلام وضعت لمعرفة حدودها صبغت باللون الأبيض[6]، كما أكد أن عرفة خارج حدود الحرم عندما قال وهو يتحدث عن المسجد: "وقبله بجبلين المأزمين هي حد الحرم"[7]. وبهذا فقد وضح لنا المقدسي أن عرفة تبعد عن حدود الحرم بميلين تقريباً.

وطريق الطائف القديم المار علىٰ عرفة من بطن نمرة علىٰ أحد عشر ميلاً[8] حيث كان يخترقها منذ القدم طريق الطائف المار علىٰ عرفات وهو طريق مسلوك كما يخترقها من الشرق إلىٰ الغرب بجوار جبل الخطم[9] مجرىٰ عين زبيدة القديم[10].

وكذلك من حدود الحرم التي تطرق إليها الرحالة المشارقة خلال القرن الرابع الهجري ثنية خلَّ وهي علىٰ سبعة أميال من طريق العراق ومن طريق الجعرانة في شعب عبدالله بن خالد بن أسيد علىٰ تسعة أميال هذا ما ذكره ابن رسته عند ذكره لحدود الحرم المكي الشريف[11]. وهي بطرف المقطع منتهىٰ الحرم من طريق العراق[12] فثنية خلَّ لازالت معروفة ويمر بها طريق الطائف ماراً باليمانية لكنها سهلت اليوم

---

(1) عبدالملك بن عبدالله بن دهيش: الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، دراسة ميدانية، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ص١٢١ – ١٢٢.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ط٢، ١٣٨٥هـ، ٣٢٨/٤.

(3) الأزم: الضيق ومنه سمي هذا الموضع وهو موضع بمكة بين المشعر الحرام وعرفة وهو شعب بين جبلين يفضي آخره إلىٰ بطن عُرنة، انظر ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر ودار بيروت، ١٤٠٤هـ، ٤٠/٥.

(4) الموقف هو عرفة كلها، لقول النبي ﷺ: "هذا الموقف وعرفة كلها موقف". أخرجه مسلم في صحيحه، صحيحه، كتاب الحج باب حجة النبي ﷺ، صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م، ١٧٠/٧.

(5) ذكره الأزرقي: أخبار مكة، ٢٩٣/٢.

(6) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص٧٩.

(7) نفس المصدر السابق، ص٧٩ – ٨٠.

(8) نفس الأزرقي: أخبار مكة، ١٣١/٢؛ الفاكهي: أخبار مكة، ٨٩/٥؛ ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص٥٧.

(9) جبل الخطم هو جبل أخشب فيه بياض، مستطيل علىٰ شكل عرف يكنع في وادي عُرنة من الشمال الغربي، شمال عرفة بينهما سيل عرنة المتقدم يسيل غربه وادي السقيا، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ١٣٧/٣.

(10) ابن دهيش: الحرم المكي الشريف والأعلام المحيطة به، ص١٩١.

(11) ابن رستة: الأعلاق النفيسة، ص٥٧.

(12) الأزرقي: المصدر السابق، ٣٨٣/٢؛ الفاكهي: المصدر السابق، ١٧٢/٤.

تسهيلاً كثيراً حتىٰ يُخيل لمن سلكها اليوم أنها ليست ثنية[١].

ومن حدود الحرم التخابر والأعشاش وهو في الحد الغربي، حيث ذكر الأزرقي: "التخابر: بعضها في الحل وبعضها في الحرم وهو علىٰ يمين الذاهب إلىٰ جدة إلىٰ نصب الأعشاش، وبعض الأعشاش في الحل وبعضها في الحرم وهي بحيرة البهيما وبحيرة الرغباء، ما أقبل علىٰ بطن مرَّ منهن فهو حل، ما أقبل علىٰ المديراء منهن فهو حرم"[٢] وبنحو قال الفاكهي[٣] وكذلك ذكر هذا المعلم الأثري ابن رسته بقوله: "ومن طريق جدة منقطع الأعشاش علىٰ عشرة أميال"[٤]. وهي الأرض التي تحيطها الرمال ويخترقها طريق جدة القديم من نهاية جبل الناصرية وما حاذاه من الجنوب حتىٰ تلتقي بالحديبية (الشميسي) وأهل البادية تطلق علىٰ منطقة الأعشاش اسم المنطقة الجردة أي لا نبات بها، وأيضاً من الرحالة الذين تطرق إلىٰ الحديبية الاصطخري حين ذكرها بقوله: "أن الحديبية بعضها في الحل وبعضها في الحرم وهو مكان صد فيه المشركون رسول الله ﷺ عند المسجد الحرام وهو أبعد الحل إلىٰ البيت وليس هو في طول الحرم ولا في عرضه إلا أن في مثل الزاوية للحرم فلذلك صار بينها وبين المسجد أكثر من يوم"[٥].

ومن الملاحظ في النص السابق الذي ذكره الاصطخري يجد أنه حدَّد ذلك المكان الذي كانت أحداثه سبباً في فتح مكة وذكر أن بعضه في الحل وجزءاً منه الحرم وأيضاً ذكر أن المسافة بينه وبين المسجد أكثر من يوم، والجدير بالذكر أن هذا المكان الذي اجتمعت فيه قريش مع الرسول ﷺ يطلق عليه في السابق الحديبية والآن يطلق عليه الشميسي وهو مكان حفر فيها أحدهما، وكان يدعىٰ شميساً بئراً فسميت (بئر شميس) ثم عرفت بالشميسي تبعد (٢٢) كيلاً عن مكة في طريق جدة وليست بعيدة عن أنصاب الحرم هناك[٦].

وقد أطلق الأزرقي[٧] والفاكهي[٨] اسم التخابر علىٰ تلك الأرض المستوية التي التي تمتد من نهاية جبال الناصرية إلىٰ الأعلام الأعشاش وقال: (التخابر: بعضها في الحل وبعضها في الحرم وهي علىٰ يمين الذاهب إلىٰ جدة إلىٰ نصب الأعشاش).

إذاً... هذه الأعشاش بعضها في الحل وبعضها في الحرم، وضابط ما يميز الحل من الحرم منهن هو السيل، فما سال منهن علىٰ بطن وادي مرَّ الظهران فهو حل، وما

---

(١) ابن دهيش: الحرم المكي الشريف، ص٢٠٦.
(٢) الأزرقي: المصدر السابق، ٣٠١/٢.
(٣) الفاكهي: المصدر السابق، ٤٢٠/٤.
(٤) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٧٥.
(٥) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢٣.
(٦) البلادي: معجم معالم الحجاز، ٩٦/٥.
(٧) الأزرقي: المصدر السابق، ٣٠١/٢.
(٨) الفاكهي: المصدر السابق، ٢٣٠/٤.

سال منهن علىٰ (المديراء[1]) فهو حرم[2].

أما ثنية لبن فيها من الأعلام المحيطة بالحرم المكي من حدَّه الجنوبي وقد تطرق إليها ابن رسته بقوله: "ومن طريق اليمن طرف أضاءة لبن في ثنية لبن علىٰ سبعة أميال"[3].

وأكد وجودها الأزرقي والفاكهي والمسافة التي بينها وبين المسجد الحرام والتي تبلغ سبعة أميال، حيث ذكرها الأزرقي بقوله[4]: "ثنية لبن علىٰ سبعة أميال من طريق اليمن" ومثله قال الفاكهي[5] وأن الذي سماها باسم ثنية لبن الأزرقي وأضافها إلىٰ لبن لأنها لأنها أقرب الثنايا أو الريعان والتي تقع في الطرف الشرقي لجبل كبير مشهور يقال له (جبل القشع) وهو يقع إلىٰ الجنوب من جبل لبين وهذه الريعان الثلاثة عبارة عن ممرات ضيقة ليست بواسعة، تشبه الأبواب فقالوا لها: البيبان، كما أنها تظهر للقادم إلىٰ مكة من هذا الدرب علىٰ جبل لبن[6].

هذا بالنسبة للأعلام المحيطة بالحرم المكي الشريف والتي وردت في كتب الرحالة المشارقة أمثال اليعقوبي وابن الفقيه الهمذاني وابن خرداذبه خلال القرن الثالث الهجري وابن رسته والاصطخري وابن حوقل والمقدسي خلال القرن الرابع الهجري.

ومن الطرق والمسالك والتي أمدنا بها الرحالة المشارقة خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين من معلومات قيمة هي التي عنيت بالمشاعر المقدسة فمن هؤلاء الرحالة المشارقة الاصطخري والذي أمدنا بمعلومات جيدة عن منىٰ بقوله: "ومن منىٰ علىٰ طريق عرفة من مكة وبينها وبين مكة ثلاثة أميال"[7]. فهنا حدد الاصطخري المسافة التي بين منىٰ ومكة المكرمة بثلاثة أميال ثم رجع وذكر أوصاف منىٰ بقوله: "ومنىٰ شعب طوله نحو ميلين وعرضه يسير"[8] ثم ذكر أن بها أبنية لأهل كل بلد من بلدان الإسلام وذكر المقدسي[9] أن منىٰ داخلة ضمن حدود الحرم وتبعد عن مكة

---

(١) المديراء: عين جارية في الريان من وادي الفرع فوق السدر، والمديراء يطلق اليوم علىٰ ما كان يعرف بالمنبجس من العرج علىٰ الطريق بين شرف الأثابة والحفاء تبعد المديراء ثلاثة أكيال من محطة شرف الأثابة وهي في أول وادي العرج قبيل اجتماعه بالعود فيها مزرعة عترية ذات مدر يدل علىٰ عظيم قدمها الزمني، انظر: البلادي: معجم معالم الحجاز، ٦٧/٨.

(٢) للمزيد عن هذه المعلومات انظر: ابن دهيش: الحرم المكي الشريف، ص٣٣٣.

(٣) ابن رسته: الأعلاق النفيسة، ص٥٧.

(٤) الأزرقي: المصدر السابق، ١٣٠/٣ – ١٣١.

(٥) الفاكهي: المصدر السابق، ٨٩/٥.

(٦) ابن دهيش: المرجع السابق، ص٤٠٢.

(٧) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢٢.

(٨) نفس المصدر السابق، ص٢٢.

(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٨.

مسافة فرسخ والفرسخ يقدر بثلاثة أميال[1] فكان في وصفه تطابق بوصفه الاصطخري الاصطخري الذي حدد هذه المسافة بالميل، في حين أن المقدسي أكد وقوعها بين جبلان يطلان عليها وأن طولها ميلان فقط[2].

كما أفاد المقدسي أن منىٰ عبارة عن شارعين – شعبين – فيهما عدد من الأزقة وذكر أن فيها مسجدان، مسجد الخيف في الشارع الأيمن من شوارع منىٰ والآخر مسجد الكبش بقرب العقبة وبين موقع الجمرات الثلاثة وقال أن جمرة العقبة علىٰ رأس منىٰ نحو مكة والثالثة عند مسجد الخيف والوسطىٰ بينهما[3].

كذلك حدد ابن حوقل المسافة التي بين منىٰ ومكة بقوله: "منىٰ علىٰ فرسخ من مكة وهي من الحرم طولها ميلان تعمر أيام الموسم وتخلو بقية السنة".

ووصف بعض المؤرخون الطريق إلىٰ منىٰ بقوله: "وقبل أن تصعد إلىٰ منىٰ من يسار الطريق بأصل الجبل المسجد الذي بايع فيه الرسول ﷺ بيعة العقبة ثم إذا جاوزت ذلك فمسجد الخيف هنالك عن يمين الطريق"[4].

كذلك من الأوصاف التي وصفها المؤرخون خلال القرنين الثالث والرابع من الهجرة والتي كانت في فترة زيارة هؤلاء الرحالة المشارقة أيضاً ما وصفه صاحب كتاب المناسك "لمنى" حيث ذكر بقوله: "وجمرة العقبة إذا صعدت العقبة فذرع ما بين الجمرة القصوىٰ إلىٰ الجمرة الوسطىٰ أربع مائة ذراع وثماني وخمسون ذراعاً وذرع ما بين الجمرة الوسطىٰ إلىٰ الجمرة الدنيا مائتا ذراع وستون ذراعاً"[5].

فنلاحظ أن وصف الرحالة المشارقة مع بعض ما كتب في تلك الفترة مطابق لما كتبه المؤرخون الذين وصفوا منىٰ، فهذا دليل علىٰ دقة وصف الرحالة المشارقة في ذلك الوقت وما ذكره الرحالة من معالم تاريخية أمثال ذلك مسجد البيعة والخيف حتىٰ أنهم ذكروا المسافات بين مكة ومنىٰ وبين الجمرات الثلاثة والمسافات التي بين كل جمرة وأخرىٰ.

كذلك تطرق الرحالة المشارقة إلىٰ "المزدلفة" فذكر بعض الرحالة بقولهم: "والمزدلفة مكان بين مُحسر والمأزمين..." [6]، فهنا حدّد المزدلفة وقال أنها بين محسر محسر والمأزمين، ومحسر هو وادٍ صغير يمر بين منىٰ ومزدلفة وليس منهما، يأخذ من سفوح كبير الأثيرة الشرقية ويدفع إلىٰ عُرنة ماراً بالحسنية ليس به زراعة ولا عمران والمعروف منه ما يمر فيه الحاج علىٰ الطريق بين منىٰ ومزدلفة وله علامات

---

(١) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، ٣٣٨١/٦.
(٢) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٨ – ٧٩.
(٣) المصدر السابق، ص٧٨ – ٧٩.
(٤) الحربي: المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، ص٥٠٣.
(٥) الحربي: المناسك، ص٥٠٤.
(٦) الاصطخري: المسالك والممالك، ص٢٢؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص٣٦.

هناك منصوبة[١]، ولقد سمىٰ بعض الرحالة المشارقة مُحسر ببطن محسر وحدد موقعه بقوله: "أما بطن محسر فهو واد بين منىٰ والمزدلفة وليس من منىٰ ولا من المزدلفة"[٢]، أما المأزمين فهو طريق يأتي المزدلفة من جهة عرفة إذا أفضيت معه كنت في المزدلفة وهو طريق ضيق بين جبلين يسميان الأخشبين وقد عُبِّد اليوم وجعلت له ثلاثة معبدات إحداها طريق للمشاة يفصله عن طريق السيارات شبك[٣].

كما أن المقدسي حدَّد ذلك المكان الذي له مكانة في نفوس المسلمين بقوله: "أن المزدلفة تبعد عن منىٰ فرسخ كما ذكر ما فيها من منشآت لخدمة الحجاج من برك وحوانيت، وكذلك أشار المقدسي إلىٰ وجود مصلىٰ حيث ذكر أن فيه منارة دون أن يبين لنا نوعية عمارتها ووصفها أو أطوالها ومسافاتها[٤]، لكن صاحب كتاب المناسك أشار إلىٰ ذلك المصلىٰ أو المسجد الموجود في المزدلفة بقوله: "ومبلغ ذرع مسجد المزدلفة تسع وخمسون ذراعاً في عرضه مثل، حوله حائط كما يدور، غير مظلل، وفيه من الأبواب ستة، منها في القبلة بابان عن يمين القبلة بابان وعن يسار القبلة بابان، وسعة مؤخر المسجد فضاء مفتوح عرضه ست وأربعون ذراعاً"[٥]. وأكد علىٰ وجود هذا المسجد مؤرخ مكة الأزرقي بقوله: "وذرع مسجد مزدلفة تسعة وخمسون ذراعاً وشبر في مثله... والمسجد يدور حوله جدار، ليس بمظلل"[٦].

والجدير بالذكر أن المقدسي أشار إلىٰ بطن محسر فوضح أنه علىٰ حدود المزدلفة فيما بينها وبين منىٰ دون أن يتعرض لبعض الجوانب الشرعية المتعلقة في هذا المكان كعادته عندما يجد فرصة للحديث عن جوانب فقهية أو تشريعية فقال: "بطن مُحسر: وادٍ بين منىٰ والمزدلفة، وهو تخم – حدّ – المزدلفة"[٧].

أما عرفة فقد حدَّد بعض الرحالة المشارقة المسافة التي بينها وبين مكة بقوله: "ومن مكة إلىٰ عرفات اثنا عشر ميلاً"[٨]. وحين ذكر رحالة آخر أن عرفة ما بين وادي عرنة إلىٰ حائط بني عامر[٩]، فقد حدد الرحالة أن عرفة ما بين ودي عرفة إلىٰ حائط بني عامر، ووادي عرفة وادٍ من أودية مكة المكرمة ذو روافد متعددة يأخذ أعلىٰ مساقط مياهه من الثنية وهي فزر يقع بين جبال الهدأة وجبال طاد والتنضب، يسيل

---

(١) البلادي: معجم معالم الحجاز، ٤١/٨ – ٤٢.
(٢) الاصطخري: المصدر السابق، ص٢٢؛ ابن حوقل: المصدر السابق، ص٣٦.
(٣) البلادي: المصدر السابق، ٩/٨.
(٤) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٩.
(٥) الحربي: المناسك، ص٥٠٨.
(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ١٨٧/٢.
(٧) المقدسي: المصدر السابق، ص٧٩.
(٨) ابن الفقيه: المصدر السابق، ص٧٨.
(٩) الاصطخري: المسالك، ص٢٢؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص٦٠.

ماؤها الشرقي إلىٰ روافد نخلة اليمانية والغربي إلىٰ صدر عرفة[١]، فكانت هذه بداية عرفة كما أشار بعض الرحالة أيضاً وهو يتحدث عن عرفة إلىٰ وجود أعلام وضعت لمعرفة حدودها، صبغت باللون الأبيض كما أكد أن عرفة خارج حدود الحرم عندما قال وهو يتحدث عن المسجد: "وقبله بميلين المأزمين هي حدّ الحرم"[٢]، وأفاد أن عرفة تبعد عن حدود الحرم بميلين تقريباً، هذا بالنسبة إلىٰ طرق ومسالك المشاعر المقدسة.

وأما بالنسبة لمدينة رسول الله ﷺ فقد ذكر أن حد حرم المدينة ما بين حرة الوبرة وحرة واقم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "حرم ما بين لابتي المدينة علىٰ لساني"[٣]. وحرة الوبرة قريبة من المدينة وهي جزء من الحرة الغربية وليست من ديار أسلم إنما كانت للأنصار[٤]، أما حرة واقم فتعرف اليوم بحرة المدينة الشرقية وبها جرت الواقعة التي سميت واقعة الحرة[٥]، وعمرت اليوم جهاتها الجنوبية حتىٰ أصبحت من أحياء المدينة المنورة، فقد ذكر الاصطخري عن المدينة المنورة وطرقها ومسالكها معلومات في غاية الدقة حيث ذكر بقوله: "وبقيع الغرقد خارج باب البقيع في شرقي المدينة..."[٦]، حيث يتضح من قول الاصطخري أن بقيع الغرقد وهو موضع فيه أروم الشجر من ضروب شتىٰ والغرقد هو كبار العوسج، خارج الباب الشرقي للمدينة المنورة وهو مقبرة أهل المدينة، مما يدل أن مساحة المدينة المنورة كانت تضم فقط المسجد والبيوت التي تحيط به، ويدل علىٰ ذلك أيضاً الاصطخري بقوله: "وقباء خارج المدينة علىٰ ميلين إلىٰ ما بين القبلة"[٧]، بل شبه قباء قباء بالقرية بقوله: "وهو مجمع بيوت الأنصار يشبه القرية"[٨]، وهي علىٰ ميلين من المدينة يسار القاصد إلىٰ مكة، بها أثر بنيان كثير ويوجد بها مسجد التقوى[٩]، ثم حدّد الاصطخري موقع جبل أحد والمسافة بينه وبين المدينة المنورة بقوله: "وأحد جبل في

---

(١) البلادي: أودية مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار مكة للنشر، مكة المكرمة، ص٢٣.
(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص٧٩.
(٣) أبو عبدالله البخاري: صحيح البخاري مع فتح الباري، تحقيق: عبدالعزيز بن باز، دار المعرفة، بيروت، رقم الحديث ١٨٦٩، ٨١/٤.
(٤) البلادي: معجم معالم الحجاز، ١١٥/٩.
(٥) واقعة الحرة حدثت في أيام يزيد بن معاوية في سنة ٦٣هـ وأمير الجيش من قبل يزيد ابن مسلم بن عقبة المري الملقب بـ (مسرف) لقبيح صنيعه مسرفاً، قدم المدينة فنزل حرة واقم وخرج إليه أهل المدينة يحاربونه فكسرهم وقتل منهم أعداداً كبيرة. انظر: البلادي: المرجع السابق، ٢٨٥/٢.
(٦) الاصطخري: المسالك، ص٢٣.
(٧) نفس المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٨) نفس المصدر السابق والصفحة نفسها.
(٩) المقدسي: أحسن التقاسيم، ط ١٤٢٤هـ، ص٩٠.

شمال المدينة وهو أقرب الجبال إليها علىٰ مقدار فرسخين"[1]، وأحد جبل المدينة المشرف عليها من الشمال أحمر معروف لدىٰ الجميع، وأهل المدينة يسمونه (حِنّ) ويقع حي الشهداء بسفحه الجنوبي، وعنده كانت الواقعة الشهيرة التي قتل فيها حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، عم النبي ﷺ وسبعون من المسلمين[2].

(١) الاصطخري: المصدر السابق، ص٢٣.
(٢) البلادي: معجم معالم الحجاز، ٥٨/١ – ٥٩ – ٦.

الخاتمـــة

لقد كشفت لنا كتب الرحالة المشارقة الكثير من الحقائق والمعلومات التاريخية والجغرافية وأوصلت بنا كتبهم إلى عدد من النتائج ، سواء من حيث أصالة معلومات مصنفاتهم وقيمتها العلمية أو من حيث منهجهم ومصادر معلوماتهم ، ولعل أهم النتائج التي توصل إليها البحث كانت على النحو التالي:

- عناية المسلمون بعلم تقويم البلدان عناية خاصة لحاجتهم إلى معرفة الطرق إلى مكة وذلك للقيام بفريضة الحج.
- إن كثرة المصنفات التي دونها الجغرافيون المسلمون عن رحلاتهم لم تظهر ظهوراً واضحاً إلا في العصر العباسي الثاني وعلى وجه التحديد في أوائل القرن الثالث الهجري.
- كانت الرحلة عوناً كبيراً للمؤرخ الجغرافي على حد سواء ولعل من بين أهمية الرحلة لأعمالها هو صقل المنهج وتأكيد المشاهدة والمعاينة، الأمر الذي أوثق المرئيات وأكد حدوث الوقائع.
- كانت الرحلة تتأثر بشخصية كاتبها الذي لم يكن همه فقط إيراد الحقائق بل والتأثير على قارئها فظهرت شخصيات الرحالة وطبيعة أمزجتهم ونفسياتهم من خلال ما سجلوه وهذا من مميزات الرحلات العديدة
- أن كل من كتب عن الرحلات قد مهد الطريق وأسهم في الكشف عن جوانب مجهولة فيها.
- أن الرحلات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج شهدت فترتين متباينتين عرفت في الأولى بالازدهار فتكاثرت وتطورت في أشكالها ومضامينها ،وفي الثانية اعتراها الفتور الذي كان مرده الظروف الأمنية
- إن كتب الرحلات من أهم الكتب التي تشير بجلاء للجانب العلمي فقد كشف الرحالة عن أهم المنابع التي استقوا منها علومهم وسجلوا النشاط العلمي للعلماء الذين أخذوا عنهم والمراكز الثقافية والمدارس التي تلقوا فيها علمهم.
- أن بعض الرحالة اتبع منهجاً علمياً وطبقه على ما رآه لأنه خط رحلته بيده واستفاد من خبراته الشخصية وملاحظاته العلمية الدقيقة ولذلك جاءت رحلاتهم خالية خلواً يكاد يكون تاماً مما يدخل في باب الأساطير والأعاجيب.
- نجد أن بعض الرحالة يستشهد بالشعر. إلا أننا نجد معلوماته للطرق والمسالك أغزر من غيره من الرحالة الجغرافيين كما أن بعضهم يهتم اهتماماً كبيراً بالناحية الإدارية وخاصة في منطقة السواد فقد أولى بعضهم الناحية الإدارية في هذه المنطقة أكثر اهتماما
- امتاز بعض الرحالة في منهجهم عن غيرهم من علماء الجغرافية بأنهم اعتمدوا على معرفتهم الشخصية المكتسبة من أسفارهم ولقاءاتهم بعمالقة الفكر الجغرافي، لذا ظهر نتاجهم في هذا المجال متكاملاً وخاصة ما يخص بلاد الإسلام من حيث طبيعة الأرض والحياة الاجتماعية في الحواضر والأرياف.
- ضعف النشاط العلمي في الحجاز نتيجة لقتل الكثير من العلماء في سنة

٣١٧هـ،حيث ظهرت قلة الحلق والمجالس العلمية في الحجاز و هجرة الكثير من العلماء للأقطار الإسلامية الأخرى لتوفر الأمن والاستقرار.

- تعدد أجناس العلماء في مكة المكرمة والمدينة المنورة وبقية بلدان الحجاز، فكان منهم العرب، كما كان منهم الموالي الذين شاركوا في دعم النشاط العلمي بشكل ملفت للنظر فشكلوا أغلبية المهتمين بالعلم في مكة.
- بروز ظاهر للمجاورين في أرض الحرمين التي كان لها أكبر الأثر في تشكيل حلقات دراسية ومناظرات علمية خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.
- سجل الرحالة المشارقة معلومات دقيقة عن إقليم الحجاز من حيث : الموقع والجبال المحيطة به وكذالك صفات السكان وعاداتهم والإحتفالات التي تقام في هذا الإقليم.
- جاءت نصوص الرحالة المشارقة التي أوردوها في مصنفاتهم عن إقليم الحجاز متشابهه في أغلب الأحيان لأن بعضهم نقل معلوماته من رحالة سبقوه في هذا المجال مع الاختلاف أحياناً في معالجة بعض القضايا .
- أن كتب الرحالة المشارقة يسرت الوصول إلى الكثير من الحقائق التاريخية التي أتاحت تغطية مساحات من تاريخ الحجاز الذي غفل عنه المؤرخون خاصة في القرنين الثالث والرابع الهجريين.
- أشار بعض الرحالة المشارقة للصراع بين الجزارين والخياطين وأن الخلاف المذهبي كان السبب الرئيسي في نشوب هذا الصراع.
- أشار بعض الرحالة المشارقة إلى بعض العملات والنقود المتداولة في الحجاز سواء الدائمة أو الموسمية .
- لقد استفاد بعض هؤلاء الرحالة من مصنفات المؤرخين المكيين الذين سبقوهم أمثال الأزرقي والفاكهي خاصة فيما يتعلق بوصف الكعبة والمسجد الحرام والمشاعر المقدسة
- أغفل بعض هؤلاء الرحالة بعضاً من الجانب السياسي لإقليم الحجاز رغم كثرة الأحداث السياسية خلال فترة الدراسة .

وفي نهاية هذه الخاتمة الموجزة أحمد الله سبحانه وتعالى الذي جعل من بين المسلمين علماء خدموا الدين والعلم من أمثال هؤلاء الرحالة المشارقة الذين قدروا العلم ، والتي تعد رحلاتهم من أهم الرحلات بكل مقاييس العلم والثقافة في مجال الدراسات الإسلامية والعربية ، والتاريخ ، والجغرافيا ، وعلم البلدان والتي أضافت أبعاداً جديدة إلى الرحلة في طلب العلم وأسهمت في ظهور الاتجاه العلمي التجريبي والتطبيقي ووضعت البناء الشامخ لأحد فروع العلم والثقافة هذا وقد أنار هؤلاء الرحالة المشارقة الطريق لمن جاء بعدهم في هذا المجال.

وأتمنى من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت في هذا الموضوع . وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

الباحث ..

المصـــادر والمراجع

المصـــادر والمراجع

أولاً: المصـــادر:

= القرآن الكريم.
١- الأبشيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت/٨٥٠هـ): المستطرف في كل فن مستطرف، دار الفكر، بيروت، [د. ت].
٢- ابن الأثير، أبي الحسن بن أبي بكر الشيباني (ت/٦٣٠هـ): أسد الغابة في معرفة الصحابة، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ، تحقيق خالد طرطوس، دار الكتاب العربي، بيروت.
٣- ـــــــــــــ: الكامل في التاريخ، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبدالله (ت/٥٦٠هـ): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٧٠ – ١٩٧١م.
٥- الأزرقي، محمد بن عبدالله بن محمد (ت/٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، الطبعة التاسعة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م تحقيق: رشيد ملحس، دار الثقافة، مكة المكرمة.
٦- الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد (ت/٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، تحقيق عبدالسلام هارون، القاهرة، ١٩٦٤م.
٧- الأسنوي، عبدالرحيم جمال الدين بن الحسن بن علي (ت/٧٧٢هـ): طبقات الشافعية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨- الاصطخري، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت/٣٤٦هـ): المسالك والممالك، طبعة عام ١٣٨١هـ، تحقيق: محمد عبدالعال، دار القلم، القاهرة.
٩- الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت/٤٣٠هـ): أخبار أصبهان، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، نشره: عبدالوهاب عبدالواحد الخليجي، الدار العلمية، دلهي، الهند.
١٠- ـــــــــــــ: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار الكتاب العربي، بيروت.
١١- الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن (ت/٢١٠هـ): الأغاني، تصحيح: الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم، القاهرة [د.ت].
١٢- ـــــــــــــ: بلاد العرب، تحقيق: حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.
١٣- ـــــــــــــ: مقاتل الطالبيين، دار المعرفة، بيروت، تحقيق: أحمد صقر، [د.ت].

١٤- ابن إياس، محمد بن أحمد الحنفي، (ت/٩٣٠هـ): بدائع الزهور، تحقيق: محمد مصطفىٰ، الهيئة المصرية العامة لكتاب [د.ت].
١٥- البتنوني، محمد لبيب، الرحلة الحجازية لولي النعم الحاج عباس حلمي باشا الثاني خديوي مصر، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٥هـ.
١٦- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (ت/٢٥٦هـ): صحيح البخاري بحاشية السندي، بيروت، المكتبة الثقافية [د.ت] ودار المعرفة، بيروت [د.ت].
١٧- البغدادي، إسماعيل باشا (ت/١٣٣٩هـ): هدية العارفين "أسماء المؤلفين وآثار المصنفين"، وكالة المعارف، استانبول، ١٩٥٥م، مكتبة المثنىٰ، بغداد، دار العلوم، بيروت، ١٩٨١م.
١٨- البغدادي، صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (ت/٧٣٩هـ): مراصد الاطلاع علىٰ أسماء الأمكنة والبقاع، الطبعة الأولىٰ، ١٣٧٣هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
١٩- البغدادي، عبدالله بن محمد بن عبيد (ت/٢٨١هـ): ذم الدنيا، الطبعة الأولىٰ ١٤١٣هـ، تحقيق: محمد عبدالقادر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
٢٠- ابن بكار، أبو عبدالله الزبير بن بكار بن عبدالله بن الزبير بن العوام (ت/٢٥٦هـ): جمهرة نسب قريش وأخبارها، تحقيق: محمود شاكر، ١٣٨١هـ، بيروت.
٢١- ــــــــــــ: الأخبار الموفيات، تحقيق سامي مكي العاني، بغداد، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
٢٢- البكري، أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز البكري الأندلسي (ت/٤٨٧هـ): المسالك والممالك، الدار العربية للكتاب، تونس، تحقيق: دريان فان، ١٩٩٢م.
٢٣- ــــــــــــ: معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق جمال طلبة.
٢٤- البلاذري، أحمد بن يحيىٰ بن جابر (ت/٢٧٩هـ): أنساب الأشراف، تحقيق عبدالعزيز الدوري، ١٤٠٠هـ، [د.ت].
٢٥- البيهقي، أبو الفضل محمد بن الحسن: تاريخ بيهق، تحقيق: أحمد بهينار، طهران، [د.ت].
٢٦- الترمذي، أبو عيسىٰ بن سورة بن موسىٰ (ت/٢٧٩هـ): جامع الترمذي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ، دار السلام، الرياض.
٢٧- ابن تغري بردي أبو المحاسن، جمال الدين يوسف البشغاوي الظاهري (ت/٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، ١٩٥٦م.
٢٨- التلمساني، محمد أبو بكر (ت/٦٤٠هـ): وصف مكة ووصف المدينة ووصف بيت المقدس، مجلة العرب، تحقيق: حمد الجاسر، السنة الثانية، ١٣٩٣هـ.

٢٩- التنوخي، أبو علي بن المحسن بن أبي القاسم (ت/٢٣٧هـ): المستجاد من فعلات الأجواد، دمشق، ١٣٦٥هـ/١٩٤٦م.
٣٠- ــــــــــــــ: الفرج بعد الشدة، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، دار صادر، تحقيق عبود الشالجي، بيروت.
٣١- ــــــــــــــ: نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، دار صادر، ١٣٩١هـ، بيروت، تحقيق عبود الشالجي.
٣٢- التوحيدي، ابن حيان علي بن محمد بن العباس (ت/٤٠٠هـ): الإمتاع والمؤانسة، منشورات المكتبة العصرية، ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م، بيروت، تحقيق أحمد أمين.
٣٣- ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبدالحليم (ت/٧٢٨هـ): تحريم النرد والشطرنج، الرياض، ١٤٠٠هـ، تحقيق محمد حسين العقبي.
٣٤- ثابت بن سنان بن ثابت (ت/٣٦٥هـ): تاريخ أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار، بيروت، ١٣٩١هـ، مؤسسة الرسالة.
٣٥- الثعالبي، أبو منصور عبدالملك محمد (ت/٤٢٩هـ): ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، مطبعة الظاهر، القاهرة، ١٣٢٦هـ.
٣٦- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (ت/٢٥٥هـ): البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت [د. ت] وطبعة القاهرة، ١٩٧٥م.
٣٧- ــــــــــــــ: الحيوان، تحقيق هارون عبدالسلام، مطبعة السعادة، ١٣٢٥هـ.
٣٨- ابن جبير، محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت/٦١٤هـ): الرحلة "تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار"، دار التراث، ١٣٨٨هـ/١٣٩٩هـ، بيروت.
٣٩- الجزيري، عبدالقادر محمد (ت/٩٧٧هـ): درر الفوائد المنظمة في أخبار الحجاج وطريق مكة المعظمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، دار اليمامة، الرياض.
٤٠- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت/٣٩٢هـ): ديوان العرجي، تحقيق خضر الطائي، ورشيد العبيدي، الشركة الإسلامية للطباعة والنشر، بغداد [د . ت].
٤١- ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت/٥٠٨هـ): صفة الصفوة، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
٤٢- ــــــــــــــ: القرامطة، الطبعة الثانية، ١٣٥٨هـ/١٩٦٨م.
٤٣- ــــــــــــــ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٤٤- حاجي خليفة، مصطفىٰ بن عبدالله القسطنطيني (ت/١٠٦٧هـ): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٤١٠هـ.
٤٥- ابن حبان، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي (ت/٣٥٤هـ): مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
٤٦- ابن حجة الحموي، تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد (ت/٨٣٧هـ): ثمرات الأوراق في المحاضرات، دار إحياء التراث، بيروت، [د . ت].

٤٧- الحربي، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير بن عبدالله (ت/٢٨٥هـ): كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ.
٤٨- الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله (ت/٦٢٦هـ): معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلىٰ معرفة الأديب)، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، دار المأمون.
٤٩- ـــــــــــــ: معجم البلدان، الطبعة الأولىٰ، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
٥٠- الحميري، أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن عبدالمنعم (ت/٩٠٠هـ): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٥م.
٥١- ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (ت/٢٤١هـ): مسند الإمام أحمد بن حنبل، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ، المكتب الإسلامي، إعداد محمد سليم سمارة، بيروت.
٥٢- ـــــــــــــ: العلل ومعرفة الرجال، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ، تحقيق وصي الله عباس، المكتب الإسلامي، بيروت.
٥٣- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبي (ت/٣٦٧هـ): صورة الأرض، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م، ليدن.
٥٤- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبدالله بن أحمد (ت/٢٨٠هـ): المسالك والممالك، طبعة بوسعيد، مكتبة الثقافة.
٥٥- خسرو، ناصر علوي خسرو القبادياني (ت/١٠٠٤هـ): سفر نامه، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، ترجمة يحيىٰ الخشاب، دار الكتاب، بيروت، ١٩٧٠م، وطبعة أخرىٰ، ترجمة خالد البدلي، جامعة الملك سعود، الرياض.
٥٦- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت/٣٦٤هـ): تاريخ بغداد، أو مدينة السلام، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ، تحقيق مصطفىٰ عبدالقدر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.
٥٧- ـــــــــــــ: تقييد العلم، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م، دار إحياء السنة النبوية، تحقيق يوسف العش.
٥٨- ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد (ت/٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون، تحقيق لجنة من العلماء، المكتبة التجارية الكبرىٰ، القاهرة، [د.ت].
٥٩- ـــــــــــــ: ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الثانية، دار الفكر، ١٩٨٨م.
٦٠- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت/٢٨٠هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧م.
٦١- ابن خياط، أبو عمرو خليفة بن خياط بن شباب العصفري (ت/٣٤٠هـ): تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار طيبة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، الرياض.

٦٢- الداودي، محمد بن علي بن أحمد (ت/٩٤٥هـ): طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد عمر، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، مكتبة وهبة، القاهرة.
٦٣- الدينوري، أحمد بن داود (ت/٢٨٢هـ): الأخبار الطوال، تحقيق عبدالمنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٠م، القاهرة.
٦٤- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت/٦٧٣هـ): تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، بيروت، ١٤٠٩هـ.
٦٥- ـــــــــــ: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٦٦- ـــــــــــ: الأمصار ذوات الآثار، الطبعة الأولىٰ، دار البشائر الإسلامية، بيروت، تحقيق قاسم علي سعد.
٦٧- ـــــــــــ: معرفة القراء الكبار علىٰ الطبقات والأعصار، الطبعة الأولىٰ، دار الكتب الحديثة، القاهرة، [د. ت].
٦٨- ـــــــــــ: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، [د. ت].
٦٩- ـــــــــــ: العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد السيد، التراث العربي، الكويت، ١٩٦١م.
٧٠- الرازي، ابن حاتم عبدالرحمن الرازي (ت/٣٢٧هـ): الجرح والتعديل، الطبعة الأولىٰ، دائر المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، [د. ت].
٧١- الرامهرمزي، الحسن بن عبدالرحمن (ت/٣٦٠هـ): المحدث الفاضل بين الراوي والواعي، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد عجاج الخطيب.
٧٢- ابن رستة، أبو علي أحمد بن عمر (ت/٣٠٠هـ): الأعلاق النفسية، طبعة ليدن، ١٨٩١م.
٧٣- الرنجاني، موسىٰ: الجامع في الرجال، طبعة سنة ١٣٩٤هـ، [د. ن].
٧٤- زاده، طاش كبرىٰ زاده (ت/٩٦٨هـ): مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، تحقيق كامل بكري وعبدالوهاب أبو النور، مطبعة الاستقلال الكبرىٰ، القاهرة [د. ت].
٧٥- الزبيدي، أبو عبدالله المصعب بن عبدالله بن المصعب (ت/٢٣٦هـ): نسب قريش، الطبعة الثانية، ١٣٧٣هـ، دار المعارف، تحقيق ليفي بروفنسال.
٧٦- الزجاجي، أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق (ت/٣٣٧هـ): أمالي الزجاجي، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، تحقيق عبدالسلام هارون، دار الجيل، بيروت.
٧٧- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر (ت/٥٣٨هـ): أساس البلاغة، تحقيق عبدالرحيم محمود، دار المعرفة، بيروت، [د. ت].
٧٨- ـــــــــــ: ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد، [د. ت].
٧٩- الزهري، محمد بن أبي بكر (ت/ق٩): كتاب الجغرافية، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، [د. ت].

٨٠- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبدالوهاب علي بن عبدالكافي (ت/٧٧١هـ): طبقات الشافعية الكبرىٰ، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ، تحقيق عبدالفتاح الحلو، مطبعة هجر، القاهرة.
٨١- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبدالرحمن (ت/٩٠٢هـ): الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز رورنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، دار الكتب العلمية، بيروت، [د. ت].
٨٢- ـــــــــــ: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٨٣- ـــــــــــ: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة الحياة، بيروت، [د. ت].
٨٤- ابن سعد، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت/٢٣٠هـ): الطبقات الكبرىٰ، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ/١٩٧٥م.
٨٥- السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين (ت/٢٧٥هـ): شرح أشعار الهذليين، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مطبعة المدني، القاهرة، [د. ت].
٨٦- السلمي، عرام بن الأصبع (ت/٢٧٥هـ): أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرىٰ وما بنيت عليها من الأشجار وما فيها من المياه، طبعة ١٩٧٣م، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون.
٨٧- السمعاني، أبو سعيد عبدالكريم محمد بن منصور التميمي (ت/٥٦٢هـ): الأنساب، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدرآباد، الهند، ١٣٨٢هـ، تحقيق عبدالله عمر البارودي، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٨٨- السمهودي، علي بن عبدالله بن أحمد الحسيني (ت/٩١١هـ): وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، تحقيق محيي الدين عبدالحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، [د. ت].
٨٩- ـــــــــــ: خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفىٰ، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٨هـ، تحقيق محمد الأمين.
٩٠- السنجاري، علي بن تاج الدين بن تقي الدين (ت/١١٢٥هـ): منائح الكرم في أخبار مكة "البيت وولاة الحرم"، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ، تحقيق جميل عبدالله المصري، جامعة أم القرىٰ.
٩١- ابن سيدة، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي (ت/٤٥٨هـ): المخصص، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٨م.
٩٢- السيوطي، عبدالرحمن بن أبي بكر جلال الدين (ت/٩١١هـ): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٤هـ.
٩٣- ـــــــــــ: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، القاهرة، ١٩٥٢م.

٩٤- ـــــــــــــ: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، طبعة ١٢٩٩هـ، دار الوطن.
٩٥- ـــــــــــــ: طبقات الحفاظ، الطبعة الأولىٰ، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة.
٩٦- الشافعي، محمد بن إدريس (ت/٢٠٤هـ): الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، مطبعة مصطفىٰ البابي، القاهرة، ١٣٥٨هـ.
٩٧- ـــــــــــــ: جماع العلم، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
٩٨- ابن شبه، أبو زيد عمر بن شبه بن عبيد (ت/٢٦٢هـ): تاريخ المدينة المنورة، تحقيق فهيم شلتوت، دار الأصفهاني، جدة، ١٣٩٩هـ.
٩٩- الشعراني، عبدالوهاب بن أحمد (ت/٩٧٣هـ):الدرر المنثورة في بيان زبد العلوم المشهورة)، تحقيق عبدالحميد صالح حمدان، [د. ط]، [ت، ن].
١٠٠- ابن شيخ الربوة، محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت/٦٥٤هـ): تحية الدهر في عجائب البر والبحر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
١٠١- الصابي، هلال بن المحسن بن إبراهيم (ت/٤٤٨هـ): تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء، تحقيق خليل منصور، الطبعة الأولىٰ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٠٢- الصباغ، محمد بن أحمد بن سالم بن محمد (ت/١٣٢١هـ): تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، تحقيق عبدالملك بن دهيش.
١٠٣- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب (ت/٣٦٠هـ): المعجم الأوسط، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الفكر، عمَّان، الأردن.
١٠٤- الطبري، علي بن عبدالقادر (ت/١٠٧٠هـ): الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ/١٩٩٦م، تحقيق أحمد الجمال، المكتبة التجارية، مكة المكرمة.
١٠٥- الطبري، محمد بن جرير (ت/٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، طبعة دي خرية، ١٨٨٣م، وطبعة أخرىٰ: الطبعة الأولىٰ، دار ومكتبة الهلالي، مراجعة نواف الجراح.
١٠٦- الطوسي، محمد بن محمود بن أحمد: عجائب المخلوقات، تحقيق منوجهر ستودة، طهران، ١٩٦٦م.
١٠٧- ابن ظهيرة، محمد بن محمد بن أبي بكر (ت/٩٨٦هـ): الجامع اللطيف في فضائل مكة وبناء البيت الشريف، الطبعة الرابعة، ١٩٧٣م، دار الباز، مكة المكرمة.
١٠٨- العباسي، أحمد بن عبدالحميد العباسي (ت/١٣٦٣هـ): عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق محمد الطيب الأنصاري، حمد الجاسر، المكتبة العلمية [د. ت].

١٠٩- ابن عبدربه، أحمد بن محمد بن عبدربه الأندلسي (ت/٢٢٨هـ): العقد الفريد، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، تحقيق محمد سعيد العريان، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٠- ابن عذاري، أبو عبدالله محمد المراكشي (ت/٦٩٥هـ): البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، نشره كولان وليفي، بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، [د. ت].
١١١- العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد الكناني، أبو الفضل شهاب الدين ابن حجر (ت/٧٧٣هـ): الإصابة في تمييز الصحابة، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ، مطبعة السعادة، القاهرة.
١١٢- ــــــــــــ: لسان الميزان، الطبعة الأولى، ١٣٣٠هـ، دائرة المعارف النظامية في الهند، حيدرآباد.
١١٣- العصامي، عبدالملك بن حسين بن عبدالملك المكي (ت/١١١١هـ): سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٨٠هـ.
١١٤- العقيلي، محمد بن عمرو بن موسى (ت/٣٢٢هـ): الضعفاء الكبير، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٨٤م، تحقيق عبدالمعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت.
١١٥- ابن العماد، عبدالحي بن أحمد بن محمد بن العماد العسكري الحنبلي (ت/١٠٨٩هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الفكر، بيروت [د. ت].
١١٦- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد (ت/٨٥٥هـ): عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، مخطوط بدار الكتب المصرية، رقم ١٥٨٤.
١١٧- الفاسي، محمد بن أحمد الحسيني المكي (ت/٨٣٢هـ): تحفة الكرام في أخبار البلد الحرام، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (١٦٤٦) ورقة ١١٨.
١١٨- ــــــــــــ: الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، مكتبة الباز، مكة المكرمة.
١١٩- ــــــــــــ: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري.
١٢٠- ــــــــــــ: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، تحقيق فؤاد سيد.
١٢١- الفاكهي ، محمد بن إسحاق (ت/ ٢٧٢هـ) : أحبار مكة في قديم الدهر وحديثه ، الطبعة الأولى ،١٤٠٧هـ ، مكتبة النهضة الحديثة ، مكة المكرمة، تحقيق عبد الملك بن دهيش ،وأيضاً تحقيق : د . فواز الدهاس ، ١٤٠٤هـ رسالة دكتوراة غير منشورة
١٢٢- ابن فرحون، إبراهيم بن علي بن محمد (ت/٧٩٩هـ): كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الأحمري، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، دار التراث، القاهرة.
١٢٣- ابن الفقيه الهمذاني، أبو بكر أحمد بن إسحاق (ت/٣٤٠هـ): كتاب البلدان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، تحقيق يوسف الهادي، عالم الكتب، بيروت.

١٢٤- ــــــــــــ: مختصر كتاب البلدان، طبعة ليدن، ١٣٠٢هـ.
١٢٥- ابن فهد، عمر الدين عبدالعزيز عمر بن محمد الهاشمي القرشي (ت/٩٢٢هـ): غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، دار المدني، جدة.
١٢٦- ابن فهد، نجم الدين عمر بن أبي الخير محمد (ت/٨٨٥هـ): إتحاف الورىٰ بأخبار أم القرىٰ، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٣هـ/١٤٠٤هـ، تحقيق محمد شلتوت، كلية الشريعة، مكة المكرمة.
١٢٧- الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت/٨١٧هـ): القاموس المحيط، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٢٨- ــــــــــــ: المغانم المطابة في معالم طابة، تحقيق حمد الجاسر، ١٣٨٩هـ، دار اليمامة، الرياض.
١٢٩- القاضي عياض، أبو الفضل موسىٰ بن عياض اليحصبي البستي (ت/٥٤٤هـ): تراجم أغلبية، تحقيق محمد الطالبي، المطبعة التونسية، تونس، ١٩٦٨م.
١٣٠- ــــــــــــ: تركيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، تحقيق أحمد بكير محمود، مكتبة الحياة، بيروت، [د. ت].
١٣١- القالي، إسماعيل القاسم القالي البغدادي (ت/٣٥٦هـ): الأمالي، دار الكتاب العربي، بيروت [د. ت].
١٣٢- ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم بن قتيبة (ت/٢١٣هـ): عيون الأخبار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٨٣هـ.
١٣٣- قدامة بن جعفر بن قدامة (ت/٣٣٧هـ): الخراج وصنعة الكتابة، الطبعة الثانية، ليدن، مطبعة بريل، ١٩٦٦م.
١٣٤- القرطبي، أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري (ت/٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن الكريم، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ، دار إحياء التراث العربي.
١٣٥- القرطبي، عريب بن سعيد (ت/٣٦٩هـ): صلة الطبري، المطبعة الحسينية المصرية، ١٣٢٣هـ.
١٣٦- القزويني، زكريا محمد بن محمود (ت/٦٨٢هـ): آثار البلاد وأخبار العباد، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٠هـ، دار صادر، بيروت.
١٣٧- القطبي، عبدالكريم بن محب الدين (ت/١٠١٤هـ): إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، دار الرفاعي، الرياض.
١٣٨- القفطي، أبو زير جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت/٦٤٦هـ): أنباه الرواة علىٰ أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٠م.
١٣٩- القلقشندي، أحمد بن علي (ت/٨٢١هـ): مآثر الأناقة في معالم الخلافة، تحقيق عبدالسلام أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٦٤م، الكويت.
١٤٠- ــــــــــــ: صبح الأعشىٰ في صناعة الإنشاء، القاهرة، ١٩١٩م.

١٤١- ـــــــــــــ: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ١٣٧٨هـ/١٩٥٩م، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة.
١٤٢- القمي، حسن بن محمد بن حسن (ت/٤٠٦هـ): تاريخ قم، تحقيق جلال الدين تهراني، طهران، ١٩٧١م.
١٤٣- القنوجي، صديق حسن بن لطف الله الحسيني البخاري (ت/١٣٠٧هـ): أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم، تحقيق عبدالجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨م.
١٤٤- ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت/٧٥١هـ): اجتماع الجيوش الإسلامية علىٰ غزو المعطلة والجهمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ، تحقيق عواد عبدالله المعتق، مطابع الفردوس، الرياض.
١٤٥- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت/٧٧٤هـ): البداية والنهاية، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م، المعارف، بيروت.
١٤٦- ـــــــــــــ: مناقب الإمام الشافعي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٢هـ، تحقيق خليل إبراهيم خاطر، مكتبة الإمام الشافعي، الرياض.
١٤٧- الكردي، محمد طاهر (ت/١٤٠٠هـ): التاريخ القويم لمكة وبيت الله الحرام، الطبعة الأولىٰ، ١٣٨٥هـ، مكتبة النهضة الحديثة، تحقيق عبدالملك بن دهيش.
١٤٨- ابن ماجه، أبو عبدالله بن محمد بن يزيد القزويني (ت/٢٧٣هـ): السنن، الطبعة الثالثة، ١٩٨٢م، المطبعة الأهلية، بيروت.
١٤٩- مالك، أبو عبدالله مالك بن أنس بن مالك أبي عامر التميمي الأصبحي الحميري (ت/١٩١هـ): المدونة الكبرىٰ، الطبعة السادسة، ١٣٢٣هـ، مطبعة السعادة، مصر.
١٥٠- ـــــــــــــ: الموطأ، شرح وتعليق أحمد راتب عرموش، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م، دار النفائس، بيروت.
١٥١- الماوردي، علي بن محمد بن حبيب (ت/٤٥٠هـ): الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٩٧٨م، [د. ن].
١٥٢- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، [د. ت].
١٥٣- المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبدالأكبر (ت/٢٨٦هـ): الكامل في اللغة والأدب، مكتبة النصر، الرياض، ١٣٨٦هـ/١٩٦٥م.
١٥٤- ابن المجاور، جمال الدين ابن الفتح يوسف بن يعقوب (ت/٦٠١هـ): تاريخ المستبصر (صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز)، مطبعة بريل، ليدن، ١٩٥١م.
١٥٥- المحبي، محمد أمين فضل الله (ت/١١١١هـ): خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، [د . ت]، بيروت.
١٥٦- المروزي، محمد بن نصر (ت/٢٩٤هـ): اختلاف العلماء، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ، تحقيق السيد صبحي السامرائي، عالم الكتب، بيروت.

١٥٧- المزي، يوسف بن عبدالرحمن بن يوسف (ت/٧٤٢هـ): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ.
١٥٨- المسعودي، علي بن الحسن بن علي بن عبدالله (ت/٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، الطبعة الرابعة، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة.
١٥٩- ـــــــــــ: التنبيه والإشراف، طبعة ليدن، ١٨٩٤م.
١٦٠- المغربي، أبو سعيد علي بن موسىٰ بن محمد (ت/٦٨٥هـ): كتاب الجغرافيا، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧٠م، تحقيق إسماعيل العربي، مطبعة المكتب التجاري، بيروت.
١٦١- المقدسي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء البشاري (ت/٣٣٦هـ): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق محمد مخزوم، ١٤٠٨هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١٦٢- المقريزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر (ت/٨٤٥هـ): اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، تحقيق جمال الدين الشيال، دار الفكر، ١٣٧٨هـ، القاهرة.
١٦٣- ـــــــــــ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة الساحل الجنوبي، دار العرفان، ١٣٥٩م/١٣٧٠هـ، القاهرة.
١٦٤- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري (ت/٧١١هـ): لسان العرب، القاهرة، ١٨٨٢م – ١٨٩١م، تحقيق مجموعة من العلماء.
١٦٥- ـــــــــــ: مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الفكر، دمشق.
١٦٦- ابن النجار، الحافظ محمد بن محمود (ت/٦٤٣هـ): أخبار مدينة الرسول (الدر الثمينة)، تحقيق صالح محمد جمال، مطبعة الرسالة، ١٣٦٦هـ.
١٦٧- النجاشي، أحمد بن علي الأسدي الكوفي (ت/٤٥٠هـ): رجال النجاشي، تحقيق محمد جواد النائيني، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ.
١٦٨- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب (ت/٤٣٨هـ): الفهرست، تحقيق يوسف الطويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٦هـ.
١٦٩- النسائي، أحمد بن علي بن شعيب (ت/٣٠٣هـ): السنن بشرح السيوطي وحاشية السندي، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب.
١٧٠- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت/٩٨٨هـ): الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق هشام عبدالعزيز عطا، المكتبة التجارية، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ.
١٧١- النووي، يحيىٰ بن شرف (ت٦٣١هـ): تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت، [د . ت].
١٧٢- ـــــــــــ: صحيح مسلم بشرح النووي، الطبعة الأولىٰ، ١٣٤٧هـ/١٩٢٩م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٧٣- الهروي، أبو منصور موفق بن علي: الأبنية عن حقائق الأودية أو روضة الأنس ومنفعة النفس، تحقيق: أحمد بهينار، طهران، ١٩٩٢م.
١٧٤- الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود (ت/٣٣٤هـ): صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الأكوع، دار اليمامة، الرياض، ١٣٩٧هـ/١٩٧٤م.
١٧٥- ــــــــــــ: الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، تحقيق حمد الجاسر، ١٩٨٧م، دار اليمامة، الرياض.
١٧٦- ــــــــــــ: الإكليل، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، ١٩٨٧م.
١٧٧- اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر (ت/٢٨٤هـ): البلدان، طبعة دي خوية، ليدن، ١٨٩٢م.
١٧٨- ــــــــــــ: مشاكلة الناس لزمانهم، تحقيق وليم ماورذ، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٢م، بيروت.
١٧٩- ــــــــــــ: تاريخ اليعقوبي، الطبعة الأولى، ١٣٧٩هـ، بيروت، دار صادر.

ثانياً: المراجع العربية:

١- إبراهيم، عيسى علي: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، بمصر، ٢٠٠٣م.
٢- أحمد، أحمد رمضان: الرحلة والرحالة، دار البيان العربي، جدة [د.ت].
٣- أحمد، بدر الدين يوسف محمد: مناخ مكة المكرمة، معهد البحوث، جامعة أم القرى، ١٤١٢هـ.
٤- أحمد، منير الدين: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، ترجمة سامي الصقار، دار المريخ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، الرياض.
٥- أسود، فلاح شاكر: المقدسي، الطبعة الأولى، ١٩٨٨م، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق.
٦- الأعظمي، محمد ضياء الرحمن بن عبدالله: دراسات في الجرح والتعديل، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة.
٧- أفندي، صالح مجدي: ميادين الحصون، دار الطباعة المصرية، القاهرة، ١٢٧٥هـ.
٨- آل الشيخ، نورة بنت عبدالملك بن إبراهيم: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في المدينة المنورة في صدر الإسلام، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ، تهامة، جدة.
٩- الأنصاري، عبدالقدوس قاسم محمد: آثار المدينة المنورة، المطبعة السلفية، المدينة المنورة، ١٣٩٣هـ، الطبعة الثالثة.
١٠- ــــــــــــ: بين التاريخ والآثار، بيروت، ١٣٩٧هـ، مطابع الروضة، جدة.
١١- ــــــــــــ: تاريخ مدينة جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ، دار الأصفهاني.

١٢- أنيس، إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، المكتبة الإسلامية، استانبول [د. ت].
١٣- البابطين، إلهام أحمد: الحياة الاجتماعية بمكة منذ ظهور الإسلام حتىٰ نهاية العصر الأموي، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ، الرياض.
١٤- باسلامة، حسين عبدالله: تاريخ عمارة المسجد الحرام، الطبعة الثانية، دار مصر، مصر، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.
١٥- ـــــــــــــ: تاريخ الكعبة المعظمة "عمارتها وكسوتها وسدانتها"، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، تهامة، جدة.
١٦- باشا، إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين (الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية)، الطبعة الأولىٰ، ١٣٤٤هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة.
١٧- باقاسي، عائشة عبدالله عمر: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، نادي مكة الثقافي.
١٨- بدر، عبدالباسط: التاريخ الشامل للمدينة المنورة، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٤هـ، مكتبة الشريف أحمد الحسيني، المدينة المنورة.

١٩- البركاتي، ناصر عبدالله، وَ محمد نيسان سليمان مناع: دراسة تاريخية لمساجد المشاعر المقدسة، مسجد الخيف، مسجد البيعة بمنىٰ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، دار المدني، جدة.
٢٠- بكر، سيد عبدالمجيد: أشهر المساجد في الإسلام، دار القبلة، ١٤٠٤هـ.
٢١- البلادي، عاتق بن غيث: معجم معالم الحجاز، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ، دار مكة، مكة المكرمة.
٢٢- ـــــــــــــ: معجم قبائل الحجاز، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار مكة، مكة المكرمة.
٢٣- ـــــــــــــ: أودية مكة المكرمة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار مكة، مكة المكرمة.
٢٤- بيضون، إبراهيم: الحجاز والدولة الإسلامية، دار النهضة الحديثة، بيروت، ١٩٩٥م، الطبعة الثانية.
٢٥- تامر، عارف: القرامطة: أصلهم – نشأتهم – تاريخهم – حروبهم – منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د. ت].
٢٦- الجاسر، حمد: بلاد ينبع "لمحات جغرافية"، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٢٧- ـــــــــــــ: أبو علي الهجري وأبحاثه في تحديد المواضع، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦٨م، دار اليمامة، الرياض.
٢٨- أبو جبل، عامر جاد الله: تاريخ التربية والتعليم في صدر الإسلام، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، عمَّان، الأردن.

٢٩- ابن جريس، غيثان بن علي: دراسات في تاريخ الحجاز السياسي والحضاري، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ، نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة.
٣٠- الجعفري، ياسين إبراهيم: اليعقوبي المؤرخ والجغرافي، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٨٠م، دار الرشيد.
٣١- جمال الدين، زكي محمد: مناهج البحث والمصادر، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ [د.ن].
٣٢- الجودي، محمد بن حسين: العمارة العربية الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، دار الميسرة، عمَّان، الأردن.
٣٣- الجوهري، يسري عبدالرزاق: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٤م.
٣٤- الحارثي، ناصر بن عبدالله: المعجم الأثري لمنطقة مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، دار الحارثي.
٣٥- الحداد، محمد حمزة إسماعيل: عمارة المسجد النبوي الشريف في العصرين الأموي والعباسي في ضوء مشاهدات ابن عبد ربه القرطبي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
٣٦- ــــــــــــ: الأسبلة في العمارة الإسلامية بمكة المكرمة والمدينة المنورة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٤م، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة.
٣٧- الحرشي، سليمان مسلم وحسين إسماعيل الجمل: معجم مصطلحات الحديث، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.
٣٨- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الطبعة السابعة، ١٩٦٥م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٣٩- ــــــــــــ: تاريخ الدولة الفاطمية، الطبعة الرابعة، ١٤٠١هـ، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٤٠- ــــــــــــ: النظم الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٩٦٢م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
٤١- حسن، زكي محمد: الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٥م.
٤٢- حسن، محمود عبدالغني: علم التاريخ عند العرب، القاهرة، ١٩٦١م.
٤٣- حسنين، محمد ربيع: النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤م.
٤٤- الحمد، محمد بن إبراهيم: عقيدة أهل السنة والجماعة، مفهومها، خصائصها، خصائص أهلها، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ، دار الوطن، الرياض.
٤٥- الحمدان، فاطمة عبدالعزيز سليمان: مدينة جدة الموقع البيئة العمران السكان، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ، دار المجتمع، جدة.
٤٦- حميدة، عبدالرحمن: أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم، دار الفكر، ١٣٨٩هـ، بيروت.

٤٧- الخربـوطلي، علــي: المسـعودي، الطبعــة الثانيــة، ١٩٨٠م، دار المعــارف، ١٩٨٠م.
٤٨- خصباك، شـاكر: كتابـات مضـيئة فـي التـراث الجغرافـي العربـي، مطبعـة دار السلام، ١٩٧٩م، بغداد.
٤٩- الخطيب، عبدالكريم محمود: تاريخ ينبع، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٥هـ، الرياض.
٥٠- خفـاجي، محمـد عبـدالمنعم: تـاريخ الأدب فـي العصـر العباسـي الأول، الطبعـة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
٥١- خـوري، إبـراهيم: نوابـغ الجغرافيـة العربيـة فـي القـرون الوسـطىٰ (المقدسـي البشاري، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، دار الشروق، بيروت [د.ت].
٥٢- الخياري، ياسين أحمد: صور من الحيـاة الاجتماعيـة بالمدينـة المنورة منذ بدايـة القرن الرابع الهجري وحتىٰ العقد الثامن، الطبعـة الثانيـة، ١٤١٥هـ، دار العلم، جدة.
٥٣- الدفاع، علي بن عبدالله: رواد علم الجغرافيـا فـي الحضـارة العربيـة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٩هـ، النادي الأدبي بجازان.
٥٤- الـدهاس، فـواز بـن علـي بـن جنيـدب: المسـجد الحـرام المكـان والمكانـة، الطبعـة الأولىٰ، ٢٠٠٦م، دار القاهر.
٥٥- بن دهيش، عبداللطيف بن عبدالله: الكتاتيب في الحرمين الشريفين ومـا حولهمـا، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٦هـ، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة.
٥٦- بن دهيش، عبدالملك بن عبدالله: الحـرم المكـي الشـريف والأعـلام المحيطـة بـه، مكتبة النهضة الحديثة، مكة المكرمة، ١٤١٥هـ.
٥٧- رحمة الله، مليحة: الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة، بغداد، ١٩٧٠م.
٥٨- الرويثـي، محمـد أحمـد: سـكان المملكـة العربيـة السـعودية "دراسـة جغرافيـة وديموغرافية"، الطبعة الأولىٰ ١٩٧٨م، القاهرة.
٥٩- الزركلـي، خيـر الـدين محمـود بـن محمـد: الأعـلام، الطبعـة السـابعة، دار العلـم، ١٩٨٦م، بيروت.
٦٠- زكـي، عبـدالرحمن: قلعـة صـلاح الـدين وقـلاع إسـلامية معاصـرة، مكتبـة نهضـة مصر، القاهرة، ١٩٦٠م.
٦١- الزهراني، ضيف الله بن يحيىٰ: أسعار المواد الغذائية بمكة المكرمة خلال الفترة (٦٤٨ – ٩٢٣هـ)، مركز البحوث، جامعة أم القرىٰ، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
٦٢- ــــــــــــــ: الـوزير العباسـي علـي بـن عيسـىٰ، الطبعـة الأولـىٰ، ١٤١٤هـ، جامعة أم القرىٰ.
٦٣- الزيلعـي، أحمـد بـن عمـر: مكـة وعلاقاتهـا الخارجيـة (٣٠١ – ٤٨٧هـ)، عمـادة شؤون المكتبات، جامعة الرياض، ١٩٨١م، الرياض.
٦٤- سالم، سيد عبدالعزيز: تاريخ العرب قبل الإسلام، مكتبة الإسكندرية [د.ت].
٦٥- ــــــــــــــ: التاريخ والمؤرخون العرب، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧م.

٦٦- السباعي، أحمد: تاريخ مكة "دراسات في السياسة والعلم والاجتماع والعمران"، الطبعة السابعة، ١٤١٤هـ، نادي مكة الثقافي، مكة المكرمة.
٦٧- سرور، محمد جمال الدين: الدولة الفاطمية في مصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٩م.
٦٨- ــــــــــــ:النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٥٩م، دار الفكر العربي.
٦٩- ــــــــــــ: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة، ١٣٩٦هـ، دار الفكر العربي.
٧٠- أبو سعد، أحمد: أدب الرحلات وتطوره في الأدب العربي، الطبعة الأولىٰ، ١٩٦١م، دار الشرق، بيروت.
٧١- السعدي، عباس فاضل: دراسات في تراث العرب الفكري، الطبعة الأولىٰ، ٢٠٠١م، مؤسسة الوراق.
٧٢- أبو سعيد، أحمد: أدب الرحلات وتصوره في الأدب العربي "رحلة المقدس"، منشورات الشرق الجديدة، بيروت.
٧٣- أبو سعيد، حامد غنيم: العلاقات العربية السياسية في عصر البويهيين، الطبعة الأولىٰ، ١٩٧١م، القاهرة.
٧٤- السليمان، علي بن حسين: النشاط التجاري في شهب الجزيرة العربي أواخر العصور الوسطىٰ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
٧٥- السنيدي، عبدالعزيز بن راشد: مكة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري كما وصفها المقدسي في كتابه أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة سفير، الرياض، ١٤٢٧هـ.
٧٦- ــــــــــــ: الحياة العلمية في مكة خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٤هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
٧٧- السويكت، سليمان بن عبدالله: منهج المسعودي في كتابة التاريخ، الطبعة الأولىٰ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٥هـ.
٧٨- السيف، عبدالله بن محمد: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٧٩- شافعي، فريد محمود: العمارة العربية الإسلامية، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٢هـ.
٨٠- شافعي، حسين عبدالعزيز حسين: الأربطة في مكة المكرمة منذ البدايات حتىٰ نهاية العصر المملوكي، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، جدة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
٨١- الشامي، أحمد بن محمد: جناية الأكوع علىٰ ذخائر الهمداني، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٠هـ، دار النفائس، بيروت.
٨٢- الشاهري، الحسن: أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٩٠م.

٨٣- الشريف، أحمد إبراهيم: دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجري، الطبعة الأولىٰ، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م.
٨٤- ــــــــــــ: مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٥م.
٨٥- الشريف، إبراهيم بن منصور الهاشمي الأمير: تحقيق منية الطالب في معرفة الأشراف الهواشم الأمراء، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ، مؤسسة الريان، بيروت.
٨٦- صقر، نادية حسني: الطائف في العصر الجاهلي وصدر الإسلام، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، دار الشروق، جدة.
٨٧- الطرابلسي، محمد بن يوسف بن محمد بن حسن: جدة، حكاية مدينة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ، المؤلف، جدة.
٨٨- عادل، عوض: الكوارث في العالم العربي، أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.
٨٩- العاملي، محسن الأمين الحسيني: أعيان الشيعة، دار ابن زيدون، دمشق، ١٩٣٨م.
٩٠- العبادي، أحمد مختار: التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة الحديثة العربية، بيروت، ١٩٧٢م.
٩١- ــــــــــــ: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، دار النهضة الحديثة العربية، بيروت، ١٩٨١م.
٩٢- عبدالجبار، عمر: دروس في ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، الطبعة الأولىٰ، ١٣٧٩هـ، دار نفيس، مصر.
٩٣- عبدالمطلب،رفعت فوزي: توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، الطبعة الأولىٰ، مكتبة الخانجي، ١٤٠٠هـ، مصر.
٩٤- العبيدي، عبدالجبار منسي: الطائف ودور ثقيف من العصر الجاهلي الأخير حتىٰ قيام الدولة الأموية، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، دار الرفاعي، الرياض.
٩٥- العبيكان، طرفة بن عبدالعزيز: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة في القرنين السابع والثامن للهجرة، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٩٩٦م.
٩٦- العقيلي، محمد أحمد: تاريخ المخلاف السليماني، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، مراجعة حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض.
٩٧- أبو العلاء، محمود: شبه الجزيرة، الطبعة الأولىٰ، مطبعة البيان، القاهرة.
٩٨- علي، أحمد رجب محمد: المسجد النبوي، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٠هـ، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة.
٩٩- علي، إسماعيل أمير: القرامطة والحركة القرمطية في التاريخ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠٣هـ، دار المكتبة الهلالي، بيروت.
١٠٠- علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب القديم قبل الإسلام، الطبعة الأولىٰ، دار العلم، بيروت، ١٩٧٠م.

١٠١- علي، سعيد إسماعيل: معاهد التربية الإسلامية، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.
١٠٢- العوفي، محمد سالم شديد: تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز، الإدارة العامة للثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
١٠٣- غريب، جورج: أدب الرحلة، تاريخه وأعلامه، الطبعة الأولىٰ، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.
١٠٤- فهمي، سامح عبدالرحمن: المكاييل في صدر الإسلام، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.
١٠٥- فهيم، حسين محمد: أدب الرحلات "دراسة تحليلية من منظور أنثوجرافي"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، شوال ١٤٠٩هـ، الكويت.
١٠٦- الفوزان، إبراهيم فوزان، إقليم الحجاز وعوامل نهضته الحديثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، الرياض.
١٠٧- الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، دار الكتب العلمية، ١٣٠٥هـ، بيروت.
١٠٨- قرقوتي، حنان: تخطيط المدن: العمارة والزخرفة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، مؤسسة المسجد، بيروت.
١٠٩- قطب، سيد: في ظلال القرآن، الطبعة التاسعة، ١٤٠٠هـ، دار الشروق.
١١٠- قنديل، فؤاد: أدب الرحلة في التراث العربي الجغرافي، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢م، الدار العربية للكتاب.
١١١- القوصي، عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، القاهرة، ١٩٧٦م.
١١٢- كاشف، سيدة إسماعيل: مصادر التاريخ الإسلامي ومناهج البحث فيه، الطبعة الرابعة، ١٤٢١هـ، مكتبة الخانجي، القاهرة.
١١٣- كحالة، عمر رضا: التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية، المطبعة التعاونية، دمشق، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.
١١٤- ـــــــــــ: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، دمشق، ١٣٦٨هـ.
١١٥- ـــــــــــ: معجم المؤلفين في تراجم مصنفي الكتب العربية، مكتبة المثنىٰ، ١٣٧٦هـ، بيروت.
١١٦- ـــــــــــ: جغرافية جزيرة العرب، دمشق، ١٩٤٤م.
١١٧- كعكي، عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن إبراهيم: معالم المدينة المنورة بين العمارة والتاريخ، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٩هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
١١٨- مالكي، سليمان عبدالغني: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتىٰ سقوط الخلافة العباسية في بغدد (من منتصف القرن الرابع الهجري حتىٰ منتصف القرن السابع الهجري)، الرياض، ١٤٠٣هـ.

١١٩- مـالله ،علـي محسـن عيسـىٰ: أدب الـرحلات عنـد العـرب فـي المشـرق، نشـأنه وتطوره حتىٰ نهاية القرن الثامن الهجري، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٧٨م.
١٢٠- محمـد، سـعاد مـاهر: العمـارة الإسـلامية علـىٰ مـرَّ العصـور، الطبعـة الأولـىٰ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، دار البيان العربي، جدة.
١٢١- محمـد، صـباح محمـود: دراسـات فـي التـراث الجغرافـي، المركـز العربـي، ١٩٨١م.
١٢٢- مخلص، عدي يوسف: المقدسـي البشـاري، حياتـه ومنهجـه، الطبعـة الأولـىٰ، ١٣٩٣هـ، مطبعة النعمان، النجف الأشرف، العراق.
١٢٣- مصطفىٰ،صالح لمعي: المدينـة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، دار النهضة الحديثة، بيروت، ١٩٨١م.
١٢٤- مـؤنس، حسـين: تـاريخ الجغرافيـة والجغـرافيين فـي الأنـدلس، مطبعـة معهـد الدراسات الإسلامية، مدريد، أسبانيا.
١٢٥- ــــــــــــ: فجر الأندلس، الدار السعودية، ١٤٠٥هـ، جدة.
١٢٦- مهران، محمد بيومي: تاريخ العرب القديم، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٤هـ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
١٢٧- نفيس، أحمد: جهود المسلمين بالجغرافية، القاهرة [د. ت]، دار القلم، القاهرة.
١٢٨- نقولا، زيادة: الجغرافية والرحلات عند العرب، دار الكتـاب اللبنـاني، بيروت، ١٩٦٢م.
١٢٩- نواب، عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
١٣٠- همـام، عبـدالرحمن سـعيد: الفكـر المنهجـي عنـد المحـدثين، الطبعـة الأولـىٰ، ١٤٠٨هـ، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الريفية، كتاب الأمة (١٦)، قطر.
١٣١- الهيتي، صبري فارس: الفكر الجغرافي نشأته ومناهجه، الطبعة الأولىٰ، دار صفاء، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، عمان.
١٣٢- الوكيـل، محمـد السـيد: المسـجد النبـوي عبـر التـاريخ، الطبعـة الأولـىٰ، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، دار المجتمع، جدة.

ثالثاً: المراجع المعربة:

١- بروكلمان، كارل: تاريخ الأدب العربي، ترجمة محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.
٢- بوركهارت، جون لويس: رحلات في شبه جزيرة العرب، الطبعة الأولىٰ، ١٤١٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت، ترجمة عبدالعزيز الهلالي، عبدالرحمن عبدالله الشيخ.

٣- رونثال ، فرانز: علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٤- زامباور، ادوارد فون: معجم الأنساب والأشراف الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: زكي حسين بك وآخرون، دار الرائد العربي [د.ت].
٥- س. م. ضياء الدين علوي: الجغرافيا العربية في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين، تحقيق وتعريب عبدالله يوسف الغنيم وطه محمد جاد، الجمعية الجغرافية الكويتية ١٤٠١هـ، الكويت.
٦- كراتشكوفسكي، أغناطيوس يُوليا نوقنش: تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تحقيق صلاح الدين عثمان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م.
٧- متنر، آدم: الحضارة الإسلامية، مكتبة الخانجي، دار الكتاب العربي، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ترجمة أبو ريدة محمد عبدالهادي.
٨- ميكيل ، اندريه: جغرافية دار الإسلام البشرية حتىٰ منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، وزرة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣م، ترجمة إبراهيم خوري.

رابعاً : الدوريات:

١- الأنصاري، عبدالقدوس قاسم محمد: رحلة الجار، مجلة المنهل، ج٥، السنة ٣٧، المجلد ٣٢، السنة ١٣٩١هـ.
٢- تقرير اللجنة الأثرية لمعاينة آثار ينبع والتي شكلت بتاريخ ١٤٠٢/٢/٢٧هـ، إصدار الجمعية الجغرافية بالمنطقة.
٣- حجاج، عبدالفتاح أحمد: التعليم الإسلامي "دراسة تاريخية تحليلية"، مجلة كلية التربية بمكة، جامعة الملك عبدالعزيز، العدد (٥)، رجب ١٤٠٠هـ.
٤- حسنين، محمد ربيع: بحر الحجاز في العصور الوسطىٰ، العدد الأول، السنة ١٣٩٧هـ، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الملك سعود، الرياض.
٥- حوالة، يوسف بن أحمد: ابن حوقل ورحلاته الجغرافية للجناح الغربي من الدولة الإسلامية، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، ١٤١٢هـ.
٦- الخلف، جاسم محمد: محاضرات في جغرافية العراق الطبيعية والاقتصادية والبشرية، مطبوعات معهد الدراسات العربية لجامعة الدول العربية.
٧- الدهاس، فواز بن علي بن جنيدب: الدور القيادي لمكة خلال العصر الأموي، مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، المجلد (١٩)، العدد (٤١)، جمادىٰ الثانية ١٤٢٨هـ.
٨- الراشد، سعد: برك المياه علىٰ طريق الحج من العراق إلىٰ مكة، مجلة الأطلال، العدد الثالث، وزارة المعارف سابقاً، وزارة التربية والتعليم، عام ١٣٩٩هـ.
٩- الزهراني، ضيف الله بن يحيىٰ: الجار ميناء ومدينة، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٤هـ (٦ – ٨)، نوفمبر ١٩٩٣م "الحضارة الإسلامية وعالم البحار".

١٠- أبو زيد، سهام مصطفىٰ: الرحلة في طلب العلم إلىٰ مكة من خلال رحلة ابن حوقل، مطبوعات مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، جامعة أم القرىٰ، المحور التاسع، الجزء الأول.
١١- الزيلعي، أحمد بن عمر: ميناء السرين، اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، جمادىٰ الأولىٰ ١٤١٤هـ (٨/٦)، نوفمبر ١٩٩٣هـ "الحضارة الإسلامية وعالم البحار".
١٢- سلطان، علية عبدالله: العلوم عند العرب، مجلة المنهل، العدد (٥٠٠)، المجلد ٥٤، جمادىٰ الأولىٰ وجمادىٰ الآخرة، ١٤١٣هـ، نوفمبر وديسمبر ١٩٩٢م.
١٣- سوسة، أحمد: العراق في الخوارط القديمة، المكتبة الجغرافية، مقال في مجلة الجمعية الجغرافية العراقية، المجلد الأول، ١٩٦٢م.
١٤- الشامي، عبدالعال عبدالمنعم: جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط الجغرافية، المؤتمر الجغرافي الأول، إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود، مج٣، ١٤٠٤هـ.
١٥- الشمراني، صالح: المساحات الخضراء بمدينة مكة المكرمة، رسائل جغرافية، العدد (١١٩)، قسم الجغرافية بجامعة الكويت، ربيع الأول ١٤٠٩هـ/ نوفمبر ١٩٨٨م.
١٦- الصياد، محمد محمود: المسالك والممالك للاصطخري، مجلة تراث الإنسانية، المجلد الأول.
١٧- الطاهر، عبدالباري: الحج في الشرائع الإلهية وأثره في ريادة مكة المكرمة تاريخياً، مطبوعات مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، المحور الرابع.
١٨- عبدالحميد، سعد زغلول: ابن خلود مؤرخاً "تاريخ العرب والبربر في كتاب العبر"، مقال بمجلة عالم الفكر، الكويت، المجلد الرابع عشر، العدد الثاني، ١٩٨٣م.
١٩- عبدالفتاح فتحي عبدالفتاح: المقدسي مؤرخاً لبلدان العرب من خلال كتابه أحسن التقاسيم، مجلة المؤرخ العربي، العدد ١٧، المجلد الأول، مارس ١٩٩٩م، القاهرة.
٢٠- العجيمي، هشام محمد: التحصينات الحربية لمكة المكرمة خلال العصر المملوكي ،مجلة كلية الآثار ،جامعة القاهرة العدد(٦)،١٩٩٢م/١٤١٢هـ.
٢١- علي، جواد: موارد المسعودي، مجلة سومر، المجلد العشرون، العدد الأول والثاني، بغداد، ١٩٦٤م.
٢٢- العلي، صالح: إدارة الحجاز في العصور الإسلامية الأولىٰ، مجلة الأبحاث، مجلد (٢١)، ج(٢-٣-٤) سنة ١٩٦٨م.
٢٣- فوزان، هشام: السيول في مكة بين عامي ٩٣٢ – ١٠٩٩هـ، الجمعية التاريخية السعودية، العدد الحادي والعشرون، ١٤٢٨هـ.
٢٤- القاري، ابن مجاهد عبدالعزيز عبدالفتاح: من معالم المدينة النبوية "الخندق"، جريدة المدينة المنورة – العدد ٨٧٤٢، الاثنين الثامن من شوال لعام ١٤١١هـ.

٢٥- الكلاس، فايزة محمد: قرامطة البحرين من قطع طريق الحج إلىٰ اقتلاع الحجر الأسود، مطبوعات مكة المكرمة عاصمة الثقافة ١٤٢٦هـ، جامعة أم القرىٰ، المحور السادس.
٢٦- محمد، سعاد ماهر: الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد الثالث، ربيع الأول ١٤٠٢هـ.
٢٧- محمد السيد غالب: الجغرافيون المسلمون ودروهم في تطور الفكر الجغرافي، المؤتمر الجغرافي الأول، ١٤٠٤هـ، إدارة الثقافة بجامعة الإمام محمد بن سعود، مج ٣.
٢٨- مؤنس، حسين: عالم الجزيرة (الحسن بن أحمد الهمداني)، مجلة العرب، السنة (١٤)، ١٩٧٩م.
٢٩- منصور، علي: قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي: اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، ١٤١٧هـ "إقليم الخليج علىٰمر عصور التاريخ".
٣٠- يوسف، محمد: علاقات العرب التجارية بالهند منذ أقدم العصور إلىٰ القرن الرابع الهجري، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مج (١٥)، ١٩٠٣م.

خامساً: الرسائل الجامعية:

١- آل سنة، خيرية محمد: الحياة العلمية في مكة المكرمة خلال القرن الرابع والخامس الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة الملك سعود، قسم التاريخ، ١٤٢١هـ.
٢- آل سويلم، ابتسام عبدالمحسن: الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتىٰ منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، قسم التاريخ، ١٤٠٤هـ.
٣- إلهام، سراج عمر أكبر: بلاد ينبع، رسالة ماجستير، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة ، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٩هـ.
٤- باقاسي، عائشة عبدالله عمر: مكة والمدينة من منتصف القرن الرابع حتىٰ منتصف القرن السادس الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرىٰ، قسم الدراسات التاريخية، كلية الشريعة، ١٤١٠هـ.
٥- جلال، آمنة محمد علي: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٧هـ، مطبوعات مكة عاصمة الثقافة، ١٤٢٦هـ، مطابع جامعة الملك عبدالعزيز، الطبعة الأولىٰ.
٦- سجيني، فائزة: غزوة بني هلال وسليم للمغرب، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠١هـ.
٧- السليمان، علي بن حسين: علاقة مصر بالحجاز زمن السلاطين المماليك، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٣٩٠هـ.
٨- الشجاع، عبدالرحمن: الحياة العلمية في اليمن في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٤٠٦هـ.

٩- الصاعدي، حمود بن سالم: المصادر العلمية للنقود الإسلامية، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، قسم الدراسات التاريخية والحضارية، ١٤٢٧هـ.
١٠- الصباغ، نجلة قاسم: بلاد الحجاز خلال العصر العباسي الأول، رسالة ماجستير، جامعة القاهرةن ١٩٦٩م.
١١- العميري، فهد علي ختيم: الأنماط المكانية لتوزيع السكان "دراسة تطبيقية علىٰ مدينة مكة"، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الجغرافيا، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤٢٥هـ.
١٢- غباشي، عادل محمد: المنشآت المائية لخدمة مكة المكرمة والمشاعر المقدسة في العصر العثماني، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٠هـ.
١٣- فائقة إدريس عبدالله: التفسير في القرن الأول الهجري، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٤هـ.
١٤- القحطاني، سعيد بن عبدالله بن بنية: تجارة الجزيرة العربية خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، ١٤١٦هـ.
١٥- كمال، سليمان صالح: إمارة الحج في العصر العباسي (١٣٢ – ٢٤٧هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٨هـ.
١٦- مالكي، سليمان عبدالغني: مرافق الحج والخدمات في الأراضي الإسلامية المقدسة منذ السنة الثامنة للهجرة حتىٰ سقوط الخلافة العباسية، رسالة ماجستير، جامعة القاهرة ١٣٩٨هـ، دارة الملك عبدالعزيز (٣٨)، الرياض ١٤٠٨هـ.
١٧- المصنف، عبدالرحمن أحمد حفظ الدين: الحياة العلمية في الحجاز في القرنين الثالث والرابع الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة صنعاء، كلية الآداب، ١٤٢٤هـ.
١٨- نجيم، رقية حسين سعد: البيئة الطبيعية لمكة المكرمة، رسالة ماجستير، قسم الجغرافيا، جامعة أم القرىٰ، ١٤١٢هـ.
١٩- نواب، عواطف محمد يوسف: كتب الرحلات في المغرب الأقصىٰ مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرىٰ، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
٢٠- الهمزاني، بندر محمد رشيد: علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرىٰ، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

فهــرس الموضوعات

الموضوع رقم الصفحة